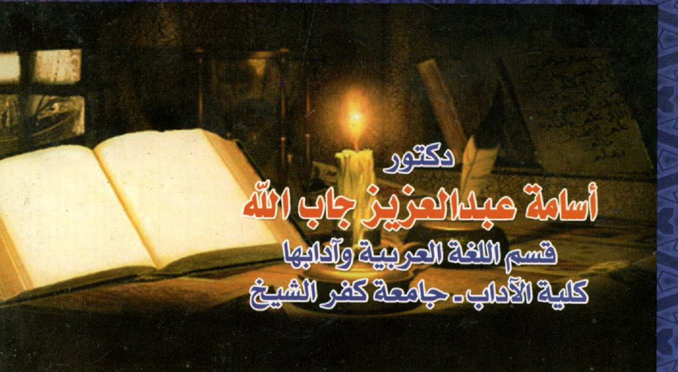
دراسات جمالية فى النص القرآنى

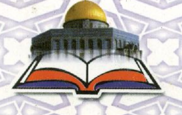
١

جماليات التلوين الصوتى في القرآن الكريم





دكتور
أسامة عبدالعزيز جاب الله
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب - جامعة كفر الشيخ



دار ومكتبة الإسراء
للطبع والنشر والتوزيع

دراسات جمالية في النص القرآني (١)

جمالِيّات التلوِين الصَّوْتِيّ في القرآن الكريم

دكتور

أسامة عبد العزيز جاب الله

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب — جامعة كفر الشيخ

دار ومكتبة الإسراء

للطبع والنشر والتوزيع

جاب الله ، أسامه عبد العزيز
جمليات التلوين الصوتي في القرآن الكريم / أسامه عبد العزيز جاب الله ـ طنطا : دار مكتبة الأسراء للطبع والنشر والتوزيع ، ط ٢ ٢٠٠٩
٤٦٤ ص ، ٢٤ سم (دراسات جمالية في النص القرآني ، ١)
١ ـ القرآن
أ ـ العنوان
ب ـ السلسلة ٢٢٥,٣

السلسلـــة: دراسات جمالية في النص القرآني

الكتــاب: جماليات التلوين الصوتي في القرآن الكريم.

المؤلــف: د. أسامة عبد العزيز جاب الله

سنة الطبع: 2009

رقم الإيداع: 2008 / 2830

الناشــر:

دار ومكتبة الإسراء

لطباعة ونشر وتوزيع الكتب العلمية والجامعية

العنوان: طنطا ـ ٦٢ ش الويشي خلف صيدناوي

تليفون: 0020403345968 / 0020121246345

فاكس: 0020403349047

E mail: Darelesraa_Pupl@Yahoo.com

إهــــداء

إلَى :

مَنْ لَهُم أيَادٍ لا تُطَاولها فَضيلَةُ الشُّكر

أبي في دار البقاء ، كلّ الدعاء لك بالرحمة والمغفرة وحُسْن الجزاء .

وأمّي – متّعك الله بالعافية –

إلَى :

تَوائم روْحي .. الأخوة الأبناء (عماد ، أحمد ، هبة ، إبراهيم ، بسمة)

فانتم شُركاء الرحْلة .

إلَى :

نَسْمة الروح في قيْظ الحياة .... زوجتي

ثمّ إلى :

لمحة النور في الدَّرْب

ونفْحة الحنان في الطريق ..... ابنتي .... (نَدَى) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، المتنزّه عن الكلّ بلا كيف ولا أين ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

والصلاةُ أتمها ، والسلامُ أزكاه على سيد الخلق ، ورسول الحق ، سيدنا محمد صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه وسلّم .

وبعد

فإن من المسلم به أن نزول القرآن الكريم على قلب النبي - صلى الله عليه وسلم - أحدث ثورةً لغويةً أذهلت العرب عما بأيديهم من فنون القول ، ونبهتهم إلى فرادة هذا النص القرآني ، وجمالية الأداء الكامنة وراء تلك التراكيب والأصوات المُكَوِّنَة لها . ولذا كان عناد أهل الكفر واضحًا جليًا وسريعًا في الوقت ذاته ، فعمدوا إلى وصف الرسول تارة بالشعر ، وأخرى بالسحر والكهانة ، وكان المبتغى من وراء ذلك أن ينجحوا في صدّ الناس عن تأمّل هذا النص ، لكنهم عجزوا عن ذلك . والحق أن شمولية أوجه الإعجاز القرآني ومظاهره هي التي خلقت هذه الردة الإيمانية عند العرب ؛ إذ مَلَكَ النص القرآني ناصية لغتهم على نحو فريد لم يعتادوه من قبل .

وقد اتخذت المباحثُ الصوتيةُ عند العرب القرآنَ الكريمَ أساساً لتطلعاتها ، وآياته مضماراً لاستلهام نتائجها ، وهي حينما تمازج بين الأصوات واللغة ، وتقارب بين اللغة والفكر ، فإنما تتجه بطبيعتها لرصد تلك الأبعاد مسخرة لخدمة القرآن الكريم ، لأنّه كتاب هداية وتشريع لا شك في هذا ، ولكنه من جانب لغوي كتابُ العربية الخالدُ ، يحرس لسانها ، ويقوّم أوَدَ بيانها ، فهي محفوظة به ، وهو محفوظ بالله تعالى ﴿ إنَّا نحنُ نزّلنا الذّكرَ وإنَّا لهُ لحافظُون﴾ سورة الحجر آية رقم (٩) .

ولهذا بقيت العربية في ذروة عطائها الذي لا ينضب ، وظلت إضاءتها في قمة ألقها الذي لا يخبو ، فكم من لغة قد تدهورت وتعرضت لعوامل الانحطاط ، وانحسرت أصالتها برطانة الدخيل المتحكم من اللغات الأخرى ، فذابت وخمد شعاعها الهادي ؛ إلا العربية فلها مَددٌ من القرآن ، ورافد من بحره المتدفق بالحياة ، تحسه وكانك تلمسه ، وتعقله وكانك تبصره ، فهو حقيقة لا تجحد . فقد أمسك القرآن باللسان العربي عن الانزلاق ، حتى عاد هذا اللسان متمرساً على الإبداع .

ورصد أي ظاهرة لغوية يعني العناية باللغة ذاتها ، ويتوجه إلى ترصين دعائمها من الأصل ، لأن الأصوات بانضمام بعضها إلى بعض تشكّل مفردات تلك اللغة ، والمفردات وحدها تمثّل معجمها ، وبتاليفها تمثّل الكلام في تلك اللغة . والقدرة على تناسق هذا الكلام وتالفه من مهمة الأصوات في تناسقها وتالفها ، وتنافر الكلمات وتهافتها قد يعود إلى الأصوات في قرب مخارجها أو تباعدها ، أو في طبيعة تركيبها وتماسها ، أو من تداخل مقاطعها وتضامها ، ذلك لأن اللغة أصوات ، ومصدر الصوت الإنساني في معظم الأحيان هو الحنجرة ، أو بعبارة أدق : الوتران الصوتيان فيها ، فاهتزازات هذين الوترين هي التي تنطلق إلى الفم أو الأنف ثم تنتقل خلال الهواء الخارجي محدثة ما نسمعه من أصوات. ولغتنا العربية كبقية لغات العالم : عبارة عن أصوات متالفة تنطلق من الوترين الصوتيين لتاخذ طريقها إلى الخارج . بَيْدَ أنّ العربية سميت باسم صوت متميز بين الأصوات فعاد مَعْلَماً لها ، ومؤشراً عليها ، فقيل : لغة الضاد .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن البداية في اعتماد الصوت اللغوي ضمن الدراسات العربية قد جاء ضمن مجموعتين دراسيتين هما : الدراسات القرآنية والدراسات البلاغية ، ولا بد من الإشارة قبل ذلك إلى تناول بعض الفلاسفة لمجمل حياة الأصوات تمهيداً للخوض في سياق

توظيفها في القرآن . فهذا ابن سينا يضع رسالة متخصصة في الأصوات أسماها (أسباب حدوث الحرف) . وقد ذكر فيها الإشارات الصوتية وتمييزها في الأسماع ، وتحدث عن مخارج الأصوات وغضاريف الحنجرة ، وعرض للفم واللسان تشريحياً وطبياً وتركيبياً ، وعني عناية خاصة بترتيب مخارج الصوت العربي مقارناً باللغات الأخرى بحسب تركيب أجهزة الصوت الإنساني ، وحكم جهازه السمعي في معرفة الأصوات وأثر تذبذبها . كما بحث مميزات الحرف العربي صوتياً .

أما الدراسات القرآنية فقد انطلقت إلى دراسة الأصوات ضمن موضوعاتها الدقيقة المتخصصة . وكانت على نوعين : كتب إعجاز القرآن ، وكتب القراءات . أما كتب إعجاز القرآن فقد كان المجلّي فيها بالنسبة للصوت اللغوي الرماني فهو أبرز الدارسين لمسألة إعجاز القرآن صوتياً ، وأقدمهم سبقاً إلى الموضوع ، وأولهم تمرساً فيه ، إلا أنه بالضرورة قد مزج بين دراسة الأصوات وعلم المعاني مطبقاً تجاربه في باب التلاؤم تارة ، ومتخصصاً لدراسة فواصل الآيات بلاغياً .

أما كتب القراءات فقد انتهى كثير منها بإعطاء مصطلحات صوتية اقترنت بالنحو تارة وباللغة تارة أخرى ، وكان ذلك في بحوث صوتية متميزة برز منها : الإدغام ، والإبدال ، والإعلال ، والإخفاء ، والإظهار ، والإشمام ، والإمالة ، والإشباع ، والمدّ ، والتفخيم ، والترقيق ، مما اصطنعه علماء الأداء الصوتي للقرآن .

وبعيداً عن هذا وذاك فان الطبيعة التركيبية في اللغة العربية قد تمرست في تعادل الأصوات وتوازنها ، مما جعل لغة القرآن في الذروة من طلاوة الكلمة ، والرقة في تجانس الأصوات ، لذلك فقد استبعد العرب جملة من الألفاظ لا تنسجم صوتياً في تداخل حروفها ، وتنافر مخارجها ، سواء أكانت قريبة أم بعيدة . وفي هذا دلالة على امتياز اللغة العربية

في مجموع أصوات حروفها بسعة مدرجها الصوتي سعة تقابل أصوات الطبيعة في تنوعها وسعتها ، وتمتاز من جهة أخرى بتوزعها في هذا المدرج توزعاً عادلاً يؤدي إلى التوازن والانسجام بين الأصوات .

وانطلاقا من غلبة الظاهرة الشفهية التي صبغت تلك الفترة القديمة من حياة العرب في إنتاجهم الأدبي ، جاء القرآن الكريم بتدفق صوتي ، وسيولة موسيقية هي ما ميزت طريقة الأداء القرآني . وهذا التدفق الصوتي نابع أصلاً من خصائص لغتنا العربية ، وقد فطن القدماء إلى هذه الخصائص فوظفوا في أشعارهم ونثرهم ما استطاعوا منها ،كما نلمح في الأسجاع المميزة للخطب النثرية ، وفي المقاطع والقوافي الشعرية . ولذا برزت الدراسات الصوتية العربية ، وتنوعت مداخلها ، ووسائل تناولها .

كما أنه بعد نزول القرآن تغير نمط التفكير الصوتي عند العرب تماماً ، لإدراكهم تميز النص القرآني في جانب الإعجاز الصوتي الذي يتصل بتلاوة القرآن الكريم اتصالاً مباشراً ، وبفهم كلماته وتراكيبه وأسلوبه ومعانيه ، وما يتصل به من أحكام دينية ولغوية .

هذا وقد توافرت طائفة من الألفاظ الدقيقة عند إطلاقها في القرآن ، وتتميز هذه الدقة بكون اللفظ يدل على الصوت نفسه ، والصوت يتجلى فيه ذات اللفظ ، بحيث يستخرج الصوت من الكلمة ، وتؤخذ الكلمة منه ، وهذا من باب مصاقبة الألفاظ للمعاني بما يُشَاكِل أصواتها ، فتكون أصوات الحروف على سمت الأحداث التي يراد التعبير عنها .

كذلك سَبَقَ العرب أمم الأرض في دراسة لغتهم دراسة صوتية وصفية . كما نلحظ ذلك في صنيع أبي الأسود الدؤلي ؛ إذ اتخذ من الصوت مقياساً لصيانة النص القرآني من اللحن ، وذلك بإيماء من زياد بن أبيه فيما يرويه السيرافي إذ يقول : " قال أبو الأسود لغلامه :

إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه من أعلاه ، فإن ضممت فمي فانقط بين يدي الحرف ، وإن كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف . فإن أتبعت شيئا من ذلك غنة فاجعل مكان النقطة نقطتين "[1] . والنص حافل بالمصطلحات الصوتية مثل : الحركات ، والغنة ، والصوت المفرد (الفونيم) مما يدل على تنبه مبكر جداً للظاهرة الصوتية عند النحويين .

والخليل بن احمد رتّب معجمه (العين) حسب مخارج الحروف ، مما يدل على جهد فريد في مجال الدراسة الصوتية . وكذلك فعل سيبويه من بعده حين عقد باباً (للإدغام) في ختام كتابه ، ملأه بالكثير من اجتهاداته في مجال الدراسة الصوتية .

وابن جني يعْقد كتاباً كاملاً للدراسة الصوتية هو (سر صناعة الإعراب) يتناول فيه كل ما يتعلق بسبل هذه الدراسة ومناهجها ، وذلك على نحو فريد .

أما فيما يتعلق ببلاغة الجانب الصوتي ، وما يؤديه الصوت من أنساق جمالية فلا بد قبل تبيانه من الوقوف أولا على مكونات هذا الجانب الصوتي ليتسنى لنا الولوج في رحاب هذا الصرح الجمالي . فالنظام الصوتي للغة مكون من عدد محدود من الأصوات يختلف من لغة إلى أخرى ، وتتمايز الأصوات عن بعضها البعض بعدد من الخصائص الناتجة عن عملية النطق أو إخراج الصوت . والعنصر الأساسي الذي يميز الصوت عن آخر هو قوة إسماعه التي تختلف اختلافاً جوهرياً تبعاً لدرجته وسرعته . وهذا الكلام في مجمله يحدّد مجموعة تميز الصوت في (قوة إسماعه) لدى المتلقي .

غير أن اللغة في جوهرها ترتد من الناحية الصوتية إلى مجموعة محددة من الأصوات ، وإلى عدد معين من المقاطع الصوتية تبرز من خلالها مقدرة المتكلم على انتقاء الوحدات

---

١ - السيرافي ، أخبار النحويين البصريين ، ٣٢ .

اللغوية المتفاعلة فيما بينها فتعطي أنماطاً من الأبنية اللغوية وفقاً لما تعارفت عليه جماعة المتكلمين فيما بينهم من قواعد وأحكام . وهذه المقاطع الصوتية هي المكون الأول للكلمات ؛ لأن كل كلمة تتكون من مقاطع تتعاقب فيما بينها .

ولنا أن نتساءل : هل تلقف البلاغيون هذه الإشارات الصوتية ووظفوها في دراساتهم البلاغية ؟! والإجابة عن هذا السؤال تكمن في بعض الإشارات البلاغية لتوظيف هذا الجانب ، مثلما نلمح ذلك عند الرماني والخطابي والباقلاني وعبد القاهر وغيرهم .

ولعلنا هنا نمسك بخيوط الموضوع التي تنبع من محاولة إبراز علاقة الصوت بمقتضيات السياق فنتساءل هل يؤدي الصوت وظيفة بلاغية ؟! وهل تسهم طرق الأداء الصوتي في إبراز سياق بلاغي معيّن ؟!

هذا وقد دأب البيان القرآني على تحقيق موسيقى اللفظ في جمله ، وتناغم الحروف في تراكيبه ، وتعادل الوحدات الصوتية في مقاطعه ، فكانت الكلمات متوازنة النبرات ، وتراكيب البيان متلائمة الأصوات ، فاختار لكل حالة مرادة ألفاظها الخاصة التي لا يمكن أن تستبدل بغيرها ، فجاء كل لفظ متناسباً مع صورته الذهنية من وجه ، ومع دلالته السمعية من وجه آخر ، فالذي يستلذه السمع ، وتستسيغه النفس ، وتُقْبل عليه العاطفة هو المتحقّق في العذوبة والرقة ، والذي تتوجس منه النفس هو المتحَقّق في الزجر والشدة . وهنا ينبه القرآن المشاعر الداخلية عند الإنسان في إثارة الانفعال المترتّب على مناخ الألفاظ المختارة في مواقعها فيما تشيعه من تأثير نفسي سلباً وإيجاباً .

وهذا التنوع القرآني في استخدام أصوات اللغة وتوظيفها على نحو بليغ هو ما نعنيه بـ(التلوينات الصوتية) أي : تنوعات التركيب الصوتي في سياقات النص القرآني ، وما

النصي يتعرض الفصل للبحث في أشكال تلوينية للمنجز الصوتي مثل التعريف والتنكير ، والتناول الوظيفي من حيث انتقاء الصورة العددية التي تظهر عليها المفردة عند انتقائها ، والتغاير التصريفي للصيغ الإفرادية ، وطول الكلمة القرآنية وتأليفها الصوتي والحرفي ، والعدول الترادفي ، والحذف التلويني في بنية الكلمة القرآنية ، وبيان ما يستتبع ذلك من تأثيرات جمالية ودلالية تبرز في سياق النص القرآني .

أمّا الفصل الثالث فعنوانه " أثر التلوينات الصوتية في دلالات الكلمة القرآنية "

ويحاول هذا الفصل الاضطلاع بالشق التحليلي والتفسيري لما تم من انتقاءات في سياق المفردة القرآنية من خلال معانقاتها لفنيات التلوين الصوتي . فيحاول تفسير كل انتقاء حدث ، من خلال إبراز أثر التلوين الصوتي على دلالات الكلمة بعد الانتقاء ، وذلك في محيط سياقها المصغر في الجملة القرآنية . ويتكئ هذا التحليل على إيضاح نصية كل فنية من التلوينات الصوتية مثل فنية الاختيار العددي ، وفنية العدول التصريفي ، وفنية التكرار ، وفنية الحذف ، وفنية الجمع بين الصيغ ، وكل هذا يتم في إطار حاكم للسياق الدلالي لبيان الأثر الجمالي فيه .

وجاء الفصل الرابع بعنوان " أثر التلوينات الصوتية في دلالات التراكيب "

وانعقد هذا الفصل لبيان الأثر الجمالي والنصي للتلوينات الصوتية في السياق الأكبر ؛ سياق الجملة والتركيب القرآني ، وما يتبع هذه التلوينات من تثويرات دلالية تتضح آثارها في بنية السياق القرآني . وهذا يتسق بحثياً مع الفصل السابق ؛ إذ إن التناول هنا يبدأ من الوحدة الصغرى (الكلمة) إلى الكبرى (الجملة فالتركيب) . ويتناول الفصل بالتحليل التلوين الصوتي بالتعريف والتنكير ، والتلوين بالعدول الرتبي والعددي والضمائري ، والتلوين بالتكرار ، والتلوين بالحذف ، والتلوين بالتغاير التصريفي ، وما

يتبع هذه التلوينات من بلاغات نصية لها أثرها على سياق الدلالة في التركيب القرآني ، مما يبرز جماليات النص القرآني كنسيج متكامل .

وانعقد الفصل الخامس لمعالجة " بلاغة التلوين الصوتي في القراءات القرآنية "

ويهدف هذا الفصل إلى محاورة القراءات القرآنية وذلك بغية لمح ما تحويه من تلوينات صوتية في سياقاتها الثرية . وقد تعرض الفصل بالتحليل لما اشتملته القراءات القرآنية المتواترة من التلوينات الصوتية ذات الأثر الجمالي في دلالة النص القرآني . وتنوعت هذه التلوينات إلى عدة صور منها : التلوين الصوتي بالتعريف والتنكير ، والتلوين الصوتي بالتغاير التصريفي ، والتلوين الصوتي بالعدول ؛ وقد اشتمل على : العدول العددي ، والعدول الضمائري (الالتفات) . كذلك شملت القراءات القرآنية فنية التلوين الصوتي بالحذف ، والتلوين الصوتي بالزيادة البنيوية في التركيب القرآني .

وكل هذه الأشكال من التلوينات الصوتية في إطار القراءات القرآنية انعقدت لبيان الثراء الذي تمتاز به بنية هذه القراءات من ناحية ، ثم جمالية الأداء البلاغي لهذا الأداء من ناحية أخرى ، وذلك قصداً لإظهار جماليات النص القرآني في هيئته الشفهية والكتابية معاً باعتباره نصاً معجزاً .

* ثم أتبعَ ذلك بالخاتمة بما شملته من إيضاح لأهم ما أسفر عنه البحث من نتائج .

* ثم قائمة المصادر والمراجع التي تمّ الاعتماد على عطائها .

هذا :

ومن فضل الله عليّ أن هداني لما فيه خيريّ الدنيا والآخرة ، فلله الحمد والفضل والمنة ، وهو حسبي عليه توكلت ، وإليه أنبت ، هو أهل التقوى وأهل المغفرة .

ثم لأهل الفضل خالص الشكر وأوفاه وأجمله : للأساتذة الأجلاء أصحاب الفضل : أ.د محمد أحمد العمروسي ، أ.د حلمي محمد القاعود ، أ.د أحمد عبد الحيّ ، أ.د حسن جاد طبل ، أ.د محمود سليمان ياقوت ، أ.د عيد محمد شبايك ، أ.د سيد أحمد أبو حطب ، أ.د أسامة البحيري ، لهم جميعا خالص الشكر والامتنان والعرفان بفضلهم ومقامهم عندي ، وجزاهم الله الخير كلّه عما قدموه لي من عون ونصح وتوجيه وإرشاد .

ولله الحمد في الأولى والآخرة ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

دكتور

أسامة عبد العزيز جاب الله

طنطا في يناير ٢٠٠٨

الفصل الأوّل

مَنَابعُ التَّلْوِينِ الصَّوْتِيِّ

تتخذ لغتنا العربية من بنائها الصوتي منطلقاً للتمازج البيني مع بقية المستويات اللغوية ذلك لأنّ الجانب الصوتي هو مناط التفسير لكثير من مباحث مستوياتها الصرفية والتركيبية والدلالية ، وكذلك المستوى الخطي : الجرافيستيك Graphistic الذي يعدّ إضافة جديدة لمستويات اللغة المدروسة في صورتها اللسانية الحديثة .ثم إن البناء الصوتي للعربية عند تماسه مع هذه المباحث يتخذ لذاته تلوينات صوتية تمكنه من إنجاز المرادات الأدائية بما يتوافق مع القواعد الحاكمة لبناء هذه المستويات . وهذه التلوينات الصوتية لها صور متعددة بدرجة تناسب البناء العام للجانب الصوتي المهيمن على مرتكزات اللغة .

كما أن هذه القيم والتلوينات مع أدائها الأدوار المنوطة بها تشكل في ذاتها وسائل مُمَيِّزة للبناء الصوتي مثلما يراها د. تمام حسان بأنها " الخصائص التي تتمايز بواسطتها الأصوات ، ويتعلق بها نوع من المعاني يسمى المعاني الطبيعية التي لا تُوصف آثارها بأنها عرفية ولا ذهنية لأنها في الواقع مؤثرات سمعية انطباعية ذات وقْع على الوجدان تدركها المعرفة ولا تحيط بها الصفة ، فمثل تأثيرها على وجدان السامع مثل النغمة الموسيقية تطرب لها ثم لا تستطيع أن تقول لم طربت ؟ "[1].

وما أدق كلمة أستاذنا الدكتور تمّام حين يصفها بأنها (مؤثرات سمعية انطباعية ذات وقْع على الوجدان) فهو يلخص وظيفتها في كونها مؤثرات سمعية لأنها في أصل التكوين صوتية ، ولذا لابد لها من متلقٍ يسمع ، ثم إنها مؤثرات أي لها ملكة التأثير بما تملكه من سمات ذاتية مميزة لها ، تمكنها من أداء هذه الأدوار . ثم إننا لا نملك حيالها أي تفسير لأنها تخاطب الوجدان .

وقام د. تمام حسان بحصر هذه القيم الصوتية فجعلها على أنواع خمسة[2] : الإيقاع وشمل معه دراسة(المقطع ، والنبر) ، والفاصلة ، والحكاية ، والمناسبة الصوتية ، وحسن التأليف .ثم ل كل منها بالتحليل الدقيق وفق السياق القرآني .

د. تمام حسان ، البيان في روائع القرآن ، ١ / ١٧٥ .

٢ - ينظر : السابق ، ١/١٧٥ – ٢٢٨ .

على أننا يمكننا أن نزيد على هذه القيم الصوتية لأنها في ذاتها مماسات للعديد من مباحث المستويات اللغوية . وعلى هذا يمكننا تعداد هذه القيم حسب تقاطعات سياقاتها مع المستويات اللغوية كما يأتي :

١- فنية التلاؤم والتنافر .

٢- الإيقاع وما يتبعه من مباحث مثل : المقطع - والنبر - والتنغيم .

٣- الفاصلة .

٤ - الحكاية الصوتية .

٥ - المناسبة الصوتية وما يتبعها من مباحث مثل : التماثل و التخالف الصوتي .

٦- المحسنات الصوتية مثل : الجناس - والترديد - والتكرار - والمشاكلة .

وهذه القيم الصوتية تتشعب إلى جزئيات يسهل معها إدراك الأثر الناشئ عنها في توظيفاتها مع مختلف المستويات . كما أننا عند تناولنا لهذه القيم بالدرس والتحليل لتبيان وسائل توظيفها ، وإدراك أسرار هذا التوظيف ، نتلمس هذه الآثار التوظيفية في سياق النص القرآني ، وما ينعكس على دلالاته السياقية إذا ما عانقتها القيم الصوتية السابق الإشارة إليها .

وتأسيساً على هذا الطرح فقد آنَ للبحث أن ينهض بعبء الممارسة أملاً في إدراك بعض ملامح الإعجاز التي ستظهر من خلال هذه الممارسة وذلك بإدراك كل قيمة صوتية مما تمّ إحصاؤه بالتحليل على حدة ، مع بيان أثرها الدلالي في آيات النص القرآني .

أولاً : التلاؤم والتنافر

قد يكون الملحظ الأهم عند تناول مفهوم الفصاحة وما له من تأثيرات صوتية تلحقها تغييرات دلالية ، أن قضية التلاؤم والتنافر الصوتي هي العنصر المهيمن على مقدرات مفهوم الفصاحة ، خاصة إذا كانت الفصاحة في صورتها العامة لا تعدو أن تكون تلاؤماً أو تنافراً . ولذا فإنه من الأهمية بمكان أن نتعرض ببعض التدقيق لهذه القضية لما لها من أثر في إثراء السياق الدلالي ، اتباعاً للتنوع الصوتي الناتج عن هذا التلاؤم أو التنافر .كذلك من الإنصاف أن نذكر أن لهذه القضية شقين : لغوي وبلاغي ، ولذا لابد من الوقوف على إضافات الفريقين إلى هذه القضية .

١- التلاؤم والتنافر عند اللغويين :

تنبه اللغويون لظواهر اللغة إلى مسألة (أصول الكلمات) وإقامتها على ما عُرف فيما بعد بالميزان الصرفي الذي تعتمد عليه الكلمة في ابتنائها . فالكلمة العربية تعتمد على جذر ثلاثي هو (فَعَلَ) . وما يتم من تأليف على نهج هذا الميزان هو ضرب من التأليف الصوتية . وبناء على ذلك اهتم اللغويون بمسألة الفصاحة القائمة على قرب المخارج أو بعدها . فقد اشترطوا ضرورة مراعاة التناسب الصوتي في ترتيب مخارج حروف الكلمة . ويمكن ملاحظة ذلك الجهد المبذول في حقل البحث الصوتي عند العرب من خلال كم الجهود المبذولة في هذا السياق من خلال الوقوف على المؤلفات التراثية القيمة . لكننا نستطيع حصر نظرتنا البحثية هنا لنركز على المسألة ذات الصلة وهي (التنافر الصوتي) وما يلحقه من قضايا ومسائل لغوية . فما كان اللغويون ليدرسوا هذه المسألة إلا ليقرروا لنا أصولاً تسهم بدورها في تجنّب العسر النطقي ، وتُيَسّر الأداء الصوتي ، بالإضافة إلى مراعاة الخفة والجمال في آن . فقد دفعهم هذا الصنيع إلى تقرير (أن حروف الحلق هي أثقل الحروف تركيباً) ، ولذا نادوا بتقليل مجيئها في تأليف الكلمة ، وأكدوا على أن تقارب حرفين حلقيين لا بد وأن يؤدي إلى تقديم أقواهما نطقاً تخلصاً من الثقل .

فابن جني (ت ٣٩٥ هـ) يرى في تباعد تأليف الحروف مزية كبيرة لا تتحقق في تقاربها المؤدي إلى قبحها خاصة إذا كانت من حروف الحلق . ولذا جعل تأليف الكلام على ثلاثة أنواع[1] :

الأول : تأليف الكلام من حروف متباعدة المخارج ، وعليه أغلب كلام العرب .

والثاني : تأليف الكلام من الحروف المتقاربة المخارج . وهو تالٍ للأول في الحسن .

والثالث : تأليف الكلام من الحروف المتقاربة . وهو الأقل في الحسن .

ويقرر ابن دريد (ت ٣٢١ هـ) أن قرب مخارج الحروف يؤدي إلى الثقل في النطق عكس المتباعد منها . كما أنه يستثقل حروف الحلق لأنه لو نسج الكلام منها وحدها دون حروف الذلاقة لأدى

١- ينظر : ابن جني ، سر صناعة الإعراب ، ١/ ٧١- ٧٢ ، ٢/ ٣٢١ .

ذلك إلى زيادة الجهد المبذول من جانب اللسان لأداء هذه التراكيب ، ذلك لأن الجرس الصوتي لها واحد ، والحركات مختلفة ، مما يؤدي باللسان إلى الانحراف في النطق بهذه الأصوات[1] .

وابن منظور (ت ٧١١ هـ) يتناول الحروف التي يتالف منها الكلام فيجعلها أربعة أقسام [2] :

الأول : حروف يجب وقوعها في التراكيب ، وهي الحروف الذلقية والشفوية . وذلك لخفتها وسهولتها في النطق ، ولذلك كثرت في أبنية العرب وكلامهم خاصة الثلاثي .

والثاني : الحروف التي تحسن في التراكيب وهي (القاف) و(العين) لأنهما أطلق الحروف . فالعين أنصع الحروف جرساً . والقاف أمتنها ، وأصحها جرساً .

والثالث : الحروف التي يمتنع مجيئها في التراكيب ، وهي الحروف ذات المخرج الواحد كحروف الحلق ، إلا أن يقدَّم حرف منها على الآخر ، ولا يجتمعا إذا تأخر.

والرابع : الحروف التي لا تتركب مع بعضها بلا تقدم أو تأخر وهي (السين ، والتاء ، والصاد ، والزاي ، والظاء) وما ذلك إلا لتقارب مخارجها تقارباً يؤدي إلى ثقلها في النطق.

وتخلصاً من هذا آثر العرب استعمال الثلاثي بعد مراعاة تاليفه من حروف متناسقة حسب القواعد ، وذلك لقلة حروف الثلاثي ، وكون عينه تتوسط الفاء واللام . فالفاء لابد أن تكون متحركة ، ولامُه لابد أن تكون ساكنة عند الوقف ، لأنه لا يصح الابتداء بساكن ، كما لا يوقف إلا على ساكن [3] .

٢- التلاؤم والتنافر عند البلاغيين :

يجمع البلاغيون على أن التنافر هو ما يعتري الكلمة المفردة أو الكلام المؤلف من ثقل يشكل عبئاً على النطق ، لأنه يتطلب - تبعاً لهذا الثقل- جهداً عضلياً زائداً على اللسان الذي هو آلة

١ - ينظر : ابن دريد ، جمهرة اللغة ، ١ / ٩ .

٢- ينظر : ابن منظور ، لسان العرب ، ١ / ٨ ، ٩ / ٣٤٩ .

٣- ينظر : د . عبد الواحد الشيخ ، التنافر الصوتي ، ٢٦ .

النطق [1] . والجاحظ من أوائل من تنبهوا إلى هذه المسألة لَما جعل من اقتران الحروف مدخلاً للبحث فيها . فقد يعرض للحروف عند ائتلافها في اللفظة بعض التنافر . فالجيم لا تقارن الشين وهكذا .

أما التلاؤم فهو تعديل الحروف في التأليف [2] . وهو أحد شروط البلاغة " لأن الكلام لا يكون بلاغة - وإن ثقفت ألفاظه كل التثقيف - إذا تنافرت حروفه . وتنافر الحروف أن تكون مخارجها متلاصقة كالجيم والشين ، أو كالصاد والسين والزاي . ألا ترى أنك لو بنيت اسماً ثلاثياً من الجيم والشين والضاد على أي ترتيب أحببت أن تضعه عليه من الترتيبات الستة لم تقدر على استعماله إلا بعسر شديد . وكذلك لو بنيته من الصاد والسين والزاي على أي ترتيب وضعته عليه كان استعماله عسيراً شاقاً " [3] .

ومن فوائد التلاؤم سهولة الكلام في النطق ، وحسنه في السمع ، وتقبل النفس لمعناه لما يرد عليها من جماليات الصورة والدلالة [4] .

اقسام التنافر عند البلاغيين :

يقسّم التنافر عند البلاغيين إلى :

أ – التنافر في اللفظ المفرد .

ب – التنافر في الكلام المؤلف .

ثم يوضع تحت كل قسم منهما أقسام أخرى نوضحها فيما يأتي :

أولاً : التنافر في اللفظ المفرد :

ويقسم هذا القسم إلى :

١- تنافر شديد : وهو ناتج عن الثقل الشديد الذي يظهر عند تأليف الكلمة من حروف تعسر في النطق بسبب المخرج أو الضبط . ويمثل البلاغيون لهذا القسم بكلمة (الهُعْخُع) التي وردت في

١- ينظر : الجاحظ ، البيان والتبيين ، ١/ ٦٥ – ٦٦ . – القزويني ، الإيضاح ، ٢ .

٢- ينظر : الرماني ، النكت في إعجاز القرآن ، ٩٤ .

٣- مؤلف مجهول ، شرح رسالة الرماني ، ٥٩.

٤- ينظر : الباقلاني ، إعجاز القرآن ، ٢٧٠ .– د. عبد الواحد الشيخ ، التنافر الصوتي ، ٩ .

قول أحد الأعراب لما سئل عن ناقته فقال : تركتها ترعى الهعخع [1] . وقد جعل ابن سنان هذه اللفظة دليلاً على المهمل الذي يصعب النطق به لتقارب الحروف ، فلا يكاد يجيء في كلام العرب ثلاثة أحرف من جنس واحد في كلمة واحدة لحزونة ذلك على ألسنتهم وثقله . وينكر ابن سنان الكلمة بهذا التأليف ويعدل إلى آخر هو (الخُعْخُع) وهو الأقرب إلى تأليف العرب ، لأن تأليفه على حرفين فقط ، وحروف الحلق خاصة مما قل في تأليفهم من غير فصل يقع بينها[2] .

ويذكر السبكي أن ثقل هذه الكلمة ناشئ من تقارب حروفها [3] .

ويحاول د. محمد أبو موسى أن يعلل هذا التنافر الحادث في اللفظة بأن (الهعخع) قد يكون " شجراً كريهاً مراً لا يطاق طعمه ، كأنه هذه الكلمة التي لا يطاق النطق بها ، والتي تحكي صوت المتقيئ . ولم لا يكون لفظاً مخترعاً للثقل ، أو لا معنى له " [4] .

ويرى د. عبد الحليم شادي أن ما ذهب إليه د. أبو موسى في تعليله لهذا الثقل قد يكون صحيحاً لأمرين هما [5] :

الأول : أنّ مقطعي الكلمة يحكيان صوت القيء . فالمقطع الأول (هُعْ) يحكي صوت القيء وهو مندفع من جوف الإنسان إلى حلقه . والثاني (خُعْ) يحكي صوته وهو خارج من حلقه إلى الخارج .

والثاني : أن الأشياء قد يطلق عليها أسماء أصواتها وذلك فيما قبل وضوح اللغة . فربما يكون اسم شجرة يقزز طعمها النفس إلى درجة التقيؤ ، وأطلق القيء مجازاً مرسلاً علاقته السببية بإطلاق المسبب وهو (الهُعْخُع) - (القيء) على السبب وهو ذلك النبات المقزز .

وهذا الذي ذهب إليه د. أبو موسى ود. شادي من محاولة التعليل يحمد لهما ، إلا أن الأمر في جوهره يعود إلى أن ثقل هذه الكلمة ينبع منها ذاتها خاصة ، ومن تأليفها (العفوي أو المقصود) على هذا النحو ، وهو ما أدركه الأوائل فاكتفوا بوصفها بالثقل والتنافر الشديد.

---

١ - القزويني ، الإيضاح ، ٣ . ويذكر أنه ضرب من النبات يُتداوى به . السيوطي ، المزهر ، ١/ ١٨٥ .
٢ - ينظر : ابن سنان ، سر الفصاحة ، ٥٥ .
٣ - ينظر : السبكي ، عروس الأفراح ، ١/ ٨١ .
٤ - د . محمد أبو موسى ، خصائص التراكيب ، ٦٢ .
٥ - ينظر : د . عبد الحليم شادي ، بلاغة المعاني ، ٢٧ .

٢ – تنافر خفيف : وهو أقل وطأة من سابقه ، إذ يشعر السامع في هذا النوع بشيء من الثقل الصوتي في نطق الكلمة يتبعه ثقل سمعي لدى المتلقي . أي أنه يجتمع في هذا القسم نوعان من الثقل :

أولهما : ثقل نطقي يعانيه الناطق ويشعر به السامع .

وثانيهما : ثقل سمعي يعانيه السامع وحده . وقد مثل البلاغيون له بكلمة (مستشزرات) في قول امرئ القيس :

غدائرهُ مستشزِراتٌ إلى العلا		تَضِلُّ المَدَارَى في مثنى ومرسلِ

إذ ردّوا الثقل فيها إلى توسط (الشين) بين التاء والزاي .

ويرى الدسوقي "سبب الثقل فيها راجع إلى توسط الشين المهموسة الرخوة بين التاء المهموسة الشديدة فاختلفتا [أي الشين والتاء] في الشدة والرخاوة ، والثقل جاء من هذا الاختلاف . وبين الزاي المجهورة ، فاختلفتا [أي الشين والزاي] في الجهر والهمس ، والثقل جاء أيضاً من هذا الاختلاف . فالحاصل أن الشين اتصفت بصفتين : ضاربت بإحداهما – وهي الرخاوة – التاء الشديدة قبلها . وضاربت بالأخرى – وهي الهمس – الزاي المجهورة بعدها "[1] . فالتنافر ليس لقرب المخارج ، وإنما لثقل الكلمة في السمع نظراً لهذا الاختلاف في صفات الحروف المؤلفة منها اللفظة ، وتضاربها .

ثانياً : التنافر في الكلام المركب

ويقصد به أن تكون الكلمات في سياق ما ثقيلة في الأداء الصوتي في صورتها المركبة والمفارقة لوضع كل كلمة في هذا التأليف في صورتها المفردة ، بالرغم من كونها في صورتها المفردة تتميز بفصاحتها . ويقسم البلاغيون التنافر في الكلام المركب إلى :

١– تنافر شديد : ناتج عن التقاء كلمات ذات مورفيمات صوتية متشابهة في المخرج الصوتي ، كما في قول الشاعر :

---

١ – الدسوقي ، حاشية الدسوقي على مختصر السعد ، ١ / ٨٠ .

وقبرُ حربٍ بمكان قَفْرٌ   وليس قُرْبَ قبرِ حربٍ قَبْرُ

فتركب الألفاظ في هذا البيت أدى إلى تنافره ، وذلك لتقارب ألفاظه التي يعسر النطق بها من ناحية ، ولتداخل حروف هذه الألفاظ مع بعضها من ناحية أخرى [1] .

٢- تنافر خفيف : وهو ناتج عن تكرار وحدات صوتية (كلمات) متشابهة أو متقاربة المخارج في سياق كلامي واحد مثلما نجد في قول أبي تمام [2] :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى   معي وإذا ما لمته لمته وحدي

فتكرار كلمة (أمدحه) مرتين في الشطر الأول ، وكلمة (لمته) مرتين في الشطر الثاني أدى إلى الثقل والعسر النطقي والسماعي معاً ، فكلمة (أمدحه) احتوت على حرفي الحاء والهاء الحلقيين وهما متقاربا المخرج مما شكل نبواً في النطق لحِقَهُ كذلك ثقلاً في السمع . وهذا ما ذهب إليه القزويني [3] .

ويخالف السبكي رأي القزويني إذ يرى أن اجتماع الحاء مع الهاء فصيح لوروده في القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ [4] . كما أن وضع الحاء مع الهاء في بيت الشعر مختلف عن وضعهما الآية الكريمة ، فالثقل في البيت في كلمة (أمدحه) ناتج عن اجتماع الحاء والهاء بعد الفتحة على (الدال) ، وليس ذلك في الآية الكريمة [5] . وهو تعليل يقصد السبكي به تنزيه النص القرآني عما يشينه مما يلحق غيره من النصوص البشرية . ويرى ابن رشيق في هذا البيت لوناً من المعاظلة التي تقوم على تداخل الحروف وتركيبها [6] .

١- د. عبد الواحد الشيخ ، التنافر الصوتي ، ١١ . وينظر : عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، ٥٧ .
- الرماني ، النكت ، ٩٥ .
٢- أبو تمام ، الديوان ، ٢ / ١١٦ . وهو في الديوان (ومتى لمته) .
٣- ينظر : القزويني ، الإيضاح ، ٦ .
٤- سورة ق : آية رقم (٤٠) .
٥- ينظر : السبكي ، عروس الأفراح ، ١/ ١٠١ .
٦- ينظر : ابن رشيق ، العمدة ، ٢ / ٢٦٤ .

تنوير :

دائماً ما يثور سؤال مفاده : هل يكون التنافر فقط ناتجًا عن تقارب المخارج أو تباعدها ؟!
والإجابة عن مثل هذا السؤال تكمن في رأي الخليل بن أحمد الذي علل هذا التنافر بالبعد الشديد أو القرب الشديد لمخارج الحروف ، ونقل هذا الرأي عنه الرماني في (النكت في إعجاز القرآن)[1] .
وتواتر البلاغيون على هذا التعليل إما شرحاً أو تأويلاً أو توسعة لهذا التعليل [2] .

غير أن ابن سنان لا يرى تنافراً إذا ما تباعدت المخارج كما ذهب الخليل والرماني ، بل يجعل هذا التنافر محصوراً في قرب المخارج فقط ، ويستدل على ذلك بكلمة (ألم) التي تباعدت مخارج حروفها ومع ذلك فلا تنافر فيها . فالهمزة من أقصى الحلق ، والميم شفوية ، واللام متوسطة بينهما [3] .

أما التنافر بقرب المخرج فيستدل عليه بكلمتي (عخ) و (لاسز) لما فيهما من قرب لمخارج حروفهما . كما يستدل على ما ذهب إليه بأن الإدغام والإبدال إنما يحدثان تخلصاً من التنافر الحادث لقرب المخارج لا لتباعدها [4] .

أما ابن الأثير فيرى في تباعد المخارج مع اقترانها بحركات خفيفة يكون أحياناً أحسن تأليفاً من قربها في المخارج ، ويعلل ذلك بأن الكلمة المتباعدة المخارج تسمح للناطق بها عند أدائها الصوتي أن يأخذ مهلة وأناة لما بين المخرج والمخرج التالي من الفسحة والبعد ، فتمكن الحروف في مواضعها ، بخلاف الكلمة المتقاربة المخارج فإنه عند النطق بها يحاول اللسان أن ينطقها فلا يكاد يتخلص من مخرج إلا ووقع في الآخر الذي يليه لقرب ما بينهما ، فتأتي حروف الكلمة قلقة غير مستقرة في أماكنها ، ولذا كان العرب يعدلون عن الأثقل في كلامهم إلى الأخف طلباً للاستحسان [5] .

---

١ - ينظر : الرماني ، النكت ، ٩٦ .
٢ - ينظر : الباقلاني ، إعجاز القرآن ، ٢٧٠ .
٣ - ينظر : ابن سنان ، سر الفصاحة ، ٩١ .
٤ - ابن سنان ، سر الفصاحة ، ٩١ .
٥- ينظر : ابن الأثير ، المثل السائر ، ١/١٥٧–١٦٠ . - العلوي ، الطراز ، ١٠٨ .

وابن الأثير يؤصل هنا لدور الحركة في مسالة التنافر والتلاؤم والانسجام . فقد تكون اللفظة هي هي لكن تغيير الحركة يؤدي إلى نقلها من باب التنافر إلى باب التلاؤم ، لأن الحركة تخلص الكلمة مما أصابها من ثقل في النطق . كما أن خفة الحركات تؤدي إلى سرعة نطقها من غير عناء . فإذا التقت حركتان خفيفتان في كلمة واحدة لم تستنكر ولم تثقل ، بخلاف الحركات الثقيلة إذا توالت منها اثنتان في كلمة واحدة استكرهت واستثقلت لما يعانيه الناطق بالكلمة من مشقة في أدائها الصوتي ، ولذا كانت الفتحة أخف الحركات تليها الكسرة ثم الضمة .

فالفتحة إذا كانت فوق حروف كلمة ثلاثية كان ذلك من ميسرات النطق والأداء ، وإن كان وسط الكلمة ساكناً ساعد ذلك أيضاً على هذا اليسر الأدائي . غير أننا نجد في البيان القرآني كلمات وُظفت فيها حركة (الضمة) وهي حركة ثقيلة ، وتتابعت في بعض الكلمات مرتين مثلما نجد في الآيات الآتية من سورة القمر :

- قوله تعالى : ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ {٥} فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ {٦} ﴾ .
- وقوله تعالى : ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ {١٣} ﴾ .
- وقوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ {١٨} ﴾ .
- وقوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ {٢١} ﴾ .
- وقوله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ {٢٣} فَقَالُوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ {٢٤} ﴾ .
- وقوله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ {٣٣} ﴾ .
- وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ {٣٦} وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ {٣٧} ﴾ .
- وقوله تعالى : ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ {٣٩} ﴾ .

- وقوله تعالى : ﴿ ولقد جاء آل فرعون النُّذُر {41} ﴾ .
- وقوله تعالى : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدُّبُر {45} ﴾ .
- وقوله تعالى : ﴿ إنَّ المجرمين في ضلال وسُعُر {47} ﴾ .
- وقوله تعالى : ﴿ وكلُّ شيءٍ فعلوه في الزُّبُر {52} ﴾ .

فالكلمات (النُّذُر - نُكُر - دُسُر - نُذُر - سُعُر - الدُّبُر - الزُّبُر) توالت فيها حركتان ثقيلتان ؛ ضمتان ومع ذلك لا يستطيع أحد أن يُنكر فصاحتها أو خفتها على اللسان حين الأداء الصوتي لها ، كما أننا لم نجد من يزعم نبوها في السمع .

ويلاحظ أن هذه الكلمات وردت على هيئة الجمع ، وعلى الوزن الصرفي نفسه وهو وزن (فُعُل) ، غير أنها لم تتفق مع مفردها في الابتداء بنفس حركته مثلما نجد في كلمة (خُطُوَات) في قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾[1] التي اتبع فيها وزن الجمع الابتداء بحركة مفردها (خُطوَة) وهو الابتداء بالضم . وتقرأ (خُطُوات) بضم الطاء وهي قراءة حفص ، وقرأ شعبة والباقون (خُطْوات) بالإسكان[2] . وهي تتكون من مقطعين هما (خُطْ+وات) ، وقد حوفظ فيها على سلامة المفرد ، وخفة اللفظ .

ويرى د. صبري المتولي " أن الأصل في جمع هذا الدرب من المفردات يكون بالإبقاء على العين ساكنة خلافاً لما يراه بعض الصرفيين[3] ، وما عدل الناطق عن هذا الأصل إلا التماساً لجمال صوتي يجري وفق قانون الاتباع في الحركات "[4] .

والكلمات التي بين أيدينا ليست من هذا النوع لأن مفردها لا يسير وفق القاعدة ، فلا خضوع فيها لقانون الإتباع ؛ أي إتباع الضم بالضم ، والكسرة بالكسرة ، والفتحة بالفتحة ، الذي يسميه ابن جني (هجوم الحركات على الحركات)[5] . وقد فهمنا من كلامه أن هجوم الحركة

---

١ - سورة البقرة : آية رقم (١٦٨) .
٢ - ابن مجاهد ، السبعة في القراءات ، ١٧٤ .
٣ - ينظر : ابن جني ، الخصائص ، ١/ ٥٤ . - ابن عقيل ، شرح ألفية ابن مالك ، ٢ / ٣٨٧ .
٤ - د. صبري المتولي ، التوجيه اللغوي والبلاغي لقراءة الإمام عاصم ، ٥٢ .
٥- ابن جني ، الخصائص ، ٣ / ١٣٨ .وينظر : سيبويه ، الكتاب ، ١/ ٧٦ ، ١/ ٤٣٦ – ٤٣٧ ، ٤/ ١٠٧ – ١٠٩ . – المبرد ، المقتضب ، ١/ ٢٧٠ . – ابن فارس ، الصاحبي ، ٢٣٠ .

يأتي بصورة أساسية من هجوم حركة موجودة أصلاً في صيغة صرفية معينة على حركة موجودة أصلاً في البنية الأولية للمفردة . وهذا ما لم ينطبق على هذه الكلمات القرآنية في سورة القمر .

لكن هجوم الحركات على الحركات ينتقض إذا ما ارتبطت الحركة بالحرف وكانت من جنسه ، فلربما يكون الثقل نابعاً من هذا الأمر . فمثلاً كلمة (جَزَع) تكون سهلة في متناول الأداء الصوتي إذا ما بقيت على صورتها ؛ أي فتح الجيم والزاي ، بخلاف ضمهما فتصبح الكلمة (جُزُع) ، أو ضم الأول وكسر الثاني فتصبح (جُزِع) . فهذا التغيير يُدْخِل الكلمة في دائرة الثقل النطقي ، وصعوبة الأداء الصوتي رغم أن المخارج ثبتت ولم تتغير . ونستنج من هذا أن هناك عامل آخر هو الذي سوغ مثل هذا التنافر أو انتفائه ألا وهو (الذوق) . فربما نستسيغ الكلمة السابقة وهي مفتوحة الجيم والزاي ، وربما نستسيغ ضم الأول والثاني ، لكننا نتردد فيما هو خلاف ذلك من أحوال للتشكيل الصرفي والحركي للكلمة [1] .

كذلك قد ينتفي التنافر في كلمة ما إذا ما كانت ثلاثية وسكن وسطها ، لأن السكون في هذا الموضع يساعد على التدرج في النطق أولاً بانسيابية الحركة الصوتية من ضم للحرف الأول ثم سكون الوسط انتقالاً إلى فتح الثالث . أو من ضم للأول ثم سكون الوسط إلى ضم الثالث ، أو إلى أي حركة أخرى ثانياً . نلمح ذلك جلياً في قوله تعالى : ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [2] إذ نجد كلمة (خُسْرٍ) تم الانتقال فيها من ضم الحرف الأول (الخاء) إلى الكسر للثالث (الراء) بسهولة ويسر وذلك لسكون الوسط نزولاً على حكم الذوق السياقي الصوتي [3] .

كما أننا نلمح في هذا الإطار ضرباً من موسيقى الفواصل يسهم في تشييده الإدغام الذي يُكسب الكلمات مذاقاً خاصاً كما في قوله تعالى : ﴿ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [4] فادغم التنوين في الواو ، أو كما

---

١ - ينظر : ابن الأثير ، الجامع الكبير ، ٥٩ .
٢ - سورة العصر : الآيتان رقم (١ ، ٢) .
٣ - ينظر : د . عبد الواحد الشيخ ، التنافر الصوتي ، ١٤ .
٤ - سورة القمر : آية رقم (٤٧) .

في قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنفِرَةٌ ﴾ [1] فالبرغم من توالي ثلاث ضمات إلا أننا لم نشعر بتنافر ، ومردّ ذلك كله إلى السياق الواقعة فيه .

ونخلص مما سبق أن ما عده الذوق السليم ثقيلاً متعسراً في الأداء فهو كذلك ، والعكس صحيح . كذلك يتم التاكيد هنا على أن للحركات الإعرابية ، والسياق ، والذوق ، ومخارج الحروف قرباً وبعداً ، كلها لها أدوار غاية في الأهمية في مسألة التنافر ، لكن لمّا غلب على دراسات البلاغيين الاقتصار على مخارج الحروف فصلوا القول فيها دون غيرها ، وأهملوا ما سواها رغم أهميته القصوى في هذه المسألة .

ونخلص من هذا إلى أن الفكرة الرئيسة التي يتلاقى عندها اللغويون والبلاغيون هي التخلص من مسببات التنافر. كما أن فكرة بعد المخارج أو قربها هي أول درجات التنافر ، يشاركها في ذلك السياق ، والذوق ، والحركات الإعرابية لتكتمل بذلك الصورة العامة لمسببات التنافر والثقل ، وهذا ما عالجوه كلٌ في تخصصه .

ثانياً : تلوين الإيقاع

ربما يكون مفهوم الإيقاع من أكثر المفاهيم الشعرية إشكالاً لكونه يتعالق مع مفهوم الوزن Meter عند أهل العروض ، خاصة إذا ما نظرنا إلى مفهوم الإيقاع باعتباره نقلة موسيقية حدثت من شعر البحور إلى شعر التفعيلة . كذلك يزيد من إشكالية هذا المفهوم النظر إليه كمصطلح وافد لا علاقة له باللغة العربية مع أن العرب قد ميزوا بين الإيقاع والنظم Verse منذ اجتهادات الخليل في هذا المضمار .

ويرى نديم دانيال أن الإيقاع " ليس شيئاً آخر سوى نظم التفعيلات في البيت الواحد ، أو الانتقال من نظم الأبيات والبحور إلى شعر التفعيلة بما يتيح حرية أوسع في حركة تنظيم التفعيلات " [2] .

---

١ - سورة المدثر : آية رقم (٥٠) .

٢ - نديم دانيال ، مدخل إلى الإيقاع الداخلي للشعر ، ٢١ .

والوزن من الناحية التاريخية أكثر التصاقاً بالشعر دون غيره من الفنون . فالوزن هو المقياس الذي "ينظم الخصائص الصوتية في اللغة ، ويضبط الإيقاع في النثر ، ويقربه من التساوي في الزمان ، ومن ثم يبسط الصلة بين أطوال المقاطع الهجائية .كما أنه يبطن التوقيت ، ويطول أحرف المد بغية عرض لون الطبقة الصوتية أو النغمة الممدودة "[1]. وعلى هذا فإن مفهوم الوزن مهيمن على مفهوم الإيقاع وموجه له ، وذلك لكون الوزن واقعًا في النثر كما هو واقع في الشعر .

ويرى د. كمال أبو ديب أن " للنثر إيقاعه ، وبمعنى آخر أنه يقوم على إيقاع الفقرة أو السطر لأنه يستند بقوة إلى الفصل والوصل . فقد كانت مبادئ الفصل والوصل في الشعر الخليلي تقوم على طول التفعيلات وحدودها ، وعلى الشطر ثم على السطر ، والشطر والسطر محددان بالقافية ونهاية البيت . أما إيقاع النثر فيقوم على فصل ووصل من نمط مختلف ينشئه البعد الدلالي المتعلق بامتداد النفس ، والضغط النابع من تموجات التجربة والقراءة ، والحركة الداخلية للهجة الشعرية "[2] .

ويذهب كوهن إلى أن الوزن اعتماد تحليلي على توافر عدد معين من المقاطع يتكون منها البيت الشعري . وليست العبرة في عدد هذه المقاطع بل تكرارها في سياق البيت والأبيات اللاحقة ، وذلك لأنه " ليس عروضياً إلا لكونه متماثل الوزن ، وهو ما يتيح له تحقيق تماثل وزني داخلي "[3] .

فحقيقة الوزن هو توالي مقاطع صوتية طويلة وقصيرة على نحو منتظم ومتكرر ، يوظف شكل الساكن والمتحرك للقيام بهذا الدور خلوصاً إلى تحديد شكل التفعيلة الصوتية التي يتم النسج على منوالها في سياق البحر الشعري .

والإيقاع بمفهومه العام هو التنظيم أي تنظيم أي شيء في هذه الحياة . أما الإيقاع الفني فله حدوده وقوانينه في الشعر والنثر معاً ، كما إنه ينطلق من المفهوم العام وهو التنظيم

١- أوستن وارين ورينيه ويلك ، نظرية الأدب ، ٢٢٥ .
٢ - د . كمال أبو ديب ، في البنية الإيقاعية للشعر العربي ، ٢٢١ .
٣ - جان كوهن ، بنية اللغة الشعرية ، ٨٤ .

ليمارس مثل هذا الدور في سياق المستويات اللغوية ، إذ يناط به تنظيمها ليسهل أداء الوظائف المبتغاة من استخدامها . ولأن الشعر جزء من هذه اللغة ، فإنه يعد لغة فوق اللغة ، بمعنى أنه يوظف اللغة جمالياً (فنياً) في مفارقة واضحة للمستوى المعياري لهذه اللغة ، فلغة الشعر " هي إعادة تنظيم للغة العادية "[1] . ويتم هذا التنظيم من خلال المستوى الصوتي للغة ، والذي يقوم بهذا الدور التنظيمي هو الإيقاع لأنه الميزان الحاكم لهذه العملية . فالإيقاع هو الميزان ، والميزان هو الإيقاع ، والعلاقة بينهما كعلاقة العين والبصر ، وإذا أسندنا إلى الإيقاع وظيفة ما فإنه يصبح ميزاناً ضابطاً لهذه الوظيفة[2] .

وغالباً ما تكون الوظيفة المنوط بالإيقاع تنظيمها هي تحقيق الشعرية للقول الشعري من خلال عناصر التشكيل الشعري (اللغوية ، والتقنية ، والشكلية) . وهذا ما عُرفَ في العصر الحديث عند جاكوبسن بـ(نحو الشعر)[3] فلا توجد كلمة في السياق الشعري منفصلة عن موسيقاها أو إيقاعها وذلك لأنها ليست مجرد كلمة ، بل هي مجموعة من التراكمات النصية على مستوى النص كله . ولذا فإن الكلمة تكون حاملة لخصائص هذه المستويات النصية ، وممثلة لها بما تحمله من خصائص[4] .

مستويات الإيقاع :

يمكننا أن نصنف مستويات الإيقاع في العربية في ثلاثة مستويات هي :

الأول : ويظهر الإيقاع معتمداً على توزيع المقاطع اللغوية ، ولذا يُسَمَّى كمياً[5] .

والمستوى الثاني : ويعتمد الإيقاع فيه على النبر في الجمل ، إذ تنظم المقاطع تبعاً لانتظام النبر . فالإيقاع يعطي نوعاً من النظام للمقاطع المنبورة ، ويمكن عده في اللغة العربية تبادلاً بين

١ - د . سيد البحراوي ، الإيقاع وعروض الشعر العربي ، ١١١ .
٢ - ينظر : د . محمد العياشي ، نظرية إيقاع الشعر العربي ، ٩٠ .
٣ - ينظر : جاكوبسن ، قضايا الشعرية ، ١٩ .
٤- ينظر : د . سيد البحراوي ، الإيقاع وعروض الشعر العربي ، ٢٤٥ .
٥- ينظر : ليلى الشربيني ، إنتروبيا الإيقاع ، ٢٧٠ .

المقـاطع المنبـورة وغـير المنبـورة في داخـل انتظامـات إحصـائية محـددة[1] . ويخضـع النـبر في اللغـة العربية لانتظامات وقواعد محددة تتمثل في [2] :

١- يُنْبَر المقطع الأخير من الكلمة إذا كان هذا المقطع طويلاً مثل (مكتوب) .

٢- يُنْبَر المقطع قبل الأخير إذا كان هذا المقطع متوسطاً مثل كلمة (الأعلى) .

٣- يُنْبَر المقطع ما قبل الأخير من الكلمة إذا كان المقطع قصيراً مثل (عَلامَ ، إلامَ) .

• إذا كان المقطع الثاني من آخر الكلمة قصيراً فإن النبر يقع على ما قبله مثل (سيكتب) .

وعلى هذا فإنه وفقاً للمقطع الأخير من يتحدد موقع المقطع المنبور فيها [3] .

والمستوى الثالث : يعتمد الإيقاع فيه على (التنغيم) أي أصوات الجمل من صعود .

ويرى د. سيد البحراوي أنـه "حسـبما تنتهـي الجملـة صـوتياً ودلالياً يأخـذ التنغـيم شـكله . فالجملة التقريرية : الإثبات ، والنفي ، والشرط ، والدعاء تنتهي بنغمة هابطة (↙) . كـذلك الأمر بالنسبة للجملة الاستفهامية بغير الأداتين (هل والهمزة) . أما الاستفهام بهاتين الأداتين فإن الجملة الاستفهامية تنتهي بنغمـة صـاعدة (↗ . لكـن إذا وقـف المـتكلم قبـل تمـام المعنـى وقف على نغمة مسطحة (ــــ) لا هي بالصـاعدة ولا بالهابطـة"[4] . ويمكننـا أن نمثـل لهـذا مـن خلال الآيات القرآنية :

١- النغمة الهابطة (↙) Falling :

تتمثل النغمات الهابطة في الجمل التقريرية كالإثبات ، والنفي ، والشرط ، والدعاء .

- فالإثبات يمثله قوله تعالى : ﴿ إِنَّـا أَنزَلْنَـاهُ فِـي لَيْلَـةِ الْقَـدْرِ ﴾[5] . فقـد تم الوقـوف على كلمـة (القدر) ، وهو وقوف على نغمة هابطة في سياق جملة مثبتة .

١- ينظر : سلمان العاني ، التشكيل الصوتي ، ١٣٤– ١٣٥ . -سيد البحراوي ، الإيقاع ، ١١٨ .

٢- ينظر :كمال أبو ديب ، في البنية الإيقاعية ، ٢٠٢–٢٠٣ .

٣- ينظر : ليلى الشربيني ، إنتروبيا الإيقاع ، ٢٧٢ . – شكري عياد ، موسيقى الشعر ، ٤٢ – ٤٤ .

٤- د. سيد البحراوي ، الإيقاع ، ١٢٧ .وينظر : د. تمام حسان ، اللغة العربية معناها ومبناها ، ٢٣٠ .

٥ - سورة القدر : آية رقم (١) .

- والنفي يمثله قوله تعالى : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [1] . فالوقف هنا على (قلى) يمثل نغمة هابطة في سياق ختام جملة منفية .

- والشرط يمثله قوله تعالى : ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ﴾[2] . فالوقف هنا على لفظ الجلالة (الله) يمثل نغمة هابطة في سياق جملة جواب الشرط .

- والدعاء يمثله قوله تعالى : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً ﴾[3] . فالوقف هنا متعدد لأنه سياق دعاء . فقد تم الوقوف على (لي) و(لوالدي) ، و(مؤمناً) و(المؤمنات) و(تباراً) في تشكيلات بنائية لجملة دعاء متصلة السياق ، نلمح من خلال هذا السياق نغمات هابطة في هذه الوقفات .

- والاستفهام بغير (هل والهمزة) يمثله قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا﴾ [4] . ونلمح هنا النغمات الهابطة في (مرساها) و(ذكراها) ، لأن الاستفهام هنا دلالي سياقي أكثر منه طلباً للإخبار .

٢- النغمة الصاعدة (↗) Rising :

وتتمثل تلك النغمات في سياق الاستفهامي بالأداتين (هل والهمزة) ، وذلك كما يأتي :

• الاستفهام بهل وهي متعددة المعاني والدلالات [5] .

- فتأتي للتقرير كقوله : ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾[6] .

- وبمعنى (ما) في قوله تعالى : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ ﴾ [7] .

- وبمعنى (قد) كما في قوله تعالى : ﴿ هَلْ أتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ [8] .

١- سورة الضحى : آية رقم (٣) .
٢- سورة البقرة : آية رقم (٢٨٤) .
٣- سورة نوح : آية رقم (٢٨) .
٤- سورة النازعات : الآيتان رقم (٤٢ ، ٤٣) .
٥-ينظر :الزركشي ، البرهان ، ٤ / ٤٣٢ – ٤٣٤ .– ابن هشام ، مغني اللبيب ، ٣٣٩ – ٣٤٢ .
٦- سورة الإنسان : آية رقم (١) .
٧- سورة البقرة : آية رقم (٢١٠) .
٨- سورة النازعات : آية رقم (١٥) .

- وبمعنى (ألا) كما في قوله تعالى : ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴾[1] .

- وبمعنى الأمر كما في قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ أَنْتُم مُّنتَهُونَ ﴾[2] .

- وبمعنى السؤال كما في قوله تعالى : ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾[3] .

- وبمعنى التمني كما في قوله تعالى : ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾[4] .

- وبمعنى (أدعوك) كما في قوله تعالى : ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴾[5] .

فالوقوف على كلمات (مذكوراً) و(الغمام) و(موسى) و(أعمالاً) و(منتهون) و(مَزيد) و(حِجْر) و(تَزَكّى) يتم في سياق نغمات صاعدة قوية تترصد الإجابة التي تستقر عندها هذه الأسئلة ، لتشكل هذه الإجابات نغمات هابطة قارة في هذا السياق . وتَرَصُّد الإجابات مرحلة تدوم فترة من الوقت ليظل المعنى القرآني مفتوحاً أمام متلقيه عند تامله .

* أما الاستفهام بالهمزة فله دلالات أخر تتنوع في مراميها وأهدافها ، فتاتي [6] :

- بمعنى الاستفهام كقوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً ﴾[7] .

- وبمعنى الإثبات كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾[8] .

- وبمعنى الإنكار التوبيخي كقوله تعالى : ﴿أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾[9] .

- وبمعنى التقرير كقوله تعالى : ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾[10] .

- وبمعنى التهكم كقوله تعالى : ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾[11] .

١- سورة الكهف : آية رقم (١٠٣) .
٢- سورة المائدة : آية رقم (٩١) .
٣ - سورة ق : آية رقم (٣٠) .
٤ - سورة الفجر : آية رقم (٥) .
٥ - سورة النازعات : آية رقم (١٨) .
٦ - ينظر : ابن هشام ، مغني اللبيب ، ٢١ – ٢٨ .
٧ - سورة الزمر : آية رقم (٨) .
٨ - سورة الشرح : آية رقم (١) .
٩ - سورة الصافات : آية رقم (٨٦) .
١٠ - سورة الأنبياء : آية رقم (٦٢) .
١١ - سورة هود : آية رقم (٨٧) .

- وبمعنى الأمر كقوله تعالى : ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾ [1] .

- وبمعنى التعجب كقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [2] .

فالوقوف على نهايات الأسئلة بما تحمله من شحنات دلالية يظل متصاعداً في سياق نغمي لأن الإجابات على هذه السياقات الاستفهامية لم يتم رصدها ، وإن تم هذا الرصد في سياق لاحق على هذه الأسئلة ، ومن ثم يظل المعنى مفتوحاً ، وقابلاً لممارسة فعل التلقي في إطار هذا السياق .

٣- النغمة المسطحة (ـ) :

هي تلك النغمة التي تقع (بين بين) أي بين النغمة الهابطة والنغمة الصاعدة لأن المعنى لم يتم عندها ، لأن هذه النغمة لا تملك مقومات الأداء التصاعدي الموجود في سياق الاستفهام بهل والهمزة ، كما أنها لا تملك الحس التقريري الذي تسمح به بنية الجمل التقريرية (الإثبات والنفي والشرط والدعاء) فتنتمي إلى سياق النغمة الهابطة ، لكنها تتارجح بين السياقين إلى أن يتم تغليب أحدهما .

ونمثل لتلك النغمة المسطحة بقوله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ [3] . فالوقوف على فواصل الآيات قبل فاصلة جواب الشرط (أخبارها) هو وقوف على نغمات مسطحة لم يتم المعنى عندها ، ولم تستقر بالجواب ، ويتمثل ذلك في الوقوف على كلمتي (زلزالها) و (أثقالها) . أما الوقوف على كلمة (لها) فهو وقوف على نغمة هابطة في سياق استفهامي بغير (هل والهمزة) ، وهو استفهام بالأداة (ما) .

إن التنغيم بهذا الشكل يؤدي وظيفة عظيمة تتمثل في " انسجام الأصوات حيث تكتمل فيه النغمات وتتآزر مؤدية المعاني والمقاصد " [4] . وهو بهذا المفهوم ليس إلا " تغييرات موسيقية

---

١ - سورة آل عمران : آية رقم (٢٠) .
٢ - سورة الفرقان : آية رقم (٤٥) .
٣ - سورة الزلزلة : الآيات (١- ٥) .
٤ - د. عليان الحازمي ، التنغيم في التراث العربي ، ٢٨٣ .

تتناوب الصوت من صعود وهبوط ، أو من انخفاض إلى ارتفاع ، ويحصل في كلامنا وأحاديثنا لغاية وهدف ، وذلك حسب المشاعر والأحاسيس التي تنتابنا من رضى وغضب ، ويأس وأمل ، وتأثر ولا مبالاة ، وإعجاب واستفهام ، وشك ويقين ، ونفي وإثبات . فنستعين بهذا التغير النغمي الذي يقوم بدور كبير في التفريق بين الجمل . فنغمة الاستفهام تختلف عن نغمة الإخبار ، ونغمة النفي تختلف عن نغمة الإثبات"[1] .

والأمر هكذا له صلة وثقى بحالة المتكلم ، وهذا ما أشار إليه د.سمير ستيتة بقوله : " قد تكون النغمة نغمة تفاؤل فيسميها بعضهم النغمة الوجدانية ، وقد تكون نغمة تشكك أو ضجر أو يأس أو استسلام أو غير ذلك مما له علاقة بسيكولوجية المتكلم "[2] .

والتنغيم بهذا الشكل يلعب دوراً رائعاً في تغيير دلالات الجمل من تركيب إلى آخر مثلما نجد أنفسنا في زخم دلالي وسياقي عند قراءة قوله تعالى : ﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾[3] . فالنغم الموسيقي في هذه الآية له دلالة كبرى في الكلام . فالتنغيم في الجزء الثاني من الآية يُعَدُّ محوراً رئيساً في تحديد التركيب . فيمكن أن نقرأ :

- جملة (قالوا جزاؤه) بنغمة الاستفهام ، أي : ما جزاؤه ؟!
- وجملة (من وجد في رحله فهو جزاؤه) على التقرير جملة واحدة .
- ونقرأ على التعجب والاستهجان (قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه) .
- ونقرأ على التبرم والانزعاج (من وجد في رحله فهو جزاؤه) .

وهكذا في تقليبات تنغيمية في سياق الآية دون المساس بالأصل الدلالي ، بل يتم التنويع في إطار هذا الأصل ودون العدول عنه .

وعلى هذا فإن المستويات الثلاثة المشكّلة لجوهر الإيقاع من مقاطع ونبر وتنغيم هي في جوهرها منظومة متكاملة للمعنى الإيقاعي في سياق النص القرآني .كما أنها تسهم في إضفاء

---

١ - د . عبد الكريم مجاهد ، الدلالة اللغوية عند العرب ، ١٧٨ .
٢ - د. سمير ستيتة ، منهج التحليل اللغوي في النقد الأدبي ،١٥٤ .
٣ - سورة يوسف : الآيتان رقم (٧٤ ، ٧٥) .

لسة نظمية على سياق الإيقاع من ناحية ، وتشييد بعد جمالي في إطار هذا النظم من ناحية أخرى ، وما ذاك إلا تنويع على الوتر الصوتي الذي يمثله هذا المفهوم .

ونقرر هنا أن التعامل مع المستوى الأول من مستويات الإيقاع وهو المستوي (الكمي) هو الأكثر حضوراً في هذا السياق ، وإن كان ذلك لا يمنع حضور المستويين الآخرين بشكل ضمني في سياق هذا المستوى .كما أنه يمكننا اعتماد الإيقاع كبنية بلاغية تنطلق من كون (الوزن) أساسه الأول التعامل مع الكلمة ، في حين أن الإيقاع لا يتعامل مع الكلمات ، بل إن أساسه الجملة الواحدة . وهذه البنية البلاغية تتمثل في مستويين هما[1] :

أ - المستوى الصوتي : ويهدف هذا المستوى إلى توظيف الجماليات البلاغية في إطار إيقاعي ، مثل توظيف فنون البديع الصوتية (الجناس ، والتكرار ، والتوازي ، التضمين ، والمشاكلة ، ورد الأعجاز على الصدور ، والترديد) وغيرها .

ب - المستوى الدلالي : و فيه يتم استثمار دلالات التراكيب على المستوى الإفرادي (ما يخص الكلمة كالطباق) ، وعلى المستوى الجملي (ما يخص التركيب كالمقابلة ، والتقديم والتأخير ، والفصل والوصل) وغير ذلك .

وبتعاضد هذين المستويين تتشكل بنية الإيقاع البلاغي بما يحمله من خصائص مائزة ومميزة تسهم في إبراز جمالية الأداء الصوتي ، وما يلحقها من تأثيرات سياقية .

الإيقاع القرآني :

كما علمنا فإن الإيقاع يحدث بالإفادة من جرس الألفاظ وتناغم العبارات لإحداث التوافق الصوتي بين مجموعة من الحركات والسكنات لتأدية وظيفة سمعية والتأثير في المستمع . ويأتي الإيقاع من اختيار الكلمات من حيث كونها تعبر عن قيمة التأثير الذي تحدثه وظيفة الكلمة في مدلولها الإيقاعي ، فهو إحداث استجابة ذوقية تمتع الحواس وتثير الانفعالات[2] .

١- ينظر : نديم دانيال ، مدخل إلى الإيقاع الداخلي للشعر ، ٢٨٢ .

٢- ينظر : عبد القادر فيدوح ، الاتجاه النفسي في نقد الشعر ، ٢٢٥ .

والقرآن الكريم يمتاز في كل سورة منه وآية ، وفي كل مقطع منه وفقرة ، وفي كل مشهد فيه وقصة ، وفي كل مطلع منه وختام بأسلوب إيقاعي فني [١] . فالعربية لغة موسيقية ، والقرآن الكريم يسير على سننها وأساليبها في التعبير ، فتميز أسلوبه بالإيقاع المعجز ، والجرس اللافت للنظر .

والإيقاع القرآني صورة للتناسق الفني ، ومظهر من مظاهر تصوير معانيه ، وآية من آيات الإعجاز الذي يتجلى في أسلوبه المتميز . ويحوي القرآن الكريم إيقاعاً موسيقياً متعدد الأنواع ليؤدي وظائف جمالية متعددة إذ " إن الأثر الممتع للإيقاع ثلاثي : عقلي ، وجمالي ، ونفسي . أما العقلي فلتأكيده المستمر أن هناك نظاماً ودقة وهدفاً في العمل . وأما الجمالي فلأنه يخلق جواً من حالة التأمل الخيالي الذي يضفي نوعاً من الوجود المتلئ في حالة شبه واعية على الموضوع كله . وأما النفسي فإن حياتنا إيقاعية : المشي والنوم والشهيق والزفير وانقباض القلب وانبساطه " [٢] .

والنسق القرآني يجمع بين مزايا الشعر والنثر ، فهو قد تجاوز قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة ، فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة . وتضمن في الوقت ذاته من خصائص الشعر الموسيقى الداخلية ، والفواصل المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل ، والتقفية التي تغني عن القوافي . فالموسيقى القرآنية إشعاع للنظم الخاص في كل موضع ، وتابعة لقصر الفواصل وطولها ، كما أنها تابعة لانسجام الحروف في الكلمة المفردة ، ولانسجام الألفاظ في الفاصلة الواحدة [٣] . فالعطاء الموسيقي في القرآن الكريم يأتي من اللغة إذ إن الموسيقى فيه لا تنبع من وزن شعري كالذي عرفناه في تفعيلات الشعر العربي ، ولكنها تنبع من اللغة نفسها ، وهي ائتلاف الأصوات في اللفظة الواحدة ، وفي سياق الألفاظ وتناسقها

١- ينظر : د. صبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن ، ٣٢٤ . – حامد قنيبي ، المشاهد في القرآن : دراسة تحليلية وصفية ، ٢٧٣ .
٢ – د. عز الدين إسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد الأدبي ، ٣٦١ .
٣- ينظر : سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن ، ١٠٢ .

وتناغمها وأدائها للمعنى ودلالتها عليه .ولا شك أن الانتظام في الإيقاع النثري قابل للتحقق ، ولنتأمل سورة الإخلاص مثالاً على ذلك . يقول تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ [1] .

إن الانتظام هنا لا يتمثل في تكرار ظواهر صوتية معينة على مسافات معينة بقدر ما يتمثل في انتظام تزايد زخم الإيقاع النبري من نبرتين إلى أربع نبرات إلى خمس نبرات في الأخير ، بعد أن كان استهل بنبرتين قويتين متتاليتين على الكلمتين (قل هو) ، ونبرتين بعدهما على (الله أحد) . أي أن النص شكل قدراً من التوازن أولاً ثم كسر هذا التوازن (أربع نبرات + نبرتين + أربع نبرات + خمس نبرات) خالقاً بذلك نسقه الإيقاعي الحاد حدة باترة من جهة ، والمتلطف قليلاً من جهة أخرى [2] . ويمكننا أن نعد ذلك جوهر موقف القرآن الكريم من المذاهب التي تنسب لله ولداً .

غير أن هذا الانتظام ليس له صيغة محددة تشترك بها نصوص عديدة ، بل ينشا حين ينشا بنهج خاص بالنص الذي يحدث فيه . وينجلي ذلك بمقارنة إيقاع هذه السورة مع سور قصيرة مماثلة لها مثل سور : الناس ، والفلق ، والمسد وغيرها .

إن منابع الإيقاع يمكن ردها إلى ما ياتي [3] :

١- الموسيقى النابعة من تآلف أصوات الحروف في اللفظة الواحدة ، كما لا يخفى أن الأصوات متفاوتة في الجرس ويقرع بعضها بعضاً حين تجتمع في اللفظ ، فينتج عن تقارعها المتناغم لغة موسيقية جميلة .

٢- الموسيقى النابعة من تآلف الكلمات حين تنتظم في الترتيب فقرات وجمل ، فالألفاظ المفردة تقرع الألفاظ المفردة المجاورة لها سابقاً ولاحقاً ، وينجم عن تقارعها المتناسق لغة موسيقية جميلة [4] .

١- سورة الإخلاص : الآيات (١-٤) .
٢- كمال أبو ديب ، جماليات الخروج والانقطاع ،٦٨ .
٣- إبراهيم جنداري ، الإيقاع في القصة القرآنية ، ١٨٦ .
٤- د. مجيد ناجي ، الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، ٤١ .

ولا توظف الألفاظ للوصف والتصوير فحسب بل إنها توظف للنغم أيضاً ، والذي يأتي من طبيعة الحروف . وهذا النغم ليس غاية في ذاته وإنما هو وسيلة للإيحاء . وللألفاظ قيمة ذاتية إذ تقدم المتعة الحسية التي يجدها المتلقي مستمعاً أو قارئاً ، فتنشأ من تتابع أجراس حروفها ، ومن توالي الأصوات التي تتألف منها في النطق ، وفي الوقوع على الأسماع . كما أن التلاؤم يكون في الكلمة بائتلاف الحروف والأصوات وحلاوة الجرس ، ويكون في الكلام بتناسق النظم وتناسب الفقرات وحسن الإيقاع [1] .

وليست آيات القرآن الكريم موزونة حسب قواعد السجع ، ولا يمكن أن نسمي ما فيه من جرس وإيقاع سجعاً ، لأن هذا الاسم مأخوذ من مصدر بشري هو سجع الكهان ، وسجعات القرآن توضع تحت اسم الفاصلة [2] .

كما أن القرآن الكريم يتسم بنظام صوتي وجمال لغوي ، ينتظم باتساقه وائتلافه في الحركات والسكنات والمدات والغنات اتساقاً عجيباً وائتلافاً رائعاً . فهذا الجمال الصوتي هو أول شيء أحسته الآذان العربية ، أما الجمال اللغوي فيتميز برصف الحروف وترتيب الكلمات . كما أن للقرآن تعاملاً خاصاً مع الحرف والكلمة ، فهو له تعابيره الفريدة ، وكذلك قدراته التعبيرية لتقديم الصورة الفنية ، وتعميق الملامح ، وعرض التجربة كما لو كانت حية معاشة تتخلق أمامنا ، فهو قد بُنِيَ على تقطيع الأصوات ، وجرس الحروف ، وإيقاع الكلمات . فما من قدرة تعبيرية للحرف والكلمة إلا ثوّرها كتاب الله ، وبنى عليها معماره المتناسق الجميل [3] .

حقيقة الإيقاع القرآني :

يرى بعض الباحثين أن الإيقاع القرآني يصعب شرحه لما يمتاز به من عمق وسحر لا يُعرَف مصدره تحديداً ، وإن كان يمكن تفسيره ضمناً . يقول سيد قطب إنّ : " هناك نوعاً من الموسيقى

١ - ينظر : د . بدوي طبانة ، قضايا النقد الأدبي ، ١٤٧ .
٢ - ينظر : د . محمد الحسناوي ، الفاصلة في القرآن ، ١٠٠ – ١٢٤ .
٣ - ينظر : د. عماد خليل ، مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي ، ٢٨ – ٢٩ .

الداخلية يلحظ ولا يشرح ، وهو كامن في نسيج اللفظة المفردة ، وتركيب الجملة الواحدة ، وهو يدرك بحاسة خفية ، وهبة لدنية " [1] .

وكثيراً ما نلمح في النص القرآني ما يعضّد هذا الإيقاع ، ويقوّي أصوله ، مثلما نلمح في قوله تعالى في سورة طه : ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لاَ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تَخْشَى فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [2] ، كلمات في غاية الرقة مثل (يبساً) أو (لا تخاف دركاً) فالكلمات تذوب في يد خالقها ، وتصطف وتتراص في معمار ورصف موسيقي فريد ، هو نسيج وحده بين كل ما كتب بالعربية سابقاً ولا حقاً ، لا شبيه بينه وبين أي نص عربي مكتوب أو مقروء .

ويرى الرافعي أن هذا الإيقاع القرآني الفريد هو مناط الإعجاز والتحدي لقريش لما قرأه عليهم رسول الله ﷺ في بدء الدعوة . يقول الرافعي : " لما قرئ عليهم [يعني قريشاً] القرآن رأوا حروفه في كلماته ، وكلماته في جمله ، ألحاناً لغوية رائعة ، كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة ، قراءتها هي توقيعها ، فلم يفتهم هذا المعنى وأنه أمر لا قبل لهم به ؛ وكان ذلك أبين في عجزهم حتى إن من عارضه منهم كمسيلمة جنح في خرافاته إلى ما حسبه نظماً موسيقياً أو باباً منه ، وطوى عما وراء ذلك من التصرف في اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البياني ، كأنه فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية إنما هي في أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها . وليس يتفق ذلك في شيء من كلام العرب إلا أن يكون وزناً من الشعر أو السجع " [3] .

ويوضّح سيد قطب حقيقة الإيقاع القرآني بقوله : " إن في القرآن إيقاعاً موسيقياً متعدد الأنواع يتناسق مع الجو ويؤدي وظيفة أساسية في البيان . فالإيقاع الموسيقي في القرآن الكريم ينبعث من تآلف الحروف في الكلمات ، وتناسق الكلمات في الجمل ، ومرده إلى الحس الداخلي . والإدراك الموسيقي الذي يفرق بين إيقاع موسيقي وإيقاع ولو اتحدت الفواصل والأوزان " [4] .

---

١ - سيد قطب ، التصوير الفني ، ١٠٦ .
٢ - سورة طه : الآيات من (٧٧ – ٧٩) .
٣ - الرافعي ، إعجاز القرآن ، ١٦٨ – ١٦٩ .
٤ - سيد قطب ، التصوير الفني ، ١٠٣ – ١٠٤ .

ويعلّل الرافعي سر هذه الموسيقى القرآنية إذ يقول : " تألفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو أبدل بغيره ، أو أقحم معه حرف آخر ، لكان ذلك خللاً بيناً أو ضعفاً ظاهراً في نسق الوزن وجرس النغمة ، وفي حس السمع وذوق اللسان ، وفي انسجام العبارة ، وبراعة المخرج ، وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض ، ولرأيت لذلك هجنة في السمع كالذي تنكره من كل مرئي لم تقع أجزاؤه على ترتيبها ، ولم تتفق على طبقاتها ، وخرج بعضها طولاً وبعضها عرضاً "[1] .

ويجب أن نلاحظ أن الإيقاع القرآني لا يعمل بصورة منفردة وبمعزل عن السياقات المتنوعة في النص القرآني ، وذلك لأنّ القرآن منظومة متكاملة الأطراف يفضي بعضها إلى بعض في سياق تنظيمي فريد . فالإيقاع القرآني يتبع في نطاق عمله الموضوع الذي تتكلم عنه الآيات القرآنية .

والإيقاع القرآني يتنوع تبعاً لموضوع الآيات القرآنية فمثلاً " التكوين الموسيقي في قوله تعالى : ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾[2] يذهب طولاً وعرضاً في عمق وارتفاع ، ليشترك في رسم الهول العريض العميق ، والمدات المتوالية المتنوعة في التكوين اللفظي للآية تساعد في إكمال الإيقاع وتكوينه واتساقه مع جو المشهد الرهيب العميق "[3] .

وإذا كانت العبارة القرآنية لا تقع على آذاننا اليوم موقع السحر والعجب والذهول ، فالسبب هو التعود والألفة والمعايشة منذ الطفولة ، والبلادة والإغراق في عامية مبتذلة أبعدتنا عن أصول لغتنا . ثم أسلوب الأداء الرتيب الممل الذي نسمعه من مرتلين محترفين يكررون السور من أولها إلى آخرها بنبرة واحدة لا يختلف فيها موقف الحزن من موقف الفرح من موقف الوعيد من موقف البشرى من موقف العبرة . نبرة واحدة رتيبة تموت فيها المعاني ، وتتسطح العبارات .

---

١ - الرافعي ، إعجاز القرآن ، ١٧١ .
٢ - سورة هود : الآيتان رقم (٤٢ ، ٤٣) .
٣ - سيد قطب ، التصوير الفني ، ١١٣ .

التشكل الإيقاعي في القرآن :

تنبع من النظم القرآني خصائص نغمية وإيقاعية تتشكل وفقاً للتوجه السياقي في كل جملة من آياته . ويتم هذا التشكّل من خلال وضع الحرف أو الكلمة أو الجملة على نحو من الأنحاء قصداً إلى ملامح فنية تأتي في مقدمتها الموسيقى ، وبذلك يضحي التعبير أبرع ، والتأثير أروع .

إن دور الإيقاع في القرآن لا تنبع أهميته من أنه أحد عناصر الأسلوب الفني أو وسيلته البارزة ؛ وسيلة التصوير والتعبير والتأثير فحسب ، بل لأن له هدفاً دينياً أولاً ، ولأننا نستطيع أن نجعله - ثانياً - أساساً أو معياراً أو مفتاحاً لأحد علوم القرآن الكريم .

فالإيقاع ذو هدف ديني من جانبين : جانب الحافظ وجانب المستمع ، فالأول يساعده على حفظ القرآن وتذكره وتلاوته ، والثاني يجعله ينفعل له ويتأثر به . ولعلنا نلمح أن إدراك الطفل لنغم الكلام وجرسه يسبق إدراكه لمعناه وأخيلته ، كما أن الإنسان لديه ميلاً غريزياً أو استعداداً فكرياً لالتقاط وتذكر جملة من المقاطع الصوتية المنغمة والمترددة أكثر بكثير من استعداده لالتقاط بعض المقاطع العادية غير الموسقة من الكلام . وكل من شاهد حفظة القرآن من الأطفال يعرف أنهم يجدون سهولة واضحة في حفظه وتذكره أكثر مما يجدون في حفظ غيره من النصوص وتذكرها لأن الإيقاع يساعدهم على هذا .

وبالإيقاع نستطيع أن نعرف المكي من المدني لا سيما في تلك السور التي وقع حولها خلاف فقيل إنها مكية كما قيل إنها مدنية [1] . ويمكن عن طريق فحص الموضوع والأسلوب وطريقة الأداء والوقوف عند نغم الآيات وإيقاعها أن نحدد مكية بعضها مثل : (التكاثر ، والعاديات ، والزلزلة ، والرعد ، والرحمن) ، ومدنية بعضها الآخر مثل : (الجمعة ، ومحمد ، والحج ، والنساء) .

ولنأخذ سورة الزلزلة مثالاً على هذا الإيضاح الإيقاعي [2] . يقول تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا {١} وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا {٢} وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا {٣} يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا {٤} بِأَنَّ

---

١ - ينظر : الزركشي ، البرهان ، ١ / ١٨٧ . - السيوطي ، الإتقان ، ١ / ٦ .

٢ - ينظر ما سطره د . نعيم اليافي في محاولاته المتعددة لإبراز الموسيقى القرآنية وأثرها على السياق المكي والمدني . عودة إلى موسيقى القرآن ، ١٦٦ - ١٨٧ .

رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا {٥} يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ {٦} فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ {٧} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ {٨} ﴾ .

تبدأ حركة النص عنيفة قوية ، إنه يوم القيامة حيث ترجف الأرض وتزلزل ، وتنفض ما في جوفها ، تتخفف من أثقالها التي حملتها وناءت بها ، ويقف الإنسان مندهشاً ضائعاً مذعوراً يتساءل : ما الأمر؟ ما لهذه الأرض ترج وتزلزل ؟ ماذا أصابها ؟ وتتحدث الأرض ، تصف ما جرى لها ، إنه أمر الله ، أمرها أن تمور فمارت ، أن تقذف ما في بطنها فقذفت ، هنا والإنسان مشدوه يكاد لا يلتقط أنفاسه ، خائف يترقب ، في لمحة سريعة يعرض مشهد القيامة من البعث حتى الحساب ، الناس يصدرون كالجراد ، وينتشرون موزعين متخالفين ، فقوة الزلزلة وهول البركان العظيم فرقهم ، جعلهم مذعورين خائفين أشتاتاً أشتاتاً حيارى يهرعون في كل اتجاه ، ولكن إلى أين ؟ إلى الميزان ليحاسبوا ، ليروا أعمالهم ، فمن يعمل الخير أو الشر مهما يكن ضئيلاً ودقيقاً سيجده ماثلاً إزاءه ، يراه رأي العين .

إنّ إيقاع النص يساوق هذا المعنى فهو مثله سريع يرجف كالأرض ، وكالإنسان فرقاً واضطراباً . كل ما فيه متحرك بارز ماثل ، الكلمات في جرسها ، في طباقها وتوافقها ، فيما تنشره من أفياء وظلال . كلمات (الزلزلة ، أثقال ، مثقال ، ذرة ، أشتاتاً ، ليروا ، يره) كلها تشي بالموقف وتعبر عنه ، ومع ذلك فهذه الكلمات وسائر ما في المعجم من أمثالها لا تبلغ في وصف المشهد قدر ما يبلغه الخيال السمعي والبصري حين يتملى النص ، فالسورة هزة ، وهزة عنيفة للقلوب الغافلة ، هزة يشترك فيها الموضوع والمشهد والإيقاع اللفظي ، إنها صيحة قوية مزلزلة للأرض ومن عليها ، فما يكادون يفيقون حتى يواجههم الحساب والوزن والجزاء في بضع فقرات قصار ، فهل هذا مما يجيء في السور المدنية ، فتعبر عنه أوتصفه ؟![1] .

إنّ مجرد المحاولة لتلمس الظواهر الإيقاعية في التعبير القرآني مهما خفيت تظل ضرورية بغض النظر عن نتائجها . وتظل موسيقى القرآن هي موسيقى النفس ، ويظل الإيقاع هو المعبر عن حالات تلك النفس ، ويرتبط بحركة شعورها ، لأنه في حقيقة الأمر هو صوت النفس البشرية ،

---

١ - استعنا في هذا التحليل بما سطره : سيد قطب ، والرافعي في هذا الأمر في مؤلفاتهم الثرية .

صوت حالاتها المتباينة ، صوت فرحها وحزنها ، أملها ويأسها ، غضبها وسعادتها . لقد صور حركة إحساسها ، وكان صدى مشاعرها وانفعالاتها ، وبلغ في ذلك الغاية .

تلك هي أهم خصائص الإيقاع القرآني ، وما يتبعه من أنساق دلالية في إطار الدور الإبلاغي والجمالي للنص القرآني .

ثالثاً : الفاصلة

للنص القرآني خصوصية متفردة في شتى أركانه ، في تراكيبه وجمله ، في كلماته ومفرداته ، في سوره وآياته ، في نظمه ، في رسمه ، في تقسيم الآيات ، في فَصْله ووصْله ، في بلاغاته ، في نهاية آياته ؛ فواصله ، في كل ما يتعلق به . هذا التفرد والتميز لابد من البحث في وسائله وسبله ، للوقوف على نطاقات الإعجاز فيه ، ومدارات خصوصيته الفريدة .

ومن بين هذه الإعجازات ، الإعجاز في توظيف الفواصل القرآنية ، تلك الفواصل التي تحوي ألواناً إعجازية ودلالية بالغة الجمال ، ورائقة السياق ، مما يمنحها خصوصية الإسهام في منظومة الإعجاز القرآني بكل فاعلية . فهي من أساليب القرآن الممتعة .

والفواصل : جمع فاصلة ، والفاصلة في القرآن : هي آخر كلمة في الآية . وهي بمثابة السجعة في النثر ، وبمنزلة القافية في النظم ، وسميت فاصلة لأنها فصلت بين الآيتين ؛ الآية التي هي رأسها ، والآية التي بعدها . ولعل هذه التسمية أخذت من قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[1] ، وقوله : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[2] .

والفاصلة لغة : الفصل : بونٌ ما بين الشيئين . والفصل من الجسد : موضع المفصل ، وبين كل فصلين وصل . والفاصلة : الخرزة التي تفصل بين الخرزتين في النظام . وعقد مفصل أي جعل بين كل لؤلؤتين خرزة . الفصل : القضاء بين الحق والباطل . والتفصيل : التبيين[3] .

---

١ - سورة هود : آية رقم (٢) .

٢ - سورة فصلت : آية رقم (٣) .

٣ - ينظر : الجوهري ، الصحاح ، (فصل) ، ٤ / ١١٦ ، - ابن منظور ، لسان العرب ، (فصل) ، ٨ / ١٧٧ .

ويعد الخليل (ت ١٧٠هـ) أول من أشار للمصطلح إذ يقول : " سجع الرجل : إذا نطق بكلام له فواصل كقوافي الشعر من غير وزن كما قيل : " لصّها بطل ، وتمرها دقل ، إن كثُر الجيش بها جاعوا ، وإن قلّوا ضاعوا " [1] . فهو يشير إلى الفواصل الكلامية غير الموزونة ، ويدخل فيها الفواصل القرآنية .

وخلاصة الرأي اللغوي فيما يخص الفاصلة ، أنها الفصل بين شيئين متصلين ، يدور ذلك المعنى في ثنايا التخريجات اللغوية . ولا يجوز تسميتها قوافي إجماعاً ، لأن الله لما سلب عن القرآن اسم الشعر وجب سلب القافية عنه أيضاً لأنها منه ، وخاصة في الاصطلاح . وما ورد في القرآن متناسق حروف الروي والإيقاع ، موحد خاتمة الفاصلة بالصوت ، ويُوقَفُ فيه بالآية على الحرف الذي وقف عنده في الآية التي قبلها ، فلا يسمى سجعاً ، ولو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز ، ولو جاز أن يقال : هو سجع معجز ، لجاز أن يقولوا : شعر معجز ، وكيف والسجع مما كان تألفه الكهّان من العرب ، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر ، لأن الكهانة تنافي النبوّات بخلاف الشعر .

أما الفاصلة في الاصطلاح فتعددت تعريفاتها كما يأتي :

يرى الرماني (ت ٣٨٤هـ) أن " الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع ، توجب حسن إفهام المعاني ، والفواصل بلاغة ، والأسجاع عيب ، وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني ، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة له " [2] .

فهو هنا يؤكد على دور الفاصلة في المعنى ، بالإضافة إلى دورها في الإيقاع المتولد من المقاطع المتشاكلة . إلا أن كلمة الرماني (والأسجاع عيب) جعلته مقصداً للنقد خاصة من جانب ابن سنان (ت ٤٦٦هـ) الذي رأى في هذا الرأي تعميماً غير مقبول ، فرد على الرماني بقوله : " أما قول الرماني : إن السجع عيب ، والفواصل بلاغة على الإطلاق فغلط ، لأنه إن أراد بالسجع ما يكون

١- الخليل ، العين ، مادة (سجع) ، ٢ / ٢٤٤ .
٢- الرماني ، النكت في إعجاز القرآن ، ٩١ - ٩٦ .

تابعاً للمعنى ، وكأنه غير مقصود ، فذلك بلاغة ، والفواصل مثله . وإن كان يريد السجع ما تقع المعاني تابعةً له وهو مقصود متكلف فذلك عيب ، والفواصل مثله "[1] . فالخفاجي في ردّه يحفظ للمبدع حقّه ، ويصون النص القرآني من مظنة التشابه بين فواصله وأسجاع المتكلمين .

والباقلاني (ت٤٠٣ هـ) يجعلها "حروف متشاكلة في المقاطع ، يقع بها إفهام المعاني"[2] .

والداني (ت٤٤٤هـ) يجعل الفاصلة "كلمة آخر الجملة "[3] . ثمّ يفرق بين الفاصلة ورؤوس الآي بقوله : " أما الفاصلة فهي الكلام المنفصل مما بعده ، والكلام المنفصل قد يكون رأس آية ، وغير رأس . وكذلك الفواصل يكن رؤوس آي وغيرها . وكل رأس آية فاصلة ، وليس كل فاصلة رأس آية . فالفاصلة تعم النوعين ، وتجمع الضربين "[4] .

ويعرّف الزركشي (ت ٧٩٤هـ) الفاصلة بأنّها "كلمة آخر الآية ، كقافية الشعر ، وقرينة السجع "[5] . ويضيف إلى هذا التعريف رأياً يوضح فيه موضع الفاصلة إذ يقول : " تقع الفاصلة عند الاستراحة بالخطاب لتحسين الكلام بها . وهي الطريقة التي يباين بها القرآن سائر الكلام ، وتسمى فواصل ، لأنه ينفصل عندها الكلام ، وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها أخذاً من قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾[6] ولم يسموها أسجاعاً ، ولا يجوز تسميتها قوافي إجماعاً "[7] . إن مقصد الزركشي هو الإشارة إلى كون الفاصلة حالة خاصة بالنص القرآني ، وأحد نطاقات إعجازه وتفرّده عما سواه . والواضح الجلي من التعريفات السابقة هو اتفاقها على :

١- كون الفاصلة هي خاتمة الآية وآخرها .
٢- كون الفاصلة متشاكلة المقاطع إيقاعاً .

١- ابن سنان ، سر الفصاحة ، ١٧٣ .
٢- الباقلاني ، إعجاز القرآن ، ٢٧٠ .
٣- أبو عمرو الداني ، التيسير في مذاهب القراء السبعة ، ٣٢ .
٤- السابق ، ٣٧ .
٥- الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ١/ ٥٣ .
٦ - سورة فصلت ، آية رقم (٣) .
٧- الزركشي ، البرهان ، ١/ ٥٤ .

٢- لها دور في تحسين الكلام ، وجوهر عملها .

ولكن كيف يمكننا معرفة الفاصلة القرآنية ؟! والإجابة نجدها عند السيوطي في كتابه (الإتقان) إذ ينقل لنا من كتاب " أحكام الرأي في معرفة فواصل الآي " للجعبري - الذي ضاع ولم يصلنا ، ونقل السيوطي منه نصوصاً - . ينقل السيوطي لنا منه طريقتين لمعرفة فواصل الآيات هما :

الأولى : توقيفية ، أي ما ثبت من كونه ﷺ وَقَفَ عليه ، فتحقق أنه فاصلة بلا شك . من ذلك ما رواه أبو داود عن أم سلمة لما سئلت عن قراءة رسول الله ﷺ قالت : كان يُقَطِّع قراءته آية آية . وقرأت : (بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين)[1] . والمستفاد من الحديث السابق هو كون فعله ﷺ هو المحدد للوقف في النص القرآني .

أما الطريقة الثانية : فهي قياسية : أي اتباع أحكام الوقف في النص القرآني . لكن ليس كل وقف في القرآن (فاصلة) ، فالقرآن كله مبني على الوصل لا الوقف والفصل ، ومن ثم كان لابد من وسائل لمعرفة القياسي من الفواصل . هذه الوسائل تنبع من النص القرآني ذاته ، إذ يقاس على المنصوص عليه ، فيلحق به وذلك للمناسبة ، ولا شيء في ذلك ، ولذا سميت بالقياسية .

صوتيات الفاصلة :

من أجل تمييز الفاصلة ، ومعرفتها صوتياً ، علينا تتبع فواصل الآيات بدقة في تنقلها في القرآن عبر مسيرتها الإيقاعية . وقد سبق القول بأن لمعرفة الفواصل طريقين : توقيفي وقياسي . أما التوقيفي : فما ثبت أنه ﷺ وقف عليه دائماً ، تحققنا أنه فاصلة ، وما وصله دائماً ، تحققنا أنه ليس بفاصلة . وأما القياسي فهو ما ألحق من المحتمل غير المنصوص عليه بالمنصوص عليه لمناسبة ، ولا محذور في ذلك ، لأنه لا زيادة فيه ولا نقصان . والوقف على كل كلمة جائز ، ووصل القرآن كله جائز ، فاحتاج القياس إلى طريق تعرّفه .

ومن هنا كان التنقل في فواصل القرآن ، إذ لا يلتزم فيها الوقوف عند حرف معين في مواضع من السور ، ويلتزمه في مواضع أخر ، ويجمع بين الالتزام وعدمه في بعض السور ، لأن الانتقال من

١- أبو داود ، السنن ، باب ما جاء كيف كانت قراءة النبي ﷺ ، حديث رقم (١٤٦٦) .

الوقوف على حرف إلى الوقوف على حرف آخر ، أو صيغة تعبيرية أخرى في فواصل القرآن، أمر مطرد وشائع ، ونماذجه هائلة .كما أن الالتزام شائع أيضاً ، والجمع بينهما واردٌ كذلك ، ومن هنا تبرز ثلاثة ملامح صوتية تتحقق في الفواصل على سبيل المثال :

الأول : جمع القرآن بين لفظي (تحشرون) و(العقاب) وهما مختلفان في حرف الفاصلة والوزن في قوله تعالى : ﴿ واعلموا أنَّ اللهَ يحولُ بينَ المرءِ وقلبه وأنَّهُ إليه تُحشرون واتَّقُوا فتنةً لا تُصيبنَّ الَّذينَ ظَلَموا منكُم خاصَّة واعلَمُوا أنَّ اللهَ شديدُ العقَاب ﴾ [1] .

والثاني : الوقوف عند حرف معين لا يتغير في الفاصلة كما في سور عدّة . فمن أمثلته جملة من السور القصار مثل (القدر ، والعصر ، والفيل ، والليل ، والكوثر ، والإخلاص ، والناس) . وجملة من السور الوسطى مثل (الأعلى ، والقمر) وفيها جميعاً مراعاة للمنهج الصوتي ، والبعد الإيقاعي ، ويتجلى النغم الصوتي المتميز بأبهى صوره ، وأروع مظاهره في سورة القمر ، إذ تختتم فيها الفاصلة بصوت (الراء) مردداً بين طرف اللسان وأول اللهاة مما يلي الأسنان .

والثالث : الوقوف عند حرف معين للفاصلة في بعض السور ، والانتقال منه للوقوف عند حرف آخر للفاصلة في بعضها الآخر . وأمثلته متوافرة في جملة من السور كالنبأ ، والمرسلات ، والنازعات ، والتكوير ، والانفطار ، والمطففين . ولننظر إلى سورة (عبس) وهي تواكب صوت (الهاء) في فواصل عدة آيات ، ثم تنتقل إلى (الراء الملحقة بالتاء القصيرة) بعدها في آيات أخر . يقول تعالى : ﴿يومَ يَفرُّ المرءُ من أخيهِ وأمهُ وأبيهِ وصاحِبَتِهِ وبَنيه لِكُلِ امرىءٍ مِنهُم يَومئذٍ شأنٌ يُغنيهِ وُجُوهٌ يومئذٍ مَسفرةٌ ضاحِكةٌ مستبشرةٌ وَوُجوهٌ يومئذٍ عليها غَبرةٌ تَرهَقُها قَترةٌ أُولئكَ هُمُ الكَفَرةُ الفَجَرةُ﴾ [2].

وقد لا يراد الملحظ الصوتي مجرداً عن الأبعاد الأخرى في فواصل الآيات ، فقد يجتمع في الفاصلة الغرض الفني بجانب الغرض الديني ، فتؤدي الفاصلة غرضين . فمن أبرز الصور

---

١ - سورة الأنفال : الآيتان رقم (٢٤ ، ٢٥) .
٢ - سورة عبس : الآيات رقم (٣٤ – ٤٢) .

الاجتماعية الهادفة في سورة البلد : آيات العقبة ، وتفصيلات يوم القيامة ، في تجاوز مظاهر القيد ، ومراحل الفقر والجوع ، ليتم تجاوز العقبة الحقيقية في القيامة ، ولا يتم ذلك إلا بتجاوز عقبات الظلم الاجتماعي وتخطي مخلفات العهد الجاهلي ، واقتحام القيم التي عطلت الحياة الإنسانية عن مسيرتها في التحرر والانطلاق ، وهي قيم قاتلة ، وأعراف بالية نشأت عن الطغيان المتسلط ، والتفاوت الطبقي المقيت ، فالرق ضارب بأطنابه ، والاستئثار شكّلَ مجاعة جماعية ، والقطيعة في الأرحام أنهكت الأيتام ، والغنى اللامشروع فجّر سيلاً من الأوضار الاجتماعية تشكل رعيلاً سادراً من الأرامل والمساكين ، ممن ألصقهم الفقر بالتراب ، أو لصقوا هم به من الفقر والضر والفاقة ، فأحال ألوانهم كلَونه ، فهم يلتحفون التراب ويفترشونه ، ولا يجدون غيره ، حتى عادوا جزءاً منه ، وعاد هو جزءاً من كيانهم ، فمن التراب وعلى التراب وإلى التراب[1] .

هذا المناخ المزري عقبات متراكمة ، من فوقها عقبات متراكمة ، وإزالة هذه العقبات تدريجياً هو الطريق إلى تجاوز العقبة الكبرى . يقول تعالى : ﴿ فَلا اقتَحَمَ العقبةَ وما أدراكَ ما العقبةُ فَكُّ رقبةٍ أو إطعامٌ في يومٍ ذي مَسغَبَة يَتيماً ذا مقربةٍ أو مسكيناً ذا متربةٍ ﴾[2] . ما هذا الإيقاع المجلجل ؟ وما هذه النبرات الصوتية الرتيبة ؟ وما هذا النسق المتوازن ؟ (العقبة ، ورقبة ، ومسغبة ، ومقربة ، ومتربة) أصداء صوتية متلاحقة في وزن متقارب ، زادها السكت رنةً وتأثيراً ولطفاً وتناغماً ، وسط شدة هائلة مرعبة ، فالاقتحام في مكابدته ، والعقبة في التوائها ومخاطرها ، يتعانقان في موضع واحد ، يوحي بالرهبة والفزع .

وإرادة التأنيب والتعنيف مع الحضّ ، في صيغة النفي وتقريره ، والاستفهام وتهويله ، حافز وأي حافز على معالجة هذه المخاوف الاجتماعية السائدة ، ودرء هذه المشاكل العالقة في المجتمعات المتخلفة (السغب ، واليتم ، والمسكنة) ، إنها آفات متطاولة تنخر في بنية الجسم الإنساني فتهدمه ، واقتحامها بحزم يتركها وراء الإنسان مسافات متراميةً ، وذلك ما يهيئ السبيل إلى تجاوز العقبة المترقبة الوقوع ، في كل معانيها البيانية حقيقية كانت أو مجازية .

١- ينظر : د. حسين جمعة ، جمالية الكلمة ، ٢٧٦ .

٢- سورة البلد : الآيات رقم (١١ – ١٦) .

إن ورود هذه الآيات في نسق صوتي متجانس ، يضفي على الفاصلة القرآنية جمالها وحسها الإيقاعي الهادر ، دون تطلع إلى تعبير مماثل أو مغاير ، فهي تمتلك النفس ، وتأخذ بالإحساس : فالحرية أولاً ، والعطاء المغني ثانياً ، بدءاً بالأرحام ، وعطفاً على الآخرين ، وفيها أخذ بملحظ القرابة والرحم ، وحث على تقديم ذوي القربى من المعوزين على الأباعد في فك القيود ، وعتق الرقاب ، والإطعام بإحسان [1] .

ظواهر الملحظ الصوتي في فواصل الآيات :

الملحظ الصوتي في فواصل الآيات القرآنية قائم على عدة ظواهر نرصد منها [2] :

الظاهرة الأولى : وتتمثل بزيادة حرف ما في الفاصلة عناية للبعد الصوتي ، واهتماماً بنسق البيان ، ليؤثر في النفس تأثيره الحسّاس ، فتتطلع الأفئدة حين يتواصل النغم بالنغم ، ويتلاحم الإيقاع بالإيقاع . وأبرز مظاهر هذه الظاهرة ألف الإطلاق - إن صح التعبير بالنسبة للقرآن - فقد ألحقت الألف في جملة من الآيات بأواخر بعض كلماتها ، وكان حقها الفتح مطلقاً ، دون مدّ الفتحة حتى تكون ألفاً . ومن الآيات التي تمثلت فيها هذه الظاهرة . يقول تعالى : ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾[3] ، ويقول جل شأنه : ﴿يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ﴾[4] ، ويقول : ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ﴾[5] .

ويبدو أن إلحاق هذه الألف في كلمات (الظنون ، والسبيل ، والرسول) يشكل ظاهرة صوتية تدعو إلى التأمل ، وإلا فما يضير الفتح لولا الملحظ الصوتي ، لأن فواصل هذه السورة منقلبة عن تنوين في الوقف ، فَزِيدَ على النون ألفٌ لتُساوي المقاطع ، وتَنَاسب نهايات الفواصل .

وما يقال هنا يقال فيما ورد في سورة القارعة من زيادة هاء السكت وإلحاقها في كلمة (هي) لتوافق الفاصلة الأولى الثانية في قوله تعالى : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾[6] .

---

١ - ينظر : د. محمد الصغير ، الصوت اللغوي في القرآن ، ٢٠٢ - ٢٢٣ .
٢ - ينظر : د . إبراهيم السامرائي ، من وحي القرآن ، ١٢٢ - ١٢٨ .
٣ - سورة الأحزاب : آية رقم (١٠) .
٤ - سورة الأحزاب : آية رقم (٦٦) .
٥ - سورة الأحزاب : آية رقم (٦٧) .
٦ - سورة القارعة : الآيتان رقم (١٠ ، ١١) .

ونلحظ أيضاً هذا الملحظ في سورة الحاقة وما أضافته (هاء السكت) في لحوقها ببعض الفواصل في جملة من آياتها ، فنقف خاشعين مبهورين بهذا الوضع الموسيقي الحزين ، المنبعث من أقصى الصدر وأواخر الحلق ، فتتقطع الأنفاس واجمة ومتفكرة ومتطلعة ، فنصادف المناخ المتفائل حيناً ، والمتشائم حيناً آخر ، ونحن فيما بينهما متارجحين بين الياس والرجاء ، والأمل والفزع ، والخشية والتوقع ، فسبحان الله حيث يقول : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾[1] . نلاحظ الفواصل (كتابيه ، وحسابيه ، وكتابيه ، وحسابيه ، وماليه ، وسلطانيه) قد زيدت فيها هاء السكت رعاية لفواصل الآيات المختومة بالتاء القصيرة والتي اقتضى السياق نطقها هاءً للتوافق .

غير أننا نجد الهاء موظفة في آيات أخر غير مزيدة لكنها تؤدي الدور الصوتي المنوط بها في سياق الحفاظ الأدائي على موسيقى الفاصلة . نجدها ضمير ملصق بالفواصل ، غير زائد ، أصلي الورود ، وقد حقق بذلك وقعه في النفس ، وجرسه في الأذن . يقول تعالى : ﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾[2] . فلا زيادة في هذه الهاء ، وهي ضمير في الفواصل كلها ، وقد حققت صوتياً مناخ الانتباه ، ورصد مواضع الإصغاء .

الظاهرة الثانية : وتتمثل بحذف حرف ما رعاية للبعد الصوتي ، وعناية بالنسق القرآني كما في قوله تعالى : ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾[3] . فقد حذفت الياء من كلمة

---

١ - سورة الحاقة : الآيات رقم (١٨ – ٢٩) .
٢ - سورة المعارج : الآيات رقم (١١ – ١٤) .
٣ - سورة الفجر : الآيات رقم (١ – ٤) .

(يسر) موافقة للفاصلة قبلها . ومثله في السورة نفسها : ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾[1] . فالياء من كلمتي (أكرمن ، وأهانن) قد حذفت رعاية لهذا الملحظ الصوتي ، ورعاية للنون المُغَنَّة عند الوقوف عليها . وهذا الأمر مطرد في جملة من آيات القرآن الكريم في سياق الفواصل مثل قوله تعالى : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[2] .

الظاهرة الثالثة : وتتمثل في تاخير ما حقه التقديم ، وتقديم ما حقه التاخير ، زيادة في العناية بالسياق ، وتناسق الألفاظ ، وترتيب الفواصل ،كما في قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾[3] ، فتاخر الفاعل وحقه التقديم . وعليه يحمل تقديم هارون على موسى في قوله تعالى : ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾[4] . فهارون كان وزيراً لموسى ، وقدم هارون عليه رعايةً للفاصلة المنتظمة بالألف والألف المقصورة في أغلبها .

الظاهرة الرابعة : أشار الزركشي أنه قد كثر في القرآن الكريم ختم كلمة المقطع من الفاصلة بحروف المد واللين وإلحاق النون ، وحكمته وجود التمكن من التطريب[5] . وقد ورد حرف النون بعد حروف المدّ متواكباً في القرآن حتى عاد ذلك سراً صوتياً متجلياً في جزء كبير من فواصل آيات سوره ، ونمثل لكل حرف من حروف المدّ يليه حرف النون بمثال واحد كما ياتي :

١- وردت الألف مقترنة بالنون في فواصل سورة الرحمن على نحوين :

الأول : ورودهما متتابعين ، وهما من أصل الكلمات كقوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾[6] .

---

١ - سورة الفجر : الآيتان رقم (١٥ ، ١٦) .
٢ - سورة الكافرون : آية رقم (٦) .
٣ - سورة طه : آية رقم (٦٧) .
٤ - سورة طه : آية رقم (٧٠) .
٥ - ينظر : الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ١/ ٦٨ .
٦ - سورة الرحمن : الآيات رقم (١ - ٥) .

والثاني : ورودهما متتابعين ، ملحقان بالكلمة علامة للرفع ، ودلالة على التثنية ، كما في قوله تعالى : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[1] . ويتحقق في التحوين مدّ الصوت تحقيقاً للترنم .

٢- وردت الياء مقترنة بالنون في أبعاد كثيرة من فواصل الآيات القرآنية ، ففيما ورد من خبر سيدنا نوح- عليه السلام- يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾[2] . والطريف أن سورة المؤمنين تتعاقب فواصلها (الياء والنون) أو (الواو والنون) شأنها في ذلك شأن جملة من سور القرآن ، فكأنها جميعاً تُعنَى بهذا الملحظ الصوتي الدقيق .

٣- وردت الواو مقترنة بالنون في أجزاء عديدة ومتنوعة من فواصل طائفة كبيرة من السور . فسورة الشعراء فيها تعاقب كبير على (الياء والنون) مضافاً إليه التعاقب على (الواو والنون) ، وموضع الشاهد قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾[3] .

إن ما أبداه الزركشي من كون ختم مقطع الفواصل بحروف المد واللين وإلحاق النون ، ليس بالضرورة للتمكن من التطريب ، ولكنه يشكل ظاهرة بارزة في صيغ تعامل القرآن الكريم مع هذه الحروف مقترنة بالنون ، وقد يخفى علينا السبب ، ومع ذلك فهو ملحظ متحقق الورود .

تلك هي أهم الدقائق المتعلقة بجانب الفاصلة كقيمة صوتية لها قيمتها في سياق الأداء القرآني ، خاصة ما يتصل بالجوانب الدلالية في هذا السياق .

---

١ - سورة الرحمن : الآيات رقم (١٩ – ٢٢) .
٢ - سورة المؤمنون : الآيات (٢٨ – ٣١) .
٣ - سورة الشعراء : الآيات رقم (٥٤ – ٥٧) .

رابعاً : الحكاية الصوتية

يحتمل هذا المصطلح الصوتي في تنوع دلالاته أكثر من احتمال يتمثل في :

١- أنه قد يُراد به حكاية اللفظ المسموع سابقاً بصورته الشكلية والإعرابية دون أي مراعاة للموضع الإعرابي الذي يتم التوظيف فيه ، والإبقاء على تلك الهيئة كما سُمعت ، حتى لو تعارضت الصورة المحكية مع الحالة الإعرابية . فمثلاً إذا سمعنا من يقول : (قرأتُ اليومَ كتاباً) فنسأله : أي كتاباً ، على الحكاية . ولهذا الوجه تفصيل مكانه أمهات كتب النحو [1] .

٢- وقد يُراد بالحكاية الصوتية حكاية الجملة بعد القول على صورتها السمعية دون تغيير ، وهي حينئذ تدخل في دائرة الجمل التي لها محل من الإعراب : (الجملة المحكية) . وذلك كقوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴾ [2] فجملة : إني عبد الله جملة محكية بعد القول ، أو ما تصرف منه ، وتعرب في محل نصب مقول القول [3] .

وقد تكون الجملة المحكية بعد القول مقتصرة على حكايتها بالمعنى ، فنقول في حكاية جملة (محمدٌ نائمٌ) ، (قال أحمد : نائمٌ محمدٌ) حكاية بالمعنى دون التقيد بالترتيب الإعرابي لمفردات الجملة ، أي بإعمال فنية التقديم والتاخير .

ويقدم الجزولي تقسيماً للجملة ليصل بها إلى المحكي وغيره فيقول : "والجملة تنقسم إلى مسمًّى بها وغير مُسمًّى بها . فغير المسمَّى يُحكى بالقول ، والقول تُحكى به الجملة الواقعة بعده أو جزء منها " [4] .

٣- وقد يُراد بالحكاية الصوتية حكاية الصوت للمعنى ، أي تمثل الأصوات لمعانيها ، وهو ما يُسمَّى في علم اللغة الحديث بالقيمة الدلالية للصوت [5] .

١- ينظر : سيبويه ، الكتاب ، ٢/٤٠٧-٤٢٤ ، ٣/٢٦٨ ، ٢٢٣ .- المبرد ، المقتضب ، ٢/٣٠٤ . - الجزولي ، المقدمة الجزولية ، ٢٦٣ - ٢٦٦ . - ابن معطي ، الفصول الخمسون ، ٢٦٨ .

٢- سورة مريم : آية رقم (٣٠) .

٣- ابن هشام ، أوضح المسالك ، ٤/ ٢٦٢ .

٤- الجزولي ، المقدمة الجزولية ، ٢٦٣ .

٥- د. محمد بو عمامة ، الصوت والدلالة ، ٨٣ .

وقد أدرك اللغويون القدماء هذه المسألة وفصلوا القول فيها . فابن جني يقول :" أما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع ، ونهج متلئب عند عارفيه مأموم ، وذلك أنهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبَّر بها عنها ، فيعدلونها بها ويحتذون عليها ، وهذا أكثر مما نقدره ، وأضعاف ما نستشعره . فمن ذلك قولهم : (خَضَمَ ، وقَضَمَ) ، فالخضم لأكل الرَّطب كالبطيخ والقثاء وما كان نحوهما من المأكول الرطب . والقضم للصلب اليابس نحو : (قضمت الدابة شعيرها) ونحو ذلك . فاختاروا (الخاء) لرخاوتها للرطب ، و(القاف) لصلابتها لليابس ، حذواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث "[1] .

فالفرق بين الخَضْم والقضم فرق صوتي في المقام الأول ؛ إذ حدث تبادل بين صوتي الخاء والقاف تبعه تغير دلالي واضح . ولابن جني جهد كبير في تبيان هذه الجزئية .

وهذا الذي ذهب إليه ابن جني من إثبات القيمة الدلالية للصوت ، أو حكاية الأصوات لمعانيها بما يشاكل تلك المعاني هو عين ما توصلت إليه البحوث اللغوية الحديثة التي تقرر أن الانتقال من الفونيم (الصوت) الذي يدل على نفسه بنفسه إلى الكلمة التي تدل على شيء آخر لا يُعد انتقالاً كبيراً ، وذلك لأن الكلمات في أصلها تتألف من فونيمات ، والمعاني الناتجة من وضع الكلمات في تراكيب بنائية معينة تختلف تماماً عن معاني الكلمات في صورتها المقررة[2] .

ويلحظ تواتر اللغويين على معالجة ابن جني لهذه المسألة ، وتمثلهم لها بصورة دقيقة ، كما يتضح في مؤلفاتهم الثرية[3] .

وهذه الاحتمالات لدلالات مصطلح الحكاية الصوتية نجدها بصورة واضحة متمثلة في آيات النص القرآني أيما تمثيل . وذلك يتضح أكثر من خلال تحليل بعض الأمثلة القرآنية التي نختار منها ما يوافق دلالة مصطلح الحكاية الصوتية خاصة حكاية الصوت لمعناه ؛ إذ نجده مدللاً على التلوين الصوتي بصورة أكيدة في سياقات القرآن الكريم .

---

١ - ابن جني ، الخصائص ، ٢ / ١٥٧ .

٢ - د . محمد بو عمامة ، الصوت والدلالة ، ٩٣–٩٥ .

٣- ينظر : ابن فارس ، مقاييس اللغة ، ٤/ ٤٢٨– ٤٤١ ، ٤ / ٤٨٥ .–د. إبراهيم أنيس ، من أسرار اللغة ، ١٢٦ .

فقد توافرت طائفة من الألفاظ الدقيقة عند إطلاقها في القرآن ، وتتميز هذه الدقة بكون اللفظ يدل على نفس الصوت ، والصوت يتجلى فيه ذات اللفظ ، بحيث يستخرج الصوت من الكلمة ، وتؤخذ الكلمة منه ، وهذا من باب مصاقبة الألفاظ للمعاني بما يشاكل أصواتها ، فتكون أصوات الحروف على سمت الأحداث التي يراد التعبير عنها . وفيما يأتي أمثلة لهذا الملحظ في القرآن العظيم :

١- مادة (خرّ) :

توحي هذه المادة بأن هذا اللفظ جاء متلبساً بالصوت على سمت الحدث في :

- قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ [١] .
- قوله تعالى : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ [٢] .
- قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ [٣] .
- قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ﴾ [٤] .
- قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ [٥] .

فإن هذا اللفظ جاء بصيغة واحدة في عدة استعمالات ليدل بمجمله على السقوط المصحوب بصوت ما ، وهذا الصوت هو الخرير ، والخرير هو صوت الماء ، أو صوت الريح ، أو صوتهما معاً ، فالحدث على هذا مستلٌّ من جنس الصوت .

ومن هنا يستشعر الراغب الأصفهاني الدلالة الصوتية للفظ فيقول : " معنى خرّ : سقط سقوطاً يسمع منه خرير ، والخرير يقال لصوت الماء والريح وغير ذلك مما يسقط من علو . وقوله تعالى : ﴿ خَرُّوا سُجَّداً ﴾ [٦] ، فاستعمال الخر تنبيه على اجتماع أمرين : السقوط ، وحصول

١ - سورة الأعراف : آية رقم (١٤٣) .
٢ - سورة النحل : آية رقم (٢٦) .
٣- سورة الحج : آية رقم (٣١) .
٤- سورة سبأ : آية رقم (١٤) .
٥- سورة ص : آية رقم (٢٤) .
٦- سورة السجدة : آية رقم (١٥) .

الصوت منهم بالتسبيح ، وقوله من بعده ﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ فتنبيه أن ذلك الخرير كان تسبيحاً بحمد الله لا بشيء آخر"[1] .

والخرّياتي بمعنى السقوط من شاهق ، وأن الخرير إنما يستعمل لصوت الماء أو الريح أو الصدى محاكياً لهذا اللفظ في ترديده ، فلم يرد مجرد السقوط من (خرّ) وإنما أراد الصوت مضافاً إليه الوقوع والوَجْبَة في إحداث هذا الصوت ، وكانت هذه الإضافة الدلالية صوتية سواءً أكانت في صوت الماء ، أم بالوقوع والسقوط ، أم بالتسبيح[2] .

٢ـ مادة (صرّ) :

كما في كلمة (صر) من قوله تعالى : ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾[3] .أو كلمة (صرصر) في قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾[4] . وقوله تعالى :﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾[5] .

فهذه المادة في الصيغ الثلاث : مرفوعة ، ومجرورة ، ومنصوبة ، وردت في القرآن على نحو توظيفي نلمس فيها اصطكاك الأسنان ، وترديد اللسان ، فالصاد في وقعها الصارخ ، والراء المضعّفة ، وتكرار المادة في صرصر ، قد أضفتا صيغة الشدة ، وجسّدتا صورة الرهبة ، فلا الدفء بمستنزل ، ولا الوقاية متيسرة ، وذلك ما يهدد كيان الإنسان عند التماسه الملجأ فلا يجده ، أو النجاة فلا يصل شاطئها ، أو الوقاية من البرد القارس فلا يهتدي لها[6] . في لفظ (الصر) ذائقة الشتاء ، وأصوات الرياح العاتية ، وهذه المادة "ترجع إلى الشدة لما في البرودة من التعقد "[7] .

١- الراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ، ١/ ١٤٤ .

٢- ينظر : سيد قطب ، التصوير الفني ، ١٢٢ – ١٣٣ .

٣ - سورة آل عمران : آية رقم (١١٧) .

٤ - سورة القمر : آية رقم (١٩) .

٥ - سورة الحاقة : آية رقم (٦) .

٦ - ينظر : د. محمد الصغير ، الصوت اللغوي في القرآن ، ١٨٨ .

٧ - الراغب ، المفردات ، ١ / ٢٧٩ .

ويرى الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) أن : الصرّ الريح الباردة نحو الصرصر ، وفيه أوجه : أحدها : أن الصرّ في صفة الريح بمعنى الباردة ، فوصف بها القرّة بمعنى فيها قرّة صر ، كما تقول : برد بارد على المبالغة . والثاني : أن يكون الصرّ مصدراً في الأصل بمعنى البرد فيجيء به على أصله . والثالث : أن يكون شبه ما كانوا ينفقون بالزرع الذي جَسّه البرد فذهب حطاماً [١] .

ويمكننا أن نضع أيدينا على الحس الصوتي في اللغة ، فيعطينا دلالة خاصة مواكبة لسياق الحدث في هذا الصوت : فريح صِرّ وصَرْصَر شديدة البرودة ، وشديدة الصوت ، وصِرّ وصَرْصَر : صوت الصرير . وفي قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾ [٢] أقوال : أحدها : فيها صرّ أي برد ، والثاني فيه تصويت وحركة . والصرّة أشد الصياح تكون في الطائر والإنسان . وصرّ صماخه صريراً : صوّت من العطش ، وصرصر الطائر : صوّت . ويقال صرّ العصفور يصرّ إذا صاح ، وصرّ الجندب يصرّ صريراً ، وصرّ الباب يصرّ ، وكل صوت شبه ذلك فهو صرير إذا امتدّ ، فإذا كان فيه تخفيف وترجيع في إعادة ضوعف كقوله : صرصر الأخطب صرصرة ، كأنهم قدّروا في صوت الجندب المد ، وفي صوت الأخطب الترجيع فحكوه على ذلك [٣] .

فالصوت هنا ملازم لـ (صرّ) و(صرصر) تارة في الشدة ، وأخرى في صوت الريح ، ومثلها في أشد الصياح ، وتارة في التصويت من العطش ، وسواها في تصويت الطائر ، وأهمها (الصر) سُمّيَ بصوته ، ويليه العصفور إذا صاح ، ومن ثم صرير الباب ، وصر الجندب ، وكل صوت يشبه ذلك في التخفيف أو الترجيع . و(صرّ) في الآيات ليست بمعزل عن هذه المدلولات في الشدة والصوت والتصويت ، وتسمية الشيء باسم صوته . والذكر الحكيم حافل بالألفاظ دالة على الأصوات ، جرياً على سنن العرب في تسمية اللفظ باسم صوته .

والنص القرآني يحقق معادلة نصية دلالية مفادها أن توظيف اللفظ المناسب يكون بالصوت المناسب لهذا اللفظ . فكل لفظ في القرآن الكريم اختير مكانه وموضعه من الآية أو العبارة أو

---

١ - ينظر : الزمخشري ، الكشاف ، ١ / ٤٠٤ — ٤٠٥ .
٢ - سورة آل عمران : آية رقم (١١٧) .
٣ - ينظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (صر) ، ٤/ ٢٦٨ — ٢٧٠ .

الجملة بصورة محددة بحيث إن غيره لا يسد مسدّه بداهة . فقد اختار القرآن اللفظ المناسب في الموقع المناسب من عدة وجوه ، وبمختلف الدلالات ، إلا أن استنباط ذلك صوتياً يوحي باستقلالية الكلمة المختارة لدلالة أعمق ، وإشارة أدقّ ، بحيث يتعذر استبدال ذلك بغيره ، إذ لا يؤدي غيره المراد الواعي منه ، وذلك معْلَمٌ من معالم الإعجاز البياني في القرآن .

فمثلاً في قوله تعالى : ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ [1] نلمس جرسًا موسيقيًا حالمًا ، وصدى صوتيًا عميقًا ، وإطلاقًا للأصوات من أقصى الحلق ، وضمها للشفة ثم إعادة إطلاقها ، فيما يتعين به موقع لفظة (أوّبي) بحيث لا يسدّ مسدّها غيرها من الألفاظ ، فالمراد بها ترجيع التسبيح من : آب يؤوب ، على جهة الإعجاز بحيث تُسبّح الجبال ، وهو خلاف العادة ، وخرْق لنواميس الكون في ترديد الأصوات من قبل ما لا يُصوت . ولو استبدل هذا اللفظ في غير القرآن لما أحسسنا بمثل هذه الدلالة التوظيفية ، ولانعدمت الدلالة الصوتية [2] .

يقول الزمخشري : " فإن قلت : أي فرق بين هذا النظم وبين أن يقال : (وآتينا داود منا فضلاً تأويب الجبال معه والطير ؟) قلت : كم بينهما ؟ ألا ترى إلى ما فيه من الفخامة التي لا تخفى من الدلالة على عزة الربوبية ، وكبرياء الألوهية ، حيث جعلت الجبال منزّلة منزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا ، وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا ، إشعاراً بانه ما من حيوان وجماد ، وناطق وصامت إلا وهو منقاد إلى مشيئته ، غير ممتنع عن إرادته"[3] .

وتُقرَأ الآية : ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ بالتشديد ، وتُقرَأ بالتخفيف[4] ، فمن قرأ (أوّبي) بالتشديد فمعناه : يا جبال سبّحي معه ، ورجعي التسبيح لأنه قال : سخرنا الجبال معه يسبحن ، ومن قرأ (أوبي) بالتخفيف ؛ فمعناه : عودي معه بالتسبيح كلما عاد فيه . فالنظام

---

١ - سورة سبا : آية رقم (١٠) .

٢- ينظر : د . محمد الصغير ، الصوت اللغوي ، ٢١٠ .

٣- الزمخشري ، الكشاف ، ٣ / ٥٧١ .

٤- قرأ الحسن بالتخفيف ، والجمهور على التشديد . ينظر : الفراء ، معاني القرآن ، ٢/ ٣٥٥ .

الصوتي هو الذي يحقق المعنى الجملي ، فإن كانت (أوبي) بالتشديد ، وهي القراءة المتعارفة ، فالمراد : التسبيح في ترديده وترجيعه ، وإن كانت بالتخفيف ؛ فتعني الرجوع والأوبة ، وعليه فالمراد إذن : العودة إلى التسبيح كلما عاد .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[1]. تبرز كلمة (أوهن) لتعطي معنى الضعف ، وكان من الممكن تحقق هذا المعنى بتوظيف كلمة (أوهى) ، ولكن القرآن الكريم استعمل لفظة (أوهن) دون (أوهى) ، وذلك لما يحققه ضم حروف الحلق ، وأقصى الحلق إلى النون من التصاق وغنة لا تتأتى بضم الألف المقصورة إليها صوتياً ، وحينئذ تصل الكلمة إلى الأسماع ، وتصك الآذان ، وهي تحمل لوناً مشعراً بالعجز ، مؤكداً بضم هذه النون ـ من ملحظ صوتي فقط ـ إلى تلك الحروف لتحدث واقعًا خاصاً يشعر بالضعف المتناهي لا بمجرد الضعف وحده . وكان هذا بتأثير مباشر من دلالة اللفظ الصوتية ، إذ أحدثت فيها النون وهي من الصوامت الأنفية صدى وإيقاعاً لا تحدثه الألف المقصورة وهي صوت حلقي خالص ، لا غنة معه ، ولا ضغط ، ولا إطباق .

وهذا التشبيه يجمع إليه إيحائياً دلالة أن الأصنام والأشخاص والقيم غير الإنسانية جميعها واهنة متداعية عاجزة حتى عن حماية كيانها ، لأنها تكوين واهن ، وبناء تتداعى أركانه ، ومثل هذا التكوين وذلك البناء لا اعتماد عليه ، ولا اعتداد به ، إنما القوة بالله ، والحماية من الله ، والالتجاء إلى الله فهو وحده الركن القويم[2] . يقول الزمخشري : " وقد صح أن أوهن البيوت بيت العنكبوت ، وكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتاً بيتاً بيت العنكبوت ، كذلك أضعف الأديان إذا استقريتها ديناً ديناً عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون "[3] .

وإذا كان القرآن قد امتاز بتخيّر الألفاظ وانتقائها ، فإنه يرصد بذلك ما لهذه الألفاظ من قوة تعبيرية ، بحيث يؤدي بها فضلاً عن معانيها العقلية كل ما تحمله في مكوناتها من صور مدخرة ، ومشاعر كامنة تمازجت حول ذلك المعنى العقلي . وهو ما تنبّه إليه الزمخشري في تعليله .

---

١ - سورة العنكبوت : آية رقم (٤١) .
٢ - ينظر : سيد قطب ، التصوير الفني ، ٤٣ .
٣ - الزمخشري ، الكشاف ، ٣ / ٤٥٥ .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1] . تنهض كلمة (كَلٌّ) وهي صارخة مشرأبة ، لتوحي عادة بمعنى التواكل والعالة في أبرز مظاهرها ، وقد استعملها القرآن لإضاءة المعنى- بما فيها من غلظة وشدة وثقل- لهذا الصدى الصوتي الخاص المتولد من احتكاك الكاف وإطباق اللام على اللهاة ، وما ينجم عن ذلك من رنة في الذاكرة ، وشدة على السمع ، فصوت (الكاف) في العربية ، وهو من حروف الإطباق ، شديد انفجاري مهموس ، وصوت (اللام) وهو من حروف الأسنان واللثة ، مجهور متوسط بين الشدة والرخاوة[2] . وقد اجتمع المهموس والمجهور معاً في هذا اللفظ . فإذا علمنا أن المهموس هو الصوت الذي يظل النفس عند النطق به جارياً لا يعوقه شيء ، وأن المجهور هو الصوت الذي يمتنع النفس عن الجريان به عند النطق ، أدركنا سر اجتماع الكاف المهموسة واللام المجهورة في هذا اللفظ ، وما في ذلك من عسر في اللفظ دال على المعنى وغلظته .

يقول د. مهدي المخزومي : " فإذا اجتمع صوت مجهور ، وآخر مهموس ؛ فقد اجتمع صوتان مختلفان لكل منهما طبيعة خاصة ، والجمع بين هذين الصوتين يقتضي عضو النطق أن يعطي كل صوت منهما حقه ، وفي ذلك عسر لا يخفى ، فإذا تألفت كلمة وقد تجاور فيها صوتان ؛ أحدهما مجهور ، والآخر مهموس ، فما يزال أحدهما يؤثر في الآخر حتى يصيرا مجهورين معاً ، أو مهموسين معاً "[3] .

لقد ظل النفس جارياً مستطيلاً في اللام عند مجاورتها للكاف ، وزاد التشديد في استطالتها ، لتوحي الكلمة بأبعادها الصوتية : بأن هذا العبد شؤم لا خير معه ، فهو عالة وزيادة ، بل هو (كَلٌّ) بكل التفصيلات الصوتية لهذا اللفظ . لقد كان اختيار اللفظ المناسب للصوت المناسب حقلاً يانعاً في القرآن الكريم لا للدلالة الصوتية فحسب ، بل لجملة من الدلالات الإيحائية واللغوية والهامشية ، وتلك ميزة القرآن في تخيّر الألفاظ . وفي السياق ذاته نجد ارتباط الصوت بما

١- سورة النحل : آية رقم (٧٦) .
٢- ينظر : ابن جني ، سر صناعة الإعراب ، ١/ ٦٩ .
٣- د . مهدي المخزومي ، في النحو العربي ، قواعد وتطبيق ، ٨ .

يشاكل معناه في أجلى مظاهره متمثلاً في سياق آيات العذاب عندما ينقل لنا النص القرآني صورة النار من خلال التخويف والتهويل والإنذار . فالكلمات بأصواتها تصور لنا بجرسها العنيف هذا الجو المشحون بالسياق الموضوعي لهذه الألفاظ ، وذلك لأن " الصورة الصوتية للحرف تشكل المادة الأولى للقيم اللفظية " [1] .

ولنأخذ مثالاً لهذه التصويرات : فمثلاً ما نجده من تقارن صوتي الظاء والشين في كلمة (شواظ) في قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ [2] . وكذلك صوتا (الشين والهاء) في كلمة (شهيقاً) في قوله تعالى : ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ [3] . وكذلك صوت الظاء في كلمة (تلظّى) في قوله تعالى : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴾ [4] . فهذه الأصوات في الكلمات السابقة تنقل إلى مستمعها صورة النار بكل صفات الغضب والغيظ والهياج ، فتزلزل نفس هذا المستمع ، وتهز أركانه بما يحقق المراد من هذه التصويرات [5] .

وفي السياق ذاته أيضاً نجد قوله تعالى : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِّلطَّاغِينَ مَآبًا لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ [6] ، فكلمة (غساقا) تقدم بنية صوتية خاصة تشد السمع ، وتثير الانتباه ، لاحتواء اللفظ على وعورة توحي بالهول الذي ينتظر هؤلاء الكافرين ، وتوائم ما قصدت إليه الآيات خير موائمة .

وهذا التأثير الصوتي للكلمة " عبارة عن توفيق بين أحد تأثيراتها الممكنة والظروف الخاصة التي توجد فيها " [7] . أو كما يقول ابن طباطبا (ت ٣٢٤هـ) :" وللمعاني ألفاظ تشاكلها فتحسن فيها وتقبح في غيرها " [8] . فالأمر هنا أمر تهويل لا يناسبه إلا مثل تلك الألفاظ ذات الجرس

---

١ - د. عبد الفتاح لاشين ، من أسرار التعبير في القرآن ، ٤٤ .
٢ - سورة الرحمن : آية رقم (٣٥) .
٣ - سورة الملك : آية رقم (٧) .
٤ - سورة الليل : آية رقم (١٤) .
٥ - ينظر : د. أحمد بدوي ، من بلاغة القرآن ، ٦٩ . - سيد قطب ، التصوير الفني ، ٧٤-٧٥ .
٦ - سورة النبأ : الآيات رقم (٢١ - ٢٥) .
٧ - إ.م ريتشاردز ، مبادئ النقد الأدبي ، ١٩١ .
٨ - ابن طباطبا ، عيار الشعر ، ١٤ .

الصوتي الخشن، ولذلك نراها وقد احتوت من الأصوات على ما يثير في النفس رهبة كصوت الغين في كلمة (غساقا) الذي يرتبط بإيحاءاته الدالة على التكدر وعدم الصفاء. وكذلك القاف اللهوية الانفجارية الصلبة . وهذا النوع من الدلالات الإيحائية يسمى بالحكاية الصوتية الثانوية [1] ، ويقصد بها انتماء الحكاية إلى حدث مجرد أو نوع محدد . والنوع الأول من الحكاية هو الحكاية الصوتية الأولية الذي تطابق فيه البنية الصوتية للكلمة معناها ، أو توافق هذا المعنى [2] . وعلى هذا النسق يمكن تلمس الحكاية الصوتية للمعاني في سياقات النص القرآني .

خامساً : المناسبة الصوتية

أدّى شيوع مصطلح المناسبة في هيكل الدراسات اللغوية إلى شيوع عدد من المصطلحات القريبة منه في الدلالة كالانسجام ، والتوافق ، والإتباع . وكلها تشترك في حيازتها دلالة عامة في مجملها ، فهي تشير إلى أن النظام الصوتي في الدراسات اللغوية يأتي تبعاً لقانون التوازن الإيقاعي ، ومن ثم أُطلِقَ على اللغة العربية أنها اللغة الموسيقية [3] .

والمناسبة الصوتية " جزء من النظام العام للغة تنتج عن اتفاق يوجد بين جميع الأعضاء النطقية بحيث لا نجد صوتاً مناوئاً لصوت مجاور ، ولا عضواً منافياً في وضعه النطقي لعضو آخر ، وإنما تتعاون الأعضاء في خلق نوع من الانسجام الحركي في أثناء العملية النطقية . ومثله انسجام في حروف الكلمة والجملة ، فلا يكون هناك صوت شاذ عن آخر ، ولا حركة مناقضة لحركة أخرى ، فيؤدي ذلك بالطبع إلى نوع من التوازن والتوافق " [4] .

أما كيفية حدوث المناسبة فذلك نابع من طبيعة الوحدات الصوتية داخل الكلمة . فالوحدات الصوتية تختلف في قيمتها من حيث طولها أو قصرها ، أو قوتها أو ضعفها ، أو كونها ساكنة أو متحركة ، وكل هذا يؤدي إلى أنها لا يمكن أن تتساوى في قيمتها داخل الكلمة الواحدة ، مما يؤدي

---

١ - ينظر : د. محمد العبد ، المفارقة القرآنية ، ١٣٤ .
٢ - نفسه .
٣ - ينظر : د. إبراهيم أنيس ، دلالة الألفاظ ، ١٩١ .
٤ - د. أحمد عفيفي ، ظاهرة التخفيف في النحو العربي ، ١٣٩ .

أحياناً إلى إحداث بعض التناقض فيما بينها ، فتلجأ اللغة إلى التخلص من هذا التناقض عن طريق ظواهر المناسبة والانسجام [1] .

ويلحظ أن الفصحى تضحي ببعض قوانينها من أجل تحقيق هذه المناسبة ، مثلما نجد في حالات الجر بالمجاورة ، وحذف أواخر الفواصل للتوافق مع بقية الفواصل الأخرى سواء كان المحذوف حرفاً أو كلمة . والإعلال في جوهره ما هو إلا تخفيف قائم على المناسبة والانسجام والمجانسة ، وكذلك الإدغام . ويرى د. محمد حماسة عبد اللطيف أن المناسبة والانسجام يعدان أساساً من الأسس التي قام عليها الإعلال ، لأن الإعلال في خالص أمره " مراعاة الانسجام والتناسق الصوتيين ، أو ما سموه بالمناسبة الصوتية في الكلمة ، ولذلك عللوا حدوث الإعلال بأنه للتخفيف " [2] .

وينتج عن المناسبة الحادثة لتجاور الأصوات عدة ظواهر تتمثل في (المماثلة الصوتية ، والمخالفة الصوتية ، والقلب المكاني ، والإتباع الحركي) . ونفصل القول فيها :

أ – المماثلة الصوتية Assimilation

ويقصد بها تأثر الأصوات المجاورة بعضها ببعض تأثراً يؤدي إلى التقارب في الصفة والمخرج ، تحقيقاً للانسجام الصوتي ، وتيسيراً لعملية النطق ، واقتصاداً في الجهد العضلي [3] . والمماثلة شائعة في اللغات كلها بصفة عامة ، غير أن اللغات تختلف في نسبة هذا التأثر ونوعه [4] .

وللقدماء من أهل اللغة إشارات جلية توضح إدراكهم لهذه الظاهرة ، وذلك مضمّن في ثنايا حديثهم عن الإدغام ، وإن لم يطلقوا عليها هذا الاسم . فقد أطلق عليها سيبويه (ت ١٨٠هـ) اسم (المضارعة) ويقصد بذلك تقريب الأصوات المجاورة بعضها مع بعض ، فضارعوا بها أشبه الحروف [5] .

١- ينظر : محمد بناني الصغير ، النظريات اللسانية والبلاغية عند العرب ، ٣٤٢ .
٢- د. محمد حماسة عبد اللطيف ، ظاهرة الإعلال والإبدال بين القدماء والمحدثين ، ١٦٨ .
٣- ينظر : د. عبد العزيز مطر ، لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ، ٢٤٥ .
٤- د . إبراهيم أنيس ، الأصوات اللغوية ، ١٢٦ .
٥- سيبويه ، الكتاب ، ٤/ ٤٧٧ .

وأطلق عليها ابن جني (التقريب) في حديثه عن الإدغام الأصغر بقوله : " والإدغام المألوف المعتاد إنما هو تقريب صوت من صوت "[1] . ويطلق عليها ابن يعيش (ت٦٤٣هـ) (التجنيس) ، أو تقريب الصوت من الصوت[2] .

ولم يبتعد اللغويون المحدثون عن تقريرات القدماء لهذه الظاهرة الصوتية ، وأدرجوها تحت اسم (المماثلة) ، وذكروا أن الأصوات اللغوية تتأثر ببعضها ، وهي في هذا التأثر تهدف إلى تحقيق نوع من المماثلة ليزداد مع مجاورتها قربها في الصفات والمخارج[3] .

غير أننا وجدنا لهذا المصطلح تسمية أخرى هي (التحييد) ويعرفه د. كريم حسام الدين بأنه " تداخل أو ذوبان فونيم في فونيم آخر حتى يصيرا فونيماً واحداً في سياق صوتي معين . أو بعبارة أخرى : إلغاء أو محو فونيم معين نتيجة لتفاعله مع فونيم آخر يختلف معه في ملمح صوتي واحد على الأقل . ويكون الفونيم الجديد الناتج من عملية (التحييد) صورة جديدة ، أو وسطاً بين الفونيمين المحوَّل عنه والمحوَّل إليه نتيجة عملية المماثلة "[4] .

أنواع المماثلة الصوتية :

يقسم اللغويون المماثلة الصوتية قسمين رئيسين هما[5] :

أ- المماثلة التقدمية المقبلة Progressive : وفيها يكون للصوت الأول قوة التأثير في الصوت الثاني ، وهذا التأثير يترتب عليه فناء الصوت الأول في الثاني بحيث يُنطَق الصوتان صوتاً واحداً من جنس الثاني . ويتضح هذا النوع في صيغة الافتعال حيث تقلب تاء الافتعال طاءً أو دالاً . فتاء الافتعال تقلب طاءً إذا كانت فاء الافتعال حرفاً من حروف الإطباق (الصاد والضاد والطاء والظاء) كما في الأمثلة الآتية :

١ - ابن جني ، الخصائص ، ٢ / ١٤١ .
٢ - ينظر : ابن يعيش ، شرح المفصل ، ١٠ / ٤٧- ٤٩ .
٣ - د . إبراهيم أنيس ، الأصوات اللغوية ، ١٧٩ .
٤ - د . كريم حسام الدين ، أصول تراثية ، ١٩٢ .
٥ - ينظر : مالمبرج ، الصوتيات ، ١١٨ - ١٢٠ .- أبرو كرومبي ، مبادئ علم الأصوات ،١٩٤- ١٩٥ . - برجشتراسر ، التطور النحوي ، ٣١ .- د . أحمد مختار عمر ، دراسة الصوت اللغوي ، ٢٢٨ .- د. عبد الصبور شاهين ، أثر القراءات ، ٢٣٧ .

ب – المماثلة الرجعية المدبرة Regressive : وفيها يؤثر الصوت الثاني في الأول الذي يتغير بما يناسب الصوت الثاني ، ويقلب إليه ثم يدغم فيه . مثل قوله تعالى : ﴿ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [1].

فقد قرئت الآية بإدغام اللام في الراء من غير إمالة قراءة أبي جعفر وشيبة ونافع وأبي عمرو ، وبالإمالة قراءة الأعمش وعاصم وحمزة والكسائي ، وكذلك قُرئَتْ بالإظهار وهي قراءة الحسن وابن أبي إسحق [2]. وقد عدّ النحاة هذا التأثر تأثراً رجعياً مدبراً لتأثر الصوت الأول (اللام) بالصوت الثاني (الراء) ، ونقل اللام إلى الراء ثم الإدغام فيها [3].

ولابن خالويه (ت ٣٧٠هـ) رأي في هذه الآية إذ يقول : " اتفق القراء على إدغام اللام في الراء لقربها منها في المخرج ، إلا ما رواه حفص عن عاصم من وقوفه على اللام وقفة خفيفة ثم يبتدئ (رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم) ليعلم بانفصال اللام من الراء ، وأن كل منهما كلمة بذاتها " [4] .

ويضم إلى هذا القسم من المماثلة ما يحدث من تغيير في مضارع صيغتي (تَفَعَّلَ) و(تَفَاعَلَ) وذلك إذا كانت فاء الفعل صوتاً صفيرياً أو أسنانياً . يقول د. رمضان عبد التواب : " تتأثر التاء بعد تسكينها للتخفيف بفاء الفعل " [5] . ومن الأمثلة القرآنية الممثلة لهذه الجزئية :

- قوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ﴾ [6] .
- قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ [7] .
- قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ [8] .

---

١ - سورة المطففين : آية رقم (١٤) .
٢ - ينظر : النحاس ، إعراب القرآن ، ٥ / ١٧٧ . - الداني ، التيسير ، ١٤٢ .
٣ - ينظر : د . أحمد عفيفي ، ظاهرة التخفيف ، ١٤٧ .
٤- ابن خالويه ، الحجة في القراءات السبع ، ١٩٩٣ ، ٣٦٥ .
٥ - د . رمضان عبد التواب ، التطور اللغوي ، ٢٩ .
٦ - سورة التوبة : آية رقم (٣٨) .
٧ - سورة البقرة : آية رقم (٧٢) .
٨ - سورة عبس : آية رقم (٤) .

فكلمة اثَّاقلتُم من المضارع يتثاقل على وزن (يتفاعل) ، وصيغة الماضي منه (تثاقَلَ) على وزن (تَفَاعَلَ) ، ثم يتم تسكين التاء للتخفيف فتصير الكلمة (تْثاقَل) ، ولأنه لا يصح الابتداء بالساكن جلبت الألف الموصولة للابتداء بها مع بقاء حركة التاء (السكون التخفيفي) كما هي ، ثم قلبت التاء الساكنة إلى مماثل فاء الكلمة (حرف الثاء) تبعاً لقانون المماثلة الرجعية حيث أثر الصوت الثاني (الثاء) في الصوت الأول (التاء) ، فاصبح لدينا مماثلين جاز إدغامهما في صوت واحد ، فوصلت الكلمة إلى صيغتها النهائية وهي (اثَّاقَلْتُم) كما تم توظيفها في الآية القرآنية[1] . ويقاس على هذا ما حدث من تغيير في كلمة (ادَّارأتم) في الآية القرآنية .

كلمة (يذَّكَّر) مضارع وزنه (يتفعَّل) حدث فيه مماثلة رجعية . فقد تمَّ تسكين تاء التفعّل للتخفيف فاصبح الفعل على الصورة (يَتْفَعَّل) ، ثم حدثت المماثلة الرجعية عندما أثر الصوت الثاني (الذال) في الأول (التاء) فقلب إلى مماثل للثاني ، فوُجِدَ لدينا عندئذ متماثلان فلزم إدغامهما .

ومن ألوان التماثل الرجعي مماثلة صوت النون إذا تلاها صوت الميم أو اللام كما في :

- إنْ + مَا ـــــــ إمَّا
- إنْ + لا ـــــــ إلاَّ
- منْ + مَا ـــــــ ممَّا

وفي القرآن قوله تعالى : ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً ﴾[2] إذ قُلبت (النون) إلى مماثل للحرف التالي لها وهو (الميم) ، وأصل الكلام (منْ + مَا) ، ثم أُدْغِمَ المثلان معاً.

وما يحدث من دخول (ال) التعريفية على الأحرف الشمسية ، وما يتم من تاثر الصوت الأول (اللام) بالصوت الشمسي التالي له ، وانقلاب الصوت الأول إلى مماثل للصوت الشمسي ، ثم ادغامه فيه ، ما هو إلاّ من قبيل المماثلة الرجعية .

١- ينظر : سيبويه ، الكتاب ،٤/٤٧٥ .- الفراء ، معاني القرآن ، /٤٣٧ .- النحاس ، إعراب القرآن ، ١/ ٢٨٣ .

٢ - سورة نوح : آية رقم (٢٥) .

تنـــوير :

يتضح من ملاحظة تقاطعات سياقات مصطلح المماثلة الصوتية أنه يتداخل مع مصطلح آخر هو (الإدغام) ، ولذا يجب إيضاح هذه العلاقة بين المصطلحين . فالقدماء لما تناولوا المماثلة بإيضاح أشكالها دون أن ينصوا على مسماها الحديث كانوا يدورون في فلك تعريف (الإدغام) مثلما رأينا عند سيبويه ، وابن جني ، وابن يعيش[1] . ويرى د. أحمد مختار عمر أن " المماثلة تعني إزالة الحدود بين الصوتين المدغمين وصهرهما معاً " [2] . فالصلة قوية بين المماثلة والإدغام لاجتماعهما في حالة التماثل الكلي أو التام . غير أنه يجب القول بأن الإدغام أحد أشكال المماثلة ، بل إنه أقيس أشكالها في العربية .

ويوضح برجشتراسر علاقة المماثلة الصوتية بالإدغام بقوله : " إن حروف الكلمة مع توالي الأزمان كثيراً ما تتقارب بعضها من بعض في النطق وتتشابه ، وهذا التشابه نظير لما سماه قدماء العرب إدغاماً ، غير أن التشابه والإدغام وإن اشتركا في بعض المعاني ، اختلفا في بعضها " [3] . والشرط الأساسي للتأثر بين أي صوتين أن يكون الصوت متبوعاً بحركة غير قابلة للسقوط والإهمال ، إما لكون هذه الحركة طويلة ، وإما لكونها سبقت بحركة سقطت من قبل إسقاط الأخرى لأنها تزداد تشبساً بموقعها ، وتمنح الصوت قبلها قوة دلالية في موقعها ، وتمارس تأثيراً ما على السابق عليها [4] .

ثانياً : المخالفة الصوتية Dissimilation

يقصد بالمخالفة الصوتية حدوث اختلاف بين الصوتين المتماثلين في الكلمة الواحدة ، ويحدث هذا الاختلاف في الكلمة المشتملة على التضعيف بأن يتغير أحد الصوتين المضعفين إلى صوت لين طويل أي إلى (واو المد ، أو ياء المد ، أو ألف المد) ، أو إلى أحد الأصوات الشبيهة بأصوات المد وهي الأصوات المسماة بالأصوات (المائعة Liquid) وهي (اللام ، والنون ، والميم ، والراء) [5] .

١- ينظر : سيبويه ، الكتاب ، ٤/ ٤٣٧- ٤٧٦ .- المبرد ، المقتضب ، ١/١٩٧- ٢٢٦ .- ابن جني ، الخصائص ، ٢ / ١٣٩- ١٤٥ .- أبو حيان ، ارتشاف الضرب ، ١ / ١٦٢ .
٢- د . أحمد مختار عمر ، دراسة الصوت اللغوي ، ٣٢٣ .
٣- برجشتراسر ، التطور النحوي ، ٢٩ .
٤- ينظر : د . عبد الصبور شاهين ، المنهج الصوتي للبنية العربية ، ٢٠٨- ٢٠٩ .
٥ - ينظر : د . أحمد هريدي ، ظاهرة المخالفة الصوتية ، ١١ .

ويرى د. إبراهيم أنيس أن كلاً من المماثلة والمخالفة تهدفان إلى تيسير النطق ، وأن المخالفة تبدأ عملها من حيث تنتهي المماثلة [1] . والمخالفة لا تكاد تتم إلا حين يتجاور صوتان من أصوات الإطباق ، أو الأصوات الرخوة . أي أنها تحدث بين الحروف التي تحتاج إلى جهد عضلي [2] .

وقد لاحظ القدماء هذه الظاهرة ، وأشار إليها سيبويه في باب (ما شذّ فابدل مكان اللام كراهية التضعيف ، وليس بمطرد) [3] . وأشار إليها ابن جني أيضاً [4] .

اقسام المخالفة الصوتية :

تنقسم المخالفة من حيث موقع الصوت المُتَغَيِّر قسمين هما [5] :

الأول : المخالفة التجاورية المتماسة (المتصلة) : وذلك عند عدم وجود صوت يفصل بين الصوتين المتخالفين ، وذلك في الحروف المشددة .

والثاني : المخالفة التباعدية (المنفصلة) : وتحدث في حالة وجود فاصل صامت بين حرفي المخالفة ، مثل كلمة (اخضوضر) من (أخضر) ، إذ أبدلت الراء الأولى واواً لجواز مثل ذلك .

ويلحظ أن الأساس الذي تقوم عليه المخالفة الصوتية هو كراهية التضعيف ، واستثقال النطق ، فاختلاف الحروف أخف على اللسان من النطق بها مضعّفة ، وذلك من التيسير اللغوي [6] .

وبتامل بعض الأمثلة القرآنية تتضح لنا المسارات السياقية للمخالفة الصوتية ، إذ تتنوع تلك المسارات بما يحقق بلاغة الأداء في هذه السياقات .

فمثلاً قوله تعالى : ﴿أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ [7] نجد كلمة (يملل) حدث فيها تخالف صوتي متصل بفك تضعيف صوت اللام . وأصل الفعل هو (يُمْلِي) على وزن (يُفْعِل)

---

١ - إبراهيم أنيس ، الأصوات اللغوية ، ٢١٤ .
٢ - السابق ، ٢١٣ .
٣ - سيبويه ، الكتاب ، ٢ / ٤٠١ .
٤ - ينظر : ابن جني ، الخصائص ، ٢ / ٢٢١ . – ابن جني ، المحتسب ، ١ / ٢٨٣ .
٥- ينظر :د.رمضان عبد التواب ، التطور اللغوي ، ٥٨ .– د. أحمد هريدي ، ظاهرة المخالفة ، ٢٧ .
٦-ينظر : برجشتراسر ، التطور النحوي ، ٣٤.– مالمبرج ، الصوتيات، ١٢٠–١٢١. - د. إبراهيم أنيس ، الأصوات اللغوية ، ١٢١ . - د . رمضان عبد التواب ، التطور اللغوي ، ٦٤.
٧- سورة البقرة : آية رقم (٢٨٢) .

لكنهم استثقلوا المثلين فقلبوا أحدهما . وذلك أن المثلين إذ لم يُدغم أحدهما في الآخر يستثقلان على اللسان ، لأن الرجوع من أحدهما بعد الاستثقال عنه إلى الآخر يسبب صعوبة في النطق . كما أن الماضي من (يُمْلي) هو (أمْلَى) على وزن (أَفْعَل) ثم أُبدِلَت اللام الثانية في (أمَلَّ) ألفاً ليصير الفعل على صورة (أمْلَى) .

ومن العجيب توظيف القرآن لهذا الفعل أنه وظفه مدغماً وغير مدغم (بفك الإدغام وفقاً لقانون المخالفة الصوتية) في آية واحدة هي قوله تعالى : ﴿أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ . فقد جاء الفعل الأول (يُمِلّ) بالإدغام ، والفعل الثاني (يُمْلِل) بالإظهار وفك التضعيف . ويرى أبو حيان أن (أمَلَّ) لغة أهل الحجاز وبني اسد ، و(أمْلَى) لغة تميم . وقيل الأصل : أمللتُ ؛ أبدل من اللام ياءا لأنها أخف[1] .

• قوله تعالى : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾ [2] نلاحظ تماثل الصوت الأول والثالث في الفعل (كبكبوا) وهو صوت الكاف ، وكذلك تماثل الصوت الثاني والرابع في الفعل نفسه وهو صوت الباء . وقد تم إبدال الباء الثالثة إلى (الكاف) للتخالف الصوتي لأن أصل الفعل (تكبَّب) ، إذ أن الصوتين المتماثلين يحتاجان إلى جهد عضلي كبير حين النطق بهما في كلمة واحدة ، ولهذا تطور الصوت الثالث في الفعل (تكبب) وهو الباء بتأثير المخالفة الصوتية لسهولة النطق ويسر الأداء ، وتقليل الجهد العضلي .

ثالثاً : القلب المكاني Metathesis[3]

وهو " تبادل صوتين لمكانيهما بأن يحل كل منهما محل الآخر "[4] . وهذا التبادل محله الكلمة المفردة فقط ، مثل القلب المكاني في كلمة (مَسْرَح) ـ قلب مكاني ـ مَرْسَح . وللقلب نوعان هما :

١- أبو حيان ، البحر المحيط ، ٢ / ٣٤٢ . وينظر : النحاس ، إعراب القرآن ، ١ / ٣٤٤ .
٢- سورة الشعراء ؛ آية رقم (٩٤) .
٣- ينظر : ماريو باي ، أسس علم اللغة ، ١٤٩ . - د. الطيب البكوش ، التصريف العربي ، ٧٢ .
٤- برتيل مالمبرج ، الصوتيات ، ١٢١ .

الأول : إذا كانت الفونيمات المتبادلة المواقع متصلة سُمّي القلب بالمتقارب Inversion ، ويقصد بالتقارب هنا تقارب المخرج الصوتي والصفة معاً .

والثاني : إذا كانت الفونيمات المتبادلة المواقع منفصلة سُمّيَ بالمتباعد (Metathesis)[1] .

ويمكن تلمس بعض سياقات القلب المكاني في قوله تعالى : ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾[2] . ففي هذه الآية قرأ عبد الله بن كثير (آفِدَة)[3] على القلب . ويرى أبو حيان أنها من (أفِدَ) بمعنى عجل[4] .

ويرى د. عبد الصبور شاهين أن في لسان العرب من معاني الفعل أيضاً " أفِدْتُم : أي أبْطَأْتُم . وعليه فلا قلب في الكلمة "[5] .

وهذا التأويل على نفي القلب هنا ، ومن ثَمّ تمّ تلمس بعض المعاني اللغوية لهذه الصيغة الجديدة (أفِدَ) ، ومن هذه المعاني : العجلة ، وهو ما يتسق مع السياق الدلالي لمعنى الآية الكريمة ، إذ المراد من دعاء الخليل إبراهيم عليه السلام هو أن يستجيب الله له بإرشاد الناس إلى هذا المكان ليأنس بهم زوجه هاجر وابنه الرضيع إسماعيل عليه السلام وهو ما يمكن تلمسه من دلالة (أفِدَ) الدالة على العجلة .

رابعاً : الإتباع[6]

يحدث الإتباع في مناطق توافق الحركات وانسجامها ، وكذلك أنصاف الحركات ، إذ يناط به فضيلة المحافظة على هذا الانسجام الصوتي . فنظراً لأن جهازنا الصوتي يمتلك إمكانية محددة في نطق الكلمات مع الحركات الموجودة على حروفها ، فإن العربية استثقلت توالي أربعة

١- برتيل مالمبرج ، الصوتيات ، ١٢١ .
٢ - سورة إبراهيم : آية رقم (٣٧) .
٣ - ينظر : أبو حيان ، البحر المحيط ، ٣ / ٧٢ .
٤ - السابق ، ٥ / ٤٣٢ .
٥ - د . عبد الصبور شاهين ، القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ، ١٩٥ .
٦- ينظر : سيبويه ، الكتاب ، ٧٦/١ ، ٤٣٦-٤٣٧ ، ٤/ ١٠٧-١٠٩ .- المبرد ، المقتضب ، ٢٧٠/١ .- ابن جني ، الخصائص ، ٢/ ١٤٥ ، ٢٣٧ ، ٣ / ١٤١ . - ابن فارس ، الصاحبي ، ٢٧٠ .

متحركات في كلمة ما لعسر ذلك على الأداء النطقي . وقد أدى ذلك إلى قول أحد الباحثين : " إنما تتعاقب الحركات والسواكن طلباً للخفة وجريان موسيقى الأصوات . ولهذا تضحي اللغة ببعض الحركات ، حتى لو كانت حركة إعراب - مع معرفتنا بمدى أهميتها - طلباً لخفة التناسب الحركي "[1] .

ولذا تم تصنيف الحركات في العربية على أساس الخفة الصوتية ، فالفتحة أخف الحركات تليها الكسرة فالضمة ، ومن ثم كان الحديث عن أهمية الانسجام الصوتي بين الحركات الذي يرى د. كريم حسام الدين أنه " تأثير الحركة الأساسية في الكلمات أو المقاطع على الحركة التالية أو السابقة بالمماثلة "[2] .

والتتابع الحركي ينتج عنه خفة ملحوظة ، لأنه يقوم على مبدأ الاقتصاد في الجهد العضلي . يقول د. أحمد مختار : " التغيرات الصوتية الهامة في اللغة ترجع أساساً إلى الميل إلى استعمال الوسائل الفونيمية في اللغة اقتصاداً ، وبطريقة سهلة بقدر الإمكان "[3] .

والإتباع كما يرى د. أحمد الفيومي " هو النطق بالحركة على حذو ومثال حركة أخرى في كلمتها أو في كلمة مجاورة ، وكذا النطق بها على وجه يناسب ويلائم الحركة قبلها أو بعدها "[4] . ولذا فإن مناط عمل الإتباع هو تحقيق المناسبة الصوتية .

ضرب الإتباع :

يتمثل الإتباع الحركي في العربية في ضربين هما :

الأول : إتباع حركي تام كلي : وفيه تماثل الحركةُ الحركةَ الأخرى ، وتصير مثلها تماماً . يقول ابن جني : " قد كثر عنهم الإتباع نحو : (شُدّ) و(ضُرّ) وبابه "[5]. وهو هنا يتحدث عن إتباع الحركة حركة أخرى ، أي قلب الحركة إلى أخرى لتجانسها (صوتياً) .

---

١ - د . أحمد عفيفي ، ظاهرة التخفيف ، ١٩٦ .
٢ - د . كريم حسام الدين ، أصول تراثية ، ١٩٦ .
٣ - د . أحمد مختار عمر ، البحث اللغوي عند العرب ، ٨٩ .
٤ - د . أحمد الفيومي ، أبحاث في علم أصوات العربية ، ١٤٧ .
٥ - ابن جني ، الخصائص ، ٢ / ١٦٤ .

ويحدد ابن جني نوعاً آخر من الإتباع الكامل وهو الإتباع الناتج عن قلب حركتي الضمة أو الكسرة إلى (الفتحة) لتلائم نطق الحرف الحلقي وتناسبه ، فهو إتباع الحركة للحرف . يقول ابن جني : " ومن ذلك قولهم : (فَعَلَ يفعَلُ) مما عينه أو لامه حرف حلقي نحو : (سَأَلَ يَسْأَلُ ، وقرأ يَقْرَأُ ، وسَعَرَ يَسْعَرُ ، وقَرَعَ يَقْرَعُ ، وسَحَلَ يَسْحَلُ ، وسَبَحَ يَسْبَحُ) . وذلك أنهم ضارعوا بفتحة العين في المضارع جنس الحرف الحلقي لما كان موضعاً منه مخرج الألف التي منها الفتحة " [1] .

والمضارعة التي يعنيها ابن جني تتمثل في أن نطق حروف الحلق يصحبه انفتاح في الفم يسهل عملية انقباض الحلق ، والحركة الوحيدة التي تتصف بالانفتاح هي الفتحة ، ولذا يتم الإتباع [2] .

والضرب الثاني : إتباع حركي ناقص (جزئي) : ويتمثل في إتباع الحركة الحركة أو الحرف في بعض خواصه النطقية ، دون أن تنقلب إلى مماثل لها . فالفتحة : قصيرة كانت أو طويلة يتم نطقها قريبة من الكسرة ، وذلك إتباعاً للكسرة قبلها أو بعدها . وفي ذلك يقول سيبويه : " الألف تُمال إذا كان بعدها حرف مكسور ، وذلك قولك :عالِم وساجِد ومفاتيح وعذافير وهابيل . وإنما أمالوها للكسرة التي بعدها ، أرادوا أن يقربوها منها " [3] . ويبدو أن هذا النوع من الإتباع الحركي الناقص يشبه تقريرات النحاة وأهل التجويد والقراءات في باب (الإمالة) [4] .

كذلك يدخل في هذا الضرب من الإتباع الناقص نطق الفتحة القصيرة أو الطويلة قريبة من الضمة ، وذلك مجانسة لحروف التفخيم ، مثلما نجد في : (كتابُ اللهِ) ، و(إنّ كتابَ اللهِ) . فاللام في المثالين مفخمة ، لكنها في المثال الأول أكثر تفخيماً من المثال الثاني ، وسبب ذلك هو

١- ابن جني ، الخصائص ، ٢ / ٣٣٦ .
٢- ينظر : د. الطيب البكوش ، التصريف العربي ، ٩٠ .
٣- سيبويه ، الكتاب ، ٢ / ٢٥٩ .
٤- ينظر : سيبويه ، الكتاب ، ٢٥٩ – ٢٧٠ . – الداني ، التيسير ، ٤٦ . – مكي ، التبصرة ، ١١٨– ١٢٥ . – ابن يعيش ، شرح المفصل ، ٩ / ٦٤ . – القرطبي ، الموضح ، ٢٠٩ . – ابن الجزري ، النشر ، ٢/٣٠ .

انتقال اللسان واختلافه في موضع النطق باللام [1] . ويُدْرس هذا الضرب من الإتباع في ثنايا باب التفخيم في النحو العربي ، وكتب القراءات القرآنية [2] . تلك هي أضرب الإتباع كما قررها أهل العربية .

من مظاهر الإتباع في العربية :

تتعدد مظاهر الإتباع الحركي في العربية وتتنوع في هيئات كثيرة يحكمها في ذلك كله تحقيق الانسجام والتناسب الصوتي . ومن أهم مظاهر الإتباع الحركي :

المظهر الأول : إتباع حركة همزة الوصل في أمر الثلاثي لحركة (عينه) . ويرى أحمد عفيفي أنه من " الغريب أن يكون الثاني متبوعاً والأول تابعاً ، والمنطق يؤكد أن العكس هو المشهور " [3] .

ويجب الانتباه هنا لرأي نحاة البصرة في همزة الوصل في أمر الثلاثي الذي يتلخص في أنها مكسورة على الأصل ، أو أنها اجْتُلِبَت ساكنة وكُسِرَت لالتقاء الساكنين ، أو أنها اجْتُلِبَت متحركة ، وكانت أولى الحركات بها الكسرة لأنها أخف من الضمة [4] . والرأي الأرجح وهو رأي الجمهور أن همزة الوصل مكسورة على الأصل ، وأنها اجْتُلِبَت للتوصل إلى النطق بالساكن .

ونتمثل الآن ببعض الأمثلة القرآنية التي يتضح فيها هذا المظهر من الإتباع الحركي مصنفين هذه الأمثلة تبعاً لحركة عين الفعل من (ضم ، وكسر ، وفتح) كما يأتي :

المجموعة الأولى : وفيها يتم إتباع ألف الوصل بضمها تبعاً لحركة عين الفعل المضمومة . مثل :

- قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ ﴾ [5] .
- قوله تعالى : ﴿ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ [6] .

---

١ - ينظر : د . أحمد عفيفي ، ظاهرة التخفيف ، ١٦١ .
٢ - ينظر : الداني ، التيسير ، ٥٨ . - ابن الفحام ، التجريد ، ١٨٠-١٨٢ . - ابن الجزري، النشر، ١١٤/٢. - أبو شامة ، إبراز المعاني ،١٩٠ . - القاري ، المنح الفكرية ،٢٩ . - المرعشي ، جهد المقل ، ٩٦ .
٣ - د . أحمد عفيفي ، ظاهرة التخفيف ، ١٥٢ .
٤- ينظر : الأشموني ، شرح الألفية ،٢٧٩/٤.
٥ - سورة البقرة : آية رقم (٣٤) .
٦ - سورة البقرة : آية رقم (٤٧) .

- قوله تعالى : ﴿ ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ [1] .

والمجموعة الثانية : يتم إتباع ألف الوصل بكسرها تبعاً لحركة عين الفعل المكسورة مثل :

- قوله تعالى : ﴿ فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ [2] .

- قوله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ﴾ [3] .

- قوله تعالى : ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾ [4] .

والمجموعة الثالثة : تبقى ألف الوصل مكسورة لأن حركة عين الفعل هي الفتحة مثل :

- قوله تعالى : ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ [5] .

- قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [6] .

- قوله تعالى : ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ [7] .

ونلحظ أن الإتباع حدث في المجموعتين الأولى والثانية ، ولم يحدث في المجوعة الثالثة .

ففي المجموعة الأولى تم إتباع حركة همزة الوصل في الأفعال (اسْجُدوا ، واذْكُروا ، وادْخُلوا) بالضم تبعاً لحركة عين الفعل المضمومة في هذه الأفعال ، وكان هذا الضم إتباع حركة الأول (همزة الوصل) لحركة الثاني (عين الكلمة) . ونلاحظ أن الكسر في همزة الوصل في هذه الأفعال على الأصل قد تحول إلى الضم لثقل الانتقال من الكسر إلى الضم ، ولهذا تم التحول للمناسبة الصوتية مع إهمال الحركات الفاصلة (السواكن) بين حركة همزة الوصل وحركة عين الفعل . يقول ابن جني : " ضموا الهمزة لضمة العين ، ولم يعتد بالفاء حاجزا لسكونها ، فصارت الهمزة لذلك كأنها قبل العين المضمومة ، فضُمَّت كراهة الخروج من كسر إلى ضم" [8] . ويلحظ أن

---

١ - سورة البقرة : آية رقم (٥٨) .
٢ - سورة الأنفال : آية رقم (٥٨) .
٣ - سورة التوبة : آية رقم (٣٨) .
٤ - سورة طه : آية رقم (٧٢) .
٥ - سورة إبراهيم : آية رقم (٣٧) .
٦ - سورة الإسراء : آية رقم (١٤) .
٧ - سورة طه : الآيتان رقم (٢٤ ، ٢٥) .
٨- ابن جني ، المنصف في شرح كتاب التصريف للمازني ، ٢ / ٢٢ .

الانتقال من الكسر إلى الضم مستثقل عند العرب ، ويتم التخلص منه بالإتباع الحركي الذي يجلب في هذه الحالة ضمتان لكنهما بتماثلهما يحققان شيئاً من الخفة الصوتية [1] .

أما المجموعة الثانية بقيت همزة الوصل فيها على الأصل الأول (الكسر) إتباعاً لحركة عين الأفعال (اقضِ ، وانبِذ ، وانفِروا) المكسورة . فالإتباع هنا حادث دون قصد .

والمجموعة الثالثة بقيت همزة الوصل فيها على الأصل وهو (الكسر) مع فتح حركة عين الأفعال (اجعَل ، واقرَأ ، واذهَب ، واشرَح) ، وذلك لأن الفتحة على عين الفعل خفيفة بطبيعتها ، ولهذا لم يتم الإتباع . ولو حدث الإتباع لالتبس (الأمر) بالخبر كما يرى الأشموني [2] .

المظهر الثاني : ما يحدث في (ضمير الغائب) من إتباع بالفتح والكسر للمفرد المذكر ، والمثنى والجمع بنوعيه . فاصل حركة الضمير (هم) الضم كما يلي : (ـهُ) للمفرد المذكر ، و(هُما) للمثنى ، و(هُم) لجمع الذكور ، و (هُنّ) لجمع الإناث . وهذا ما جعل ابن يعيش يتصور أن ضمير جمع الذكور أصله (هُمو) بإشباع الهاء المضمومة ، وأنها تطورت في الاستخدام حتى آل إلى ما هو عليه الآن [3] . لكن هذه الضمة الأصلية على (الهاء) لا تثبت بل تتغير إتباعاً لما قبلها من حركات كالكسرة الطويلة أو القصيرة أو (الياء) فتقلب إلى تلك الكسرة . نلمح ذلك في :

- قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً ﴾ [4] .
- وقوله تعالى : ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [5] .
- وقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ [6] .
- وقوله تعالى : ﴿ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [7] .

---

١ - ينظر : الرضي ، شرح الشافية ، ١ / ٣٦ .
٢ - ينظر : الأشموني ، شرح الألفية ، ٤ / ٤٧٩ .
٣ - ينظر : ابن يعيش ، شرح المفصل ، ٣ / ٩٧ .
٤ - سورة يونس : آية رقم (٥٠) .
٥ - سورة المجادلة : آية رقم (٢٢) .
٦ - سورة الحاقة : آية رقم (١٩) .
٧ - سورة البقرة : آية رقم (٢) .

- وقوله تعالى : ﴿ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾[1] .

ونفصل القول في كل مما سبق للوقوف على مظاهر الإتباع الصوتي فيه .

* ففي الآية الأولى نجد كلمة (عَذَابُهُ) اتصل ضمير الغائب للمفرد المذكر بكلمة مرفوعة على الفاعلية ، وبقيت (الهاء) على حركتها الأصل (الضم) إتباعاً للضمة التي قبلها .

* وفي الآية الثانية نجد كلمة (مِنْهُ) اتصل ضمير الغائب للمفرد المذكر بحرف جر مبني على السكون ، وبقيت (الهاء) على حركتها الأصل :الضم لسكون ما قبلها ، والسكون ليس مماثلاً لثقل الياء ، ولذا ليس من سبب يدعو إلى الإتباع في هذه الآية .

* وفي الآية الثالثة نجد كلمة (كِتَابَهُ) اتصل ضمير الغائب للمفرد المذكر بكلمة منصوبة على المفعولية ، وبقيت (الهاء) على حركتها الأصل وهي (الضم) لأن ما قبل الهاء مفتوح ، والفتحة أخف الحركات ، ولذا لا يلزم هنا إعمال الإتباع لانتفاء الثقل .

* وفي الآية الرابعة نجد كلمة (فيهِ) تم الإتباع فيها ، حيث كُسِرَت الهاء إتباعاً لحركة ما قبلها وهي الكسرة الطويلة (ياء المد) . وقد تم هذا الإتباع تخلصاً من الثقل بالانتقال من حركة الكسرة الطويلة إلى حركة الضم للهاء على أصلها ، وهذا مما يستثقل ، فتُخلِّصَ منه .

* وفي الآية الخامسة نجد كلمة (عليهِ) تم الإتباع فيها ، حيث كُسِرَت الهاء إتباعاً لحركة ما قبلها وهي الياء الساكنة . وقد تم هذا الإتباع مجانسة لهذه الياء وللمناسبة الصوتية . وهذا الإتباع تحقَّق به التخلص من الثقل ، وتيسير الأداء الصوتي .

إضــاءة :

ما سبق تقريره في التفاصيل الخاصة بضمير الغائب في تقاطعات سياقاته مع الأصول التي ذكرناها يمكن تجاوزه لمطلب جمالي أو دلالي خاصة إذا ما عايَنَّا ذلك موظفاً في النص القرآني . فمثلاً نقرأ قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ ﴾[2] ، فبحسب التقريرات السابقة فإن

---

١ - سورة الفجر : آية رقم (١٦) .

٢ - سورة الفتح : آية رقم (١٠) .

كلمة (عليْهُ) اتصل ضمير الغائب للمفرد المذكر بحرف جر ، وقبله ياء ساكنة . ولذا كان يجب أن يتم الإتباع بكسر حركة الضمير وفقاً لحركة الياء قبلها . لكن هذا لم يتم في هذه الآية . فقراءة حفص عن عاصم بضم (الهاء) دون إتباعها [1] .

ونلحظ في قراءات الحجازيين أن القراءة للضمير بضم الهاء على الأصل في حركتها ، مع وجود الداعي إلى إتباع حركة الضمير لما قبلها ، أي لوجود حركة طويلة متمثلة في (الياء) وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ ﴾ [2] في قراءة حفص عن عاصم بضم الهاء من غير صلة بواو[3] .

يقول ابن خالويه : " الحجة لمن ضم ، أنه أتى بلفظ الهاء على أصل ما وجب لها . والحجة لمن قرأ بكسر لمجاورة الياء . ومثله : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ ﴾ " [4] . ويقول في موضع آخر : " أجمع القراء على كسر الهاء لمجاورة الياء ، إلا ما رواه حفص عن عاصم من ضمها على أصل ما يجب من حركتها بعد الساكن " [5] . فقد خولف الإتباع هنا مراعاةً للأصل الحركي الذي ورد عليه الضمير وهو (الضم) .

المظهر الثالث : ما قرره الصرفيون من إتباع حركة (العين) للفاء في صيغة جمع الإناث إذا كان مفرد هذا الجمع اسماً ثلاثياً صحيح العين ساكنها مفتوح الفاء ، فيجب الإتباع كما في :

- قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [6] .
- وقوله تعالى : ﴿ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى ﴾ [7] .

---

١ - ينظر : ابن جني ، المحتسب ، ١ / ٤٣ - ٤٥ . - ابن خالويه ، الحجة ، ٢٢٦ .
٢ - سورة الكهف : آية رقم (٦٣) .
٣ - ابن الفحام ، التجريد لبغية المريد ، ٢٥٨ .
٤ - ابن خالويه ، الحجة ، ٢٢٦ .
٥ - السابق ، ٣٣٠ .
٦ - سورة فاطر : آية رقم (٨) .
٧ - سورة البقرة : آية رقم (٢٦٤) .

- وقوله تعالى : ﴿ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾[1] .

فمثلاً كلمة (حَسَرَاتٍ) التي وردت في الآية الأولى وردت على إتباع حركة العين (السين) بالفتح موافقةً للفاء المفتوحة في المفرد (حَسْرَة) . فحدث هنا إتباع حركي . وعلى هذا يتم تأويل الإتباع الحركي في كلمتي (صَدَقَاتِكُم ، ودَرَجَاتٍ) في الآيتين التاليتين .

وإذا كان الثلاثي صحيح العين ساكنها مكسور الفاء أو مضمومها ، فيجوز فيه :

١- إتباع حركة العين لحركة الفاء في المفرد .

٢- الفتح للعين مطلقاً .

٣- التسكين للعين مطلقاً .

ويمكن بيان ذلك من خلال قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾[2] فكلمة الغرفات مفردها ثلاثي صحيح العين ساكنها ، غير أن فاء الكلمة مضمومة (غُرْفَة) ، ولذا يجوز في كلمة (الغرفات) ثلاث حالات صوتية وفقاً لقانون الإتباع كما يأتي :

١- الإتباع : (الغُرُفَات) بإتباع حركة العين (الضم) لحركة فاء المفرد المضمومة .

٢- الفتح : (الغُرَفَات) بفتح عين الكلمة مخالفة لحركة فاء المفرد المضمومة ، أي بلا إتباع .

٣- السكون : (الغُرْفَات) بإسكان عين الكلمة بلا إتباع حركي .

وتعليل ذلك كما يرى د. أحمد عفيفي أنه " إذا كان الإتباع فيه شيء من التخفيف ، لأن اللسان يعمل من جهة واحدة ، فإن التسكين أخف من الإتباع ، ولهذا جاز كلاهما . أما الفتح فإنه يجوز لخفته "[3] .

وعلى هذا التخريج يمكن تفسير ما يحدث من إتباع في : قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴾[4] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾[5] .

---

١ - سورة الإسراء : آية رقم (٢١) .
٢ - سورة سبأ : آية رقم (٣٧) .
٣ - د . أحمد عفيفي ، ظاهرة التخفيف ، ١٥٨ .
٤ - سورة البقرة : آية رقم (١٩) .
٥ - سورة البقرة : آية رقم (١٦٨) .

تنــوير :

قد نجد في الآيات القرآنية كلمات على صيغة جمع الإناث لكنها معتلة العين ، ولذا لا يحدث فيها الإتباع مثل قوله تعالى : ﴿ثلاثُ عوْرَاتٍ لَكُمْ﴾[1] فكلمة (عوْرات) جمع مؤنث سالم لم يتم فيه الإتباع لحركة العين مماثلة لحركة الفاء في المفرد ، إذ بقيت حركة العين على (السكون) في حين أن حركة الفاء هي (الفتحة) . وتعليل ذلك : أنه لو حدث الإتباع هنا للزم لمناسبة فتح العين قلب حرف العلة ألفاً مما يؤدي إلى التباس الصيغ.

ويرى ابن يعيش أن هذا الإتباع لو تمّ : " لالتبس (فَعْلَة) ساكنة العين بـ(فَعَلَة) مفتوحة العين نحو : دارة ودارات ، وقامة وقامات "[2] .

وعليه قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ ﴾[3] ، تلك هي أهم سياقات المناسبة الصوتية في القرآن الكريم .

سادساً : المحسنات الصوتية

اهتم البلاغيون في بحوثهم الجمالية لتصرفات المباحث البلاغية بصور مختلفة من الألوان البديعية الصوتية التي لها مزية حسن الوقع السمعي ، والتي صُنِّفَت مندرجة تحت مسمى المحسنات اللفظية . وهذا الاهتمام بالأثر الصوتي لهذه المحسنات يصدر عن نزعة جمالية.

ولا شك أننا نجد في الشعر الجيد إيقاعاً موسيقياً غير متولد عن معانقة الوزن فقط ، بل هو ناتج عن علاقات نسقية بين الألفاظ من الناحية الصوتية ، وما يتخلل ذلك من الاتكاء على معطيات النبر والتنغيم عند الأداء الصوتي لهذا الشعر . وهذا الإيقاع الموسيقي الناتج عن مثل هذه العلاقات النسقية لا نستطيع أن نفصله عن ألوان الإيقاعات الأخرى داخل السياق الأدائي، لأنها جميعاً تتداخل معاً لتنتج لنا مزيجاً صوتياً عذباً، يتآلف مع المقومات الأخرى للعمل الفني

---

١ - سورة النور : آية رقم (٥٨) .
٢ - ابن يعيش ، شرح المفصل ، ٥ / ٣٠ .
٣ - سورة الأعراف : آية رقم (٢٦) .

كالصور والأخيلة والمعاني .ويجب الحذر من الإسراف في تنمية هذه العلاقات الصوتية لأن ذلك سيؤدي إلى نشاز جمالي داخل السياق الكلي للعمل الفني .

ونجد عند ابن سنان لمحات عبقرية إذ أدرك الأثر الجمالي لهذه العلاقات الصوتية ، وتمثلها في نواحٍ متعددة داخل السياق الإبداعي ، بل وجعلها من شروط الفصاحة ، وهي ما سماه المناسبة بين اللفظين ، وهي عنده على ضربين [1] :

الأول : مناسبة بين اللفظين من طريق الصيغة .

والثاني : مناسبة بين اللفظين من طريق المعنى .

والمناسبة اللفظية متمثلة في البديع كالسجع ، والازدواج ، والجناس ، والترصيع [2] .

وابن سنان بهذا يكون سابقاً للدراسات الحديثة التي تعقد للأصوات في وضعها التعبيري أهمية قصوى لأنه " ثمة إمكانات تعبيرية كامنة في المادة الصوتية . هذه التأثيرات تظل كامنة في اللغة العادية حيث تكون دلالة الكلمات التي تتالف منها ، والظلال الوجدانية لهذه الكلمات بمعزل عن قيم الأصوات نفسها ، ولكنها تتفجر حيثما يقع التوافق من هذه الناحية . إذن فثمة مجال بجانب علم الأصوات بمعناه الدقيق لعلم أصوات تعبيري" [3] .

وهذا العلم هو عين ما عناه جان كوهين بـ(الأسلوبية الصوتية) [4] ، وهي الأسلوبية التي تنبع من الدلالة الصوتية للكلمات . ويجعل كوهين هذه الدلالة على شقين هما :

الأول : دلالة الوزن والقافية الشعرية .

والثاني : الدلالة الصوتية الذاتية للكلمات المنتظمة داخل النسق الشعري .

والشق الثاني هو مناط الاهتمام في هذا المقام [5] . ويرى بيير جيرو أن " في حوزة اللغة نسقاً كاملاً من المتغيرات الأسلوبية الصوتية ، ويمكن أن نميز من بينها : الآثار الطبيعية للصوت ، والمحاكاة الصوتية ، والمدّ ، والتكرار ، والجناس ، والتناغم " [6] .

---

١ - ينظر : ابن سنان ، سر الفصاحة ، ١٦٢ .
٢ - ابن سنان ، سر الفصاحة ، ١٦٣ - ١٩٠ .
٣ - د . شكري عياد ، اتجاهات البحث الأسلوبي ، ٣٢ .
٤ - ينظر : جان كوهين ، بنية اللغة الشعرية ، ١١- ١٢ .
٥- ينظر : د. لطفي عبد البديع ، التركيب اللغوي للأدب ، ٦٦ .
٦ - بيير جيرو ، الأسلوب والأسلوبية ، ٤٠ .

كما أن هذه المحسنات الصوتية في توظيفها تكون منطلقاً للوعي والتأثير " فالشاعر حينما يكرر حرفاً بعينه ، أو مجموعة من الحروف ، إنما يكون لهذا مقصد ومغزى يعكس شعوراً داخلياً للتعبير عن تجربته الشعرية . وقد يتفوق الجرس الصوتي على منطق اللغة فيخرج عن قيد الصوت المحض إلى فيض الدلالة التي تحرك المعنى وتقويه . وليس من شك في كون الشاعر دائماً ما يحمل همّ إحداث التناغم بين الذات والصوت ، وهو في ذلك يرتكز على قيمتين تختزنهما أبجدية الحروف اللغوية هما : الأثر السمعي والمعنى "[1] . كما أن لهذه المحسنات أهمية قصوى في الإسهام بفاعلية في إنتاج بنية التوازي " التي يحظى فيها الصوت حتماً بالأسبقية على الدلالة "[2].

والتلوينات الصوتية التي تزخر بها اللغة ، بما لها من أثر تحسيني في بنية الأداء ، هي ما دفعت البلاغيين إلى مراقبة البنية التكوينية للجملة ، والتدقيق في رصد الخواص الصوتية التي تتصل بعملية التحسين في هذا السياق . والدراسات اللسانية والنصية الحديثة تتخذ من محددات النص – أي المكونات التي يكون بها النص نصياً – محوراً للدراسات والبحوث . والأسلوبية الصوتية التي دعا إليها كوهين ترى في توافق تام مع مقررات اللسانيات النصية أن من أهم هذه المحددات النصية عنصر (السبك Cohesion) الذي يتحقق بفضل انسجام عناصر نحوية وعناصر معجمية[3] .

والنحوية هنا تشمل المستويات الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية . وليس أدلّ على إدراك أهل البلاغة لمفهوم السبك من مقالة ابن الأثير (ت ٦٣٦هـ) حين تحدث عن العلة في تفضيل لفظ على آخر إذ يقول : " ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظين تدلان على معنى واحد ، وكلاهما حسن الاستعمال ، وهما على وزن واحد ، وعدة واحدة ، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه ، بل يفرق بينهما في مواضع السبك . وهذا لا يدركه إلا من دقّ فهمه ،

١- جان كانتينو ، دروس في علم أصوات العربية ، ٣٩ .

٢- ياكوبسن ، قضايا الشعرية ، ١٠٨ .

٣- ينظر : د. سعد مصلوح ، نحو أجرومية للنص الشعرية ، ١٥٤ .

وجلّ نظره . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾[2] فاستعمل الجوف في الأولى ، والبطن في الثانية ، ولم يستعمل الجوف موضع البطن ، ولا البطن موضع الجوف ، واللفظتان سواء في الدلالة ، وهما ثلاثيتان في عدد واحد ، ووزنهما واحد أيضاً ، فانظر إلى سبك الألفاظ كيف تفعل ؟! "[3] .

والنص واضح بذاته ويدلنا على الفهم الواعي لمحددات الذوق البلاغي الذي كان عليه أهل البلاغة في تعاملهم مع النص القرآني ، ومحاولاتهم تفسير ظواهره الأسلوبية .

والسبك المعجمي هو المنوط به تحقيق الصوتية الدلالية في نص ما ، لأنه يرتكز على تصرفات الألفاظ والمفردات . كما أنه يتحقق عبر ظاهرتين لغويتين هما : التكرار (Repetition) ، والمصاحبة المعجمية (Collocation) وهي تلك الألفاظ المتصاحبة دوماً ، بمعنى أن ذكر أحدهما يستدعي ذكر الآخر ، ومن ثم يظهران معاً بصورة دائمة[4] .

وما يهمنا هنا في هذا المقام هو الحديث عن ظاهرة التكرار بكل أشكالها مع مراعاة أن الجانب التراثي لتناول هذه الظاهرة لن يكون حاضراً بشكله ، بل من خلال معطياته وفق تصنيف آخر يتضح من خلال السرد البحثي . فالتكرار في صورته العامة عبارة عن تكرار لفظين مرجعهما واحد ، أي أن الأصل المعجمي لهما واحد ، دون الاعتداد بالمعنى في هذا السياق . كما " أن مثل هذا التكرار يُعَدُّ ضرباً من ضروب الإحالة إلى سابق (Anaphora) بمعنى أن الثاني منهما يُحيل إلى الأول ؛ ومن ثم يحدث السبك بينهما ، وبالتالي بين الجملة أو الفقرة الوارد فيها الطرف الأول من طرفي التكرار ، والجملة أو الفقرة الوارد فيها الطرف الثاني من طرفي التكرار "[5] .

كذلك ينظر إلى التكرار من زاويتين هما : زاوية الألفاظ ، وزاوية المعاني . فالتكرار من الناحية اللفظية يحقق إيقاعاً موسيقياً متناغماً ، وذلك إذا كان قائماً على وحدات متساوية من

---

١ - سورة الأحزاب : آية رقم (٤) .
٢ - سورة آل عمران : آية رقم (٣٥) .
٣ - ابن الأثير ، المثل السائر ، ١ / ١٦٤ .
٤- ينظر : د. محمد خطابي ، لسانيات النص ،١- ٢٥ . — د. أحمد مختار ، علم الدلالة ، ٧٤ .
٥ - د . جميل عبد المجيد ، البديع ، ٧٩ .

الأصوات التي اتصفت بالحسن . أما إذا قام على أصوات أو ألفاظ توصف بالثقل أو الغرابة فإنها تؤدي إلى نتائج عكسية وهي التنافر والقبح السمعي [1] . ومن الناحية المعنوية فإنه يرتبط بالإيجاز والإطناب والمساواة ، ويرتبط بمقام التلقي ، فيحسن في مقامات ويقبح في أخرى .

والنص القرآني لديه المثال الأوفى في توظيف التكرار ، فهو يعتمد الإيجاز البلاغي في مخاطبة العرب أهل الفصاحة . يقول الجاحظ : " رأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف . وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً ، وزاد في الكلام " [2] .

وهذا اللون من التكرار للأصوات التي تحدث إيقاعاً موسيقياً يختلف تماماً عن الإيقاع الناتج عن الأوزان الشعرية ، والقائم على تكرار التفعيلة ، وهو ناتج عن تكرار الحركات والسكنات على نحو منتظم لا يقتصر على الشعر بل يكثر أيضاً في النثر . واللسانيات النصية قدمت لنا تصنيفاً فريداً لجمالية التكرار لكن من زاوية لسانية بحتة . هذا التصنيف يتمثل في أربع درجات [3] :

الأولى : إعادة العنصر المعجمي (Repetition of Lexical Item) ، وهو تكرار الكلمة بذاتها ، ولذا يسمى التكرار التام (Full Repetition) . ويقع عند البلاغيين تحت مسمى التكرير اللفظي [4] .

والثانية : الترادف أو شبه الترادف Synonym or Near Synonym ، وهوتكرار المعنى دون اللفظ . ويكون شبه الترادف حين يتقارب اللفظان تقارباً شديداً لدرجة يصعب معها التفريق بينهما مثل كلمتي (عام) و (سنة) [5] . ويسمى عند البلاغيين باسم (التكرير المعنوي) [6] .

والدرجة الثالثة : الاسم المشترك (Super Ordiante) ويقصد به الاسم الشامل الذي يحمل أساساً مشتركاً بين عدة أسماء ترتكز في سياقاتها جميعاً على هذا الأساس المشترك مثل كلمة (إنسان) التي تحمل أساساً مشتركاً لكلمات مثل (رجل ، وامرأة ، وولد ، وبنت ، وشيخ ...) [7] .

١- ينظر : د . محمد الخفاجي ، علم الفصاحة العربية ، ١٦٥ .
٢- الجاحظ ، الحيوان ، ١ / ٩٤ . وينظر : الجاحظ ، البيان والتبيين ، ١ / ١٠٥ .
٣-ينظر : محمد خطابي ، لسانيات النص ، ٢٠- ٢٥ .-د. جميل عبد المجيد ، البديع ، ٧٩ - ٨٣.
٤- ينظر : السجلماسي ، المنزع البديع ، ٤٧٦ .
٥ - ينظر: جون لاينز ، علم الدلالة ، ٤٨ - ٤٩ .
٦ - ينظر : السجلماسي ، المنزع البديع ، ٤٧٣ .
٧- جون لاينز ، اللغة والمعنى والسياق ، ٩١ .

والدرجة الرابعة : الكلمات العامة (General Words) وهي مجموعة من الكلمات التي فيها من العموم والشمول حيز أكبر بكثير مما في درجة الاسم المشترك أو الاسم الشامل .

وهذا التقسيم اللساني لعنصر التكرار روعي فيه التدرج التوزيعي ، والمَنْطَقَة التوليدية تأثراً بما قدمته المدارس اللسانية السابقة كالتحويلية والتوزيعية والتوليدية ، فجاء هذا التقسيم متفرداً عنها ، ومنطلقاً من أساساتها المتعددة .

وتأسيساً على التقسيم السابق فإنه يمكننا التعرض للسياق التكراري كقيمة صوتية تنضوي في طياتها العديد من القيم الصوتية البلاغية التي تؤدي الدور الأهم في السياق الدلالي .

ولذلك فإنه يمكن تقسيم التكرار إلى لونين :

الأول : تكرار اللفظ والمعنى .

والثاني : تكرار اللفظ دون المعنى . ونفصل القول في كل منهما على حدة .

أولاً : تكرار اللفظ والمعنى

وهذا القسم هو بعينه ما تناوله أهل البلاغة العربية قديماً في ثنايا مؤلفاتهم تحت مسمى التكرير أو التكرار[1] . وقد عولج هذا اللون عند البلاغيين على أساس أن حده (دلالة اللفظ على المعنى مردداً) كقوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾[2] بتكرار كلمة (السابقون) لفظاً ومعنى . وهذا التكرار اللفظي رصد له ابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ) تسع وظائف دلالية ترتبط كل منها بغرض شعري معين . وهذه الوظائف تتمثل في (التشويق ،

١- ينظر : الفراء ، معاني القرآن ، ٢٢٤/٢ ، ٢٨٧/٣ .- أبو عبيدة ، مجاز القرآن ، ١/ ١٢ . - الجاحظ ، البيان والتبيين ، ١٠٤/١ .- ابن قتيبة ، تاويل مشكل القرآن ، ٢٣٢ - ٢٣٥ .- الباقلاني ، إعجاز القرآن ، ١٦٠ .- ابن رشيق ، العمدة ، ٥٩/٢ .- المرتضى ، الأمالي ، ١٢٠/١ . - ابن أبي الإصبع ، تحرير التحبير ، ٢٧٥ .- الطيبي ، التبيان ، ٢٩٩ .- ابن الأثير ، المثل السائر ، ٢ / ١٢٨ .- الكرماني ، البرهان ، ١٢٢ .- السجلماسي ، المنزع البديع ، ٤٧٦ .

٢- سورة الواقعة : الأيتان رقم (١٠ ، ١١) .

والاستعذاب ، والتقرير ، والتوبيخ ، والوعيد والتهديد ، والتوجع ، والازدراء ، والتهكم ، والتنقيص) . وقد عدَّ ابن رشيق لكل منها مجموعة كبيرة من الشواهد الشعرية الدالة على كل منها [1] . وما فعله ابن رشيق هو في حقيقته خلاصة ما تعاوره أهل البلاغة في دراسة مسائل التكرير ، وذلك بشيء من التفصيل [2] .

ولا شك في امتلاك ابن الأثير الحس الذوقي عند تعامله مع مسائل هذا المبحث بإحساس راق . يتضح ذلك بصورة جلية من تحليله لقوله تعالى : ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴾ [3] حيث يقول عن تكرار (الرحمن الرحيم) :" كرر (الرحمن الرحيم) مرتين ، والفائدة في ذلك أنّ الأول يتعلق بأمر الدنيا ، والثاني يتعلق بأمر الآخرة . فما يتعلق بأمر الدنيا يرجع إلى خلق العالمين في كونه ، خلق كلاً منهم على أكمل صفة ، وأعطاه جميع ما يحتاج إليه حتى البقة والذباب . وقد يرجع إلى غير الخلق كإدراك الأرزاق وغيرها . وأما ما يتعلق بأمر الآخرة فهو إشارة إلى الرحمة الثانية يوم القيامة ، الذي هو يوم الدين " [4] .

وابن الأثير يحلل التكرار في سياق إفرادي ، دون أن يتطرق إلى دوره في السياق الكلي للآيات ، وما له من وظائف في هذا السياق . وهنا يثور سؤال مفاده : هل للتكرار دور وظيفي في تحقيق السبك ، بعيداً عن وظيفته التقليدية وهي التوكيد ؟! والإجابة نتلمسها عند السجلماسي (ت بعد ٧٠٠هـ) إذ يقول عن تكرار البناء وهو ضرب من أضرب التكرار عنده : " هو إعادة اللفظ الواحد بالعدد وعلى الإطلاق المتحد المعنى كذلك مرتين فصاعداً خشية تناسي الأول لطول العهد به في القول . ومن صوره الجزئية قوله عز وجل : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴾ [5] فقوله : (أنكم) الثاني بناء على الأول ، وإذكار به خشية تناسيه لطول العهد به في القول " [6].

١- ينظر : ابن رشيق ، العمدة ، ٢ / ٧٤ – ٢ / ٧٦ .
٢- ينظر : الطوفي ، الإكسير ، ٢٦٩ – ٢٧٨ . – ابن الناظم ، المصباح ، ٢٣٢ – ٢٣٤ .
٣- سورة الفاتحة : الآيات رقم (١ – ٣) .
٤- ابن الأثير ، المثل السائر ، ٢ / ١٤٩ .
٥- سورة المؤمنون : آية رقم (٣٥) .
٦- السجلماسي ، المنزع البديع ، ٤٧٨ .

وهذا التكرار يسهم في تنشيط ذاكرة المتلقي وذلك بإحالة مدلولات اللفظ الثاني إلى محكمات الأول في إطار السياق ذاته . ويتخذ تكرار اللفظ والمعنى أشكالاً متعددة . فمن هذه الألوان :

١- الترديد :

ويقصد به أن يأتي الشاعر بلفظة متعلقة بمعنى ، ثم يرددها هي بعينها مع تعلقها بمعنى آخر في البيت الشعري نفسه ، أو في جزء منه [١] .

ويرى ابن أبي الإصبع (ت٦٥٤هـ) أن الترديد هو " أن يعلق المتكلم لفظة من الكلام بمعنى ثم يردها بعينها بمعنى آخر كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [٢] فالجلالة الأولى مضافاً إليها ، والثانية مبتدأ بها " [٣] .

وينصب الترديد أحياناً على حروف المعاني إذ يتم تكرارها بكثرة كقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ [٤] فقد تردد حرف الجر (من) في السياق الأول بكاف الخطاب ، ثم اتصل الحرف ذاته في السياق الثاني بضمير الغائب للجمع . وهذا الاتصال أسهم دلالياً في تحقيق قيمة التوقع عند المتلقي ، إذ يتوقع القارئ أنه عند موالاة الكفار يُصبح (الموالي) منهم . وهذا التوقع هو الناتج الأسلوبي لقيمة الترديد في سياق هذه الآية [٥] .

والترديد ظاهرة لغوية ذات طبيعة صوتية محضة ، ولكنها لا تهمل الجانب الدلالي الذي ينبغي أن تؤديه من خلال علاقاتها التركيبية . وقوام هذه الظاهرة التكرار والإعادة . والترديد بهذا الشكل يمثل مظهراً إيقاعياً يلعب فيه ذكر اللفظ ثانية دوراً موسيقياً حراً [٦] .

١- ينظر : الحاتمي ، حلية المحاضرة ، ١ / ١٥٤ .— ابن وكيع ، المنصف ، ١ / ١٦ .— ابن رشيق ، العمدة ، ٢٢٣/١ .— ابن أبي الإصبع ، تحرير التحبير ، ٢٥٤ .— ابن منقذ ، البديع ، ٥١ .

٢- سورة الأنعام : آية رقم (١٢٤) .

٣- ابن أبي الإصبع ، تحرير التحبير ، ٢٥٣ .

٤- سورة المائدة : آية رقم (٥١) .

٥- ينظر : ابن أبي الإصبع ، بديع القرآن ، ٩٦ .

٦- ينظر : رشيد شعلال ، ظاهرة الترديد في شعر أبي تمام ، ١٢١ .

وظائف الترديد :

للترديد ثلاث وظائف متكاملة تتمثل في [1] :

الأولى : إيقاعية . وأبرز ما يمثلها ترديد اللفظة نفسها في السياق .

والثانية : دلالية . وهي تقوم على ما تؤديه اللفظة المرددة من أدوار نحوية تتبعها أغراض سياقية دلالية أهمها على الإطلاق التوكيد .

والثالثة : شعرية . تقوم على ما تفرزه الألفاظ المترددة من أنماط تركيبية وإخبارية وبيانية متنوعة على مستوى الخطاب ، وتحقيق عناصر دلالية مثل المفاجأة ، والإثارة اللتين تجلبان اهتمام السامع ، وتحقّق سياق التوقع لديه .

٢- التعطّف :

ويقصد به أن تذكر اللفظ ثم تكرره والمعنى مختلف[2] . ويخالف الترديد من وجهين :

الأول : أنه يشترط فيه إعادة اللفظة بصيغتها ، التعطف لا يشترط فيه ذلك .

والثاني : أن الترديد قد يكون في أحد أقسام البيت : في المصراع الأول أو الثاني ، أما التعطف فيشترط فيه أن يتباعد اللفظان بحيث يكون كل منهما في قسم منفصل .

ومن أمثلة التعطف في النص القرآني قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾[3] .

فالتعطف في الآية ورد في موضعين متعلقين بلفظة (تربّصون) التي تعلقت بالجار والمجرور (بنا) ، ولفظة (نتربص) التي تعلقت بالجار والمجرور (منكم) ، فتم العقد بين كل متربصين تعطفاً .

ويلاحظ ما يسهم به التعطف في سياق المنظومة الصوتية ، وما يتبعها من جماليات دلالية وسياقية قوامها التعلق الذي هو السبك في الدراسات النصية الحديثة .

١- ينظر : محمد عبد المطلب ، بناء الأسلوب في شعر الحداثة ، ١١٦ – ١١٧ .

٢- ينظر : ابن أبي الإصبع ، تحرير التحبير ، ٢٥٤ – ٢٥٧ . - ابن الناظم ، المصباح ، ٧٧.

٣- سورة التوبة : آية رقم (٥٢) .

٣- رد الأعجاز على الصدور :

ولهذا المبحث تصرفات متنوعة في سياق الشعر والنثر ، ولذا فإنه يتنوع في أداء وظائفه الجمالية تبعاً لتنوع هذه السياقات . ويقصد به في السياق النثري : أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بهما في أول الفقرة ، والآخر في آخرها . وعليه قوله تعالى : ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾[1] .

ويسمي بعض أهل البلاغة هذا اللون باسم (التصدير) [2] ، وإن كان أغلبهم على تسميته بـ(رد الأعجاز على الصدور) خصوصاً المتأخرين منهم [3] .

اقسام رد الأعجاز على الصدور :

لهذا اللون أقسام عدة تصل إلى ستة عشر فرعاً ، وذلك بحسب موقع اللفظة الأولى (الصدر) لأنها الدالة المتحركة بحرية بخلاف الثانية (العجز) الثابتة دوماً في نهاية البيت . وهذه الأقسام العديدة ناتجة عن عملية حسابية تعدت الأصل فصارت على هذا التزيد . فنحن لدينا أربعة أشكال من الألفاظ التي يقع فيها هذا اللون ، وهذه الأشكال هي (المكرران ، والمتجانسان ، والملحقان بالمتجانسين اشتقاقاً ، والملحقان بالمتجانسين بشبه الاشتقاق) . كذلك لدينا أربعة مواقع للفظ الأول (الصدر) وذلك لثبات الموقع للفظ الثاني (العجز) . وبيان ذلك كالآتي :

الأول : أن يكون أحد اللفظين المكررين - وهما المتفقان لفظاً ومعنى- في سياق الآية القرآنية ، في بداية الآية ، أو ما يشبه بدايتها . وعليه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾[4] . فقد بدأت الآية بكلمة (استهزئ) ، وختمت بـ(يستهزئون) ، وهما متفقان لفظاً ومعنى ، فهما مكرران .

١- سورة الأحزاب : آية رقم (٣٧) .

٢- ينظر : ابن المعتز ، البديع ، ٤٧ .- العسكري ، كتاب الصناعتين ، ٣٨٥ .- الباقلاني ، إعجاز القرآن ، ١٤٠ .- ابن رشيق ، العمدة ، ١ / ٢٣٥ .- الرازي ، نهاية الإيجاز ، ٣٠ .

٣- ينظر : ابن الأثير ، المثل السائر ، ١ / ٢٥١ .- السكاكي ، مفتاح العلوم ، ٢٠٢ .

٤- سورة الأنعام : آية رقم (١٠) .

والثاني : أن يكون اللفظان متجانسين ، أي متشابهين في اللفظ دون المعنى . ونظراً لإمكانية خلط هذا النمط بمبحث (الجناس التام) الذي تتفق صورته ويختلف معناه ، فإنه يجب إيضاح الفارق بين اللونين . فمثلاً قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾[1] هناك تجانس تام بين (الساعة) أي : يوم القيامة و(ساعة) أي : مدة زمنية معينة . وهذا التجانس قائم بصورة أساسية على التماثل في المستوى (البصري) ، أي على مستوى البنية السطحية ، لكنهما يختلفان بالطبع على مستوى البنية العميقة ، وهذا هو عين تعريف الجناس التام . لكن المفارقة هنا بين الجناس التام وهذا النمط من رد الأعجاز على الصدور تكمن في أن هذا النمط من رد الأعجاز يستلزم التجانس وليس التماثل الكامل (التكرار التام) ، وهذا لا يتحقق إلا في (الجناس التام) فقط .

والثالث : أن يكون اللفظان ملحقين بالمتجانسين عن طريق الاشتقاق ، أي أنهما يشتركان في الأصل اللغوي دون الصورة الشكلية التي وردا عليها . وعليه قوله تعالى : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾[2] . فكلمتا (استغفروا) و (غفاراً) مشتركان في أصل المادة (غفر) ، وكذلك بينهما شبه تجانس بالاشتقاق .

وكذلك قوله تعالى : ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾[3] فكلمتا(هب) فعل أمر من وَهَبَ ، و(الوهاب) صيغة مبالغة من المادة نفسها ، وبينهما اشتراك في أصل المادة اللغوية (وهب) ، وكذلك بينهما شبه تجانس بالاشتقاق .

والرابع : أن يكون اللفظان ملحقين بالمتجانسين عن طريق شبه الاشتقاق ، أو الصورة المشبهة للاشتقاق شكلاً . وعليه يخرج قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴾[4] فبين كلمة (قال)

---

١ - سورة الروم : آية رقم (٥٥) .
٢ - سورة نوح :آية رقم (١٠) .
٣ - سورة آل عمران : آية رقم (٨) .
٤ - سورة الشعراء : آية رقم (١٦٨) .

فعل ماض من (قَوَلَ) ، وكلمة (القالين) اسم فاعل للجمع من (قَلَى) أي هجر وترك ، تجانس عن طريق شبه الاشتقاق بصورة شكلية ، أي على المستوى البصري.

وقوله تعالى : ﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) فبين (الظلمات) من (الظُلمَة) ، وكلمة (الظالمين) اسم فاعل من (ظَلَمَ) ، تجانس عن طريق شبه الاشتقاق بصورة شكلية ، أي على المستوى البصري .

ويرى د. محمد عبد المطلب أن التكرارية في هذا اللون ملحوظة على المستوى الشكلي ، كما أنها ملحوظة على مستوى البنية العميقة عندما تتوارد لفظتان بمعنى واحد أو بمعنيين مختلفين ، ولكن طبيعة البعد المكاني للفظتين هو الذي نقل هذا اللون من بنية التكرار إلى هذا السياق ، فكان التكرار هنا لابد من أن يتوفر فيه ذهنياً مسافة في الدلالة تسمح للفظة أن تستقر ، محققة نوعاً من اكتمال المعنى أو تحقيقه (٢) .

٤- تشابه الأطراف :

وهو أن يُختم الكلام بما يناسب أول المعنى (٣) . ويرى ابن أبي الإصبع أن هذا اللون يُسمى التسبيغ وهو" أن يعيد لفظ القافية في أول البيت الذي يليها ، والتسبيغ زيادة في القول " (٤) . وقد جعل ابن أبي الإصبع منه قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾(٥) . فقد تشابهت أطراف الجمل القرآنية بتكرار ختام كل جملة في بداية الجملة التالية كما يأتي :

- كمشكاة فيها مصباح .
- المصباح في زجاجة .
- الزجاجة كأنها كوكب دريّ .

---

١ - سورة الأنبياء : آية رقم (٨٧) .
٢ - ينظر : د . محمد عبد المطلب ، بناء الأسلوب ، ١١٣ .
٣- ينظر : ابن أبي الإصبع ، تحرير التحبير ، ٥٢٠ .— القزويني ، الإيضاح ، ٣٤٤ .
٤ - ابن أبي الإصبع ، بديع القرآن ، ٢٣٠ .
٥ - سورة النور : آية رقم (٣٥) .

إذ تبادلت لفظتا (مصباح) و (زجاجة) أدوارهما من كونهما ختام الجمل القرآنية ، إلى الابتداء بهما في سياق الجملة التالية . ويرى د. محمد عبد المطلب أن تشابه الأطراف " يقدم بنية تكرارية تعتمد على إعادة الشاعر لفظ القافية في أول البيت التالي لها ، أو أن يعيد الناثر القرينة الأولى في أول القرينة التي تليها . فالتكرارية هنا ملحوظ فيها البعد المكاني في تجاوز الدالين ، برغم تمايز التراكيب التي تضم كلاً منهما من حيث الختام والابتداء"[1] .

وهذا اللون التكراري يعتمد في وظيفته على المفاجاة الأسلوبية واختراق توقع القارئ الذي يتوقع اختلاف البداية للآية التالية ، فيجد نفسه بعد ختام السابق مع بداية التالي من خلال الابتداء بهذا السابق ، فينتقل أفق توقعاته إلى مدار أسلوبي أرقى على المستوى الدلالي .

٥- المجاورة[2] :

وهذا اللون البديعي من مبتدعات العسكري الذي يرى أنه " تردد لفظين في البيت ووقوع كل واحد منهما بجنب الأخرى أو قريباً منها من غير أن يكون أحدهما لغواً لا يحتاج إليها "[3] .

ونتلمس هذا اللون في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾[4] . فقد تجاور لفظ الجلالة (الله) مرتين بلا فاصل ، ولكل منهما دلالته العامة والخاصة ، كما أنه لا يمكن الاستغناء عن أحدهما على الإطلاق .

وهذا اللون البديعي تعتمد فيه الأسلوبية الصوتية على بنية التكرار الخالصة وذلك على مستوى البنية السطحية والعميقة معاً . كما أن حركة المعنى فيه تاخذ شكلاً رأسياً بوضع المعنى طبقات بعضها فوق بعض ، مع توازيها في قيمتها التعبيرية ، وإن اختلف الأثر الدلالي النهائي نتيجة لتراكم هذه الدلالات[5] .

١- د. محمد عبد المطلب ، البلاغة العربية قراءة أخرى ، ٣٦٣ .

٢- ينظر : العسكري ، كتاب الصناعتين ، ٤٦٧ – ٤٦٩ . – ابن الأثير ، الجامع الكبير ، ١٦٤ .

٣- العسكري ، كتاب الصناعتين ، ٤٦٦ .

٤- سورة الأنعام : آية رقم (١٢٤) .

٥- د . محمد عبد المطلب ، بناء الأسلوب ، ١١٧ .

تلك هي أهم الأنماط التكرارية التي تتخذ من تكرار اللفظ والمعنى شكلاً تعبيرياً خاصاً بها في أداء ما يناط بها من وظائف أسلوبية سياقية في تقاطعات سياقاتها مع سياقات الألوان الأخرى ، وما يؤدي إليه ذلك من جماليات نصية هي المبتغى من وراء هذه التوظيفات .

ثانياً : تكرار اللفظ دون المعنى

ويقصد به ذلك اللون من التكرار الذي يعتمد التوافق الشكلي بين البنى التركيبية مع الاختلاف على مستوى البنية العميقة . ولهذا اللون أشكال متنوعة تفصيلها متوفر في كتب البلاغة [1] .

فمثلاً الجناس التام يقصد به اتفاق اللفظين في أنواع الحروف وعددها وهيئاتها وترتيبها مع الاختلاف في المعنى . وقد يكون اللفظان اسمين كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ [2] . فقد جانس هنا بين كلمتي الساعة أي يوم القيامة ، و(ساعة) أي مدة زمنية قصيرة . وواضح هنا أن التماثل على المستوى الخطي فقط ، وهناك اختلاف على مستوى البينة العميقة للكلمتين .

ويعتمد هذا اللون من الجناس على فكرة (المخادعة) وكسر أفق التوقع الدلالي الناتج عن اتحاد اللفظين شكلياً ، وذلك عند تلقيهما من جانب القارئ خاصة في ظل اتحادهما الصوتي .

فالمتلقي هنا يكون أمام نوعين من التلقي هما :

الأول : التلقي البصري الناتج عن التماثل الشكلي المؤدي إلى توهّم الاتحاد الدلالي .

والثاني : التلقي الثقافي أي وفق الخلفية الثقافية للمتلقي من خلال إدراكه لفنية الاختلاف الدلالي بين اللفظين ، وتخالف البنية العميقة لكل منهما ، ثم إدراك المخادعة الدلالية التي تمت في سياق هذا اللون البديعي ، وما لها من أثر جمالي في هذا السياق [3] .

١- ينظر : ابن منقذ ، البديع ، ٢٥ .– العسكري ، الصناعتين ، ٣٢١ .– ابن رشيق ، العمدة ،١/ ٣٢١ . الرماني ، النكت ، ٩١ .– الباقلاني ، إعجاز القرآن ، ١٢٦ .– ابن الأثير ، المثل السائر ، ١/ ٢٤٦ .

٢- سورة الروم : آية رقم (٥٥) .

٣- ينظر : ياكوبسن ، قضايا الشعرية ، ١٠٨ .– جان كوهين ، بناء اللغة الشعرية ، ٥٢ .

وأهل الأسلوب يرون في التعامل مع بنية الجناس نوعاً من الاتكاء على المعطى الصوتي المتوافر فيها تحقيقاً للإيقاع النغمي من ناحية ، وإثارة لأفق التوقعات لدى القارئ من ناحية أخرى .
ويتم التعامل مع هذه البنية الجناسية على مستويين هما :

الأول : يسيطر فيه الاختيار ، إذ يتم اعتماد مفردتين تتطابق صوتياً . ويكون هذا الاختيار بمثابة المنبه التعبيري ، ويكون أقوى تأثيراً نتيجة للهزة الدلالية التي يتلقاها المتلقي بمخالفة التوقع " لأن اللفظ المشترك إذا حُمل على معنى ثم جاء المراد به معنى آخر كان للنفس تشوف إليه "[1] .

والمستوى الثاني : تتسلط فيه عملية الاختيار على مفردتين بينهما من التماثل الشكلي والدلالي أكثر مما بينهما من التخالف على المستوى العميق[2] .

ومن ذلك الجناس المطرف . وهو من ألوان الجناس غير التام . ويقصد به : ما زاد أحد ركنيه على الآخر حرفاً في نهايته[3] . وهذا التحديد الدقيق لأصل هذا النوع من الجناس يُراعى فيه الحفاظ على الأصل الشكلي المراد من بنية التكرار ، إذ ليس من المجدي هنا في هذا المقام الاتكاء على المعطى الدلالي فقط ، بل يجب أن يُراعى هنا فنية التماثل في الهيئة التي تتحقق عن طريق تماثل اللفظين ، ونقصان أحدهما عن الآخر حرفاً .

ويرى د. جميل عبد المجيد أن لحظة التوهم الدلالي في هذا النوع من الجناس أقل بكثير مما يحدث في حالة الجناس التام ، وذلك " لأن في اللفظ المكرر نفسه ، وباستكمال سماع / قراءة الحرف الأخير منه يتبين للسامع / القارئ أنه قد وهم "[4] .

إضاءة :

يتغير نوع الجناس المرتبط بزيادة حرف حسب موقع هذا الحرف كما يلي :

---

١ - السبكي ، عروس الأفراح ، ٢ / ٤١٣ .
٢ - ينظر : د . محمد عبد المطلب ، البلاغة العربية ، ٣٧٤ .
٣ -ينظر : ابن رشيق ، العمدة ،١/ ٣٢٥ .– الرازي ، نهاية الإيجاز ، ٢٩ .– السكاكي ، المفتاح ، ٢٠٢ .
٤ - د. جميل عبد المجيد ، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية ، ١٠٥ .

١- إذا كان هذا الحرف المُزاد في أول الكلمة كقوله تعالى : ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ [1] . فقد تم الجناس هنا بين كلمتي (الساق) و(المساق) بزيادة حرف هو (الميم) في بداية الكلمة الثانية (م + ساق) ، وعندئذ يُسَمَّى بالمطرّف .

٢- فإذا كان الحرف المُزاد واقعاً في وسط أحد الكلمتين كقولهم : (جدّي جهدي) بزيادة الهاء في وسط الكلمة الثانية . وهو أيضاً في هذه الحالة جناس مكتنف .

٣- فإذا كان المُزاد واقعاً في نهاية أحد الكلمتين ، فهو الجناس المذيّل [2] . وهو ما اختلفت فيه أحد الكلمتين بزيادة أكثر من حرف عن الأخرى . فقد تكون الكلمة مزيدة بأكثر من حرف في أولها عن الكلمة الأخرى كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ [3] فقد جانس بين كلمتي (ربهم) و (بهم) ، والأولى مزيدة بحرفين في أولها هما (الراء ، والباء المشددة) .

وقد تكون إحدى الكلمتين مزيدة بأكثر من حرف في آخرها عن الكلمة الأخرى كقوله تعالى : ﴿ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً ﴾ [4] . فقد جانس بين (إلى) و(إلهك) ، والثانية مزيدة بحرفين في آخرها هما (الهاء والكاف) . وهذا النوع عند أهل البلاغة هو ما يستحق أن يطلق عليه (المُذَيَّل) ، لأن التذييل عبارة عن زيادة تلحق أواخر الكلمات .

ومنه جناس التغاير : ويقصد به مغايرة أحد اللفظين للآخر في الحركة ، أو في النقط و الخط ، أو في ترتيب حروفه ، أو في تغاير الحرف بلا مشابهة .

أ- فإذا تماثلت الكلمتان في الحروف مماثلة تامة ، وتغايرتا في الحركات سواء كانا اسمين ، أو فعلين ، أو اسم وفعل ، فعندئذ يُسَمى بالمحرَّف [5] . وعليه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [6] فقد جانس بين كلمتي (منذِرين) بكسر الذال وهم الرسل ، و(المنذَرين) بفتح الذال وهم الأقوام المُرسَل إليهم .

١- سورة القيامة : الآيتان رقم (٢٩ ، ٣٠) .
٢- ينظر : ابن أبي الإصبع ، تحرير التحبير ، ١٠٧ – ١٠٨ . – ابن أبي الإصبع ، بديع القرآن ، ٣٠ . – ابن منقذ ، البديع ، ٢٦ .
٣- سورة العاديات : آية رقم (١١) .
٤- سورة طه : آية رقم (٩٧) .
٥- ينظر : ابن أبي الإصبع ، تحرير التحبير ، ١٠٦ . – ابن الناظم ، المصباح ، ١٨٦ .
٦- سورة الصافات : الآيتان رقم (٧٢ ، ٧٣) .

ب - إذا اختلف اللفظان المتجانسان في النقط ، وذلك بين الحروف الأخوات (الباء ، والتاء ، والثاء، والنون ، والياء) و(الجيم ، والحاء ، والخاء) و(الدال ، والذال) و(الراء ، والزاي) و(والسين ، والشين) و(الصاد ، والضاد) و (الطاء ، والظاء) و(العين ، والغين) و(الفاء ، والقاف) ، فعندئذ يُسَمَّى هذا اللون (جناس التصحيف)[1] ، ويخرَّج عليه قوله تعالى : ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[2] . فقد جانس بين (يسقيني) و(يشفيني) فناظر السين بالشين ، والقاف بالفاء . فالجناس هنا في النقط فقط .

ج - وإذا اتفق اللفظان في الحروف واختلفا في ترتيبها داخل بنية الكلمة سواء كان هذا الترتيب كلياً أو جزئياً ، عندئذ يُسَمَّى هذا الجناس باسم (المقلوب)[3] . ومن أمثلة الاختلاف الكلي في ترتيب الحروف في الكلمة قوله ﷺ في الدعاء المبارك : (اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا)[4] ، فقد جانس بالقلب الكلي بين (عوراتنا) و(روعاتنا) ، وهما متماثلتان في الحروف ذاتها ، وإن اختلفتا في ترتيب هذه الحروف .

ومن أمثلة الاختلاف الجزئي في ترتيب الحروف قوله تعالى : ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[5] ، فقد جانس بالقلب الجزئي بين كلمتي (بين) و(بني) ، وهما متماثلتان في الحروف ذاتها ، وإن اختلفتا في ترتيب حرفي النون والياء فقط مع ثبات (الباء) في صدر الكلمتين بلا اختلاف .

د - إذا اختلف اللفظان المتجانسان في نوع الحرف (الذي يشترط كونه واحداً لا أكثر) ، فالجناس في هذا النوع على قسمين :

١- ينظر : ابن منقذ ، البديع ، ١٧ . - الرازي ، نهاية الإيجاز ، ٢٩ . - السكاكي ، مفتاح العلوم ، ٢٠٢ . - ابن الناظم ، المصباح ، ١٨٨ .
٢- سورة الشعراء : الآيتان رقم (٧٩ ، ٨٠) .
٣- ينظر : القزويني ، الإيضاح ، ٣٨٨ . - السجلماسي ، المنزع البديع ، ٤٨٧ .
٤- ينظر : ابن ماجه ، سنن ابن ماجه ، ٣/٣٣٢ . - الإمام أحمد بن حنبل ، المسند ، ٨ / ٢٣٦ .
٥- سورة طه : آية رقم (٩٤) .

أولهما : أن يكون الحرفان المتغايران متقاربين في المخرج الصوتي كقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ [1] . فقد جانس بين كلمتي (ينهون) و(يناون) ، والاختلاف بينهما فقط في حرفي الهاء والهمزة كل في موقعه ، والحرفان من مخرج صوتي واحد وهو أقصى الحلق . وهذا النوع من الجناس يُسَمَّى (الجناس المضارع) [2] .

وثانيهما : إذا كان الحرفان المتغايران متباعدين في المخرج الصوتي كقوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ [3] ، فقد جانس بين (همزة) و(لمزة) ، والاختلاف بينهما فقط في حرفي (الهاء) و(اللام) كل في موقعه ، والحرفان متباعدان في المخرج الصوتي ؛ فالهاء من أقصى الحلق ، واللام من طرف اللسان .

ويخرّج عليه قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [4] ، فقد جانس بين كلمتي (شهيد) و (شديد) ، والاختلاف بينهما فقط في حرفي (الهاء) و (الدال) كل في موقعه ، والحرفان متباعدان في المخرج الصوتي ؛ فالهاء من أقصى الحلق ، والدال من طرف اللسان . وهذا النوع من الجناس يُسَمَّى (الجناس اللاحق) [5] .

وهذا التفصيل المسهب في تبيان ألوان الجناس الصوتي إنما مقصده الإلمام بمعطيات هذا اللون صوتياً وما يتبع ذلك من دلالات في السياق .

* المشاكلة :

ويقصد بها أن يقوم المتكلم بذكر المعنى بلفظ غيره ، أو بلفظ مضاد للفظ الغير ، أو مناسب له ، لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً [6] . فمن أمثلة ذكر الشيء بلفظ غيره لصحبته إياه تحقيقاً

---

١ - سورة الأنعام : آية رقم (٢٦) .
٢ - ينظر : الطيبي ، التبيان ، ٤٠٥ . – الطوفي ، الإكسير ، ٣٣٦ . – التنوخي ، الأقصى القريب ، ١١١ .
٣ - سورة الهمزة : آية رقم (١) .
٤ - سورة العاديات : الآيتان رقم (٧ ، ٨) .
٥ - ينظر : الطوفي ، الإكسير ، ٣٣٧ . – ابن منقذ ، البديع ، ٢٢- ٢٦ . - ابن الناظم ، المصباح ، ١٨٩ . - القزويني ، الإيضاح ، ٣٣٦ . – السجلماسي ، المنزع البديع ، ٤٨٨ .
٦ -ينظر : السكاكي ، مفتاح العلوم ، ٢٠٠ . – ابن الناظم ، المصباح ، ٨٩ . – الطيبي ، التبيان ، ٢٨٩ .

قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [1] ، فالسيئة الأولى على حقيقتها لأنها صادرة عن أفعال العباد ، أما الثانية فهي الجزاء على الأولى ، والجزاء لا يسمى سيئة ، وإنما أطلق ذلك من باب المشاكلة اللفظية لوقع اللفظ الثاني في صحبة الأول على الحقيقة .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [2] ، وقوله : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [3] .

أما ذكر الشيء بلفظ غيره لصحبته إياه تقديراً فعليه قوله تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ ﴾ [4] ، فقوله (صبغة الله) مصدر مؤكد لمضمون قوله (آمنا بالله) ، والمعنى طهرنا الله بالإيمان مخالفة لفعل النصارى فيما يذهبون إليه من فعل التعميد [5] .

* طباق السلب :

وهو الجمع بين فعلي مصدر واحد ؛ أحدهما مثبت والآخر منفي [6] . وعليه قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ [7] ، فقد كرر لفظ (الخشية) بالإثبات والنفي ، فطابق بينهما سلباً .

---

١ - سورة الشورى : آية رقم (٤٠) .
٢ - سورة آل عمران : آية رقم (٥٤) .
٣ - سورة النساء : آية رقم (١٤٢) .
٤ - سورة البقرة : الآيات رقم (١٣٦ – ١٣٨) .
٥ - ينظر : الجرجاني ، الإشارات والتنبيهات ، ٢٨٦ . – القزويني ، الإيضاح ، ٣٠٩ .
٦ - ينظر : قدامة ، نقد الشعر ، ٨٥ . – العسكري ، كتاب الصناعتين ، ٣٠٧ . – ابن أبي الإصبع ، تحرير التحبير ، ١١٤ . – ابن سنان ، سر الفصاحة ، ١٩٧ . – ابن رشيق ، العمدة ، ٢ / ١٢ . – الجرجاني ، الإشارات والتنبيهات ، ٤٥ . – السكاكي ، مفتاح العلوم ، ٢٢٥ . – ابن الأثير ، المثل السائر ، ٢ / ٢٧٩ .
٧ - سورة المائدة : آية رقم (٤٤) .

- وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [1] ، فكرر لفظ (العلم) بالإثبات والنفي ، فطابق بينهما سلباً .

- وقوله تعالى : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ [2] ، فقد كرر لفظ (الاستخفاء) بطباق السلب .

ويلاحظ أن التضاد في هذا اللون من الطباق إنما هو تضاد صوتي بنفي الدال وإثباته في آن ، كما أن طرفي الطباق ليسا هما محور هذا التضاد الأسلوبي ، إنما المحور الحقيقي هو (أداة النفي) ، إذ يتم في ضوئها هذا الانزياح الصوتي والدلالي .

ومن المؤشرات الأسلوبية لتوظيف هذا اللون البديعي في سياق النص القرآني ، أننا نجد الآيات القرآنية الموظف فيها هذا اللون لا تسير على نمط تركيبي واحد ، إذ نجد آيات يتقدم فيها الفعل المنفي أولاً ويلحقه بعد ذلك الفعل المثبت كما في الآيات الآتية :

- قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ [3] .

- وقوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى ﴾ [4] .

- وقوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم ﴾ [5] .

- وقوله تعالى : ﴿ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [6] .

ثم يوظف النص القرآني هذه البنية البديعية بتقديم الطرف المثبت على الطرف المنفي في :

- قوله تعالى : ﴿ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم ﴾ [7] .

- وقوله تعالى : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ [8] .

---

١ - سورة الروم : الآيتان رقم (٦ ، ٧) .
٢ - سورة النساء : آية رقم (١٠٨) .
٣ - سورة المائدة : آية رقم (٤٤) .
٤ - سورة الأنفال : آية رقم (١٧) .
٥ - سورة إبراهيم : آية رقم (٢٢) .
٦ - سورة النحل : آية رقم (٢٠) .
٧ - سورة البقرة : آية رقم (٩) .
٨ - سورة النساء : آية رقم (١٠٨) .

- وقوله تعالى : ﴿ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [1] .
- وقوله تعالى : ﴿ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾ [2] .
- وقوله تعالى : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [3] .

وهذا التنوع الأسلوبي في توظيف سياق التكرار الطباقي السلبي مؤشر على تنوع الصياغة القرآنية وفرادتها في توظيف الدوال نفسها على مستويات مختلفة من السياقات التركيبية . كما أن الوظيفة الأهم في توظيف طباق السلب صوتياً هو الكشف عن الدلالة بأبعادها المختلفة خلال هذه البنية اللغوية .

تلك هي أهم المحسنات البلاغية الصوتية بنسقها الأسلوبي ، وبما تحمله من تشكيلات جمالية ، وإبداعات أدائية موظفة في ثنايا النص القرآني كقيم صوتية نصيّة دلالية . وهذا التوظيف ستتضح أبعاده من خلال التطبيق في الفصول القادمة إن شاء الله .

وهكذا عرضنا أهم منابع التلوينات الصوتية بما تحمله من دلالات نصية وأسلوبية تتضح سياقاتها التعبيرية وفق مقررات واضحة ، وإمكانات تعبيرية موظفة على نحو فريد في هذه السياقات المختلفة .

---

١ - سورة المائدة : آية رقم (١١٥) .
٢ - سورة الأنعام : آية رقم (٦) .
٣ - سورة التوبة : آية رقم (٨٠) .

الفَصْل الثّاني

أثرُ التّلْوينِ الصّوْتيِّ

في انتِقاءِ الكلِمَةِ القُرآنيّة

ماهية الكلمة :

الكلمة في العربية ذات ظلال وإيحاءات لا تنتهي ، وهي تقوم على معان نحوية وصيغ بلاغية لا نظير لها في اللغات الأخرى . وهذا الثراء في دلالاتها إنما هو إرث عن مراحل حياتها المختلفة ، وتطور دلالاتها عبر مختلف الأحداث والعصور ، فقد تحوَّل كل حرف من حروفها إلى وعاء من الخصائص والمعاني وذلك بفعل تعامله مع الأحاسيس والمشاعر الإنسانية طوال هذه العصور . وهذا المشهد يتكرر كل لحظة آلاف المرات بمجرد أن يعيها القارئ أو السامع حتى تتشخص الأحداث والأشياء في مخيلته وذهنه ووجدانه .

ولذا فإننا نتفق مع الرافعي حين يصف هذه الكلمات العربية وما فيها من سحر فطري ، وثراء بنيوي في خصائصها ودلالاتها بقوله :"في الكلمة العربية موسيقى باطنية عفوية بلا تصنع ، قوامها التوافق الفطري بين خصائص أحرفها وبين ما تدل عليه من المعاني إيحاءً وإيماءً. فما أن تُنْشَد الكلمة في الشعر العربي الأصيل ، أو تُرَتَّل في القرآن الكريم حتى نجد أن خصائص الحروف ومعانيها هي التي تتحكم بموسيقاها طواعية ذوق أدبي رفيع بلا قسر أو تصنّع " [1] .

والشعراء هم الذين مَوْسَقُوا الكلمة العربية طوال المراحل الرعوية بإنشادها في قصائدهم ، فشحنوا أحرفها بشتى الأحاسيس والانفعالات لتتحول الكلمة العربية بذلك إلى تفعيلة مموسقة جاهزة للدخول في شتى الأوزان ، ومهيأة للتداول في شتى القوافي للتعبير عن شتى المعاني بلا موسيقى مصطنعة [2] .

---

١ - مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ٢١٤ .
٢- ينظر : د. حسن عباس ، الحرف العربي والشخصية العربية ، ١٠٠ .

وللكلمة وظيفة مهمة في كل زاوية من زوايا الوجود ، ومغزى خاص في الفن يرتبط بالإمتاع والفائدة . وحين تنحصر دائرتها في فن البلاغة فإنما تتجه بشكل مباشر إلى الجمال . فالبلاغة في عناصرها كلها إنما تُبْنَى على الجمال ، وتَخْلُق بدائعه ، وتَتَصيَّد مقاصده ، وتُحَقِّق في الذات والمجتمع وظائفه . فليس هناك أحد في الوجود ينفر من الجمال ، بل هناك سعيٌ حثيث منذ الأزل إليه ، وشغف في النفس إلى آفاقه ، وهو يتشكل داخل الإنسان منذ بداية ذائقته الفطرية ، ويتشكل في الوسط الموضوعي أيضاً لترتقي ذائقة الجمال من الشكل الحسي إلى العقلي فالروحي ، فتسمو النفس وتصفو .

وقد قدَّمت الدراسات اللغوية والأسلوبية والبلاغية لمفهوم الكلمة جمالياً وبلاغياً أكثر مما قدّمته أية دراسات أخرى . فقد تلقى البلاغيون الكلمة القرآنية بكثير من الانجذاب لأنهم أدركوا ما تختزنه من عجيب التأليف ، وبديع التصوير ، وعمق التحليل في المستويات كلها ، كما نلمس في قول الزمخشري عن قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ [1] : " فإن قلتَ : لِمَ قيل : من شجرة على التوحيد دون اسم الجنس الذي هو شجر ؟ قلت : أريد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة ؛ حتى لا تبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا قد بُرِيت أقلاماً " [2] .

هذا هو سر بقاء الكلمة حية على عظمة ما لحقها من أهوال ، وهذا ما يجعلها هدفاً للدراسات الجمالية والبلاغية على الدوام دون النظر إلى تأخر أهلها ، أو تراجعهم

---

١ – سورة لقمان : آية رقم (٢٧) .
٢ – الزمخشري ، الكشاف ، ٣ / ٢٣٦ .

تراجعاً مؤقتاً . ولعلّ المثال السابق وما يسوقه البحث بين أيدينا يثبت أن البلاغيين العرب حرصوا على الجمال ، وفتّشوا عنه في الجملة اللغوية والنحوية ، وجعلوا الكلمة أساسه وأصله ، وهفت نفوسهم إليه عند المتكلم والمخاطب ، وأدركوا أن وراءه يكمن معنى وهدف . ولهذا بحثوا في الأثر النحوي ، فانتهوا إلى علم المعاني ، فسبقوا بذلك الغرب . فالأثر النحوي نتاج بلاغي صِرْف سُبِقَ به رومان جاكبسون ورولان بارت . فعبد القاهر من أوائل المعيّنين للمعاني الأُول والمعاني الثواني المنبثقة من معاني النحو ، وهذا عَيْنُه ما تقوم عليه الدراسات البنيوية الغربية هذه الأيام . فهو لم يكتف بالحديث عن ذلك ليخترع فقط نظرية النظم ، وإنما استطاع أن يربط بدقة بين الصورة والدلالة في الجملة ، فاخترع له مصطلح الهيئة ، وذلك في كتابه أسرار البلاغة .

ولو راجعنا ما قاله علماء العربية في تعرضهم لماهية الكلمة لوجدناهم لم يتفقوا على تصور واحد للكلمة . فقد نظروا إلى الكلمة من جهة شكلها المفرد الدال على معنى مرة ، ومن الوجه التركيبي المُؤَلَّف ، ثم باعتبارها البلاغي المرتبط بالفصاحة والبلاغة مرة ثالثة ، ولكنهم قيدوا هذا الاعتبار حين وضعوا له شروطاً في حالة الإفراد وفي حالة التأليف . فالكلمة عندهم أساس الجملة والكلام ، وهي لفظ دال على معنى مفرد ، باعتبار أقسامها (الاسم ، والفعل ، والحرف) [1] .

كذلك نظر علماء العربية إلى دراسة اللغة وأساليبها فما انفكوا يلتزمون بالكلمة

١- ينظر : الخليل ، العين ، ٥٣/١ . - سيبويه ، الكتاب ، ٤/١ ، ٢١٦/١٢ . -المبرد ، المقتضب ، ١/١ ، ١٤١ -١٧٤ . - ابن السراج ، الأصول ، ١ / ٣٦ . - ابن يعيش ، شرح المفصل ، ١ / ١٩ . - الرضي ، شرح الكافية ، ٢٢/١ .

ذاتها . فقد جعلها النحويون مادتهم في أبحاثهم ، فعلم الإعراب لديهم يبحث في الكلمة المركبة وفق ما يقتضيه آخرها من تغير في الحركة أو ثبات فيها . وعلم الصرف عندهم يتوقف عند الأصول ، ليعرف صيغة الكلمات وأحوالها فيما ليس بإعراب ولا بناء .

تعريف الكلمة :

الكلمة هي أساس علم النحو الذي به تعرف أحوال الكلمات . وسيبويه وقف عند ماهية الكلمة المفردة دون أن يعرفها [1] ، وكذلك فعل المبرد [2] ، وابن السراج [3] . في حين عرفها الزمخشري بقوله : " اللفظة الدالة على معنى مفرد بالوضع ، وهي جنس تحته ثلاثة أنواع : الاسم والفعل والحرف" [4] . فالكلمة لديه لفظ دال على معنى ، وهذا اللفظ هو الصوت الدال على هذا المعنى .

أما ابن يعيش فيرى أن الكلمة : " ليست مجموعة من الحروف التي رُكّبَ بعضها مع بعض ، بل هي مجموعة من الحروف المتآلفة الدالة على معنى " [5] . فالمعنى الموضوع للكلمة ، أو التي وضعت له الكلمة هو مناط الأمر في سياق التعريفات التراثية للكلمة . فالكلمة عند كلٍ من الزمخشري وابن يعيش يتحقق وجودها إذا كانت صوتاً موضوعاً ذا دلالة معينة ، ومستقلاً بذاته ، أي إنّ عناصر الكلمة تتمثل في : (الصوت ، والوضع ، والدلالة ، والاستقلالية) .

---

١ - ينظر : سيبويه ، الكتاب ، ١/ ١٢ ، ٤/ ٢١٦ .
٢ - ينظر : المبرد ، المقتضب ، ١/ ١٤١ ، ١/ ١٧٤ — ١٧٨ .
٣ - ينظر : ابن السراج ، الأصول ، ١/ ٣٦ .
٤- الزمخشري ، المفصل في علم العربية ، ٤ .
٥ - ابن يعيش ، شرح المفصل ، ١/ ١٩ .

وابن جني يبيّن لنا الفرق الدقيق بين اللغة والكلام والقول ؛ فاللغة مجموعة أصوات للتعبير عن مقاصد القوم[1] ، والكلام "كل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه ، وهو الذي يسميه النحويون الجمل . وأما القول فأصْلُه إن كان لفظاً مذل به اللسان تاماً كان أو ناقصاً . فالتام هو المفيد ، أعني الجملة وما كان في معناها ، والناقص ما كان بغير ذلك . فكل كلام قول ، وليس كل قول كلاماً "[2] . فابن جني بهذا التدقيق يسبق أصحاب اللسانيات الحديثة الذين فرّقوا بين اللغة التي تكون استعداداً للبشر كلهم . في حين يكون للكلام وجهان ؛ فردي واجتماعي يتفاعلان معاً كما قال دو سوسير ، وتشومسكي[3] .

وهي عند ابن الحاجب "كل لفظ وضع لمعنى ، والكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع "[4] . وعند ابن مالك " لفظ مستقل دال بالوضع تحقيقاً أو تقديراً ، أو منوي معه كذلك ، وهي ؛ اسم وفعل وحرف "[5] . وعند الرضي" لفظ مفرد موضوع "[6] . وعند السيوطي هي " قول مفرد مستقل أو منوي معه "[7] . فالتعبير بالقول فيه إفادة للمعنى لأن " ما خرج من الفم إن لم يشتمل على حرف فصوت ، وإن اشتمل على حرف ولم يفد معنى فلفظ ، وإن أفاد معنى فقول . فإن كان مفرداً فكلمة ، أو مركباً من اثنين

---

١ - ينظر ؛ ابن جني ، الخصائص ، ١/ ٣٣ .
٢ - السابق ، ١/ ١٧ .
٣ - ينظر ؛ دي سوسير ، دروس في الألسنية العامة ، ٥٢ ، ٤٩ ، ٤٢ . - تشومسكي ، اللغة ومشكلات المعرفة ، ١٢٤ ، ١٣٣ ، ١٨٧ ، ٢١٢ .
٤ - الرضي ، شرح الكافية ، ١/ ٢٢ .
٥ - ابن مالك ، شرح التسهيل ، ١/٣ .
٦ - الرضي ، شرح الكافية ، ١/ ٢٢ .
٧ - السيوطي ، همع الهوامع ، ١/ ٣ .

ولم يفد نسبة مقصودة لذاتها فجملة ، أو أفاد ذلك فكلام ، أو من ثلاثة فكَلِم "[1] .

فالكلمة عند السيوطي ما أفادت معنى بذاتها ، وما لم يقترن في ذاته فليس بكلمة كاحرف المضارعة ، وياء النسب ، وتاء التانيث ، وذلك لعدم استقلالها بمعنى . أما الضمائر المستترة فإنها تكون متلوة بكلمة ما ، ولذا قال : أو منوي معه .

وعلى هذه الشاكلة جاء تعريف النحويين العرب لماهية الكلمة ، وهو فهم يعتمد على عدد من الأسس التي تتمثل في الجانب الصوتي ، والمواضعة ، والمعنى ، والاستقلالية في وجودها . وهذه الأسس تتداخل عندهم في سياق التعرض لتحديد ماهية الكلمة ، مما أدى بهم إلى الخلط غير المقصود في بعض الأمور الخاصة بماهية الكلمة ، منها :

١- الخلط في الوقوف على حد استقلالية الكلمة ، وعدم التفريق بين ما يوجد منها بشكل مستقل ، وما لا يوجد منها إلا متصلاً بغيره .

٢- الخلط في تحديد ما تدل على معنى بذاتها ، وما لا تدل على معنى بذاتها .

٣- عدم التمييز بين الصوت والحرف ، والتنوع في استخدام المصطلحات بين لفظ ، ولفظة ، وقول ، مع العلم أنهم يفرقون بين هذه المصطلحات توظيفياً .

ولن يختلف الأمر كثيراً إذا ما حاولنا الوقوف على تعريف لماهية الكلمة عند المعجميين ، إذ تدور جهودهم في هذا الإطار حول تحديد الحالة التي توجد عليها ما بين الثلاثي والرباعي والخماسي مثلما نلمسه عند الخليل[2] . أو التعريف العام الذي يشمل المدلول اللغوي للكلمة ودلالتها على الحرف الواحد من حروف الهجاء ، أو

---

١ - السيوطي، همع الهوامع ، ١/ ٣ .
٢ - ينظر : الخليل بن أحمد ، العين ، ١/ ٥٢ .

القطعة من الكلام ، وذلك في كلام الأزهري ، وابن منظور [1] .

ومن الإنصاف أن نقرّر كانوا أكثر دقة من غيرهم في الوقوف على جانبي الكلمة أي : اللفظ والمعنى ، فرَتّبُوا معاجمهم على هذا الأساس إما على مراعاة الجانب اللفظي ، وإما على أساس المعنى . وبهذا وُجِدَ قسمان رئيسان للمعاجم هما : معاجم الألفاظ ، ومعاجم المعاني ، فقد جاء اهتمامهم هذا ممثلاً للعناية بالجانب الصوتي ، والجانب الدلالي للكلمة .

أما البلاغيون فقد شغلتهم هذه المسألة كثيرًا ، عندما استدرجتهم إلى إثارة قضية (اللفظ والمعنى) ، وما أدت إليه من مذاهب متباينة ومتنوعة في التراث النقدي والبلاغي . فقد اهتم علماء البلاغة بدراسة الأصوات المكونة للكلمة ، والعلاقة بين هذه الأصوات . كما اهتموا بدراسة دلالة الكلمة ، وبيان قيمتها الجمالية ، وأثرها في التعبير في حالتي الإفراد والتركيب .

ولعل أبرز الأمثلة على هذه العناية صنيع ابن سنان في (سر الفصاحة) الذي عقده لدراسة الفصاحة والأسباب المؤدية إليها ، وتناول الصوت اللغوي وماهيته ، وخصائص الحروف ومخارجها وصفاتها ، والتفريق بين الصوت والحرف ، وتحديد شروط فصاحة اللفظ المفرد ، وكذلك المركّب .

فالكلمة صوت يحمل دلالة ما ، ويتصف بجمالية معينة على مستوى اللفظ المفرد والمُؤَلّف عند ابن سنان ، وبذلك سبق الغربيين ، ولكنه نظر إليها من جهة الفصاحة والبلاغة ، فهي ذات ماهية خاصة على المستويين السابقين ، فما تتخذه الكلمة في

---

١ - ينظر : الأزهري ، تهذيب اللغة ، ١٠/ ٢٦٥ . – ابن منظور ، لسان العرب ، ٩/ ٤٨ .

حالة الإفراد لا تتخذه في حالة التركيب النحوي المباشر وغير المباشر ، وهي في نهاية المطاف (مبنىً ومعنىً) . إنها تتخذ لنفسها ماهية متعددة كتعدد السياق الذي تدخل فيه ؛ ولهذا فهي تظهر وتُحذف ، وتُقدَّم وتؤخر ، وتقحم في مكان لا تقحم في غيره ، ويُستعاض عنها بكلمة في مكان لا يمكن أن تقع كلمة أخرى في مكانها . فهي تتسم بخصائص فنية بنائية مستمدة من جنسها اللغوي الذي تنتمي إليه أولاً ومن صياغة حروفها في تقاليبها المميزة لعمق دلالتها وتنوعها ثانياً ، ومن التركيب النحوي الذي تغدو جزءا منه ثالثاً ، ومن الاستعمال الحقيقي أو المجازي المبنية عليه رابعاً .

غير أن عبد القاهر قام بمعارضة ما ذهب إليه ابن سنان حول فصاحة اللفظ المفرد ، وأعلن هجومه الشديد على هذه الفكرة مثلما نلمح ذلك في (دلائل الإعجاز) [1] . لذلك فالكلمة عنده أعظم بكثير مما انتهى إليه ابن سنان - على معاصرتهما - كذلك خطا عبد القاهر خطوات كبرى في معالجة أصوات الكلمة عما انتهى إليه ابن فارس في (مقاييس اللغة) ، وكذلك فعل في البنية الصرفية ودلالتها ، وفي التركيب النحوي وثرائه الدلالي . فدرس علاقة التركيب بالدلالة الشعورية والفكرية ؛ ونظر إلى بنية الكلمة ووظيفتها مفردة ومركبة ، وما تتركه من أثر في المتلقي ، فكان بذلك رائداً للدراسة الأسلوبية بكل اتجاهاتها ، وإن تطورت كثيراً عما كانت عليه عنده .

والبلاغيون لم يضعوا تعريفاً مجرداً للكلمة ، وإنما تعاملوا معها في إطار الاستخدام اللغوي . ولم يهتموا بتعريفها المجرد ، بل نزعوا إلى البحث في تحقيق عناصر هذه الكلمة المتمثلة في : (الصوت ، والصيغة ، والدلالة ، والاستقلال) ، بالإضافة إلى ما يحقق فصاحتها أولاً ثم بلاغتها بعد ذلك .

---

١ - ينظر : عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ٣٧ ، ٤٢ ، ٢٣٢ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ .

ولعلنا نتطلع الآن إلى استكناه موقف المعاصرين في هذا المضمار ، فنجد د. حلمي خليل يحدد لنا بداية أن " للكلمة جوانب متعددة يمكن النظر إليها . فمن الجائز النظر إليها على أنها سلسلة من الأصوات ، أو على أنها عنصر نحوي ، أو وحدة من وحدات المعنى . وحينئذ تبرز مشكلة توظيف الكلمة في الصور المختلفة ، وذلك تبعاً للحالة الخاصة التي تكون عليها " [1] . فهو هنا يحدد بداية ما يعتور تعريف الكلمة ، وتحديد ماهيتها من مشاكل تبعاً للمدخل التعريفي لها من حيث كونه صوتياً أو صرفياً أو نحوياً أو دلالياً ، إذ لكل مدخل من هذه المداخل طرائق تعريف خاصة به ، نابعة من كيانه ومباحثه .

ويرى فندريس أن " الكلمة لا تحدد فقط بالتعريف التجريدي الذي تحددها بها القواميس ، إذ يتأرجح حول المعنى المنطقي لكل كلمة جو عاطفي يحيط بها ، ويعطيها ألواناً مؤقتة على حسب استعمالاتها " [2] .كذلك يرى أن للسياق دوراً لا ينبغي إغفاله عند تحديد هذه الماهية للكلمة " إذ إن الكلمة توجد في كل مرة تستعمل فيها في جو يحدد معناها تحديداً مؤقتاً ، والسياق هو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة بالرغم من المعاني المتنوعة التي في وسعها أن تدل عليها ، والسياق أيضاً هو الذي يخلص الكلمة من الدلالات الماضية التي تدعها ذاكرة تتراكم عليها ، وهو الذي يخلق لها قيمة حضورية " [3] .

أما أولمان فيراها" أصغر وحدة ذات معنى ، ويمكن إفرادها والنظر إليها من هذه

---

١ - د. حلمي خليل ، الكلمة ، ١٤ .
٢ - فندريس ، اللغة ، ٢٣٥ .
٣ - السابق ،٢٣١ .

الناحية "[1] . وهذا لا يخرج عن تعريف قدامى اللغويين العرب .

ويرى د. تمام حسان أن الكلمة " صيغة ذات وظيفة لغوية معينة في تركيب الجملة ، تقوم بدور وحدة من وحدات المعجم ، وتصلح لأن تفرد أو تحذف أو تحشى أو يتغير موضعها ، أو تستبدل بغيرها في السياق ، وترجع مادتها إلى ثلاثة أصول ، وقد تلحق بها زوائد "[2] . ونتلمس هنا ما قام به د. تمام حسان إذ صاغ هذا التعريف الذي جمع به ما تفرق من تعريفات هذا التراث . فهذا التعريف له خصوصية تنبع من :

١- ربط الكلمة في كل أحوالها بالسياق حين الإفراد أو الحذف أو الاستبدال ، وهو عين ما قاله فندريس عن أثر السياق في تحديد دور الكلمة[3] .

٢- ربط الكلمة بأقلّ ما توجد عليه بقوله : (وترجع مادتها إلى أصول ثلاثة) ، وفي هذا إبعاد للضمائر لا سيما المتصلة منها ، وكذلك الأدوات النحوية التي توجد على حرف أو حرفين من حدود الكلمة ، وهذا أمر يخالف به ما قاله الخليل وسيبويه[4] .

٣- مناداته بإمكانية إلحاق الزوائد بالكلمة ، مما يوحي بأن الزوائد رغم كونها ذات معنى لا تدخل في حدود الكلمة .

أما د. محمود حجازي فيرى أن الكلمة " أقل عناصر اللغة ذات الدلالة "[5] . وهو يتكئ على إيضاح ما يقصد بدلالات الرمز اللغوي (الكلمة) ، لأنه يرمز إلى شيء مادي ومعنوي .

١- ستيفن أولمان ، دور الكلمة في اللغة ، ٣٤ .
٢- د. تمام حسان ، مناهج البحث في اللغة ، ٢٦٦ .
٣- ينظر : فندريس ، اللغة ، ٢٣١ ، ٢٧٣ ، ٣٠١ .
٤- ينظر : الخليل بن أحمد ، العين ، ١ / ٥٢ . — سيبويه ، الكتاب ، ٤ / ٢١٦ .
٥- د. محمود فهمي حجازي ، علم اللغة العربية ، ١٢ .

ويرى د. حلمي خليل أنّ " الكلمة في نهاية الأمر مبنى ومعنى ، لكل منهما سماته وخصائصه التي بها نستطيع أن نتعرف على الكلمات " [1] . وهذا الرأي نتلمس فيه اعتماده على كل العناصر المتصلة بالمبني مثل :(الصوت ، والصيغة الصرفية ، والبناء الوظيفي ، والنطق ، والكتابة) ، والجوانب المتصلة بالمعنى مثل : (الدلالة الإفرادية ، والدلالة الرمزية) .

غير أن د. حلمي خليل في نهاية الأمر يرى أن " محاولة وضع تعريف جامع مانع للكلمة تتراجع أمام الدراسة الدقيقة لهذه الجوانب جميعًا ، فهي - في ظنّي - أولى بالاهتمام والدرس من محاولة وضع تعريف للكلمة " [2] . فالكلمة بما تحمله من خصائص بنائية تؤدي وظائف صوتية نحوية صرفية ومن ثم تعبيرية فنية اتصالية ، تكون جديرة بالعناية بعيداً عن محاولة تعريفها ، وحصرها في إطار قيد تعريفي لا يُعبِّر عن مضامينها الثرية . وإن كان من الممكن أن نهتدي ببعض الإشارات في تحديد ماهية الكلمة ، وهي لا تعدو أن تكون استخلاصاً مما سبق ، فإننا يمكننا أن نتصور أن الكلمة صوت دال على معنى ما يحدث في الأذان إيقاعاً معيناً ؛ ويتصف بجمالية خاصة تترك أثرها في المتلقي .

فطرية الكلمة القرآنية :

أعطى القرآن الكريم الكلمة مجالاً وظيفياً واسعاً وفاعلاً يتجاوز بمراحل نوعية ذلك الأفق الضيق من الاستعمال القاموسي ، فالكلمة من خلال رصد استعمالاتها في نطاق الوحي طاقة حسية تتوزع ببراعة وجدارة في مسارب متعددة ومتنوعة من

---

١ - د. حلمي خليل ، الكلمة ، ٣١ .
٢ - نفسه .

الإشارة والبيان والوظيفة ، فكانت عبارة عن شكل حي في السياق القرآني ، وإمكانية هائلة من الدلالات التي تتفاضل فيما بينها ، وتتمايز عما سواها في غير النص القرآني . ثم إن توظيف النص القرآني لمصطلح الكلمة جاء متحركاً في أشواط متسارعة من الاشتقاقات والصيغ ، وذلك من آليات الاستعمال والتوظيف ، كما أنها إحدى مؤثرات العناية والاهتمام بهذا المصطلح في السياق التوظيفي .

هذا وقد وردت مادة (ك - ل - م) واشتقاقاتها موظفة في ثنايا النص القرآني في (٧٥ خمسة وسبعين موضعاً) [1] توزعت كالآتي :

م	الصيغة	مرات التكرار
١-	كَلَّمَ	٢
٢-	كَلَّمَهُ	٢
٣-	كَلَّمَهُمْ	١
٤-	أُكَلِّمَ	١
٥-	تُكَلِّمَ	٣
٦-	تَكَلَّمُنَا	١
٧-	تُكَلِّمُهُمْ	١
٨-	تُكَلِّمُونَ	١
٩-	نُكَلِّمَ	١

١ - محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ٧٢٢ – ٧٢٣ .

م	الصيغة	مرات التكرار
١٠-	يُكلِّم	١
١١-	يُكَلِّمُنا	١
١٢-	يُكَلِّمه	١
١٣-	يُكَلِّمهم	٢
١٤-	كُلِّمَ	١
١٥-	تُكَلِّم	١
١٦-	نتكلّم	١
١٧-	يَتَكَلَّم	١
١٨-	يَتَكَلَّمون	١
١٩-	كلام	٣
٢٠-	بكلامي	١
٢١-	كلمة	٢٦
٢٢-	كلمتنا	١
٢٣-	كلمتُه	١
٢٤-	كلمات	٨
٢٥-	كلماته	٦
٢٦-	الكلم	٤

م	الصيغة	مرات التكرار
٢٧-	تكْليماً	١
المجموع	٧٥ خمسة وسبعون موضعاً	

جدول رقم (١)

وقد حازت صيغة (كلمة) النصيب الأوفى في هذه المواضع إذ اشتملت على (٢٦ ستة وعشرين موضعاً) من إجمالي المواضع . وكثرة التوظيف دليل على العناية التي تحوزها اللفظة في السياق القرآني . ويمكننا أن ندقق في الأمر أكثر بالوقوف على مرجعيات الدلالة لهذه اللفظة في سياق توظيفها القرآني ، وذلك للاقتراب من مناط التميز التوظيفي لهذه اللفظة في سياق النص القرآني ، ومحاولة كشف بعض جماليات هذا التوظيف من خلال الجدول التالي :

الآية	السورة	رقم الآية	مرجعية الدلالة
أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ	آل عمران	٣٩	النبوة
إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ	آل عمران	٤٥	المسيح
قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء	آل عمران	٦٤	التوحيد
وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً	الأنعام	١١٥	قضاء الله
وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى	الأعراف	١٣٧	قضاء الله
وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى	التوبة	٤٠	الشرك
وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ	التوبة	٤٠	التوحيد

الآية	السورة	رقم الآية	مرجعية الدلالة
وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ	التوبة	٧٤	الشرك
وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ	يونس	١٩	قضاء الله
كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ	يونس	٣٣	قضاء الله
إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ	يونس	٩٦	قضاء الله
وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ	هود	١١٠	قضاء الله
وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ	هود	١١٩	قضاء الله
ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ	إبراهيم	٢٤	التوحيد
وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ	إبراهيم	٢٦	الشرك
كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ	الكهف	٥	الشرك
وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ	طه	١٢٩	قضاء الله
كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا	المؤمنون	١٠٠	تمني العودة
أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ	الزمر	١٩	العذاب
وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ	الزمر	٧١	العذاب
وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ	غافر	٦	قضاء الله
وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ	فصلت	٤٥	قضاء الله
وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ	الشورى	١٤	قضاء الله
وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ	الشورى	٢١	الفصل

الآية	السورة	رقم الآية	مرجعية الدلالة
وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ	الزخرف	٢٨	التوحيد
وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى	الفتح	٢٦	التوحيد

جدول رقم (٢)

وهذا التنوع الوظيفي للكلمة إنما هو في جوهره انتقال بمعنى الكلمة من ذلك الحيز الذي لا يتعدى ما ينطق به الإنسان (مفرداً أو مركباً) إلى متون ومضامين جديدة لم تُطرَق من قبل . وهو إثراء دلالي لمصطلح الكلمة في سياق توظيفها القرآني ، ونقلة نوعية لاستعمالاتها التي تنبع من تشكيلات خاصة للكلمة باعتبار أنها نشاط مميز ، وإمكانية جديرة بالتوظيف والتشكيل .

ولنحاول الغوص أكثر مع تعامل القرآن الوظيفي لسياق الكلمة في القرآن الكريم وذلك بتحديد مستويات الكلمة في هذا السياق القرآني كما يأتي :

المستوى الأول : التحادث البشري الذي جرت عليه عادة المجتمع الإنساني منذ أن أدرك وجوده الحي ، أي هذا التخاطب الطبيعي الذي يتصل بالحياة اليومية وحاجاتها المعهودة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [1] ، وقوله : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً ﴾[2] .

المستوى الثاني : التخاطب بين الله من جهة والإنسان من جهة أخرى ، وهذا المستوى يأتي في أكثر من صيغة ، كما يرد في تضاعيف القرآن الكريم في الصور التالية :

١ - سورة آل عمران : آية رقم (٤٦) .
٢ - سورة المائدة : آية رقم (١١٠) .

١- خطاب الله تعالى الأنبياء كقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي ﴾ [1] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ [2] .

٢- صورة الكتب الإلهية كالتوراة والقرآن ، كحكايته تعالى عن فعل اليهود مع التوراة : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ [3] .

٣- حديث الله عن حالة الكفار يوم القيامة ، وتعذيبهم بصنوف من العذاب منها عدم تكليمهم . يقول تعالى : ﴿أُولَـٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [4] ، وقوله تعالى : ﴿أُولَـٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [5] .

المستوى الثالث : قضاء الله سبحانه وتعالى في التاريخ ، وأحكامه في مسيرة الأمم ، خاصة إذا فهمنا هذا المركب بأبعاده التاسيسية ذات التواصل المتشابك مع مناحي الحياة بكل ما تعنيه ، وما تحويه من حركة وفعل ونشاط . فليست الحياة أياماً ، وإنما هي صيغ ذات تاريخ حافل بالمتناقضات والمفارقات . يقول تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [6] ، ويقول سبحانه : ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [7] .

---

١ - سورة الأعراف : آية رقم (١٤٣) .
٢ - سورة الشورى : آية رقم (٥١) .
٣ - سورة البقرة : آية رقم (٧٥) .
٤ - سورة البقرة : آية رقم (١٧٤) .
٥ - سورة آل عمران : آية رقم (٧٧) .
٦ - سورة يونس : آية رقم (١٩) .
٧ - سورة يونس : آية رقم (٣٣) .

المستوى الرابع : الدلالة على ما يخلقه الله تعالى كقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ (1) ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ (2) .

المستوى الخامس : التكاليف الإلهية التي سنّها تعالى للإنسان على الأرض بهدف تربيته بما ينسجم مع غاية خلقه وإيجاده ، أو بما يهينه للحياة الأخرى التي هي المنتهى وفق التصور الإسلامي . يقول تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ (3) ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ (4) .

المستوى السادس : قضاء ربك جلّ وعلا بوعده ووعيده في الحياة الدنيا وتداخلاتها ، كوعده تعالى لعباده الصالحين بأن يرثوا الأرض بكلمة التوحيد ، ورفع رايتها فوق ربوع الأرض ، يقول تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ (5) ، ووعيده لأهل العصيان بأن مآلهم إلى عذابه ، يقول تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (6) .

المستوى السابع : العقيدة الإسلامية بركنها المكين ، أي التوحيد . يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (7) ،

---

١ - سورة لقمان : آية رقم (٢٧) .
٢ - سورة آل عمران : آية رقم (٤٥) .
٣ - سورة البقرة : آية رقم (٣٧) .
٤ - سورة البقرة : آية رقم (١٢٤) .
٥ - سورة الأعراف : آية رقم (١٣٧) .
٦ - سورة هود : آية رقم (١١٩) .
٧ - سورة التوبة : آية رقم (٤٠) .

وقوله : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ [1] ، وكلمة الله هي شهادة التوحيد (لا اله إلاّ الله ، محمد رسول الله) .

المستوى الثامن : الإثم الأكبر الذي يُعدّ منبع الشرور والمظالم الفردية والاجتماعية أو هو العنصر الفاعل في تخريب العالم والمجتمعات، أي الشرك . يقول تعالى : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [2] .

تلك هي أهم مجالات الاستعمال القرآني للكلمة التي لا تعني في متنها المعجمي إلاّ القول المنطوق ، في حين أنها هنا تستعمل استعمالات فريدة تمسّ صميم التحادث البشري العادي ، والخطاب الإلهي للأنبياء ، والخطاب الإلهي للكون والحياة ، والخطاب الإلهي لأهل العذاب ، والعقيدة المتمثلة بتوحيد الله ونبوة الأنبياء ، ووعد الله ووعيده ، وقضاء الله في سنن الأمم وتطورها .

وقد لمسنا في التركيبة اللفظية للقرآن الكريم لغة اجتماعية ذات طابع دلالي خاص ، تستمد نشاطها البنائي من بنيات بلاغية متجانسة ، حتى عادت لغة مسيطرة في عمقها الدلالي لدى عامة الناس في الفهم الأوليّ ، وعند خاصة العلماء في المعاني الثانوية ، وتوافر حضورها في الذهن العربي المجرد حضوراً تكاملياً ، بعيداً عن الإبهام والغموض ، ولا مجال للإلغاز في تصرفاتها ، ولا أرضية للمخلّفات الجاهلية في ثروتها ، تبتعد عن الوحشي الغريب ، وتقترب من السهل الممتنع ، وذلك من خلال التعامل اللغوي الموجه للفرد والأمة ، مما فرز حالة حضارية متميزة تعنى بالجهد الفني تلبية للحاجة الإنسانية الضرورية في التقاء الفكر بالواقع ، واللغة بالعاطفة ، والشكل بالمحتوى دون تعقيد يجر إلى التنافر .

---

١ - سورة الفتح : آية رقم (٢٦) .
٢ - سورة التوبة : آية رقم (٤٠) .

وعلى الرغم من توقف جملة من علمائنا الأوائل عن الخوض في حديث المدلولات في القرآن الكريم ، فإن القرآن يبقى ذا دلالة أصلية ، وما معاملتهم له إلا دليل تورع وتحرج عن الفتوى بغير مراد الدلالة حتى وإن أدركوها إجمالاً . كان الأصمعي لا يفسر شيئاً من غريب القرآن ، وحكي عنه أنه سئل عن قوله سبحانه : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ [1] فسكت وقال : هذا في القرآن ، ثم ذكر قولاً لبعض العرب في جارية لقوم أرادوا بيعها : أتبيعونها ، وهي لكم شغاف ؟ ولم يزد على ذلك [2] . وقد كان عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وهو من الفصاحة من هو ، يقرأ قوله عزّ وجلّ : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾[3] فلا يعرفه فيراجع نفسه ويقول : ما الأبّ ؟ ثم يقول : إن هذا تكلف منك يا ابن الخطاب[4] . وكان ابن عباس – رحمه الله – يقول : لا أعرف حناناً ولا غسلين ولا الرقيم [5] .

ولا يعني التحرُّج في كشف دلالة المفردة القرآنية عدم وضوح الرؤية ، بل على العكس أحياناً ، فقد أجمع النقاد على سلامة النظم القرآني ، وتواضعوا على إعجازه ، بل اعتبروا استعمال القرآن لأفصح الألفاظ بأحسن المواقع متضمنة أسلم المعاني وأعلى الوجوه دلالة ، من مخائل الإعجاز القرآني . وأوضح الإمام الخطابي هذا بقوله : " واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التاليف متضمناً أصح المعاني " [6] .

---

١ – سورة يوسف : آية رقم (٣٠) .
٢ – ينظر : الخطابي ، بيان إعجاز القرآن ، ٢٤ .
٣ – سورة عبس : آية رقم (٣١) .
٤ – ينظر : الخطابي ، بيان إعجاز القرآن ، ٣٦ .
٥ – نفسه .
٦ – نفسه ، ٢٧ .

ويرى الخطابي في اللفظ المناسب للموقع المناسب عمود البلاغة القرآنية فقال : " هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه . إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة وذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني ، يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب كالعلم والمعرفة ، والحمد والشكر ، وبلى ونعم ، وذلك وذاك ، ومن وعن ، ونحوهما من الأسماء والأفعال والحروف والصفات مما سنذكر تفصيله فيما بعد ، والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك ، لأن كل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها ، وإن كانا قد يشركان في بعضهما "[1] .

ظواهر دلالية :

استناداً إلى هذا المفهوم الدقيق في التمييز بين دلالة لفظ ولفظ ، وفروق قول عن قول ، فإننا نثير هنا على سبيل التمثيل بعض ملامح التمييز في المفردة القرآنية ، وكيف تنوعت إلى ثلاث خصائص مهمة في الدلالة تتجلى في ثلاث ظواهر بيّنة هي :

الظاهرة الأولى : أن اختيار القرآن للألفاظ في دلالتها إنما جاء متناسقاً مع مقتضيات الحال وطبيعة المناسبة السياقية ، وقد يكون ذلك التناسق صادراً لجهات متعددة تؤخذ بعين الاعتبار لدى تحديد القرآن لمراد الاستعمال في الحالات الوصفية مما نستطيع التنظير له بما يأتي :

أ- ما أراد به القرآن صيغة معينة لحالة معينة تستوعب غيرها ولا يستوعبها غيرها ، فإنه يعمد إلى اختيار اللفظ الدقيق لهذه الغاية فيتبنّاه دون سواه من الألفاظ المقاربة

١- الخطابي ، بيان إعجاز القرآن ، ٢٩ .

أو الموافقة كما في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾[1] . فكلمة (ظمآن) قد يسد غيرها مسدها في معنى دلالي متميز غير القرآن الكريم ، أما هنا فالله سبحانه تعالى أراد الظمآن بكل ما تحمله الكلمة في تضاعيفها الأولية والثانوية من دلالات خاصة بها فلا تسد مسدها . مثلاً ـ كلمة الرائي ، لأنّ الرائي قد يرى السراب من بعيد وهو ليس بحاجة إليه ، فلا يتكلف إلا الخداع البصري ، أما الظمآن فإنه يكد ويكدح ويناضل من أجل الوصول إلى الماء ، حتى إذا وصل إليه وإذا بما حسبه ماءً قد وجده سراباً ، فكانت الحسرة أعظم ، والحاجة أشد ولم يبرد غليلاً ، ولم يدرك أملاً . يقول العسكري : " فلو قال يحسبه الرائي ماءً لم يقع قوله (الظمآن) لأن الظمآن أشد فاقة إليه وأعظم حرصاً عليه "[2] .

ب - وما أُريدَ به الإيحاء الخاص الكامن وراء دلالة اللفظ فإنه يتم اختيار تلك الدلالة بذلك الإيحاء ، ولو دققنا في استعمال لفظ (زرتم) في سورة التكاثر ﴿ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾[3] لتبين لنا أن القرآن لم يستعمل الزيارة إلا في هذه الآية وأنه استعمل مادتها في آيات أخر ، وهذا الاستعمال يوحي بدلالة حسية قد لا ينبئ عنها ظاهر اللفظ ، ومركز المعنى بقدر ما يصوره إيحاء التعبير الدقيق . ويبدو أن أعرابياً مرهف الحس قد التفت إلى هذا الملحظ الشاخص فقال حينما سمع الآية على فطرته الصحراوية ، ويوحي من بداوته الصافية : " بعث القوم للقيامة ورب الكعبة فإن

---

١ - سورة النور : آية رقم (٣٩) .
٢ - العسكري ، كتاب الصناعتين : ٢٤٦ .
٣ - سورة التكاثر : آية رقم (٢) .

الزائر منصرف لا مقيم "[1] . لقد وضع هذا الأعرابي يده على حسّ بلاغي عميق ، أدرك فلسفة تخيُّر هذا اللفظ دون سواه ، بعيداً عن الفهم التقليدي والوعي القاصر في ترددات الناس بصورة الزيارة وكيفيتها ومؤداها ، لأنه في استعمال الزيارة عدة احتمالات : فقد يأتي بمعنى الموت ، وقد يعبر عن الموت بالزيارة . وقد يراد غير هذا وذاك ، في إيحاء باهر جديد ، يضع القرآن له أصلاً مبتكراً في عالمي النقد الأدبي والبيان العربي .

تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن في هذا المقام : " وفي التعبير عن الموت بالزيارة ملحظ بياني بالغ القوة ، فاستعمال الزيارة بهذا المعنى صريح الإيحاء بأن الإقامة في القبر ليست إقامة دائمة ، وإنما نحن فيها زائرون ، وسوف تنتهي الزيارة حتماً إلى بعث وحساب وجزاء ، وهذا الإيحاء ينفرد به لفظ (زرتم) دون غيره ، فلا يمكن أن يؤديه لفظ آخر كان يقال : (صرتم ، أو رجعتم ، أو انتهيتم ، أو أُبتُم وأُلتُم) ، وليس القبر المصير والمرجع والمآل . كما لا يقال : (سكنتم المقابر ، أو أقمتم بها) إلى غير ذلك من ألفاظ تشترك كلها في الدلالة على ضجعة القبر ، ولكن يعوزها سر التعبير الدال على أنها زيارة ، أي إقامة عابرة مؤقتة ، يعقبها بعث ونشور "[2] .

<u>الظاهرة الثانية</u> : أن هذا الاختيار ليس للألفاظ ذاتها ، بل الألفاظ منضمة إلى المعاني ، بحيث لا يتحقق المعنى المراد إلا بهذا اللفظ دون سواه ، بغض النظر عن الاعتبارات البديعة الأخرى ، فلا الألفاظ ذات أولوية على حساب المعاني ، ولا المعاني ذات أولوية على حساب الألفاظ . والقرآن الكريم فضلاً عن كونه نصاً إعجازياً لا طاقة لنا على

---

١ - أبو حيان ، البحر المحيط ، ٨ /٥٠٧ .

٢ - د. عائشة عبد الرحمن ، التفسير البياني للقرآن ، ١ /٢٠٠ .

إدراك خصائصه الفنية على الوجه الأكمل ، فإنه نص أدبي باهر تتوافر فيه سمات أرقى نص عربي وصل إلينا دون ريب . ومن هنا فإننا نندهش من جملة العلماء الذين يرون عناية القرآن بالألفاظ ناجمة عن العناية بأصناف البديع ، وفنون المحسنات اللفظية المتوافرة في القرآن ، ومع توافر هذه الفنون في القرآن فإنها غير مقصودة لذاتها ، وإنما جاءت بتناسقها ضرورة بيانية يقتضيها جمال القول ، وهذه الضرورة نفسها لم تكن متكلفة ولا ذات نزعة مفروضة كما هو الحال في الأسجاع المتناثرة هنا وهناك في النثر العربي القديم ، فإنها أريدت في النصوص الأدبية هكذا ، سواء أحققت الغرض المعنوي أم لم تحققه إطلاقاً ، لأن المهمة في مثل هذه اللوحات مهمة لفظية فحسب ، حتى إنها لتثقل النص بمحسنات يزداد معها النص انصرافاً عن الديباجة الفنية ، وتزداد معه النفس عزوفاً أو نفوراً .

أما القرآن العظيم فإن هذه الظاهرة مدفوعة أصلاً ؛ إذ ليس في القرآن مهمة لفظية على وجه ، ومهمة معنوية على وجه آخر ، بل هما مقترنتان معاً في أداء المراد من كلامه تعالى دون النظر إلى جزء على حساب جزء آخر . وحسبنا ما نشاهده في أصناف المحسنات البديعية الواردة في القرآن ، وفي طليعتها انتظام الفواصل وتوافقها دليلاً على صحة هذا الرأي . وطبيعي أن نهاية الفقرات والسجع في النثر العربي ، تقابله الفواصل في القرآن الكريم ، وهي تسمية اختارها أهل الصناعة تكريماً للقرآن عن مقايسته بسواه [1] . فهذه الفواصل على تقاطرها وتواردها في النصوص القرآنية قد يرتفع بعضها إلى ملابستها سوراً كاملة لا سيّما القصار كالإخلاص ، والقدر ، والناس ، والماعون ، والعصر ، والكوثر .

١- ينظر : الرماني ، النكت ، ٨٩ . – الباقلاني ، إعجاز القرآن ، ٢٧٠ . – الزركشي ، البرهان ، ١/ ٥٣ .

وهناك سور متوسطة الطول وقد تناوبتها الفاصلة من أولها إلى آخرها كما الحال في سورة الأعلى ، يقول تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى {١} الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى {٢} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى {٣} وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى {٤} فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى {٥} سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى {٦} إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى {٧} وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى {٨} فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى {٩} سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى {١٠} وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى {١١} الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى {١٢} ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى {١٣} قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى {١٤} وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى {١٥} بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا {١٦} وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى {١٧} إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى {١٨} صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى {١٩} ﴾ . فهذا الإعجاز اللفظي مما وقف عنده العرب موقف المتحير المتعجب في وقت واحد ، فهي على وتيرة واحدة في فاصلة متساوية تختتم بالألف من أولها إلى نهايتها ، ولو شئت أن تغير أية كلمة من هذه الفواصل ، وتضع ما يلائمها بدلاً منها في سبيل تغيير صيغة الفاصلة لما استطعت أن تحقق الدلالة اللفظية التي حققها القرآن الكريم ، وهكذا في جميع السور الأخرى .

الظاهرة الثالثة : أن اختيار هذه الألفاظ إنما اتّجه بالخطاب إلى سكان الأرض الذين يهمهم أمرها ليتعرفوا على ما فيها عقلياً ، ويتطلعوا إلى كشف أسرارها علمياً ، بحسب الذائقة الفطرية الخالصة التي تبدو بأدنى تأمل وتلبث وترصد . وهنا نحاول أن نضع أيدينا على جملة من التعابير القرآنية بألفاظ لها دلالتها الهامشية إن لم نقل المركزية في كثير من الأبعاد البلاغية والجمالية :

أ – ففي قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾[1] . يتجلى موقع لفظتي (أطراف) و(ننقصها) في التعبير ، فالأطراف توحي بنظرة

---

١ – سورة الأنبياء : آية رقم (٤٤) .

شمولية لشكل الأرض ، ولفظة (ننقصها) توحي بفكرة آلية عن طبيعة انتقاص الأطراف ، وهاتان حقيقتان علميتان مرتبطتان بنظرية دحو القطبين وحركتهما [1] ، ويوضحهما قوله تعالى : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [2] .

ب - وفي قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [3] .

" ففي هذه الصورة الأخاذة يتجلى سطح الصحراء العربية المنبسطة ، والخداع الوهمي للسراب ، فنحن هنا أمام عناصر مجاز عربي النوع ، فأرض الصحراء وسماؤها قد طبعا عليه انعكاسهما ، حين نستخدم خداع السراب المغمّ ، لنؤكد بما تلقيه من خلال تبدد الوهم الهائل لدى إنسان مخدوع ، ينكشف في نهاية حياته غضب الله الشديد في موضوع السراب الكاذب . سراب الحياة " [4] . فلفظ (سراب) استقطب مركزياً دلالته من خلال البيئة العربية المحسوسة ، وكما يتلاشى هذا السراب فجاة ، فكذلك ما أمله هؤلاء الكافرون باعمالهم الخادعة ، متماثلة معه في خداع البصر ، وانطماس الأثر ، فلو عطفنا دلالة (الظمآن) الإيحائية لوجدنا الظمآن في طلبه للماء ، ووصوله إلى السراب يقضي حسرة أشد ، وفاقة أعظم ، وحاجة متواصلة ، ولكنه يصطدم بالحقيقة الكبرى : الله سبحانه وتعالى ، فيوفّيه حسابه ، فلا المراد حقّقَ ، ولا الحياة استبقى ، ولا الثواب استقصى ، وإنما هي حسرات في حسرات .

---

١ - ينظر : د. عبد المجيد الزنداني ، العلم وآيات القرآن ، ٣٨٧ .
٢ - سورة يس : آية رقم (٤٠) .
٣ - سورة النور : آية رقم (٣٩) .
٤- مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية ، ٤٤٩ .

ح - ولو تتبعنا مآل هؤلاء الكافرين في خيبة آمالهم وخسران أعمالهم ، لوجدنا الصورة المتقابلة مع تلك الصورة متمثلة في قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [1] ، ليتضح في التصوير القرآني عظم الدلالة من خلال هيئتين متقابلتين ، ونموذجين مختلفين . فبعد أن أوضحت الصورة الفنية الأولى الشعاع الكاذب في السراب ، والالتماع الخلاب في البيداء ، عقبت ذلك بنقيض الشعاع والالتماع ، وبعد تصوير الخيبة من الظفر بالسناء ، عقبته بالظلمات المتراكمة بعضها فوق بعض ، والفوقيات المتراكبة طبقاً عن طبق ، فهي ظلمات في بحر لا قعر له ، عميق المياه ، تحوطه الأمواج المتدافعة ، والسحب الثقال ، والظلمات المتعاقبة في ثلاثة مظاهر من ظلام الليل ، وظلام الغمام ، وظلام البحر حتى ليَخْطُؤُهُ تمييز يده ، فلا يرى ذلك إلا بعد عسر وحرج ، أو لا يرى ذلك أصلاً ، وأنَّى له الرؤية وقد انغمس في ظلمات الكفر ، وارتطم بمتاهات الضلال ، فانعدمت الرؤية ، وانطمست البصيرة ، فهو في شبهات لا نجاة معها ، ومن لم يقدر له الخلاص من الله فلا خلاص له [2] .

هذه الظواهر الثلاث في اختيار اللفظ القرآني وتميز دلالاته ، توصلنا إلى المنهج الدلالي الأصل في استكناه تميّز اللفظة القرآنية ، وسموها على ما عداها ، وما هذا إلا تأكيد لفطريتها في التوظيف لا في الوجود ، وهذا المنهج هو القرآن الكريم بحق .

---

١ - سورة النور : آية رقم (٤٠) .
٢ - ينظر : د. محمد الصغير ، الصورة الفنية في المثل القرآني ، ٢٨١ - ٢٨٢ .

أثر التلوين الصوتي في انتقاء الكلمة القرآنية :

في البدء يجب أن نقر بأن كل لفظ في النص القرآني قد وُضِعَ في موضعه المناسب تماماً كما أراد المولى ﷻ ، وهذا الترتيب في ذاته سر إعجازي فوق بقية الأسرار ، فقرار اللفظ في مكانه متشابكاً مع سابقه ولاحقه في إطار منظومة سياقية نصية جمالية تقوم على هذا النسج النصيّ للقرآن ، وتتساوق معاً لأداء ما يراد من أغراض ومقاصد . وهذه الألفاظ القرآنية لم تُخْتَرْ اعتباطاً ، أو توظف عبثاً بلا قصد ، بل القصد كل القصد هو توظيفها في أماكنها المناسبة في ضوء ما يهدف من ورائها من مقاصد .

ويرى د. أحمد أبو زيد أن " الكلمة القرآنية تختار بدقة متناهية ، وتوضع في موضعها من الآية بإحكام تام يجمع لها بين مناسبة السياق القريب ، ومناسبة السياق البعيد ، وليس هناك أي تعارض بينهما "[1] .

ومن أدلة ما نقصده هنا ما نلمسه في سياق الآيات التالية من سورة الحج ، يقول تعالى : ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾[2] ، فالمشهد هنا عنيف ترتسم فيه مشاهد متنوعة من تقطيع الثياب من النار للمعذَّبين ، ومن صبِّ النار فوق الرؤوس ليصهر به ما في البطون والأمعاء والجلود ، ثم ما أُعِدَّ لهم من مقامع مصنوعة من الحديد الذي ليس بحديد كالحديد . وقد رُسِمَت هذه الصورة بالألفاظ المناسبة التي تآلفت من الأصوات القوية والشديدة كالطاء المشددة ، والقاف المضمومة في كلمة (قُطِّعَت) ، والباء المشددة المضمومة ، والصاد كلمة (يُصَبُّ) ،

---

١ - د. أحمد أبو زيد ، التناسب البياني في القرآن ، ١٧٦ .
٢ - سورة الحج : الآيات رقم (١٩ – ٢١) .

والهمزة المضمومة في كلمة (رؤوسهم) ، والباء والطاء المضمومتين في كلمة (بطونهم) ، والجيم المضمومة في كلمتي(الجلود) و (أن يخرجوا) ، والدال المكسورة في كلمة (من حديد) ، والذال المضمومة في كلمة(ذوقوا) .كما أن صوت القلقلة الذي يتكرر في حروف الفاصلة في الآيات وهو حرف (الدال) عامل إيقاعي مهم في إبراز هذه اللوحة .

وهكذا تتجمع الألفاظ باصواتها في سياق تصويري رائع ، يضاف إليه صفات هذه الأصوات كالجهر والشدة والاستعلاء والتفخيم والإطباق والقلقلة ، وكلها من صفات القوة في الأصوات ، بما يتوافق مع سياق الآية والأداء التعبيري فيها. كما أنّ توزيع الحركات في هذا الإطار يعبر أيضاً عن عنف المشهد ، فما الضمة والكسرة والتشديد بكل أجراسها القوية إلا عامل تجميلي لهذا السياق .

وانطلاقاً من الإقرار بهذه الدقة المتناهية في انتقاء الكلمة القرآنية وتوظيفها في سياقها النص ، وأدائها للوظائف الجمالية المرادة منها ، فإن ذلك يُسلمنا بالتأكيد إلى البحث في معايير هذا الانتقاء ، والتفتيش عن الكيفية التي تمت بها صياغة الكلمة القرآنية ، وذلك من خلال التنقيب عن الأداة التي تمت بها هذه الصياغة ، وفرضيات التلاؤم والتنافر الحرْفي المكوِّن لهذه الكلمة . كذلك يفرض هذا علينا التعرض للكلمة في طولها الحرفي ، وما يفيده ذلك من دلالات في السياق القريب والبعيد للكلمة والآية ثم السورة أيضاً . كما أنّ ملاحظة هذا الانتقاء للكلمة في الهيئات المختلفة يعدُّ أمراً مُلحاً على مستوى إدراك الكلمة في حالة تعريفها أو تنكيرها ، كذلك بيان الحالة التوظيفية لها من حيث العدد .

ومحاولة البحث بهذا الشكل تُحَاطُ بمنظومة لغوية متكاملة تعتمد بالمقام الأول على المعطى الصوتي الذي هو بوصلة التوجيه لهذا الانتقاء ، ثم تعاضد بقية معطيات

اللغة من نحو وصرف ودلالة . وما محاولة الكشف عن هذه الجماليات إلا بحث في المرحلة الأولى من حياة الكلمة القرآنية ، وهي مرحلة التشكيل .

١- التلاؤم في الكلمة القرآنية :

عند الاقتراب من الكلمة القرآنية في تاليفها الصوتية المتنوعة سواء بقرب المخارج أو بتباعدها ، وجدنا أن هناك معياراً يفرض نفسه وهو (ما يستلذه السمع) ، وهو المعيار الذي ألزم به ابن الأثير نفسه عند مناقشته لجمالية المفردة القرآنية . يقول ابن الأثير : "حاسة السمع هي الحاكمة في هذا المقام بحُسْن ما يَحْسُن من الألفاظ ، وقُبْح ما يَقْبُح ... فإذا استحسنت لفظاً أو استقبحته ، وُجِدَ ما تستحسنه متباعد المخارج ، وما تستقبحه متقارب المخارج . واستحسانها واستقباحها إنما هو قبل اعتبار المخارج لا بعده "[1] .

فالأمر المعول عليه هنا هو جمالية الصوت ذاته ، وهي جمالية محسوسة يُحْتَكَمُ فيها إلى الأذن لإدراك أركانها ، فكان للأذن مستوى من الاستيعاب الجمالي ؛ فتَجْمُل الأصوات حين تفد على الأذن في هذا المستوى ، وتَقْبُح حين ترتفع عنه أو تهبط دونه .

والتلاؤم الذي نقصده في معالجة الكلمة القرآنية يكمن في إثبات جمالية الائتلاف الحرفي حتى يكون للفظ حُسنٌ في السمع ، وسهولة في النطق به . وهذه العملية ليست بالآلية الجامدة بل هي عملية ذوقية تقوم على مخاطبة الفطرة ، وتستدعي انتباه الحواس واستنفارها ، وتيقظ الطبع .

والجاحظ لم يكن غفلاً بعيداً عن تذوق الإحساس الجمالي المتولد عن التلاؤم بين الحروف إذ حدد بدقة ما يجب اقترانه معاً ، وما لا يجب ، وذلك اعتماداً على ذوقه

---

١ - ابن الأثير ، المثل السائر ، ١ / ١٥٨ .

البلاغي . يقول الجاحظ : " أما في الحروف فإن (الجيم) لا تقارن (الظاء ، والقاف ، ولا الطاء ، ولا العين) بتقديم ولا بتأخير . والزاي لا تقارن(الظاء ، ولا السين ، ولا الضاد ، ولا الذال) بتقديم ولا بتأخير . وهذا باب كبير ، وقد يستدل بذكر القليل حتى يستدل به على الغاية التي إليها يجري "[1] .

ويرى الرُّماني أن للتلاؤم أثر جمالي في مظهر الحرف ومخبر الكلمة ، ولذا يجعله مثل " قراءة الكتاب في أحسن ما يكون من الخط والحرف ، وقراءته في أقبح ما يكون في الخط والحرف ، فذلك متفاوت في الصورة ، وإن كانت المعاني واحدة "[2] .

وهنا يثور سؤال : هل ينصرف التلاؤم إلى مجرد قبول الكلمة لحروفها الداخلية ثم لما يجاورها من كلمات ، وعدم ثقلها النطقي في السياق التلفظي ؟ والإجابة تكمن في كون هذا التلاؤم أعمّ من الحصر في هذا السياق الضيق ، إذ إنه يتسع ليدرك برحابته ما يحقق التجانس الإيقاعي في هذه السياقات النصية .

كما أن النص القرآني في توظيفه للكلمة القرآنية يستخدم كلمات تقترن فيها حروف عدَّها أهل العربية مما لا يجب اقترانه . فمثلاً نجد (العين) تقارن (الجيم) بتقديم ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾[3] على غير ما قرره الجاحظ في هذا السياق .

والرمّاني حين يتحدث عن التلاؤم ودرجاته الثلاث ما بين المتنافر ، والمتلائم في الطبقة الوسطى ، والمتلائم في الطبقة العليا ، إنما كان قاصداً أن يعود بهذا التلاؤم

---

١ - الجاحظ ، البيان والتبيين ، ١ / ٦٩ .
٢ - الرماني ، النكت في إعجاز القرآن ، ٩٦ .
٣- سورة طه : آية رقم (٨٤) .

إلى تجانس الأصوات . ولما كانت أصوات القرآن على أتمّ ما يكون من التجانس ، كان القرآن الكريم كله متلائماً من الطبقة العليا ، وذلك بيّن لمن تامله [1] .

ونظراً للطبيعة التركيبية للعربية فإنها قد تمرست على فنية تعادل الأصوات وتوازنها ، مما جعل لغة القرآن الكريم في الذروة من طلاوة الكلمة ، والرقة في تجانس الأصوات والألفاظ ، وما ذاك إلا دلالة قطعية على امتياز العربية في مجموع أصواتها ، وسعة مدرجها الصوتي ، ومقابلتها بهذه السعة ما حفلت به أصوات الطبيعة ، وعدالة هذا التوزيع الصوتي المؤدي إلى الانسجام [2] .

وليس أدل على عبقرية التلاؤم الحرفي في النص القرآني من تامل سياقات الابتداء بالحروف المقطعة التي تنطق باصواتها للإفادة من هذه الصوتية عند الاستعمال دون الوقوف عند حرفيتها الجامدة . فالقرآن الكريم يفتتح (٢٨ ثمان وعشرين سورة) بحروف هجائية مقطعة ، يمكن تصنيفها كما يلي [3] :

١- الابتداء بحرف مفرد ، في ثلاث سور هي : (ص ، وق ، والقلم) .

٢- الابتداء بحرفين ، في تسع سور هي : (النمل ، ويس ، وحم التي تكررت في بداية سبع سور تعرف بالحواميم هي (غافر ، وفصلت ، والشورى ، والدخان ، والزخرف ، والجاثية ، والأحقاف) .

١- ينظر : الرماني ، النكت في إعجاز القرآن ، ٩٤ .

٢- ينظر : د.أحمد مطلوب، بحوث بلاغية ، ٢٨ ، – د. محمد الصغير، الصوت اللغوي ٥٢ .

٣- هذه السور هي : (البقرة ، آل عمران ، الأعراف ، يونس ، هود ، يوسف ، الرعد ، إبراهيم ، الحجر ، مريم ،الشعراء ، النمل ، القصص ، العنكبوت ، الروم ، لقمان ، السجدة ، يس ، ص ، غافر ، فصلت ، الشورى ، الزخرف ، الدخان ، الجاثية ، الأحقاف ، ق ، القلم) .

٣ الابتداء بثلاثة أحرف ، في اثنتي عشرة سورة : (البقرة ، وآل عمران ، ويونس ، وهود ، ويوسف ، وإبراهيم ، والحجر ، والشعراء ، والقصص ، والعنكبوت ، والروم ، والسجدة) .

٤- الابتداء بأربعة أحرف ، في سورتين هما : (الأعراف ، والرعد) .

٥- الابتداء بخمسة أحرف ، في سورتين هما : (مريم ، والشورى) .

وهذه الأحرف المقطعة وقف عليها المفسرون بما استطاعوا من اجتهاد في محاولة لتبيان مدلولاتها ، وهذا محمود من جانبهم ، لكن هذه الأحرف المقطعة من محكمات القرآن ، إلا أن جمالها الصوتي هو مناط الأمر رغم غرابة الائتلاف الحرفي فيها .

وقد اهتم الباحثون في الإعجاز القرآني بمحاولات التصنيف الصوتي لهذه الحروف المقطعة في فواتح السور إلى المهموس والمجهور ، والشديد ، والمطبق وغير ذلك ، ثم الاجتهاد في بيان أسرارها التاليفية ، وما يرتبط بها من دلالات صوتية . وكان الباقلاني في طليعة هؤلاء الأعلام ؛ إذ يقول : " إن الحروف التي بني عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفاً ، وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة ، وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة ، وهو أربعة عشر حرفاً ليدل بالمذكور على غيره ، والذي تنقسم إليه هذه الحروف أقساماً ؛ فمن ذلك قسموها إلى حروف مهموسة وأخرى مجهورة ، فالمهموسة منها عشرة هي : (الحاء ، والهاء ، والخاء ، والكاف ، والشين ، والثاء ، والفاء ، والتاء ، والصاد ، والسين) . وما سوى ذلك من الحروف فهي مجهورة . وقد عرفنا أن نصف الحروف المهموسة مذكورة في جملة الحروف المذكورة في أوائل السور ، وكذلك نصف الحروف المجهورة على السواء لا زيادة ولا نقصان " [1] .

١- الباقلاني ، إعجاز القرآن ، ٦٦ .

ويعرض الباقلاني لبعض التفاصيل التي تتعلق بالحروف المقطعة رغبة منه في استقصاء ما يحيط بهذه الحروف من دلالات ، واستكناه ما يمكن أن تسهم به من جماليات في السياق القرآني . فيعرض لتصنيفها تصنيفاً حسب الشديد والرخو ، والمطبق ، وحروف الحلق . دون أن يفسر دلالات هذا الورود . يقول : " نصف حروف الحلق (العين ، والحاء ، والهمزة ، والخاء ، والغين) مذكور في جملة هذه الحروف ، وأن النصف المذكور هو(العين ، والحاء ، والهاء) . وكذلك نصف عدة الحروف التي ليست من حروف الحلق مذكور في جملة هذه الحروف . وأن نصف الحروف الشديدة : (الهمزة ، والقاف . والكاف ، والجيم ، والتاء ، والدال ، والطاء ، والباء) مذكور في جملة هذه الحروف ، والمذكور : (الطاء ، والقاف ، والكاف ، والهمزة). وأن نصف الحروف المطبقة وهي (الطاء ، والظاء ، والصاد ، والضاد) مذكور في جملة هذه الحروف ، والمذكور هو (الصاد ، والطاء) "[1] .

ومثل هذا الاهتمام المتكامل بهذا التشكيلات الصوتية في فواتح بعض سور القرآن الكريم يمكننا تَلَمُّسُه أيضاً في سياق مؤلفات الأعلام من أهل البلاغة والتفسير مثلما نجد عند كل من : ابن عطية ، والسمرقندي ، والزمخشري ، والطبرسي ، والطوسي ، وأبي السعود ، وابن الزملكاني ، والزركشي ، والرازي ، وابن كثير ، وأبو حيان ، والسيوطي ، في سياقات متنوعة مابين الإيجاز والإطناب[2] .

---

١ - ينظر : الباقلاني ، إعجاز القرآن ، ٦٧ — ٦٨ .
٢ - ينظر على الترتيب الوارد في المتن : ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ٣٢/١ .— السمرقندي ، بحر العلوم ، ٤/١ .- الزمخشري ، الكشاف ، ١٠١/١—١٠٤ - الطبرسي ، مجمع البيان ، ٣٢/١ .— الطوسي ، التبيان ، ٤٣/١ — ٤٨ .— أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ٦/١ — ١٣ . — الزركشي ، البرهان ، ١٦٨/١ - ١٧٣ .— الرازي ، مفاتيح الغيب ، ٢ / ١—١١ . — أبو حيان ، البحر المحيط ، ٢١/١— ٢٥ . — السيوطي ، الإتقان ، ٢٧/٢ .

كما أن هؤلاء الأعلام في تناولاتهم التحليلية لهذه التشكيلات الصوتية وقفوا على معطيات هذه الحروف المقطعة وربطوها بالمعطى الصوتي وما له من أثر بلاغي في سياق هذه التشكيلات . فمن ذلك ما أفاده الزركشي في تحليله لابتداء سورة (ق) بهذا الحرف ، وما أفاده في السياق الكلي للسورة . يقول : " تأمل السورة التي اجتمعت على الحروف المفردة ، وكيف تجد السورة مبنية على ذلك الحرف . فمن ذلك ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ (1) فإن السورة مبنية على الكلمات القافية من ذكر القرآن ، ومن ذكر الخلق ، وتكرار القول ومراجعته مراراً ، والقرب من ابن آدم ، وتلقي الملكين ، وقول العتيد ، وذكر الرقيب ، وذكر السايق والقرين ، والإلقاء في جهنم ، والتقدم بالوعد ، وذكر المتقين ، وذكر القلب ، والقرآن ، والتنقيب في البلاد ، وذكر القتل مرتين ، وتشقق الأرض ، وإلقاء الرواسي فيها ، وسوق النخل ، والرزق ، وذكر القوم ، وخوف الوعيد ، وغير ذلك " (2) .

فهو هنا يتناول الدلالة الصوتية التي أداها توظيف حرف القاف في سياق السورة كلها ، وكيف أن البناء الهيكلي للسورة قام في جوهره على كلمات اشتملت على هذا الحرف بكل ما يحتويه هذا الحرف من خصائص صوتية وسياقية التي تدور في مجملها على الشدة والقلقلة من جهة ، وعلى الجهر والانفتاح من جهة أخرى .

كذلك نلمس مثل هذا التوجيه الدلالي للمعطى الصوتي لهذه الحروف المقطعة في القرآن من خلال محاولة تفسير الخصوصية الصوتية للابتداء بالحرف (ص) في بداية سورة (ص) ، وربط تلك الخصوصية بالدلالات المتنوعة بما يتناسب ودلالة هذا

---

١ - سورة ق : آية رقم (١) .
٢ - الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ١/ ١٦٩ .

الصوت على الخصومات الشديدة ، والجدال المفرط ، وصدى ذلك على الأسماع ، واشتمال ذلك كله على أحاديث السورة نفسها ، في محاكاة لما تضمنته من أحاديث موظفة في سياق آياتها .

يقول الزركشي : " تأمل ما اشتملت عليه سورة ص من الخصومات الشديدة ، فأولها خصومة الكفار مع النبي ﷺ وقولهم : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً ﴾ [1] إلى آخر كلامهم . ثم اختصام الخصمين عند داوود ، ثم تخاصم أهل النار ، ثم اختصام الملأ الأعلى في العلم ؛ وهو الدرجات والكفارات . ثم تخاصم إبليس واعتراضه على ربه وأمره بالسجود ، ثم اختصامه ثانية في شأن بنيه ، وحلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم " [2].

هكذا نجد الزركشي في تنبيهاته الصوتية - سواء كان ناقلاً لها ، أم مجمعاً لشتاتها ، أم مبتدعاً لبعضها - يؤكد مدى ما وصله أهل العربية من إدراك للدلالات الصوتية الناشئة عن توظيف الحروف المقطعة في أوائل بعض السور القرآنية ، ومحاولاتهم إبراز حقائقها الجمالية ، وإن كان ذلك لا يخرجها عن كونها حروفاً لها وقع سمعي صوتي مؤثر بعيداً عن إدراك مراميها الخافية .

غير أنه يجب التنبه إلى حقيقة مهمة تتمثل في كون هذه الحروف تُنْطَق كنطق الأصوات ، ولا تُلْفَظ كلفظ الحروف ، بمعنى أننا نقول في قوله تعالى : ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [3] هكذا (نُون) صوتاً نطقياً ، لا حرفاً مرسوماً (ن) أو (نْ) . وكذلك سائر

١ - سورة ص : آية رقم (٥) .
٢ - الزركشي ، البرهان ، ١ / ١٧٠ .
٣ - سورة القلم : آية رقم (١) .

الحروف المقطعة في فواتح السور ؛ فكلها تنطق بأسماء تلك الحروف أصواتاً ، لا بأشكالها الهجائية المرسومة ، مما يقرب منها البعد الصوتي المتوخى ، في حين أنها كتبت في المصاحف على صورة الحرف لا صورة الأصوات [1] .

ولذا أشار الطوسي إلى بعض الدلالات الصوتية لهذه الحروف بملحظ الوقف عندها بقوله : " أجمع النحويون على أن هذه الحروف مبنية على الوقف لا تعرب ، كما يبنى العدد على الوقف ، ولأجل ذلك جاز أن يجمع بين ساكنين ، كما جاز ذلك في العدد " [2] . وهكذا ندرك الأثر الجمالي الناشئ عن هذه الحروف المقطعة في تعانق سياقاتها الصوتية مع سياقات الدلالة .

أما اختيار النص القرآني للكلمات ، وانتقاؤه للألفاظ فقد جرى مجرى عجيباً في هذا الإطار ؛ إذ نجد في اختيار حروف الكلمة نوعاً من الإعجاز يغلف هذا الاختيار ، فنجد الكلمة صافية الأصوات ، جميلة الوقع في السمع ، طيبة المجرى على اللسان ، معتدلة التأليف ، نازلة على أحسن ما يكون من هيئة في الإيقاع ، موحية بكل ما تريده من دلالات ومقاصد وأغراض . والكلمة القرآنية تنتقى في أحسن ما يكون من تراكيب الحروف ، وتناسق الأصوات ، وفي الائتلاف ما بين الرخو الشديد ، والمجهور والمهموس ، والممدود والمقطوع . ولذا وجدنا طائفة من ألفاظ القرآن الكريم اتسمت بهذا الجمال الصوتي معتمدة في ذلك على حسن التأليف ، وجمال الائتلاف . فحينما يتحدّث القرآن الكريم عن النار وشدة العذاب يختار لهذا السياق ما يوافق مقامه من الأصوات والألفاظ الدالة على الشدة وإثارة الفزع كما في :

---

١ - ينظر : د. غانم قدوري الحمد ، رسم المصحف ، دراسة لغوية تاريخية ، ١٣٢ .
٢ - الطوسي ، التبيان في تفسير القرآن ، ١ / ٥٠ .

* اجتماع الظاء . والشين في قوله تعالى : ﴿ يُرسل عليكُما شُواظٌ مِّن نَّارٍ ونُحاسٌ فَلَا تَنتصرَان ﴾ [1] . * اجتماع الشين والهاء في قوله تعالى : ﴿ إِذَا أُلقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُور ﴾ [2] .

* الوضوح السمعي لحرف (الظاء) في قوله تعالى : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى ﴾ [3] .

* الوضوح السمعي لحرفي (الظاء ، والفاء) في قوله تعالى : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ [4] .

فهذه الأحرف تنقل لنا في سياقها المؤتلف مع بقية أحرف الكلمة في الآيات السابقة صورة مشهدية متكاملة للنار مغتاظة ، تكاد تنقض على الكافر المعرض عن دعوة الله ، الصاد عن سبيله .

كما أن هناك نسبة كبيرة من الحروف يرتبط صوتها بما تؤديه من معنى ارتباطاً وثيقاً ، وذلك وفقاً لما قاله ابن جني عند حديثه عن هذا الأمر بقوله : " فإنهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبَّر بها عنها " [5] .

وتأسيساً على هذا الطرح وجدنا النص القرآني يوظف مجموعة من الكلمات تمّ اختيارها بدقة لتحاكي أصواتها المؤلفة لها ، فجاءت دالة على ذاتها بذاتها . فمنها :

١- دلالة مادة (صرخ) في القرآن الكريم وما تحمله من بعث الصرخات المفزعة ، والصراخ الشديد . نلمح ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا

١ - سورة الرحمن : آية رقم (٣٥) .
٢ - سورة الملك : آية رقم (٧) .
٣ - سورة الليل : آية رقم (١٤) .
٤ - سورة الفرقان : آية رقم (١٢) .
٥ - ابن جني ، الخصائص ، ٢ / ١٤٦ .

نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [1] مما يوحي بأن هذا الصراخ قد بلغ ذروته ، وأن الاضطراب قد تجاوز مداه ، فاصطدمت الأصوات الصارخة بعضها ببعض دونما إجابة لهذا الصراخ ، فقد بلغ اليأس مداه ، ووصل القنوط إلى منتهاه [2] . وبتأمل هذا اللفظ الناشئ من توالي (الصاد) و(الطاء) ثم تقاطر (الراء) و (الخاء) ثم الترنم الرائق بالواو والنون ، كل هذا يمثل في سياقه رنّة الاصطراخ المدوي .

يقول الطبرسي : " الاصطراخ : الصياح والنداء والاستغاثة ، افتعال من الصراخ ، قلبت التاء طاءاً لأجل الصاد الساكنة قبلها ، وإنما نفعل ذلك لتعديل الحروف بحرف وسط بين حرفين ، يوافق الصاد في الاستعلاء والإطباق ، ويوافق التاء في المخرج " [3] .

ونلمس دلالة المادة نفسها في قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ [4] فنرى بأعيننا طرفاً يدعي البراءة التامة من كلّ الآثام والذنوب والعصيان ، وطرفاً يعاني الإحباط التام ، غير أن الطرفين في نهاية المطاف لا يغني بعضهم عن بعض شيئاً ، فلا منقذ ولا صريخ لهم من هذا المصير [5] .

كذلك ما نلمسه من سياق دلالي للمادة ذاتها في قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ [6] بما يحمله هذا

١ - سورة فاطر : آية رقم (٣٧) .
٢ - ينظر : سيد قطب ، مشاهد القيامة في القرآن ، ١١٧ .
٣ - الطبرسي ، مجمع البيان ، ٤/ ٤١٠ .
٤ - سورة إبراهيم : آية رقم (٢٢) .
٥ - ينظر : أبو حيان ، البحر المحيط ، ٧ / ١٤٥ .
٦ - سورة القصص : آية رقم (١٨) .

الاستصراخ من إلحاح في طلب النجدة والنصرة ، والاستعانة بما يردعه خصمه عن الإيقاع به . إننا نسمع بحق هذا الاستصراخ ، بل نكاد نضع الأصابع في الآذان جراء هذا الإلحاح في هذا الطلب ، ونتمنى إجابته رغبة في سكوته [1] .

٢- دلالة مادة (كبّ) التي تدور حول إسقاط الشيء على وجهه كقوله تعالى : ﴿ وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ [2] . ولأن الوجه أشرف مواضع الجسد ، جاء التعبير بالكبّ دلالة على المهانة ، وليس للكفار إلا هذه المهانة بعد كفرهم .

وتتعاضد هذه الدلالة الجمالية لمادة (كبّ) مع نظائرها القرآنية كما في قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[3] ، كذلك في قوله تعالى : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾ [4] . ويرى الراغب أن " الكبكبة تدهور الشيء في هوة " [5] . وهذه الصيغة حَمَلت اللفظ شحنات دلالية أخرى بتكرار أصواتها ، زيادة على معنى التدهور كما أفاد الطيبي بقوله : " كرر الكبّ دلالة على الشدة " [6] . فما يراد بهذه المادة هو الدلالة الصوتية على معانيها ، وحكاية أصواتها لأحداثها ، وهذا ما تم في سياقاتها القرآنية .

٣- دلالة الكلمات الدالة على أسماء القيامة وأوصافها فكأنها تحكي عن هذا اليوم ووظيفة كل اسم من هذه الأسماء في قيامه بما يطلب منه في هذا اليوم العصيب .

---

١ – ينظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ٤ / ٢٣٥ .
٢ – سورة النمل : آية رقم (٩٠) .
٣ – سورة الملك : آية رقم (٢٢) .
٤ – سورة الشعراء : آية رقم (٩٤) .
٥ – الراغب ، المفردات ، ١ / ٤٢٠ .
٦ – الطيبي ، التبيان في المعاني والبديع والبيان ، ٤٧٤ .

القَارِعَةُ وَما أَدْرَاكَ مَا القَارِعَةُ ﴾ [1] ، و (الواقعة) في قوله : ﴿إِذَا وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ ﴾ [2] ، و (الآزفة) في قوله تعالى : ﴿أَزِفَتْ الآزِفَةُ﴾ [3] ، و (الغاشية) في قوله : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغَاشِيَةِ﴾ [4] .

وهكذا يتعامل النص القرآني مع كلماته من حيث الاختيار أولاً ثم من حيث فنيات التوظيف لهذه الكلمات بما تتضمنه من أصوات يقوم بتوزيعها في نسيج الكلمة ثم العبارة ، مما يحقق التأثير المطلوب من هذا التوظيف والاختيار . كما أن هذا التوظيف للأصوات والكلمات في السياق القرآني يتم بحيث يتكون لهذه الأصوات " تأثير ذو إيقاع قوي إذا كانت نسبة الأصوات ذات الجرس القوي غالبة عليها ، ويكون ذا إيقاع رخي إذا كانت نسبة الأصوات اللينة والضعيفة غالبة عليها " [5] .

٤- الدلالة الصوتية والجمالية لمادة (مسّ) في التوظيف القرآني ، بما تضمه من صوت مهموس ، ونظم رقيق متولد نتيجة تضعيف حرف الصفير (السين) ، أو فك هذا التضعيف في مواضع أخرى مثلما نجد في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [6] . وهذه المادة في رقتها الصوتية تدل على كل ما يعانيه الإنسان من أذى أو مكروه كما نلمس ذلك في سياق الآيات الآتية :

* قوله تعالى : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾ [7] .

---

١ - سورة القارعة : الآيات من (١-٣) .
٢ - سورة الواقعة : آية رقم (١) .
٣ - سورة النجم : آية رقم (٥٧) .
٤ - سورة الغاشية : آية رقم (١) .
٥ - د. أحمد أبو زيد ، التناسب البياني في القرآني ، ٢٠٧ .
٦ - سورة النور : آية رقم (٣٥) .
٧ - سورة آل عمران : آية رقم (١٤٠) .

* قوله تعالى : ﴿ فإذا مسَّ الإنسانَ ضُرٌّ دعانا ﴾ [1] .
* قوله تعالى : ﴿ وإذا مسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دعوا ربَّهم مُنيبين إليه ﴾ [2] .
* قوله تعالى : ﴿ ولئنْ أذقْناهُ نعْماءَ بعْدَ ضرَّاءَ مسَّتْهُ ﴾ [3] .
* قوله تعالى : ﴿ ولئن مَّسَّتْهُمْ نفْحةٌ مِّنْ عذابِ ربِّكَ ﴾ [4] .
* قوله تعالى : ﴿ لَّوْلا كتابٌ مِّنَ اللهِ سبقَ لمسَّكُمْ فيما أخذْتُمْ عذابٌ عظيمٌ ﴾ [5] .

فهذه الصيغ المتنوعة لمادة (مسّ) تدل دلالة أكيدة على شدة البلاء والابتلاء ، وهول المصاب ، رغم أن اللفظ فيها رقيق رفيق ، لكن المعنى شديد عظيم . كما أن هذه المادة قد وردت في سياق النص القرآني محملة بدلالات أُخَر تدل على استواء الأمرين في معانقتها لسياق السراء والضراء معاً ؛كما نلمس ذلك في قوله تعالى : ﴿ إذا مسَّهُ الشَّرُّ جزُوعاً وإذا مسَّهُ الْخيْرُ منُوعاً ﴾ [6] ، فالسراء والضراء على حال واحد في مسّهم ، فلم يتغير اللفظ في الحالتين دلالة على شدة الملابسة .

كذلك عبرت مادة (مسّ) في القرآن الكريم على دلالة أخرى مثل دلالتها على النكاح ؛ مثلما نجد في قوله تعالى : ﴿ لاَّ جُناحَ عليْكُمْ إن طلَّقْتُمُ النِّساءَ ما لمْ تمسُّوهُنَّ ﴾ [7] ، وقوله : ﴿ أنَّى يكُونُ لِي غُلامٌ ولمْ يمْسسْنِي بشرٌ ﴾ [8] . أو دلالتها

١ - سورة الزمر : آية رقم (٤٩) .
٢ - سورة الروم : آية رقم (٣٣) .
٣ - سورة هود : آية رقم (١٠) .
٤ - سورة الأنبياء : آية رقم (٤٦) .
٥ - سورة الأنفال : آية رقم (٦٨) .
٦- سورة المعارج : الآيتان رقم (٢٠ – ٢١) .
٧- سورة البقرة : آية رقم (٢٣٦) .
٨- سورة مريم : آية رقم (٢٠) .

على الجنون كما في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ [1] . وما هذا التوظيف لسياقات المادة إلا تحقيق للاختيار الدقيق للمادة من حيث الائتلاف الصوتي والحرفي لها مع السياقات النصية لتوظيفاتها في النص القرآني ، ووصولاً لأغراض دلالية وجمالية مرادة من هذا الاختيار والتوظيف .

وهكذا يلمح اتكاء المعطى الصوتي في انتقاء الكلمة القرآنية على مبدأ التلاؤم والائتلاف الحرفي في بنى هذه الكلمات من ناحية ، ثم في مجاورتها لنظائرها السابقة واللاحقة في السياق الجملي والتركيبي من ناحية أخرى ، بما يخدم المقاصد التي تمّ من أجلها هذا الاختيار .

٢- ائتلاف الحروف المتماثلة في الكلمة :

سَلَكَ النص القرآني طرقًا من النظم في تأليف الألفاظ والأصوات تفرّد بها عن كل ما من شأنه أن يؤدي إلى التعقيد اللفظي ، أو التنافر الصوتي ، وأسبابهما كثيرة ومتنوعة . فقد يتأتى التنافر الصوتي من تتابع بعض الأصوات ، أو بعض الحركات الثقيلة ، أو من استعمال صيغ لفظية في نسق غير ملائم لها . وقد تجنب القرآن الكريم كل هذه الأسباب ، وسخّر ما في العربية من إمكانات صوتية وصرفية ونحوية ودلالية للتعبير الدقيق عن معاني الألفاظ ، مع الحفاظ على جمالية النظم والتناسب الصوتي لهذه الألفاظ .

ومن أسباب التنافر الصوتي اجتماع الحروف المتماثلة في الكلمة الواحدة مما يقتضي العُسر في النطق ، والثقل في اللفظ بحسب المقاييس البشرية . نلمح ذلك جيداً

١- سورة البقرة : آية رقم (٢٧٥) .

في النص التالي . يقول القاضي الجرجاني : " قال أبو نصر المرزباني [1] : ثلاثة من الشعراء رؤساء : شَلْشَلَ أحدهم ، وسَلْسَلَ الثاني ، وقَلْقَلَ الثالث . فالذي شَلْشَلَ هو الأعشى ، وهو من رؤساء شعراء الجاهلية ، وهو الذي يقول [2] :

وقدْ غَدَوْتُ إلى الحانوتِ يَتْبَعُني   شاوٍ مُشِلٌ شَلولٌ شُلْشُلٌ شُوَلُ

والذي سَلْسَلَ مسلم بن الوليد ، وهو من رؤساء المحدثين ، قال [3] :

سُلّتْ وسُلّتْ ثمّ سُلّ سَليلها   فأتَى سَليلُ سَليلِها مَسْلُولا

وأما الذي قَلْقَلَ فالمتنبي إذ يقول [4] :

فَقَلْقَلْتَ بالهمِّ الذي قَلْقَلَ الحشَا   قَلاقِلَ عيسٍ كلهنّ قَلاقِلُ " [5] .

فهذا الخبر يحمل دلالة أكيدة على مدى التنافر الذي تكرهه العربية من اجتماع الحروف المتماثلة في أبنيتها على نحو يخرج بها عن النمط الجمالي للتركيب الكلمي ، ومن ثم الجملي . وبنظرة إلى الأبيات المضمنة في النص السابق نلاحظ – أولاً – تكرار حرف (الشين) في البيت الأول بما يثيره من الانتشار السمعي المستفاد من

١- ينظر : المرزباني ، معجم الشعراء ، ٣٧٢ .
٢- ينظر : ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ١ / ٧١ . – ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٥ / ٣٦٠ . (الشاو : الذي شوى . المشل : المطرد . الشلول : الخفيف . الشلشل : الخفيف القليل . الشول : الخفيف) .
٣ - ينظر : مسلم بن الوليد ، الديوان ، ٥٧ . – ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ١ / ٨٣٨ . – المرزباني ، معجم الشعراء ، ٣٧٢ . (سلت : رقّت . سل : رقّ . سليلها : رقيقها . سليل : قديم . مسلولا : مرققا) .
٤- ينظر : المتنبي ، الديوان ، ٣ / ٢٩٣ . (قلقلت : حركت . قلاقل العيس : النوق الخفيفة . قلاقل الثانية : جمع قلقلة بمعنى الحركة) .
٥ - ينظر : ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ١ / ٧١ ، ٢ / ٨٣٨ . – المرزباني ، معجم الشعراء ، ٣٧٢ . – الجرجاني ، الوساطة ، ٨٣ . – ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٥ / ٣٦٠ .

صفته ؛ وهي (التفشي) ، وإن كان اجتماعه في البيت ليس على التماثل الكلي أي المجاورة ، فخرج عن حد الاعتدال بهذا التكرار والتماثل . وكذلك الحال في البيت الثاني الذي كرر فيه صوت (السين) الصفيري المهموس ، وما يشيعه من أجواء . أما البيت الثالث الذي وظف فيه صوت القاف مكرراً حتى وإن كان أنصع حروف العربية ، وأثبتها جرساً ، وأصفاها في النطق ، وأوضحها في المخرج الصوتي ، فإنّ ذلك لم يشفع لهذا التماثل والتكرار ، فخرجت عن الاعتدال ، وتنافرت صوتياً .

ولنقارن هذا الصنيع البشري بتوظيفات القرآن الكريم لألفاظ محتوية على هذه الحروف السابقة ، لكن بلا تنافر صوتي مثلما نجد في قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ ﴾ [1] ، فقد تكرر حرف (الشين) في الآية في لفظتي (شركاء) و(متشاكسون) ، وهما يعبران معاً عن لغة المخاصمة والعناد والجدل في أخذ ورد لا يستقران . وقد جمعت كلمة (متشاكسون) نمطاً صوتياً جميلاً من خلال احتوائها على حرفي التفشي والصفير تعاقباً ، تخللهما حرف الكاف من وسط الحلق ، والواو والنون للمد والترنم ، والتأثر بالحالة ، فأعطت هذه الحروف مجتمعة نغماً موسيقياً خاصاً ، حمّلها أكثر من معنى الخصومة والجدل ، مما أكسبها أزيزاً يُوحي بتَشَكُّل خصام قائم بلغ الذروة .

وكذلك يوظف النص القرآني حرف (السين) بشكل تماثلي وتكراري رائق ، نلمسه بوضوح في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ [2] ، فأصوات الصفير في الآية تبلغ ذروتها بوضوحها السمعي ، ووقعها المميز

١ - سورة الزمر ؛ آية رقم (٢٩) .
٢ - سورة القمر ؛ آية رقم (١٩) .

بين الصوامت والصوائت . وهذه الأحرف ذات جرس صارخ يتضح من السياق ، ومع تكرارها لا تسمُج – حاشا لله – بل توحي بالنغم المراد .

والقرآن حينما يختار حروف كلماته فإنها تأتي " خفيفة على السمع ، رقيقة في الكلام ، أنيقة في الكلمة ، لا يصيبها في التأليف القرآني ما يصيبها في التأليف البشري ، فكل حرف يصيب موقعه في الكلمة ، ويقع موضعه في اللفظ ، ويكون من الذوق بمكان ، ولا عجب فهو وضع الحكيم الخبير ، وتنزيل من الرحمن الرحيم "[1] .

وقد وردت الحروف المتماثلة في القرآن الكريم على وجهين :

أولهما : التماثل الحرفي في إطار الكلمة الواحدة ، وعليه الآيات الآتية :

١- قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ ﴾[2] ، تماثل الكاف مع الكاف .

٢- قوله تعالى : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ ﴾[3] ، تماثل الهاء مع الهاء .

٣- قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾[4] ، تماثل النون مع النون .

٤- قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾[5] ، تماثل الزاي مع الزاي .

٥- قوله تعالى : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾[6] ، تماثل الكاف مع الكاف .

وثانيهما : التماثل الحرفي في كلمتين متتاليتين ، وعليه الآيات الآتية :

١- قوله تعالى : ﴿ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ ﴾[7] ، تماثل الحاء مع الحاء .

---

١ - د. عبد الفتاح لاشين ، من أسرار التعبير ، ٣١ .
٢ - سورة البقرة : آية رقم (٢٠٠) .
٣ - سورة الحجر : آية رقم (٣) .
٤ - سورة الحجر : آية رقم (٧٠) .
٥ - سورة الإسراء : آية رقم (٦٤) .
٦ - سورة المدثر : آية رقم (٤٢) .
٧ - سورة الكهف : آية رقم (٦٠) .

٢- قوله تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى﴾[1]، تماثل السين مع السين .
٣- قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[2]، تماثل الهاء مع الهاء .
٤- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً﴾[3]، تماثل الكاف مع الكاف .
٥- قوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[4]، تماثل الراء مع الراء .

والقرآن حافل بمثل هذه التماثلات الحرفية في نطاق الكلمة ، أو في نطاق الكلمتين المتجاورتين ، ولا نجد في هذه الآيات ما نجده في الكلام البشري من تنافر أو ثقل بسبب التماثل والتكرار . وتجدر الإشارة إلى موضوع الحروف المتماثلة وما يتعلق بها من أحكام يبحث في باب (الإدغام) .

٣- طول الكلمة في القرآن :

من شروط أهل البلاغة لفصاحة اللفظة المفردة أن تكون معتدلة الوزن في التأليف ، قليلة الحروف ، وذلك ليسهل النطق بها ، وتكون لذيذة السمع ، طيبة المجرى على اللسان . ولا جدال في أن اعتدال الكلمة في تأليف حروفها يقربها من أذن السامع ، فلا يشعر بثقل نغمها الصوتي . غير أن مسألة الاعتدال هذه إنما ترجع في كثير من جوانبها إلى فنية الاختيار ودقته ، ثم يلي ذلك مسألة قبول المتلقي لهذا الاختيار بالقبول والاستحسان ، أو بالرفض والاستهجان . ونلمس ذلك بوضوح عندما نستعرض تعليق ابن الأثير على كلمة (سويداواتها) الواردة في بيت المتنبي :

إنَّ الكرامَ بلا كِرامٍ منهمُ   مثلُ القُلُوبِ بلا سويداواتها

١ - سورة الحج : آية رقم (٢) .
٢ - سورة البقرة : آية رقم (٢) .
٣ - سورة الانشقاق : آية رقم (٦) .
٤ - سورة البقرة : آية رقم (١٨٥) .

فينكر أن يكون الطول الذي تتميز به الكلمة هو الذي قَبَّحَ هذه المفردة مثلما قال ابن سنان [1] ، وإنما مناط الأمر فيها أنها هي نفسها قبيحة بهذا التركيب الجديد ، فقد كانت رائقة المعنى حينما كانت مفردة .

ويدلل ابن الأثير على صدق ما ذهب إليه بإيراد أمثلة قرآنية تدليلاً على طول الكلمة وتألق معانيها رغم هذا الطول . يقول ابن الأثير : " قال (يريد ابن سنان) : إن لفظة (سويداواتها) طويلة فلهذا قبحت ، وليس الأمر كما ذكره ، فإن قبح هذه اللفظة لم يكن بسبب طولها ، وإنما لأنها في نفسها قبيحة ، وقد كانت وهي مفردة حسنة ، فلما جمعت قبحت لا بسبب الطول . والدليل على ذلك أنه قد ورد في القرآن الكريم ألفاظ طوال ، وهي مع ذلك حسنة كقوله تعالى : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴾ [2] فإن هذه اللفظة تسعة أحرف ، وكقوله تعالى : ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ﴾ [3] ، فإن هذه اللفظة عشرة أحرف [4] ، وكلتاهما حسنة رائقة ، ولو كان الطول مما يوجب قبحاً لقبحت هاتان اللفظتان " [5] .

غير أن ابن الأثير حين يثبت الجمالية لكلمة (سويداواتها) استئناساً بتوظيف القرآن الكريم لكلمات طوال مثل (فسيكفيكهم) و (ليستخلفنهم) فإنه بذلك يصبّ رونق النظم في النص القرآني على قالب الشعر ، وهذا مستبعد تماماً ، ذلك أنّ القرآن

---

١ - ينظر : ابن سنان ، سر الفصاحة ، ٧٦ .
٢- سورة البقرة : آية رقم (١٣٧) .
٣- سورة النور : آية رقم (٥٥) .
٤- هذه اللفظة أحد عشر حرفا، لأن النون هنا مشددة ،فهي بحرفين ، لا كما قال ابن الأثير بأنها عشرة حروف فقط.
٥ - ابن الأثير ، المثل السائر ، ١ / ١٨٨ .

الكريم يخضع في اختيارات كلماته وألفاظه لمعايير صوتية وصرفية وتركيبية أرفع وأدق ، بما لا يحصر عن محددات التعبير في النص البشري المتمثل في الشعر .

وفي الإطار ذاته يقول الرافعي : " وردت في القرآن ألفاظ هي أطول الكلام عدد حروف ومقاطع مما يكون مستثقلاً بطبيعة وضعه أو تركيبه ، ولكنها بتلك الطريقة التي أومانا إليها قد خرجت في نظمه مخرجاً سرياً ، فكانت من أحضر الألفاظ حلاوة ، وأعذبها منطقاً ، وأخفها تركيباً ، إذ تراه قد هيّا لها أسباباً عجيبة من تكرار الحروف ، وتنوع الحركات ، فلم يجرها في نظمه إلا وقد وجد ذلك فيها كقوله :﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ﴾ [1] ، فهي كلمة من عشرة أحرف [2] ، وقد جاءت عذوبتها من تنوع مخارج الحروف ، ومن نظم حركاتها ، فإنها بذلك صارت في النطق كأنها أربع كلمات ، إذ تنطق على أربعة مقاطع . وقوله : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴾ [3] ، فإنها كلمة من تسعة أحرف ، وهي ثلاثة مقاطع ، وقد تكررت فيها الياء والكاف ، وتوسط بين الكافين هذا المد الذي هو سر الفصاحة في الكلمة كلها " [4] .

والذوق العربي يسلك في تأليف الكلمة مسلك الاعتدال والتوسط فيجعلها على البناء الثلاثي الأصول ، ولذا جاءت أكثر الكلمات على هذا البناء ، واستوحش ما كان خماسياً ، وجعل التأليف على أربعة من متوسطات التأليف للكلمة . غير أن النص القرآني جاء بتوظيف الكلمات الطوال في سعة ورحابة وطلاقة ، فوظف ما شاء من

---

١ - سورة النور : آية رقم (٥٥) .
٢ - نلحظ الأمر الذي وقع فيه ابن الأثير هو هو الذي وقع فيه الرافعي إذ عدها عشرة حروف وهي أحد عشر حرفاً.
٣ - سورة البقرة : آية رقم (١٣٧) .
٤ - الرافعي ، إعجاز القرآن ، ٢٢٩ .

هذه الكلمات بما شاء من تأليف على أحسن ما يكون من نسق ، فجاءت كلماته كلها درراً منتظمة .

وتجدر الإشارة إلى أن ما استعمله الشعراء من كلمات طوال إنما كان مرادهم منها توظيف كلمة طويلة متحدة اللفظ والمعنى . في حين أن القرآن الكريم حين يوظف هذه الفئة من الكلمات بتلويناتها الصوتية والجمالية فإنه يعمد إلى كلمات تتّحد بالسوابق واللواحق التصريفية ليتم تأليفها ، فيمكننا عدّها ثلاث كلمات .

وهذا التوظيف خاص بالنص القرآني حين تعامله مع الألفاظ القرآنية الطوال ، مراعياً البعد الصوتي والصرفي والدلالي كل في آن .

وبإحصاء التوظيف القرآني للألفاظ الطوال وجدنا بعض الظواهر التالية :

وظف القرآن (١٢٦ مائة وستاً وعشرين كلمة) تساعية الأحرف يوضحها الجدول الآتي :

السورة	رقم الآية	الآية	الكلمة
البقرة	٦١	قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ	أَتَسْتَبْدِلُونَ
***	٧٢	وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا	فَادَّارَأْتُمْ
***	٩٢	وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ	بِالْبَيِّنَاتِ
***	١٣٧	فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ	فَسَيَكْفِيكَهُمُ
***	١٥٥	وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ	لَنَبْلُوَنَّكُمْ
***	١٧٧	وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ	السَّائِلِينَ

السورة	رقم الآية	الآية	الكلمة
البقرة	١٨٧	وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ	تُبَاشِرُوهُنَّ
***	٢٣١	فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ	فَأَمْسِكُوهُنَّ
***	٢٣٥	وَلَـكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً	تُوَاعِدُوهُنَّ
***	٢٤٢	وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ	لِلْمُطَلَّقَاتِ
آل عمران	١٣٧	كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ	الْمُكَذِّبِينَ
***	١٨٧	لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ	لَتُبَيِّنُنَّهُ
***	١٩٥	وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ	لأُدْخِلَنَّهُمْ
النساء	١٥	فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ	فَأَمْسِكُوهُنَّ
***	١٥	حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ	يَتَوَفَّاهُنَّ
***	١٩	فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ	كَرِهْتُمُوهُنَّ
***	٦١	رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً	الْمُنَافِقِينَ
النساء	٦٩	مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ	الصِّدِّيقِينَ
***	٨٧	اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ	لَيَجْمَعَنَّكُمْ
***	٩٠	وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ	فَلَقَاتَلُوكُمْ
***	١١٩	وَلأُضِلَّنَّهُمْ	لأُضِلَّنَّهُمْ
***	١١٩	وَلآمُرَنَّهُمْ	لآمُرَنَّهُمْ

السورة	رقم الآية	الآية	الكلمة
النساء	١١٩	فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ	فَلَيُبَتِّكُنَّ
***	١١٩	وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ	فَلَيُغَيِّرُنَّ
المائدة	٣	وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ	الْمُتَرَدِّيَةُ
***	١٢	وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ	عَزَّرْتُمُوهُمْ
***	١٢	وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ	لأُدْخِلَنَّكُمْ
***	٧٤	أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ	يَسْتَغْفِرُونَهُ
***	٩٤	لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ	لَيَبْلُوَنَّكُمُ
***	١٠٦	تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاَةِ	تَحْبِسُونَهُمَا
الأنعام	٦	فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ	فَأَهْلَكْنَاهُم
***	٨٠	قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ	أَتُحَاجُّونِّي
***	١١٧	وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ	بِالْمُهْتَدِينَ
***	١٢١	لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ	لِيُجَادِلُوكُمْ
الأعراف	١٧	ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ	لآتِيَنَّهُم
***	٣٧	حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ	يَتَوَفَّوْنَهُمْ
***	٧١	أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا	سَمَّيْتُمُوهَا
***	٧١	إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ	الْمُنتَظِرِينَ

السورة	رقم الآية	الآية	الكلمة
الأعراف	١٥٠	إنَّ القَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي	اسْتَضْعَفُونِي
***	١٨٢	سنسْتَدرجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ	سَنَسْتَدرجُهُم
الأنفال	٧٢	وَإنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ	اسْتَنصَرُوكُمْ
التوبة	٢٤	وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا	اقْتَرَفْتُمُوهَا
****	٧٠	وَقَوْمِ إبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ	الْمُؤْتَفِكَاتِ
***	٧٥	لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ	لَنَصَّدَّقَنَّ
***	٨١	فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ	الْمُخَلَّفُونَ
***	٩٠	وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ	الْمُعَذِّرُونَ
***	٩٣	إنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ	يَسْتَأْذِنُونَكَ
يونس	٤٦	وَإمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ	نَتَوَفَّيَنَّكَ
***	٥٣	وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ	يَسْتَنبِئُونَكَ
هود	٦١	فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ	فَاسْتَغْفِرُوهُ
***	٧١	فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإسْحَاقَ	فَبَشَّرْنَاهَا
***	٩٢	وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا	اتَّخَذْتُمُوهُ
***	١١٤	ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ	لِلذَّاكِرِينَ

السورة	رقم الآية	الآية	الكلمة
الرعد	٦	وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ	يَسْتَعْجِلُونَكَ
إبراهيم	١٢	وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا	آذَيْتُمُونَا
***	١٣	لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا	لَنُخْرِجَنَّكُم
***	١٤	وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ	لَنُسْكِنَنَّكُمُ
الحجر	٣٩	وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ	لأُغْوِيَنَّهُمْ
***	٩٠	كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ	الْمُقْتَسِمِينَ
***	٩٢	فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ	لَنَسْأَلَنَّهُمْ
النحل	٩٧	فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً	فَلَنُحْيِيَنَّهُ
***	٩٧	وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم	لَنَجْزِيَنَّهُمْ
الإسراء	١٦	فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً	فَدَمَّرْنَاهَا
***	٢٥	فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً	لِلأَوَّابِينَ
***	٥٢	يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ	فَتَسْتَجِيبُونَ
الكهف	٧٧	فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا	يُضَيِّفُوهُمَا
***	١٠٣	قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً	بِالأَخْسَرِينَ
مريم	٦٨	فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ	لَنَحْشُرَنَّهُمْ

السورة	رقم الآية	الآية	الكلمة
مريم	٦٨	ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا	لَنُحْضِرَنَّهُمْ
طه	٥٨	فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ	فَلَنَأْتِيَنَّكَ
***	٨٠	وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ	وَوَاعَدْنَاكُمْ
***	٩٧	لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا	لَّنُحَرِّقَنَّهُ
***	١١٧	فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ	يُخْرِجَنَّكُمَا
الأنبياء	٣٦	وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا	يَتَّخِذُونَكَ
***	٥٥	أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ	اللَّاعِبِينَ
الأنبياء	٧٩	فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا	فَفَهَّمْنَاهَا
الحج	٥٨	لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا	لَيَرْزُقَنَّهُمُ
***	٥٩	لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ	لَيُدْخِلَنَّهُم
***	٧٢	أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ	أَفَأُنَبِّئُكُم
المؤمنون	٨	وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ	لِأَمَانَاتِهِمْ
***	٤٨	فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ	فَكَذَّبُوهُمَا
النور	٣١	وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ	لِبُعُولَتِهِنَّ
***	٥٨	لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ	لِيَسْتَأْذِنكُمُ
النمل	١٤	وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا	اسْتَيْقَنَتْهَا

السورة	رقم الآية	الآية	الكلمة
***	٢١	لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً	لَأُعَذِّبَنَّهُ
***	٣٧	وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ	لَنُخْرِجَنَّهُم
***	٤٩	قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ	لَنُبَيِّتَنَّهُ
***	٩٣	سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا	فَتَعْرِفُونَهَا
القصص	٤٢	وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ	الْمَقْبُوحِينَ
***	٨١	وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ	الْمُنتَصِرِينَ
العنكبوت	٩	لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ	لَنُدْخِلَنَّهُمْ
***	٣٢	لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ	لَنُنَجِّيَنَّهُ
***	٥٣	وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ	لَيَأْتِيَنَّهُم
***	٦٩	وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا	لَنَهْدِيَنَّهُمْ
الروم	٦٠	وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ	يَسْتَخِفَّنَّكَ
السجدة	٢١	وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ	لَنُذِيقَنَّهُمْ
الأحزاب	٣٧	فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا	زَوَّجْنَاكَهَا
***	٥٣	وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ	سَأَلْتُمُوهُنَّ
***	٥٩	يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ	جَلَابِيبِهِنَّ

السورة	رقـم الآية	الآية	الكلمة
سبا	٣	قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ	لَتَأْتِيَنَّكُمْ
يس	١٨	لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ	لَنَرْجُمَنَّكُمْ
***	١٨	وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ	لَيَمَسَّنَّكُم
ص	٦٣	أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ	أَتَّخَذْنَاهُمْ
الزخرف	٣٧	وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ	لَيَصُدُّونَهُمْ
الجاثية	٣٢	إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ	بِمُسْتَيْقِنِينَ
محمد	٤	حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ	أَثْخَنتُمُوهُمْ
***	٣٠	وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ	أَرَيْنَاكَهُمْ
***	٣٠	وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ	لَتَعْرِفَنَّهُمْ
***	٣٧	إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا	يَسْأَلْكُمُوهَا
الحشر	١١	وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ	لَنَنصُرَنَّكُمْ
الممتحنة	٤	إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ	لَأَسْتَغْفِرَنَّ
***	١٠	فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ	عَلِمْتُمُوهُنَّ
الطلاق	١	فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ	فَطَلِّقُوهُنَّ
التحريم	١٠	فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا	فَخَانَتَاهُمَا

السورة	رقم الآية	الآية	الكلمة
المعارج	١١	يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي	يُبَصَّرُونَهُمْ
***	٣٣	وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ	بِشَهَادَاتِهِمْ
الجن	١٦	لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقاً	أَسْقَيْنَاهُم
الإنسان	٦	يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً	يُفَجِّرُونَهَا
المرسلات	٢	فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً	فَالْعَاصِفَاتِ
***	٤	فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً	فَالْفَارِقَاتِ
***	٥	فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً	فَالْمُلْقِيَاتِ
المطففين	١	وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ	لِّلْمُطَفِّفِينَ
***	٢١	يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ	الْمُقَرَّبُونَ
الفجر	٢٧	يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ	الْمُطْمَئِنَّةُ
العاديات	٢	فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً	فَالْمُورِيَاتِ
***	٣	فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً	فَالْمُغِيرَاتِ

جدول رقم (٣)

فهذا التوظيف الجمالي للمفردات تساعية الأحرف في الآيات المشار إليها إنما ينطق بطلاقة التوظيف ، وجمالية الاستعمال بعيداً عما يمكن أن يكون مسوغاً للثقل

والتنافر الناتج عن هذا الطول ، وعن زيادة الأحرف في الكلمات . وهذا من فرائد القرآن في توظيفاته الجمالية والنصية .

كما أن هذه الكلمات التساعية لم ترد على وتيرة واحدة بل تنوعت إلى أسماء وأفعال حتى لا نتوهم أن الأفعال هي وحدها التي تقبل من حيث البناء السوابق واللواحق ؛ ولذا تطول الكلمة إذا كانت فعلاً . وتتوزع هذه الكلمات التساعية إلى : (٣٢ اسماً + ٩٤ فعلاً) .

وما ذلك إلا استثمار للغة في شتى الصور التي ترد عليها أبنيتها ، مع الاتكاء على التوظيف الجمالي لهذه الأبنية لتثوير دلالاتها ، والوقوف على الفنيات الجمالية المرادة من هذا التوظيف .

* كما وظف القرآن الكريم في سياق آياته (٣٦ ستاً وثلاثين كلمة) من الكلمات ذات البناء العشري في الحروف ، توزعت هذه الكلمات كما في الجدول الآتي :

السورة	رقم الآية	الآية	الكلمة
البقرة	٧٦	قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ	أَتُحَدِّثُونَهُم
***	١٤٤	فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا	فَلَنُوَلِّيَنَّكَ
***	٢٢٢	إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ	الْمُتَطَهِّرِينَ
***	٢٣٥	عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ	سَتَذْكُرُونَهُنَّ
***	٢٣٧	وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ	طَلَّقْتُمُوهُنَّ
آل عمران	١٧	وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ	الْمُسْتَغْفِرِينَ
***	٥٢	قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ	الْحَوَارِيُّونَ

السورة	رقم الآية	الآية	الكلمة
***	١٥٩	إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ	الْمُتَوَكِّلِينَ
النساء	٧٥	وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ	الْمُسْتَضْعَفِينَ
***	١١٩	وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ	لأُمَنِّيَنَّهُمْ
المائدة	٤	وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ	تُعَلِّمُونَهُنَّ
***	٥	إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ	آتَيْتُمُوهُنَّ
***	٤٤	وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ	الرَّبَّانِيُّونَ
الأنفال	٣٦	فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً	فَسَيُنفِقُونَهَا
التوبة	٧٩	الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ	الْمُطَّوِّعِينَ
التوبة	١٠٨	وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ	الْمُطَّهِّرِينَ
هود	٢٨	أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ	أَنُلْزِمُكُمُوهَا
يوسف	١٥	وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا	لَتُنَبِّئَنَّهُم
الحجر	٢٤	وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ	الْمُسْتَقْدِمِينَ
***	٢٤	وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ	الْمُسْتَأْخِرِينَ
***	٥٤	قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ	أَبَشَّرْتُمُونِي
***	٧٥	إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ	الْمُتَوَسِّمِينَ
***	٩٥	إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ	الْمُسْتَهْزِئِينَ

السورة	رقم الآية	الآية	الكلمة
النحل	٢٩	فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ	الْمُتَكَبِّرِينَ
***	٤١	لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً	لَنُبَوِّئَنَّهُمْ
***	٨٠	مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا	تَسْتَخِفُّونَهَا
الإسراء	٧٦	وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ	لَيَسْتَفِزُّونَكَ
الكهف	١٦	وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ	اعْتَزَلْتُمُوهُمْ
***	٥٠	أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي	أَفَتَتَّخِذُونَهُ
النور	٥٥	وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً	لَيُبَدِّلَنَّهُم
النمل	٣٧	ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا	فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ
ص	٨٦	وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ	الْمُتَكَلِّفِينَ
ق	١٧	إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ	الْمُتَلَقِّيَانِ
الطور	٣١	فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ	الْمُتَرَبِّصِينَ
النازعات	٥	فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً	فَالْمُدَبِّرَاتِ
المطففين	٢٦	وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ	الْمُتَنَافِسُونَ

جدول رقم (٥)

ونلحظ في هذا التوظيف للكلمات العشرية نوعاً من التناسق الجمالي في سياقات هذا التوظيف لاعتماده على فنية التنويع بين الاسمية والفعلية في سياق تعادلي بين

الاثنين . فقد توزعت الكلمات العشرية إلى : (١٨ ثمانية عشر اسماً + ١٨ ثمانية عشر فعلاً) . توزعت الأسماء فيها إلى : (لفظ وحيد للمثنى + ١٧ سبعة عشر لفظاً للجمع) .

أما الأفعال فقد توزعت كما يلي :

نوع الفعل	ماض	مضارع	أمر	المجموع
العدد	٠	١٤	٤	١٨

جدول رقم (٦)

وما هذا التوزيع إلاّ دلالة أخرى على فنيات التوظيف الجمالي لهذه الكلمات .

* كذلك وظف النص القرآني (٣ ثلاث كلمات طوال) بلغ طول كل منها (١١ أحد عشر حرفاً) ، وقد تمثلت هذه الكلمات في الجدول التالي :

السورة	رقم الآية	الآية	الكلمة
الحجر	٢٢	فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ	فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ
المؤمنون	١١٠	فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي	فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ
النور	٥٥	لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ	لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم

جدول رقم (٧)

نلمس هنا قمة التوظيف الجمالي للكلمات الطوال في النص القرآني إذ وردت (ثلاث كلمات) بلغ طول كل منها (١١ أحد عشر حرفاً) ، ومع ذلك لا نجد لهذا التوظيف الفريد ثقلاً أو تنافراً ناتجاً عن كثرة الحروف في هذه الكلمات . ويعلق ابن

الأثير بقوله : " ألا ترى أن قوله تعالى : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ ﴾ ثلاث كلمات في المعنى ، جمعت فصارت في اللفظ كلمة واحدة ، وذلك لأن الأصل فيها : (ليستخلفنَّ اللهُ المؤمنين) . إلا أنه لما جاء بذكر المؤمنين مظهراً في أول الآية في قوله : ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ [1] ، لم يحتج لذكرهم ثانية إلى الإظهار ، بل اقتصر على ضميرهم " [2] .

وهذا تحليل دقيق رائق يعتمد على نظرة جمالية تتكئ على مبدأ الاقتصاد اللغوي ، فما يحتاج إلى إيجاز يُوجَز ، وما لا يحتاج إلى ذلك فلا حاجة إليه ، والإيجاز في هذه الآية كما أوضح ابن الأثير أجمل .

ثمّ إننا " عندما نتأمل هذه الكلمات التي يوهم ظاهرها الطول - عند النظرة الأولى - نراها على المستوى اللائق من الخفة على اللسان ، والسهولة في المخرج ، والعذوبة في السمع ، والبعد الكامل عن الثقل والتنافر مع طولها الذي جاوز في بعضها عشرة حروف " [3] .

كما أننا عند بحثنا لهذه الطائفة من الكلمات الطوال لا بد أن نضعها في إطارها السياقي والجمالي التي وظفت فيه ، ولا نعمد إلى نزعها من هذا السياق ، وذلك كي تتضح لنا الصورة الكلية التي تحكم جماليات التوظيف لهذه الكلمات . كما أن الوقوف على شكل التوزيع المقطعي لهذه الكلمات ، وبيان اعتماد القرآن الكريم في تشكيلها وتأليفها على أي نوع من المقاطع اللغوية يعدان من الأمور المساعدة على تلمس مثل هذه الجماليات .

---

١ - سورة النور : آية رقم (٥٥) .
٢ - ابن الأثير ، الجامع الكبير ، ٥٩ .
٣ - د. عبد الفتاح لاشين ، من أسرار التعبير ، ٤٠ .

ومن المعلوم أن الكلمات اللغوية تتكون من مقاطع متتابعة ، ولكل مقطع سماته الصوتية المميزة له . ولهذا كان هناك ترتيب معين لهذه المقاطع داخل بنية الكلمات . هذا الترتيب ذو أثر كبير في إحداث نوع من الإيقاع الداخلي ، تنبع جمالياته من فنية التناسب في تأليف هذه المقاطع ، وذلك لأن " اللغة التي تقوم على مبدأ المقاطع الممدودة والمقصورة ، لغة إيقاعية أكثر من غيرها كالعربية ، وذلك لأن المقاطع الصوتية ذات وزن مختلف يتراوح بين الثقل والخفة ، فإذا تناسب الثقل والخفة اندرج الإيقاع اللذيذ فيها بيسر لأنه يجد الظروف الملائمة لانبعاثه ، فيضفي على العبارة مزيداً من الحسن " [1] . فحلاوة الإيقاع في الكلام العربي المنثور والمنظوم إنما يرجع في خالص معانيه إلى فنية التناسب في ترتيب المقاطع وتركيباتها الجمالية في بنية الكلمات .

وعلى هذا :يضاف إلى إعجازات القرآن ؛ إعجازه في تناسب المقاطع الصوتية التي تتألف منها كلماته بإيقاعها الزمني والصوتي ، لأن حلاوة السمع فيه لا توجد إلا مع وجود التناسب في هذه المقاطع . وكأني بهذا الترتيب المتناسب للمقاطع الصوتية في الكلمات القرآنية هو الذي يَسَّرَ تضمين الآيات أو أجزاء منها في القصائد الشعرية .

كذلك يؤدي ترتيب المقاطع وتوزيعها في بنية الكلمات القرآنية إلى استنطاق الجمالية الصوتية والنصية في هذه الكلمات بإسهامها في جعل الصورة السمعية متناسبة الأجزاء ، معتدلة التركيب ، بالإضافة إلى مناسبة الدلالات المرادة من وراء هذا الترتيب . ويمكننا تلمس مثل هذه الجمالية للتوزيع المقطعي لبعض آيات القرآن الكريم ، وذلك للوقوف على هذا التميز التوظيفي والجمالي . فمثلاً نجد القرآن

---

١ - د. محمد العياشي ، نظرية إيقاع الشعر العربي ، ٥٨ .

الكريم يوظف المقاطع المقفلة للتعبير عن معنى الجد الفاصل الذي لا مجال فيه لتهاون أو تردد . يقول تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾[1] . فالمقاطع في هاتين الآيتين مقاطع مقفلة حادة تناسب معنى الفصل . وقد عمد القرآن الكريم إلى توظيف مقطع مفتوح ينتهي بمدّ في وسط هذه السلسلة من المقاطع المقفلة ، فوظف (ما) ليعبر بها عن النفي المؤكد الذي يعمّ كلّ هزل .

كذلك نلمس مثل هذا التوظيف للمقاطع المقفلة في سياق الوصف الدقيق للأوامر الربانية للمصطفى ﷺ في بدء البعثة . يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾[2] . فهذه آيات مثيرة تتضمن أوامر تكليفية للمصطفى ﷺ بتبليغ الدعوة ، وتربوية حافلة بآداب وأخلاق إنسانية ، روعي في صياغتها وإيقاعها أن تكون مناسبة لجدية الأوامر الإلهية ، وما يستلزمه ذلك من الحزم والصرامة والصبر من جانب المصطفى ﷺ . وقد جاء ترتيب المقاطع الصوتية في هذا المقام مناسباً للمعنى ، فمعظمها مقاطع مقفلة منتهية بالسكون . غير أنه لَطَّفَ من حدة توالي المقاطع المقفلة بتوظيف بعض المقاطع المفتوحة التي جاءت متباعدة في مواقعها مثل (يا) و (لا) ، لكنها اندرجت في غمرة المقاطع المقفلة فلم يلحظ تأثيرها الصوتي ، واستمر الإيقاع سريعاً حاداً يتناسب مع السياق .

ومما نلمسه في توظيف القرآن للمقاطع المغلقة قوله تعالى : ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾[3] . فنلمس البيان المعبّر عن التصميم القاطع للقيام بالأمر الذي تحاوله كل أمة في محاربتها الدعوة التي يقوم بها كل رسول مرسل . ونلحظ

---

١ - سورة الطارق : الآيتان رقم (١٣ ، ١٤) .
٢ - سورة المدثر : الآيات من (١ – ٦) .
٣ - سورة غافر : آية رقم (٥) .

تتابع المقاطع المقفلة المنتهية بالسكون الحيّ مما يعدّ خير تعبير عن هذا المعنى الدلالي ، فارتبط المقطع الصوتي بدلالته السياقية ، وشارك نطق هذه المقاطع في تصوير هذا المعنى ، وذلك لأن الميم المشددة التي تكررت في (همّت) و (أمّة) جعلت القارئ بلا شعور يشدّ على شفتيه بقوة متتابعة ، فرسمت بذلك صورة للإنسان الحانق الذي صمم على أمر يهمه كثيراً .

وتوظيف القرآن لهذه المقاطع المنتهية بالسكون الحيّ أي : سكون التركيز يضيف إلى المتحرك السابق عليه قوة ، فيشاركه بتلك القوة في المجال الصوتي الضيق . ويعرف القسطلاني هذا السكون بقوله : " أما السكون فنوعان : حيّ وميّت . فالثاني الألف وأختاها ، لأنهن لا حيِّز ولا مقطع لهن ، فإذا انفتح ما قبل الواو والياء فسكونها حيّ لأخذ اللسان الياء والشفتين والواو كسائر الحروف"[1] .

والإيقاع المتولد عن هذا السكون له دلالات متنوعة ، لأن حركته الإيقاعية " تكون حادة عنيفة ، بخلاف السكون الميت فهو كما يقولون : (سكون استغراق) ومعنى ذلك أنه يمتد عند النطق فيستغرق كل الوقت المخصص له ، وهو سكون يتميز باللين والاسترخاء "[2] .

أما توظيف القرآن الكريم للمقاطع الممدود (الطويلة) فقد جاء توظيفها على نسق جمالي فريد في سياقات النص الكريم ، نمثل لها بما يلي :

ما وظفه القرآن الكريم من هذه المقاطع في سياقات التعبير عن المعاني المتعددة ، والمشاهد التصويرية المختلفة كالتذكير والتهديد ، وإبراز مواقف التندم والتحسر ،

---

١ - القسطلاني ، لطائف الإشارات ، ١ / ١٨٧ .
٢ - د. محمد العياشي ، نظرية إيقاع الشعر العربي ، ٢٢١ .

أو في مواقف الدعوة إلى الخير. ووصف النعم السابغة. كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ ﴾ [1]. يقول الشيخ محمد عبده: "يا أيها الإنسان السادر في غلوائه، الصادر في عمله عن أهوائه، الغافل عن مصيره، الجائر عن جادة الحق في مسيره، لا تظن أنك خالد مقيم فيما أنت له جاهد، وأنك إن آذيت الخلق، وازدريت الحق، واغتررت بالحول والقوة، وسلمت عنانك للشهوة، ضمنت لنفسك التمتع بما تكسب، والبقاء فيما تتعب وتنصب، كلا إنك مجد في المسير إلى ربك، وإن كنت لا تشعر بجدك، أو إن شعرت لهوت عنه، وكل خطوة في عمرك، فهي في الحقيقة خطوة إلى أجلك" [2].

فهذا بيان لدلالة الآية وما تحويه من معانٍ سياقية في إطار التقريع والتذكير بالمصير الذي هو غاية الإنسان عموماً. وقد عبّرت المقاطع (المفتوحة) التي تخللتها حروف المدّ الطويل، أصدق تعبير عن هذا المعنى. وهذا النوع من المقاطع يستدعي امتداد الصوت عند التلاوة مما يكسب الدلالة الصوتية فنية التعبير عن الامتداد في الزمن المستغرق في الكدح والتعب والنصب، وكان المراد من توظيفها مشاركة الإيقاع الصوتي للآية في أداء المعنى، وبعث الإحساس لدى المخاطب بأنه لا مفرّ من هذا المصير مهما طال العمر.

كذلك يكثر توظيف المقاطع المفتوحة (الممدودة) في مواقف التلطف في الخطاب، والدعوة إلى الخير. ومن أوضح الأمثلة القرآنية على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ

١ - سورة الانشقاق: آية رقم (٦).
٢ - الشيخ محمد عبده، تفسير جزء عم، ٤٠.

وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ [1] ، إذ الخطاب هنا خير معبّر عن التزام الأدب في الحوار ، والتلطف في إيصال رسالة الدعوة من سيدنا إبراهيم عليه السلام تجاه المخاطَب في الآيات وهو (آزر) ، إذ يدعوه إلى التوحيد ، وترك عبادة الأوثان .

ونلمح تكرار النداء (يا أبت) في دلالة صريحة على رقة هذا الخطاب الدعوي . وقد كان للمقاطع الممدودة التي ترددت بكثرة ملحوظة في الكلمات تأثير واضح في زيادة حظّ هذا الخطاب من الرقة بما تراوحت به من المقاطع المنتهية بالألف الممدودة ، والمنتهية بالياء الممدودة ، مما يحقق المناسبة بين المعاني والإيقاع الصوتي في هذا المقام ، وذلك بما تثيره أصوات المدّ من إيقاعات موحية متموجة رخية متساوقة في الجمال والدلالة . وهكذا يكون القرآن الكريم في توظيفاته الصوتية المتنوعة .

٤- حركات الحروف في الكلمة القرآنية :

اشترط أهل اللغة لفصاحة الكلمة أن تكون خفيفة الحركات ليسهل النطق بها ، وتلذ في المسمع ، فتنأى بذلك عن حيز الثقل والتنافر . ولذا قرر أهل الفصاحة استثقال الضمة على الواو ، والكسرة على الياء ، لأن الضمة من جنس الواو ، والكسرة من جنس الياء ، فتصير عند ذلك كأنها حركتان ثقيلتان . وتوزيع الحركات جزء من نظم الكلام ، وتأليف الأصوات في الصياغة اللفظية ، لأن منها ما هو خفيف ، ومنها ما هو ثقيل . يقول ابن الأثير : " إذا توالى حركتان خفيفتان في كلمة واحدة لم

---

١ - سورة مريم : الآيات من (٤١ – ٤٥) .

يستثقل . وبخلاف ذلك الحركات الثقيلة ، فإنه إذا توالى حركتان منها في الكلمة استثقلت . ومن أجل ذلك استثقلت الضمة على الواو والكسرة على الياء "[1] .

وأهل اللغة يميلون بطبعهم إلى تخفيف الكلام توفيراً للجهد العضلي المبذول فيه ، ولذا ينزعون إلى تغيير بعض الأصوات ما أمكنهم التخفيف في نطقها ، والانسجام الصوتي فيها . وأجود ما تكون الكلمة إذا كانت ساكنة الوسط ، وإن توالت فيها ثلاث فتحات ، فهذا أخف من وجود الضم في الوسط ، ولذلك فإن كلمة (سَمَكاً) أخف كثيراً من كلمة (عَضُد) .

ويرى د. أحمد عفيفي أنه نظراً لأن " الجهاز النطقي يمتلك إمكانية محددة في نطق الكلمات مع الحركات الموجودة على حروفها ، فلم نسمع عن توالي أربعة متحركات في كلمة ، أو خمسة في كلمتين ، لثقل ذلك على الجهاز النطقي "[2] .

ونتيجة لهذا نجد أن الفصحى تضحي ببعض الحركات طلباً للتناسب الحركي والخفة النطقية ، وجريان موسيقى الأصوات . فاللسان العربي يكره الخروج والانتقال من الكسر إلى الضم في الحركات اللازمة في البناء الثابت ، وذلك لأن في هذا الانتقال خروجاً مما هو جزء من الياء (الكسر) إلى الضم الذي هو شيء من التفخيم . ويرى أهل الصرف أن هذا الانتقال من الكسر إلى الضم ثقيل ، وثقله " ليس راجعاً إلى الحروف ، وإنما هو استثقال منهم للخروج من ثقيل إلى ما هو أثقل "[3] .

وقد أنكر الرضي حدوث مثل هذا الانتقال تماماً ، ونسبته - إن وجد - إلى الشواذ نظراً لقلة ما ورد عليه من كلمات وندرته[4] .

---

١ - ابن الأثير ، المثل السائر ، ١ / ٢٦٨ .
٢ - د. أحمد عفيفي ، ظاهرة التخفيف في العربية ، ١٤٩ .
٣ - ابن جني ، سر صناعة الإعراب ، ١ / ٢١ .
٤ - الرضي ، شرح الشافية ، ١ / ٣٨ .

وقد حدا هذا الثقل بالصرفيين إلى تقرير ما تنهجه العربية الآن للتخلص من دواعي الثقل ، وذلك من خلال هجوم الحركات على الحركات ، أو الإبدال للحركة المناسبة ، أو الإتباع ، وذلك طلباً للخفة والتوافق الحركي ، الذي هو " تأثير الحركة الأساسية في الكلمات أو المقاطع على الحركة التالية أو السابقة بالمماثلة "[1] .

وعلى الرغم من هذه التقريرات اللغوية في جانب استثقال بعض الانتقالات بين الحركات ، وتنافر الجمع بين الحركات الثقيلة إذا توالت في كلمة واحدة ، فإننا نجد القرآن الكريم يوظف هذا الملحظ وفقاً لمقتضيات جمالية رائعة . ويتضح ذلك عندما نلمس مواضع التوظيف القرآني لملحظ توالي الحركات من خلال الجدول الآتي :

السورة	رقم الآية	الآية	الوصف الحركي
البقرة	٦٧	إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً	توالي ثلاث ضمات
****	١٦٩	إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ	توالي ثلاث ضمات
النساء	١١	وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ	توالي ثلاث ضمات
****	١١	فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ	توالي ثلاث ضمات
****	١١	فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ	توالي ثلاث ضمات
****	١٢	فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ	توالي ثلاث ضمات
الأنعام	٦١	تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ	توالي ثلاث ضمات
التوبة	٦١	وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ	توالي ثلاث ضمات

١ - د. كريم زكي حسام الدين ، أصول تراثية ، ١٩٦ .

السورة	رقم الآية	الآية	الوصف الحركي
التوبة	٧٠	أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ	توالي أربع ضمات
هود	٨١	قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ	توالي ثلاث ضمات
الرعد	٣٥	أُكُلُهَا دَائِمٌ وِظِلُّهَا	توالي ثلاث ضمات
الإسراء	٥٩	وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ	توالي أربع فتحات
الأنبياء	٤٤	حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ	توالي ثلاث ضمات
الشعراء	١٣٧	إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ	توالي ثلاث ضمات
القصص	٤٥	فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ	توالي ثلاث ضمات
الروم	٩	وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ	توالي أربع ضمات
فاطر	٢٥	جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ	توالي أربع ضمات
يس	٦٥	وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ	توالي ثلاث ضمات
غافر	٢٢	كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ	توالي أربع ضمات
****	٥٠	أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ	توالي أربع ضمات
****	٨٣	فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ	توالي أربع ضمات
الواقعة	٥٦	هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ	توالي أربع ضمات
التغابن	٦	كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ	توالي أربع ضمات
الملك	٢٠	يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ	توالي ثلاث ضمات

السورة	رقم الآية	الآية	الوصف الحركي
الملك	٢١	أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ	توالي ثلاث ضمات
الانفطار	١	إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ	توالي ثلاث فتحات
****	٢	وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ	توالي ثلاث فتحات
****	٧	الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ	توالي أربع فتحات
****	٧	فَعَدَلَكَ	توالي خمس فتحات

جدول رقم (٨)

ومن التدقيق في نتائج الجدول السابق يتضح لنا :

* وردت أثقل الحركات (الضمة) متتالية على أحرف الكلمات في (٢٤ أربعة وعشرين موضعاً) بلا تنافر أو ثقل سمعي داخل بنية هذه الكلمات ، وبالتالي داخل السياق القرآني التي وظفت فيه . كما نجد أن هذه الحركات الثقيلة توالت على الأحرف في تنوع عددي جميل ، فقد توالت ثلاثية ورباعية على أحرف هذه الكلمات كما يتضح من الجدول الآتي :

نوع الحركات	ثلاثية	رباعية	المجموع
عددها	١٤	١٠	٢٤

جدول رقم (٩)

وهذا الضم المتتابع في بنية هذه الكلمات إنما يعبِّر عما في هذا الضم من الشدة والعنف بما يتناسب مع الغرض السياقي في هذه التوظيفات القرآنية لهذه الكلمات

مثلما يتضح في قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ [1] ، ففي كلمة (ينصركم) توالى الضم على حروف (الصاد ، والراء ، والكاف) بما يشمله الضم هنا من شدة في توجيه هذا السؤال الذي يعبّر عن مقدار من السخرية والتهكم من هؤلاء الكفار إذ توهموا النصر من عند غير الله ، وظنوا القدرة في مجابهة حزب الله . ولذا جاء تعقيب الآية الكريمة : ﴿ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ ، وهذا أبلغ رد على هذا الظن والتوهم . ويلحظ هنا دلالة الضم الصوتية في أدائها السياقي ، وانسجامهما معاً في تصوير هذه الدلالة .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ [2] ، بسياق الضم المتوالي على حروف (الميم ، والراء ، والكاف) ، إنما هو تعبير صوتي عن مدى جدية الأمر في هذه القضية ، وما هم بصدده من الريبة في مقتل هذا القتيل الذي وجد على باب قريتهم ، وما أدى إليه ذلك من مشكلات وإلغازات ، إلى أن جاء البيان الواضح من الله على لسان نبيه موسى بذبح البقرة [3] . ولذا ناسب بهذا الضم المتوالي شدة الأمر ، لأنهم أهل لجاجة وجدال ، فناسب بهذه الشدة طبيعتهم ، واقتضى المقام هذا التصنيف الأمر .

ويطرد الأمر على هذا النحو في بقية الكلمات التي ورد فيها الضم متتابعاً على أحرفها ، في ضوء المراعاة النصية لارتباط هذه التواليات الحركية مع السياق القرآني الذي وردت فيه .

---

١ - سورة الملك : آية رقم (٢٠) .
٢ - سورة البقرة : آية رقم (٦٧) .
٣ - ينظر : الزمخشري ، الكشاف ، ١ / ١٤٨ . - البيضاوي ، أنوار التنزيل ، ١ / ٨٧ .

من الملاحظ في هذه السياقات التي توالت فيها الحركات على الحروف أن كلمة (رسل) تتابعت فيها حركات الضم في سياق (١٠عشر آيات) من جملة مواضع الجدول بنسبة (٤٥٪) . وبإنعام النظر في السياقات القرآنية التي وردت فيها هذه الكلمة نجد أن الضم فيها ضرورة حتمية يوجبها السياق النصي ، وتفرضها جمالية الأداء ، لأن الدلالة فيها معقودة عل معنى الشدة والتعنيف لأقوام هؤلاء الرسل في معانداتهم إياهم ، وعدم قبولهم الدعوة بالهداية والإيمان ، فناسبت الحركة سياقها الدلالي ، فجاء الصوت بدلالته ، وجاءت الدلالة بما يدعمها من تلوينات صوتية .

٥- تنكير الكلمة القرآنية وتعريفها :

ينهج القرآن الكريم منهجاً فريداً في انتقاء الكلمة القرآنية مراعياً أبعادها الصوتية والصرفية ، ثم في توظيفها بعد ذلك في السياق التركيبي ، ولذا فالكلمة القرآنية في هذا الإطار تتمتع بكل عناية واهتمام منذ لحظة الانتقاء إلى لحظة التوظيف النصي . ومن ضمن أسس الانتقاء : التوظيف السياقي للكلمة القرآنية في هيئات النكرة والمعرفة ، وما ذاك إلا قصداً لدلالات بعينها .

وتوظيف الكلمة نكرة أو معرفة يخضع لمحددات السياق النصي ، وفنيات التوظيف . يقول ابن الزملكاني : " قد يظن ظانٍ أن المعرفة أجلى ، فهي من النكرة أولى ، ويخفى عليه أن الإبهام في مواطن خليق ، وأن سلوك الإيضاح ليس بسلوك للطريق . وعلة ذلك أن النكرة ليس لمفردها مقدار مخصوص ، بخلاف المعرفة ، فإنها لواحد بعينه ، يثبت الذهن عنده ، ويسكن إليه "[1] . فهو يقرر هنا أن النكرة أصل والتعريف فرع

١- ابن الزملكاني ، البرهان الكاشف عن سر الإعجاز ، ١٣٦ .

عليه ، إذ قد يراد من توظيف النكرة الدلالة على عموم لا تستطيع المعرفة أن تدل عليها . لكن ذلك لا يلغي أهمية التوظيف للمعرفة في سياقها النصي الخليق بها [1] .

ولنحاول الوقوف على بعض سياقات التعريف والتنكير في كلمات القرآن الكريم ، رغبة في إدراك بعض جماليات التوظيف لهذه الفنية في السياق القرآني .

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [2] ، فقد وظف النص القرآني كلمة (نفحة) منكرة ، وهي لم ترد في القرآن الكريم كله إلا في هذا الموضع . والمعنى يدور في الآية على سياق (التقليل) ، وهذا كما يقول القزويني : " مستفاد من البناء للمرة ، ومن الكلمة لأنها إما من قولهم : (نَفَحَتْ الريحُ) إذا هبَّتْ ، أي هبَّةٌ . أو من قولهم : (نَفَحَ الطيِّبُ) إذا فاح ، أي فَوْحَةٌ . كما يقال : شَمَّةٌ . واستعماله بهذا المعنى في الشر استعارة ، إذ أصله أن يستعمل في الخير ، يقال له : نفحة طيبة ؛ أي : هبّةٌ من الخير " [3] .

وفي تنكير التقليل في (نفحة) ملحظ أسلوبي لطيف ، فإذا كانت النفحة الواحدة من العذاب تذكرهم بالويل المنتظر ، فما بالهم بما وراءها من لفحات العذاب . والتنكير هنا في إفادته التقليل ، يقوم أيضاً على إفادة التوبيخ والتنبيه على أن مسّ قدر يسير من العذاب لأمثال هؤلاء حقه أن يكون في حكم المقطوع به .

وربما استدعت البنية الصوتية لكلمة (نفحة) كلمة أخرى تدنو منها في تلك البنية ، ألا وهي كلمة (لفحة) التي تخالفها في المدلول الإيحائي . وهذا الاستدعاء

١- ينظر : عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، ١٣٢ . – السكاكي ، مفتاح العلوم ، ٨٥ . – العلوي ، الطراز ، ٢٠٨ .

٢- سورة الأنبياء : آية رقم (٤٦) .

٣ - القزويني ، الإيضاح ، ٧٨.

الصوتي نوع من " العلاقات الإيحائية التي تعني أن العلاقة (الرمز) يمكنها أن توحي بمدلول علامات أخرى مشابهة صوتياً لها من الناحية النحوية ، أو من ناحية المعنى ، اعتماداً على هذا التناسب أو التشابه الصوتي "[1] .

ونستطيع أن نتخيل المعنى لو وردت كلمة (نفحة) معرفة ، لانعقد المعنى حينئذ - في غير القرآن - على إفادة معنى الحصر لهذا العذاب ، إذ هي (النفحة) التي تعقبها نفحات ، سرعان - حاشا لله - ما تنتهي وتزول . وهذا بالطبع يتناقض مع سياق التعذيب الدائم والمستمر لهؤلاء المعاندين .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾[2] . فقد وردت هنا كلمتان معرفتان هما (العزيز) و (الكريم) . وبمقارنة سياق ورود هاتين الكلمتين في القرآن الكريم نجد أنهما قد وردتا منكرتين في آيات أخرى مثل قوله : ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾[3] ، وقوله تعالى : ﴿ مَا هَـٰذَا بَشَراً إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[4] ، قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾[5] ، وقوله تعالى : ﴿ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[6] ، وقوله تعالى : ﴿ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً ﴾[7] .

١- د. محمد العبد ، المفارقة القرآنية ، ٨٠ . وينظر : د. منذر عياشي ، مقالات في الأسلوبية الصوتية ، ٣٥٦ .
٢ - سورة الدخان : آية رقم (٤٩) .
٣ - سورة التوبة : آية رقم (١٢٨) .
٤ - سورة يوسف : آية رقم (٣١) .
٥ - سورة الحاقة : آية رقم (٤٠) .
٦ - سورة الأنفال : آية رقم (٧٤) .
٧ - سورة الفتح : آية رقم (٣) .

ولذا نجد أنفسنا إزاء العديد من الأسئلة أهمها على الإطلاق : ما سر التعريف في موضع ، والتنكير للفظة نفسها في موضع آخر ؟ وللإجابة عن هذا السؤال لا بد لنا أولاً من التأمل الدقيق في هاتين الكلمتين في حال تعريفهما بـ(ال) لندرك سر هذا التعريف . يقول الإمام عبد القاهر : " اعلم أنك تجد الألف واللام في الخبر على معنى الجنس ، ثم ترى له في ذلك وجوهاً : أحدها أن تقصر جنس المعنى على المخبر عنه لقصدك المبالغة ، وذلك قولك : (زيد هو الجواد) ، و (عمرو هو الشجاع) ، تريد أنه الكامل ، إلا أنك تخرج الكلام في صورة توهم أن الجود والشجاعة لم توجد إلا منه ، وذلك لأنك لم تعتد ما كان من غيره لقصوره عن أن يبلغ الكمال "[1] .

فالتعريف بأل هنا على دلالة قصر جنس المعنى على المخبَر عنه لقصد المبالغة ، فكان العزة والكرامة لم توجدا إلا في هذا الشخص . يقول د. محمد العبد : " لننظر إلى التعريف بأل في (العزيز) و(الكريم) حتى نرى أثره في بنية الدلالة المفارقية ، كان كلا من هذين الوصفين ، وبالتالي عكسهما تماماً - كما نريد المفارقة حقيقة أن تقول - قد تناهى في الظهور على الموصوف ، حتى امتنع خفاؤه "[2] .

فالآية بهذا التعريف تقصد التهكم والسخرية من هذا العزيز الكريم : أبي جهل ، ذلك لأن معاني العزة والكرامة على نحوهما الدقيق مما لا يعرف له سبيل عند هذا الرجل ، فليس له نصيب من العزة والكرامة إطلاقاً . ولذا فإن التعريف هنا أبلغ ما يكون ، وأدق ما يوصف به توظيف ، بعيداً عن سياقات التنكير التي كانت - عندئذ - ستغرقنا في دائرة العمومية والإبهام ، وهو ما لا يُقصَد هنا .

---

١ - عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ١٧٩ .
٢ - د. محمد العبد ، المفارقة القرآنية ، ٦٩ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [1]، وذلك في الكلام على يحيى عليه السلام ، وقوله تعالى : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾[2] ، في سياق الحديث عن سيدنا عيسى عليه السلام . ولنا أن نتعجب من إيراد لفظ السلام في الآيتين ما بين التعريف والتنكير في جانب سيدنا يحيى والتعريف في جانب سيدنا عيسى ، فما السر في ذلك ؟ . والإجابة تتمثل في أن لفظ (السلام) قد عُدِل به من التنكير إلى التعريف لثلاث فوائد :

أولها : أن (السلام) يشعر بذكر الله تعالى ؛ لأنه اسم من أسمائه جل ذكره .

والفائدة الثانية : أنه يشعر بطلب السلامة والأمان منه جل وعلا ؛ لأنك متى ذكرت اسمًا من أسماء الله تعالى تعرضت لطلب المعنى الذي اشتق منه ذلك الاسم ؛ نحو قولك : الرحمن ، الرحيم .

والفائدة الثالثة : أنه يشعر بعموم التحية ، وأنها غير مقصورة على المتكلم وحده . فانت ترى أن قولك : سلام عليك ، ليس بمنزلة قولك : السلام عليك ، في العموم .

وقد اجتمعت هذه الفوائد في تسليم عيسى عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ ، ولم تكن واحد من هذه الفوائد الثلاث في تسليم الله تعالى على يحيى عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ ؛ لاستغناء هذه المواطن الثلاثة عنها ؛ وهي يوم الولادة ، ويوم الموت ، ويوم البعث ، لأن المتكلم هنا هو الله جل جلاله ، فلم يقصد تبركًا بذكر الاسم ، الذي هو (السلام) ، ولا طلبًا لمعنى السلامة ، ولا عمومًا في التحية منه ، لأن سلامًا منه سبحانه كاف عن كل سلام ، ومغن عن كل تحية كما يقول السهيلي [3] .

---

١ - سورة مريم : آية رقم (١٥) .
٢ - سورة مريم : آية رقم (٣٣) .
٣ - ينظر : السهيلي ، نتائج الفكر ، ٤١٦ – ٤١٨ .

ولهذا لم يكن لذكر الألف واللام ههنا معنى ، كما كان لهما هنالك لأن عيسى عليه السلام يحتاج كلامه إلى هذه الفوائد ، وأوكدها كلها : العموم ، فلذلك كان لا بد في تحيته من تعريف السلام بال الجنسية ، التي تفيد الاستغراق والعموم . وعلى هذا يكون معنى تسليم عيسى على نفسه : السلام كله عليَّ خاصَّة . أي : جنس السلام . وإذا كان كذلك ، فلم يبق لأعدائه غير اللعنة . فكأنه بهذا التعريف يعرِّض باللعنة على متهمي مريم عليها السلام وأعدائها من اليهود[1] .

ومثل هذا التلوين الصوتي في تنويع التوظيف النصي للنكرة والمعرفة في إطار الكلمة ذاتها إنما مداره شمولية النظرة إلى الصورة القرآنية كاملة ، لا إلى مفردة من أجزائها ، أو أحد أركانها . والتلوين بهذا التناول الصوتي والصرفي والتركيبي للكلمة يومئ إلى الدلالات الجمالية ، ويفجر أسرارها النصية ، وهذا هو المقصد هنا .

٦- الكلمة القرآنية بين الإفراد والجمع :

من وسائل القرآن الكريم في اختياره ما يحقق التناسب الصوتي ، والانسجام التأليفي للآيات القرآنية ؛ اعتماده توظيف بعض الكلمات في صورتها المفردة في سياقات ، ثم توظيفها مرة أخرى في صورتها الجمعية في سياقات أخرى ، وما ذاك إلا مراعاة للتلوين الصوتي لهذه الكلمات ، وقصداً لما يراد من وراء هذا التلوين من توابع دلالية وجمالية موظفة في هذه السياقات .

فالنص القرآني لم يستعمل بعض الألفاظ إلا مجموعة دوماً ، فإذا احتاج إلى توظيف مفرد اللفظة المجموعة عدل عن هذا المفرد إلى استعمال المرادف . ومن ذلك ما

---

١ - ينظر : د. فضل حسن عباس ، تأملات في القصص القرآني ، ٢٥٤ – ٢٦٠ .

نلمسه في التوظيف القرآني من عدم توظيف لفظ (اللبّ) على الصورة المفردة ، فهو لم يرد في القرآن الكريم إلا مجموعاً دائماً ، وقد ورد في (١٦ست عشرة آية) [١] منها : قوله تعالى : ﴿ إنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ ﴾ [٢] ، وقوله : ﴿ إنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ ﴾ [٣] ، وقوله : ﴿ فَاتَّقُواْ اللّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [٤] ، وقوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ [٥] . وعندما يحتم السياق القرآني استعمال المفرد من هذا اللفظ يعدل إلى استعمال لفظ (القلب) ، والسبب في ذلك طبيعة التركيب الصوتي لكلمة (اللب) في هيئة المفرد . يقول الرافعي : " ذلك لأن لفظ الباء شديد مجتمع ، ولا يفضي إلى هذه الشدة إلا من اللام الشديدة المسترخية ، فلما لم يكن ثم فصل بين الحرفين يتهيا معه هذا الانتقال على نسبة بين الرخاوة والشدة ، تحسن اللفظ مهما كانت حركة الإعراب فيها نصباً أو رفعاً أو جراً ، فاسقطها من نظمه بتة ، على سعة ما بين أوله وآخره ، ولو حسنت على وجه من تلك الوجوه لجاء بها حسنة رائعة ، وهذا على أن فيه لفظة (الجبّ) وهي في وزنها ونطقها لولا حسن الائتلاف بين الجيم والباء من هذه الشّدة في الجيم المضمومة"[٦] .

وهذا التوجيه الجمالي من جانب الرافعي الذي اعتمد فيه على المعطيات الذوقية الخالصة لأصوات كلمة (اللبّ) ، وما أدى إليه ذلك من استحالة توظيف المفرد منها

---

١ - محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ٧٤٤ .
٢ - سورة الزمر : آية رقم (٢١) .
٣ - سورة آل عمران : آية رقم (١٩٠) .
٤ - سورة المائدة : آية رقم (١٠٠) .
٥ - سورة البقرة : آية رقم (١٩٧) .
٦ - الرافعي ، إعجاز القرآن ، ١٨٢ .

والعدول إلى الجمع في السياق التوظيفي للقرآن الكريم ، وذلك لاجتماع اللام المشددة مع الباء الشفوية الشديدة ، مما أدى إلى نوع من الثقل النطقي والسمعي أدى إلى هذا العدول ، وتوظيف لفظة (القلب) بدلاً منها .

وعلى هذا النهج نلمس في التوظيف القرآني كلمات وردت على صورة الجمع دون توظيف مفردها ، منها كلمة (أكواب) في قوله تعالى : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴾ [1] ، فلفظة المفرد منها لم توظف هنا " لأنه لا يتيها فيها ما يجعلها في النطق من الظهور والرقة والانكشاف وحسن التناسب ما في لفظ (أكواب) الذي هو جمع " [2] .

كذلك وظف القرآن الكريم كلمة (أرجاء) مجموعة دون توظيف مفردها في موضعها الوحيد في قوله تعالى : ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾[3] ، ذلك لأن مفرد كلمة (أرجاء) الذي هو (رَجَى) وهو مقصور ، ليس فيه من العذوبة والرقة ما في جمعه [4] .

وعلى عكس هذا التوظيف لكلمات في حالة الجمع دون مفردها ، نجد القرآن الكريم يوظف كلمات في هيئة المفرد دون العروج على جمعها ، وذلك مثلما نلحظ في توظيف كلمة (الأرض) التي لم ترد في القرآن الكريم إلا مفردة دائماً في كل المواضع التي ذكرت فيها والبالغ مجموعها (٤٦١ أربعمائة وإحدى وستون موضعاً)[5] بكل صورها ؛ من التعريف والتنكير وشتى الحالات الإعرابية .

---

١ - سورة الإنسان : آية رقم (١٥) .
٢ - د. أحمد أبو زيد ، التناسب البياني ، ٣٠٥ .
٣ - سورة الحاقة : آية رقم (١٧) .
٤ - ينظر : ابن الأثير ، المثل السائر ، ١ / ٣٨٤ . - الرافعي ، إعجاز القرآن ، ١٨٣ .
٥ - محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ٣٣ - ٤٠ .

وحتى إذا ذكرت كلمة (السماء) مجموعة جيء بكلمة (الأرض) معها مفردة في كل موضع ، ولما احتاج القرآن إلى توظيف الجمع لكلمة (الأرض) عدل عنها إلى تعبير يفيد الجمع لكنه ليس بجمع لها ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [1] ، فلم يقل : سبع أرضين ، واكتفي بجمع لفظ (مثلهن) .

وكلمة (الأرض) لو جُمِعَت جمع تكسير لقيل (آراض) كأجمال ، أو(آروض) كفلوس . إلا أن هذا الأمر مستثقل لأن جمع كلمة (الأرض) على هذا النحو " ليس فيه من الفصاحة والحسن والعذوبة ما في لفظ السماوات ، وأنت تجد السمع ينبو عنه بمقدار ما يستحسن لفظ السماوات . ولفظ السماوات يلج في السمع بغير استئذان لنصاعته وعذوبته . ولفظ (الأراضي) لا يأذن له السمع إلاّ على كره . ولهذا تفادوا من جمعه إذا أرادوه بثلاثة ألفاظ تدل على التعدد كقوله تعالى : ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ ، كل هذا تفادياً من أن يقال أراض ، وآرض " [2] .

أما كلمة السماوات فقد وردت مجموعة ومفردة في الكثير من الآيات القرآنية ، وما يحدد ذلك المقصد من التنويع الصوتي في التعبير بالكلمة حسب (العدد) إنما هو السياق الذي ترد فيه . فمثلاً قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ [3] ، وقوله : ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [4] . فقد عبر بلفظ (السماء) مفرداً في سياق الآية الأولى ، ومجموعاً في سياق الآية الثانية ، فما سر ذلك العدول لتوظيف المفردة في الآيتين ؟

---

١ - سورة الطلاق : آية رقم (١٢) .
٢ - ابن قيم الجوزية ، بدائع الفوائد ، ١ / ١٠٢ .
٣ - سورة يونس : آية رقم (٦١) .
٤ - سورة سبأ : آية رقم (٣) .

إن السر الجمالي في هذا العدول يكمن في أن إرادة (الإطلاق) في سورة يونس هي التي سوغت إفراد الكلمة دلالة على الوصف الشامل ، والفوق المطلق دون إرادة تحديد سماء بعينها مخصوصة . يقول السهيلي : " قد يرد لفظ السماء عبارة عن كل ما علا من سماوات فما فوقها إلى العرش ، وغير ذلك من المعاني العلوية المختصة بالربوبية ، فيكون اللفظ بصيغة الإفراد كالوصف المُعَبَّر به عن الموصوف "[1] .

أما آية سورة سبأ فإن التناسب بين الدلالات هو الذي اقتضى جمع (السماوات) ، وذلك لأن قبلها ذَكَرَ سبحانه وتعالى سعة الملك ، والمحل كله ملكه ، والأرض جميعها قبضته . فلذا ناب هذا المعنى جمع كلمة (السماوات) لإرادة الشمول والإحاطة بهذا الملك ، ولو أفرد لظُنَّ أن الحكم منه سبحانه وتعالى على هذه المفردة فقط - حاشاه تعالى- . فإرادة المناسبة هنا هي المسوغ لهذا الجمع .

كما نلحظ أن القرآن الكريم كلما عبر بلفظة (السماء) مفردة فإن ذلك يكون في سياقات تتطلب هذا الإفراد ، مثلما نلمسه فيما يأتي :

* إثبات صفة العلو له سبحانه في :﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ﴾[2] .
* الدلالة على عموم الرزق في : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾[3] .
* إرادة عموم الجنس في : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾[4] .
* مناسبة المقام في : ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[5] .

١ - السهيلي ، نتائج الفكر ، ١٦١ .
٢ - سورة الملك : آية رقم (١٦) .
٣ - سورة الذاريات : آية رقم (٢٢) .
٤ - سورة الذاريات : آية رقم (٢٣) .
٥ - سورة الروم : آية رقم (٤٨) .

كما أن هذا الإدراك الجزئي غرضه الأهم إبراز أثر المستوى الأول : الصوت في الناتج النهائي : الدلالة ، وما بينهما من علاقات ووشائج أطلت بذاتها في السياقات الجزئية والكلية للنص القرآني ، وهذا أيضاً من متطلبات التفصيل . وإن كنا قد أبَنّا عن الهدف ، وآليات تحقيقه ، فلنلج في ثنايا البحث لمحاولة استكناه ما هدفناه .

١- تحاور المترادفات دلالياً :

لا شك في أن الامتياز الانتقائي الذي اتسم به القرآن الكريم في اختيار ألفاظه ومفرداته جعل أهل اللغة والبلاغة شغوفين بمحاولة الوقوف على فنيات هذه الاختيارات ، ومنبهرين بهذا الانتقاء الرائع ، ومقرين بالعجز التام أمام هذا اللون من الإعجاز . يقول الجاحظ : " قد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها ، وغيرها أحق بذلك منها . ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يَذْكُر في القرآن الجوعَ إلا في موضع العقاب ، أو في موضع الفقر المدقع ، والعجز الظاهر . والناس لا يذكرون السَّغَب ويذكرون (الجوع) في موضع القدرة والسلامة . وكذلك ذكر (المطر) لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام . والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث . ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنّه إذا ذكرَ الأبصار لم يقل الأسماع ، وإذا ذكر سبع سماوات لم يقل (الأرضين) ، ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين ، ولا السمع أسماعاً . والجاري على أفواه العامة غير ذلك ، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر ، وأولى بالاستعمال "[1] .

فالجاحظ يدرك بذائقته البلاغية مدى الارتباط الوثيق بين الاختيار للكلمات القرآنية ، وبين الدلالة المتوخاة من وراء هذا الاختيار ، وما توجيه الدلالة هنا إلا مراعاة نصية سياقية للاختيارات التي تمت .

---

١ - الجاحظ ، البيان والتبيين ، ١ / ٢٠ .

فقد وجدنا الجاحظ يربط توظيف لفظ (الجوع) في القرآن الكريم بكونه مما يعبر به في مواضع التعذيب والعقاب مثلما نلمس ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [1] ، وقوله : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [2] . وهذا التعاضد السياقي إنما هو لتامل دقيق من الجاحظ في نص الآيات القرآنية التي تضمنت لفظ (الجوع) .

والجاحظ يربط بالمنهج ذاته بين مدلولات لفظ (المطر) وتوظيفه في سياقات العقاب أيضاً . وهذا ما نلمسه في قوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [3] ، وقوله : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [4] .

وتلك اللمحات التي وقف عليها الجاحظ خير دليل على ذوق الرجل في نظراته البلاغية في القرآن الكريم ، وكيف أنه يربط بين الألفاظ بصوتياتها وتركُّب حروفها بما تؤديه من دلالات في سياقاتها الخاصة .

كما نلمس عند الخطابي(ت ٣٨٨هـ) إشارات دالة على أن وضع كل مفردة في مكانها الأمثل ، وسياقها اللائق بها هو عمود البلاغة . يقول الخطابي : " اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل على فصول الكلام موضعه الأخص والأشكل به ؛ الذي إذا بُدِّلَ مكانه غيره ، جاء منه إما تبدل في المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذي يكون

---

١ - سورة البقرة : آية رقم (١٥٥) .
٢ - سورة النحل : آية رقم (١١٢) .
٣ - سورة الأعراف : آية رقم (٨٤) .
٤ - سورة الشعراء : آية رقم (١٧٣) .

معه سقوط البلاغة ، ذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنها مترادفة متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب ، والأمر فيها وفي ترتيبها عند العلماء بخلاف ذلك ، لأن لكل لفظة خاصية تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها ، وإن كانتا تشتركان في بعضها "[1] .

وهذا مدخل لطيف من الخطابي للحديث عن توظيف النص القرآني للمترادفات ، وكيف أن اللفظة تحسن في مكان ، ويحسن مرادفها في آخر ، دون أن يكون هناك أي تعارض أو لبس . وما ذاك إلا لتعلق السياق باللفظة في هذا المكان ، وتعلق سياق آخر بمرادفها . يقول الباقلاني : " أنت تحسب أن وضع لفظ (الصبح) موضع (الفجر) يحسن في كل كلام ، إلا أن يكون شعراً أو سجعاً . وليس كذلك ، فإن إحدى اللفظتين قد تنفر في موضع ، وتَزِلّ عن مكان لا تَزِلّ عنه اللفظة الأخرى ، بل تتمكن فيه ، وتضرب بجرانها . وتجد الأخرى لو وضعت موضعها في محل نفار ، ومرمى شراد ، ونائية عن استقرار "[2] .

وترادف المفردات في سياقاتها التوظيفية في القرآن الكريم من الملامح الأسلوبية الفريدة ، إذ يناط بكل مفردة في سياقها أداء الأغراض والدلالات التي قصدت من وراء توظيفها في هذا السياق ، والتي لا تقوم بها غيرها لو وضعت موضعها . وهذا التعاور في السياق القرآني إنما هو دليل إعجاز لغوي وبلاغي ، لكن لا بد من الوقوف المتاني على بعض ألوان هذا الترادف لاستكناه جمالياته الدلالية في السياق القرآني . يقول ابن الأثير : " من عجيب ذلك أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد ، وكلاهما حسن في

١ - الخطابي ، بيان إعجاز القرآن ، ٢٦ .
٢ - الباقلاني ، إعجاز القرآن ، ١٨٥ .

الاستعمال ، وهما على وزن واحد ، وعدة واحدة ، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه ، بل يفرق بينهما في مواضع السبك "[1] . فالسبك هو الذي يحدد مناط التوظيف لكل مفردة ، وهذا السبك لا يدرك إلا بالذوق السليم ، والفطرة البلاغية الرائقة . ولنحاول الآن الوقوف على بعض سياقات هذا التعاور الترادفي في معانقته للنص القرآني .

* فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾[2] .

* وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ. وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[3] .

ومناط التحليل هنا هو كلمتا (هامدة) في آية سورة الحج ، و (خاشعة) في آية سورة فصلت. ويتضح من المعنى تقارب الكلمتين دلالياً وترادفهما ، فما سر هذا التبادل

---

١ - ابن الأثير ، المثل السائر ، ١ / ١٥٠ .
٢ - سورة الحج : آية رقم (٥) .
٣ - سورة فصلت : الآيات من (٣٧ - ٣٩) .

التوظيفي في الآيتين ؟ ولم عبّر بهذه في موضعها ولم يُعبِّر بالأخرى في هذا الموضع أو العكس ؟

يلاحظ أولاً أن (الهمود) و(الخشوع) يتحدان في المعنى العام لهما ويستدل بهما في الآيتين على قدرة الخالق ﷻ على البعث والإحياء . فما بعد هذا السكون والهمود إلا حركة وحياة دالة على طلاقة القدرة ، وعظيم الصنعة .

أما من الناحية التأصيلية للفظين فنجد بعض الإيضاحات للفروق بين اللفظين عند الراغب إذ يقول : " الخشوع : الضراعة ، وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح . والضراعة أكثر ما يستعمل فيما يوجد في القلب "(1) .

أما لفظة (هامدة) فيقول في تفسيرها :" يقال : همدت النار طفأت ، ومنه أرض هامدة : لا نبات فيها . ونبات هامد : يابس . قال تعالى :﴿ وَتَرى الْأَرْضَ هَامِدَةً ﴾ . والإهماد الإقامة بالمكان كأنه صار ذا همد . وقيل الإهماد السرعة "(2) .

ويلاحظ أن الجو العام في آية سورة الحج يدور في إطار الحديث عن البعث والإحياء والإخراج ، ومما يتسق مع هذا الجو في ضوء ما قرره الراغب من معان لمادة (الهمود) . وتصوير الأرض بالهامدة أي القاحلة التي لا نبات فيها ، هو تصوير متسق مع سياقات البعث في الآية ، لأن الأرض بإنزال المطر تربو وتهتز من بعد موات ، فتعود خضراء رابية كأنما بعثت من بعد موت ، وهي كذلك . أما السياق في آية سورة فصلت فالحديث الأهم فيه يدور على معنى العبادة واستلزام الخشوع لله ﷻ ، واستحقاق المولى الكريم للعبادة . ولذا استعير الوصف للأرض هنا بالخشوع – الذي هو خاص

---

١ – الراغب ، المفردات ، ١ / ١٤٢ .
٢ – السابق ، ٢ / ٢٢٣ .

بالجوارح - وهذه الاستعارة موظفة بدقة ، لأنه مثلما يكون الخشوع للبشر سبيلاً للارتقاء الروحي ، يكون خشوع الأرض انتظاراً للحظة معانقة المطر كي تحيا وتربو . فاستعير الوصف باللفظ هنا اتساقاً مع السياق التصويري للآية [1] .

* ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [2] . وقوله : ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [3] .

ومناط التحليل هنا كلمتا (انفجرت) في آية سورة البقرة ، و(انبجست) في آية سورة الأعراف ، وكلتاهما في وصف حال الحجر حين أمر موسى عليه السلام بضربه ليسقي قومه . فما دلالة هذا التعاور بين المفردتين المترادفتين ؟ يقول الراغب : " يقال بَجَس الماء وانبجس : انفجر . لكن الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شيء ضيق ، والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شيء واسع ، ولذلك قال ﷻ : ﴿فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ ، وقال في موضع آخر : ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ فاستعمل حيث ضاق المخرج اللفظان " [4].

---

١ - ينظر : سيد قطب ، التصوير الفني ، ٩٩ .

٢ - سورة البقرة : آية رقم (٦٠) .

٣ - سورة الأعراف : آية رقم (١٦٠) .

٤ - الراغب ، المفردات ، ١ / ٣٦ .

والراغب يلمح بحسّه كيف أن انبجاس الماء مرحلة سابقة على انفجاره ، إذ إن الانبجاس لما يخرج من شيء ضيق ، والانفجار لما يخرج من شيء واسع ، فالانبجاس يتوالى ويتوالى حتى يتسع مخرج الماء فينفجر ، فكأن الانبجاس هو باكورة الانفجار .
يقول د. صلاح الدين الخالدي : " من اللطيف القول أن المرحلتين المتتابعتين مرتبتان في القرآن حسب ترتيب نزول القرآن . فالمرحلة الأولى التي انبجست فيها اثنتا عشرة عيناً ، أخبرت عنها آية سورة الأعراف المكية . والمرحلة الثانية التي انفجرت فيها العيون ، أخبرت عنها آية سورة البقرة المدنية "[1] . وهذه نكتة تراعي مناسبات النزول مع السياق النصيّ ، وتربط بينهما .

أما ابن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨هـ) فيرى أن " الواقع في الأعراف طلب بني إسرائيل من موسى عليه السلام السقيا ، والوارد في سورة البقرة طلب موسى عليه السلام من ربه . فطلبهم ابتداء فاشبه الابتداء ، وطلب موسى غاية لطلبهم لأنه واقع بعده ومرتب عليه ، فاشبه الابتداء الابتداء ، والغاية الغاية . فقيل جواباً لطلبهم : فانبجست ، وقيل إجابة لطلبه : فانفجرت ، وتناسب على ذلك "[2] .

وهذا أيضاً تأويل دقيق من جانب ابن الزبير إذ جعل ما في جانب العاصي حين يَطّلب الماء أن يُجاب بما يقيم أوده ، ويحفظ حياته . وذلك بخلاف طلب النبي عليه السلام فإنه يُجاب بما يفيض كرامة له .

وللكرماني (ت بعد ٥٠٠هـ) توجيه جميل في هذه الفروق بين التعبير بالمترادفين ، إذ يربط بين سياق آخر في الآية بهذه أو تلك ، فيجعل من ذكره سبحانه لكلمة (واشربوا)

١- د. صلاح الخالدي ، إعجاز القرآن البياني ، ٢٢٥ .
٢- ابن الزبير ، ملاك التأويل ، ١/ ٦٨ .

في آية سورة البقرة دليلاً على المبالغة لمناسبة اللفظ فقال (فانفجرت) ، أما في آية سورة الأعراف فلم يقل (اشربوا) واكتفى بلفظ (كلوا) ، ولذا لم يبالغ في اللفظ فعبر بكلمة (فانبجست) . يقول: " الانفجار : انصباب الماء بكثرة ، والانبجاس ظهور الماء . وكان في هذه السورة (واشربوا) فذكر بلفظ بليغ ، وفي الأعراف (كلوا) وليس فيه (واشربوا) فلم يبالغ فيه "[1] .

وهكذا كان لكل وجهة تاويلية منهجها في تبيان سلوك القرآن لهذا المسلك الجمالي في إيراد المترادفين في سياقه النصي الذي يلائمه ويناسبه تمام المناسبة .

* ومن ذلك قوله ﷻ : ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾[2] ، وقوله : ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾[3] . فلِمَ عبَّر عن القيامة في هاتين الآيتين بلفظين مترادفين في دلالتهما ؟ يقول الراغب : " الصاخة : شدة صوت ذي النطق . يقال : صَخَّ يَصُخُّ صَخاً فهو صاخ . قال تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ ، وهي عبارة عن القيامة "[4] . ويقول : " الطمّ : البحر المطموم ، يقال له : الطمّ والرمّ ، وطمّ على كذا ، سميت القيامة طامة لذلك "[5] .

وبملاحظة الآيتين يتضح أن لفظ (الطامة) لفظ شديد يستعمل في الأمور الحادة التي تنسى عندها الشدائد ، لأنها تطمّ (تستُر) ما عداها . والقيامة هي الطامة الكبرى لأنها تُنسي ما تقدّم عنها من شدائد الدنيا ، وهذا المعنى يناسب تماماً ما سبق في سياق السورة من إيراد سياقات التخويف والإنذار من ذكر النازعات الناشطات

١- الكرماني ، البرهان في متشابه القرآن ، ١١٢ .
٢ - سورة النازعات : آية رقم (٣٤) .
٣ - سورة عبس : آية رقم (٣٣) .
٤ - الراغب ، المفردات ، ٢ /٣ .
٥ - الراغب ، المفردات ، ٢ /٣ .

السابحات السابقات ، ثم إيراد ما يعتري السماء والأرض من زلزلة ورجفة ، ثم سياق ما ادعاه فرعون من ربوبية وألوهية ، فتعاضدت السياقات معاً ، فناسب ذلك كله أن يتم التعبير بكلمة شديدة فارقة ؛ فكانت كلمة (الطامة) . يقول ابن الزبير الغرناطي : " أما وجه التناسب في ورود هذا اللفظ في سورة النازعات ، فهو أنها تضمنت ذكر ما أتى به فرعون من الطامة الكبرى في الكفر حيث قال : ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾[1] ، فهذه في الكبائر كشدة الآخرة في الشدائد ، فكأنه قَرَنَ إلى ذكر الكبيرة الموفية على أمثالها ذكر الطامة الكبرى "[2] .

أما الصاخة فهي صيحة تعمّ الآذان ، وهي صيحة شديدة ، ولشدة صوتها تكون سبباً في الإحياء للناس يوم القيامة . وقد خُصَّتْ آية سورة عبس بهذه اللفظة لأنها لم تبنَ على التخويف الشديد مثلما هو الحال في سورة النازعات ، وإنما بنيت السورة على ذكر قصة ابن أم مكتوم ، وإيراد النعم . فناسب بكل اسم من أسماء القيامة ما يلائم سياق الآيات فيه .

ويرى الكرماني أن النازعات خُصَّتْ بالطامة " لأن الطمّ قبل الصخ ، والفزْع قبل الصوت ، فكانت هي السابقة . وخُصَّتْ سورة عبس بالصاخة لأنها بعدها وهي اللاحقة "[3] .

ويطول بنا المقام إذا ما حاولنا إحصاء هذا التعاور الدلالي بين الكلمات المترادفة في القرآن الكريم ، لكننا نكتفي بهذه الإشارات الدالة على هذا الملمح الأسلوبي .

٢- تغاير الصيغ توظيفاً :

من مظاهر الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم تنوع توظيف الصيغ المشتقة من أصل واحد . فمعلوم أن لكل كلمة عربية مشتقة جذراً لغوياً هو الأصل في صيغها التي

١- سورة النازعات : آية رقم (٢٤) .
٢- ابن الزبير ، ملاك التأويل ، ٢ / ١٣٦ .
٣- الكرماني ، البرهان ، ٢٢١ .

اشتقت منها . وهذا الجذر غالباً ما يكون ثلاثياً مُكوَّناً من ثلاثة أحرف . وهذا الأساس الاشتقاقي موظف في السياق القرآني على هيئة جمالية ، ولذا فلا بد من الوقوف على تنوعات الاشتقاق من الجذر الواحد في هذا السياق ، وإدراك فنيات التلاؤم بين هذه الصيغ .

وعند البحث في ظاهرة مثل هذه لا بد من تقسيمها إلى جزئيات حتى يتسنى لنا الوقوف بالتفصيل على مفرداتها . ويمكننا تقسيم ظاهرة تغاير الصيغ إلى ثلاثة أقسام هي :

١- تغاير الصيغ الفعلية ذات الأصل الاشتقاقي الواحد .

٢- تغاير صيغ المشتقات ذات الأصل الاشتقاقي الواحد .

٣- تغاير صيغ المصادر الراجعة إلى أصل اشتقاقي واحد .

ولنقف الآن على فنيات التوظيف في كل قسم .

أولاً : تغاير الصيغ الفعلية ذات الأصل الاشتقاقي الواحد

ينهج القرآن الكريم في توظيفه للأفعال نهجاً فريداً ؛ إذ يوظف هذه الأفعال بكل تشكيلاتها الصرفية في سياقات متنوعة ، تتلاءم وهذه السياقات . هذا بالرغم من الاتحاد الصيغي لهذه الأفعال في عودتها إلى (مادة لغوية واحدة) ، لكن مراعاة مبدأ التناسب النصي والدلالي هو الحاكم في هذا التنوع الوظيفي . ولذا فإننا هنا معنيون بالوقوف على حكمة اختصاص كل آية بصيغة فعلية موظفة فيها ، لأنه من المعلوم أن لا ترادف كامل بين الصيغ ، ولا بد من وجود فروق دلالية دقيقة بين هذه الصيغ .

ويرى د. عودة الله القيسي أن محاولة الوقوف على الفروق الدلالية الدقيقة بين الصيغ الفعلية المشتقة يتحدد بثلاثة عناصر" الأول : مادة الكلمة والجذر الثلاثي لها

، وهو أساس معناها . والثاني : صيغة الكلمة الاشتقاقية : فعلاً أو اسم فاعل أو صيغة مبالغة . والثالث : موضوع وهدف السياق الذي وردت فيه "[1] . ولنمثل الآن ببعض الأمثلة القرآنية للتدليل على هذه الظاهرة .

* فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾[2]. وقوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3] .

فقد وظف القرآن الكريم في الآيتين فعلين هما (يبْدَأ) على وزن (يفْعَل) وماضيه (فَعَل) ، و(يُبْدِئ) على وزن (يُفْعِل) وماضيه (أَفْعَل) ، وهما من أصل اشتقاقي واحد هو (البدء) ، غير أنهما لا يعودان إلى صيغة اشتقاقية واحدة . فالفعل (يَبْدأ) هو مضارع الثلاثي (بَدَأَ) تقول : بدأَ ، يبْدأ ، بَدءا ، والفعل (يُبْدِئ) رباعي ، تقول : (أبْدأَ ، يُبْدِئُ ، إبْدَاء) .

وقد ورد الفعل (يَبْدأ) بهذا اللفظ في القرآن الكريم في (٦ ستة مواضع)[4] . تدور جميعها على سياق بدء الخلق وإعادته مرة أخرى ، وعن نفي هذه القدرة عن غير الله سبحانه وتعالى ، وقصرها عليه وحده عز وجل ؛ يقول تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهَ

---

١ - د. عودة الله القيسي ، سر الإعجاز البياني في القرآن ، ٢٢٨ .

٢ - سورة يونس : آية رقم (٤) .

٣ - سورة العنكبوت : الآيتان رقم (١٩ ، ٢٠) .

٤ - محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ١٤١ .

الَّذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾[1] ، فالآية تدور على معنى الخلق . يقول الزمخشري : " الغرض ومقتضى الحكمة بابتداء الخلق وإعادته هو جزاء المكلفين على أعمالهم " [2] . فالدلالة في هذه الآيات التي وظف فيها الفعل (يَبْدَأ) على معنى ابتداء الخلق ثم إعادته مرة أخرى ، مما يدل على عظمة الخالق ، وطلاقة قدرته .

أما الفعل (يُبْدِئ) فقد ورد في القرآن الكريم في (٣ ثلاثة مواضع) فقط هي :

١- قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[3] .

٢- قوله تعالى : ﴿ قُلْ جَاء الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾[4] .

٣- قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾[5] .

والحديث يدور في هذه الآيات حول إعادة الخلق مرة أخرى . وهذا ليس ابتداء للخلق بل هو استئناف له . يقول ابن جزي (ت ٧٤١هـ) : " المعنى أو لم ير الكفار أن الله خلق الخلق ، فيستدلون بالخلقة الأولى على الإعادة في الحشر " [6] .

فالمعنى هنا على أن الله (يُبْدِئُ الْخَلْقَ) أي : يستأنف الخلق الأول الموجود . ويُسْتَدَلَّ على ذلك أنه ﷻ قال في سورة العنكبوت : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ

١ - سورة يونس : الآيتان رقم (٣ ، ٤) .
٢ - الزمخشري ، الكشاف ، ٢ / ٣٢٨ .
٣ - سورة العنكبوت : آية رقم (١٩) .
٤ - سورة سبأ : آية رقم (٤٩) .
٥ - سورة البروج : آية رقم (١٣) .
٦ - ابن جزي ، التسهيل لعلوم التنزيل ، ٣ / ٢٤٩ .

ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ، ثم عقب ذلك قال في الآية اللاحقة : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . فدلّ بتوظيف الفعل (بَدَأَ) في الآية اللاحقة على أن الخلق هنا ابتداء ، وفي الآية السابقة بتوظيف الفعل (يُبْدِئ) على الخلق فيها استئناف . والبيان القرآني يفرق بين التوظيف الدلالي للفعلين ، إذ يجعل الفعل (يَبْدأ) موظفاً في السياقات الدالة على ابتداء الخلق من العدم ، في حين يجعل من توظيف الفعل (يُبْدِئ) دلالة على إعادة الخلق بعد إفنائه ، فتعاضدت بذلك الدلالتان دلالة على القدرة الإلهية .

• ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [1] . وقوله : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [2] .

فقد وظف النص القرآني في الآيتين فعلين هما (جرحوا) في آية سورة الأنعام ، وهو ثلاثي صحيح ، و(اجترحوا) في آية سورة الجاثية ، وهو خماسي على وزن (افْتَعَلَ) مزيد بالهمزة والتاء . وكلاهما يعود إلى أصل اشتقاقي واحد هو مادة (جَرَحَ) الدالة على الكسب . فلِمَ تمَّ هذا التغاير التوظيفي للفعلين في الآيتين ؟ يقول الراغب الأصفهاني : " الجَرْح : أثر دام في الجلد ، يقال : جَرَحَهُ جَرْحاً ، فهو جَريح ومجروح . قال تعالى : ﴿ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ [3] . وسمي القَدْح في الشاهد جَرْحاً تشبيهاً بهن .

---

١ - سورة الأنعام : آية رقم (٦٠) .
٢ - سورة الجاثية : آية رقم (٢١) .
٣ - سورة المائدة : آية رقم (٤٥) .

وتسمى الصائدة من الكلاب والفهود والطيور جارحة ، وجمعها جوارح ، إما لأنها تجرح ، وإما لأنها تكسب. قال عزّ وجلّ : ﴿ وما علّمتم مّن الجوارح مكلّبين ﴾[1] . وسميت الأعضاء الكاسبة جوارح تشبيهاً بها لأحد هذين . والاجتراح : اكتساب الإثم ، وأصله من الجراحة "[2] .

ويمكننا في ضوء هذا التحليل الدقيق تلمس سياقات كل فعل في الآية التي وظف فيها . فالحديث في آية سورة الأنعام يدور على الخطاب العام للناس جميعاً ، واستعراض ما أفاض الله به عليهم من نعم مثل النوم بالليل ، والحركة والسعي والكسب بالنهار ، وما يؤديه ذلك من جراح لأنفسهم بكسب الأفعال بكل الجوارح . وهذه الأفعال قد تكون شراً أو خيراً ؛ ولذا نجد التعبير الدقيق بـ(ما) الموصولة التي تدل على العموم أيضاً ؛ مما يشيع جواً من هذا العموم للناس جميعا دون اختصاص طائفة بهذا الخطاب .

أما الحديث في آية سورة الجاثية فيدور على المفارقة ؛ إذ الخطاب لأهل الكفر في سياق التقريع والتوبيخ لهم ، والتهكم من ظنهم المساواة مع أهل الإيمان ؛ إذ كيف يكون هذا وأهل الكفر قد اجترحوا السيئات ؟! فالافتعال هنا طلب ، وبحث ، وحرص على هذا الاجتراح ، وقصدية واضحة تميز هذا السعي للإثم . ولذا كان الراغب دقيقاً إذ خصّ الاجتراح بأنه اكتساب الإثم ، فهذا هو مناط الاجتراح .

كما أن الجرح في آية سورة الأنعام (عام) يضم اكتساب الخير أو الشر دون تحديد ، لأنه كسب الجوارح أثناء السعي ، أما الاجتراح فهو (خاص) باكتساب السيئات من جانب الفاسقين .

---

١ - سورة المائدة : آية رقم (٤) .
٢ - الراغب ، المفردات ، ١ / ٨٦ .

* ومن ذلك قوله ﷻ : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [1] . فقد وظف القرآن الكريم في هذه الآية فعلين هما (كَسَبَ) ثلاثي صحيح ، و(اكْتَسَبَ) خماسي على وزن (افْتَعَلَ) ، وكلاهما يعود إلى مادة (كَسَبَ) . فلمَ هذا التغاير التوظيفي في الفعلين ؟ لنقف أولاً على مدلولات كل منهما . يقول الراغب :"الكَسْبُ : ما يتحراه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع ، وتحصيل حظ ، ككسب المال . وقد يستعمل فيما يظن الإنسان أنه يجلب منفعة ، ثم اجتلب به مضرة . والكَسْب يقال فيما أخذه لنفسه ولغيره ، ولهذا قد يتعدى إلى مفعولين فيقال : كسبت فلاناً كذا . والاكتساب لا يقال إلا فيما استفدته لنفسك . فكل اكتساب كسب ، وليس كل كَسْبٍ اكتساباً"[2] .

إذن فالكسب للخير والشر معاً ، وللنفس والآخر أيضاً ، بخلاف الاكتساب فهو للنفس فقط ، ولا يتعدى إلى الآخر . يقول الأنصاري (ت ٩٠٦هـ) : " قوله : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي : في الخير ، و﴿ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ أي : في الشر . فإن قلت : ما الدليل على أن الأول للخير ، والثاني للشر ؟ قلت : (اللام) في الأول ، و(على) في الثاني ، لأنهما يستعملان لذلك عند تقاربهما " [3] . فالأنصاري يوجه الدلالة هنا وفقاً لسياق حرف الجر الموظف مع كل فعل ، فالكسب للخير لأنه قد تعدى بحرف الجر (اللام) ، في حين أن الاكتساب للشر لأنه قد تعدى بـ(على) .

ويحلل ابن أبي الإصبع (ت ٦٥٤هـ) الآية بقوله : " كان يمكن أن تأتي اللفظتان بغير زيادة فيقال :(لها ما كسبت وعليها ما كسبت) ، وإنما منعَ من ذلك ما يجعل

---

١ - سورة البقرة : آية رقم (٢٨٦) .
٢ - الراغب ، المفردات ، ١ / ١٤١ .
٣- الأنصاري ، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن ، ٤٤ .

للنظم من العيب ، وإغماض المعنى الذي قُصِدَ . أما العيب فاستثقال تكرار لفظة (كسب) بغير زيادة ، في نظم قَرُبَتْ فيه الثانية من الأولى فسمجَ . وأما الإغماض فلأن المراد الإشارة إلى الفطرة التي فطر الله - سبحانه وتعالى- الناس عليها ، فطرة الخير . فالإنسان بتلك الفطرة السابقة في أصل الخلق لا يحسن أن ينسب إليه إلا كسب الحسنات ، وما يعمله من السيئات فيعمله لمخالفته الفطرة ، فكأنه تكلف من ذلك ما ليس في جبلّته ، فوجب زيادة التاء التي للافتعال ، فحصلت بزيادته إماطة العيب عن النظم لمخالفة إحدى اللفظتين أختها ، والإشارة إلى المعنى المراد "[1] .

وهذا التحليل الفني الدقيق لما تم من زيادة في مبنى الفعل محافظة على النظم ، وخلوصاً من التكرار الذي - إن حدث - لصار مسوغاً للتنافر والثقل .

ولفظ الاكتساب يُشْعِر المشقة في جانب السيئة لثقلها على النفس . "والاكتساب فيه اعتمال ، والشر تشتهيه النفس ، وتنجذب إليه ، فكانت أجدَ في تحصيله بخلاف الخير ، ولأن في ذلك إشارة إلى كرامة الله تعالى وتفضله على الخلق حيث أثابهم على فعل الخير من غير جدّ واعتمال ، ولم يؤاخذهم على فعل الشر إلا بالجد والاعتمال "[2] . فهو هنا يجعل النية في إصدار الفعل محكماً لهذا الفعل ، ويربط ذلك بما قرره الله تعالى من ثواب أو عقاب على هذا الفعل ، حسب ما قررته النية من إرادة الخير أو الشر .

إننا نلاحظ هنا أن التنويع الذي حدث في التعبير بصيغ الأفعال كان مقصده فتح باب الدلالة على مصراعيه ، وكسر أفق التوقعات لهذا الأسلوب بتوظيف ما يخالف الظن في السياق إرادة لمقاصد جمالية ودلالية هي المبتغى من مثل هذا التوظيف .

---

١ - ابن أبي الإصبع ، بديع القرآن ، ٢٠٥ .
٢ - الأنصاري ، فتح الرحمن ، ٤٥ .

* ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً ﴾ [1] .

فقد وظف القرآن الكريم في هذه الآية فعلين هما (اسطاعوا) و (استطاعوا) ، وكلاهما يعود إلى أصل اشتقاقي واحد هو مادة (طَوَعَ) . يقول الراغب : " الاستطاعة : استفالة من الطوْع ، وذلك وجود ما يصير به الفعل متاتياً ، وهي عند المحققين اسم للمعاني التي يتمكن بها الإنسان مما يريده من إحداث الفعل . وهي أربعة أشياء : بنية مخصوصة للفاعل ، وتصور للفعل ، ومادة قابلة لتاثيره ، وآلة إن كان الفعل آلياً كالكتابة " [2] .

وقد توارد أهل التفسير والبلاغة على أن حذف تاء الافتعال في (اسطاعوا) إنما هو للتخفيف ، ذلك لأن (التاء) قريبة في المخرج الصوتي من (الطاء) [3] .

أما الخطيب الإسكافي (ت ٤٢٠هـ) فيرى أن " الصيغة الثانية تعدَّت إلى اسم وهو قوله ﷻ : ﴿ نَقْباً ﴾ ، فخفَّف متعلقها ، فاحتملت أن يتم لفظها . أما الأولى فإنها تعلق مكان مفعولها بأن والفعل بعدها ، وهي أربعة أشياء : (أن والفعل والفاعل والمفعول) الذي هو الهاء . فثقل لفظ (استطاعوا) وكان يجوز تخفيفه حيث لا يقارنه ما يزيده ثقلاً ، فلما اجتمع الثقيلان ، واحتملت الأولى التخفيف ، ألزم الأول دون الثاني الذي خفّ متعلقه واحتمل " [4] .

١- سورة الكهف : آية رقم (٩٧) .

٢- الراغب ، المفردات ، ٢ / ٣٤ .

٣ - ينظر : الزمخشري ، الكشاف ، ٢ / ٤٠٢. — أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ٥/ ٢٤٦ . — الرازي ، مفاتيح الغيب ، ١/ ١٧٣. — البيضاوي ، أنوار التنزيل ، ٣ / ٢٣٦ .

٤ - الإسكافي ، درة التنزيل وغرة التاويل ، ٢/ ٨٨٤ .

ولنحاول أن نقف على مثال قرآني يوظف هاتين الصيغتين الفعليتين . فمثلاً قوله تعالى : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ . فقد وظف القرآن الكريم في هذه الآية (نَزَّلَ) و(أَنزَلَ) ، مع اقتران صيغة (نَزَّلَ) بسياق إنزال القرآن الكريم ، واقتران صيغة (أَنْزَلَ) بسياق إنزال التوراة والإنجيل ، فما السر الجمالي في هذا التغاير التوظيفي ؟

ونقر بداية أن المفسرين قد نهجوا في التفريق بين الفعلين على أساس اعتماد الزيادة الصرفية كمحوّل للدلالة ، فصيغة (فَعّلَ) للمبالغة والتكثير ، وهذا مما يناسب القرآن الكريم الذي نزل منجماً على فترة زمنية محددة بـ(٢٣ ثلاث وعشرين سنة) ، بخلاف التوراة والإنجيل اللذين نزلا دفعة واحدة . ولذا تمت المخالفة هنا في السياق التوظيفي للفعلين على إرادة المبالغة في جانب صيغة (فَعَّلَ) ، وإرادة معنى النزول فقط في صيغة (أَفْعَلَ) [1] .

وهذا التفسير إنما اعتمد في جوهره على المعطى الصرفي ومدلولاته دون ربطه بالسياقات النصية . فقد عبّر القرآن الكريم عن إنزال القرآن بصيغة (أَنْزَلَ) التي لا تدل على معنى المبالغة والكثرة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [2] ، وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [3] . فكيف ندلل على أن الإنزال

١- ينظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ٢٨٧/١ .– الزمخشري ، الكشاف ، ١٧٤/١ .– أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ٤/١ .– الرازي ، مفاتيح الغيب ، ٧ / ١٠٥ .– البيضاوي ، أنوار التنزيل ، ٢/٢ .

٢ - سورة العنكبوت : آية رقم (٥١) .

٣ - سورة محمد : آية رقم (٩) .

هنا كان دفعة واحدة وهذا في جانب القرآن ؟ يقول الراغب : " الفرق بين الإنزال والتنزيل في وصف القرآن والملائكة ، أن التنزيل يختص بالموضع الذي يشير إليه إنزاله مفرقاً ، ومرة بعد أخرى . والإنزال عام " [١] .

وعلى هذا فإن معنى التدرّج والتكرار في الإنزال يستفاد من التعبير بصيغة (نَـزَّلَ) ، لأنها تقتضي الإنزال مرة بعد مرة . وعليه فإن معنى المبالغة ، ومعنى التكرار والتدرج في الإنزال هما سمة مميزة لهذه الصيغة . يقول ابن الزبير : " إن لفظ (نَـزَّلَ) يقتضي التكرار لأجل التضعيف " [٢] .

وبهذا فإن صيغة نَزَّلَ يصير لها أربع دلالات هي : (المبالغة ، والتكثير ، والتدرج ، والتكرار) . وذلك بخلاف صيغة (أَنْـزَلَ) التي تقف حدودها الدلالية عند عمومية الإنزال وشموليته . ولعلنا ندرك هنا أن التبادل الموقعي لهاتين الصيغتين إنما تحدده المقامات السياقية التي تتطلب مثل هذا التوظيف أو ذاك . ومن المناسب أيضاً أن ندرك أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [٣] على أن الإنزال الذي تم فيها للقرآن الكريم دفعة واحدة إلى السماء الدنيا في بيت العزة من اللوح المحفوظ ، ولا يناسب التعبير هنا إلا صيغة (أَنْزَلَ) بخلاف صيغة (نَزَّلَ) التي تقتضي المبالغة ، وهذا ما لا يتناسب مع المعنى هنا .

كذلك أليس من المناسب تماماً ما ذكره القرآن الكريم عن إنزال الحديد إلى الأرض بصيغة (أَنْزَلَ) لأن هذا في حقيقة الأمر تم دفعة واحدة في مرحلة الخلق كما في قوله

---

١ - الراغب ، المفردات ، ٢ / ١٩٤ .

٢ - ابن الزبير ، ملاك التاويل ، ١ / ١٤١ .

٣ - سورة القدر : آية رقم (١) .

تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [1] . يقول د. الزنداني : " التعبير هنا بكلمة (أَنْزَلَ) دقيق يتسق مع معطيات العلم الحديث التي تؤكد استحالة تكون معدن الحديد على سطح الكرة الأرضية ، ذلك لأن اندماج ذرتين من هذا العنصر يتطلب فوق (٣ ثلاثة ملايين درجة حرارة مئوية) فقط لاندماج ذرتين منه ، فكيف بهذه الكميات الهائلة التي تشغل باطن الكرة الأرضية ؟! وليس على سطح الكرة الأرضية أي وجود لمثل هذه الطاقة الهائلة والمطلوبة لمثل هذه الاندماجات . لذا لا بد من الإقرار بأن هذا العنصر لم يتكون على سطح الأرض ، بل هو مُنْزَل إليها " [2] .

هكذا تدور الصيغ في فلك سياقات جمالية مستقاة من تلك العلاقات والوشائج القرآنية بما يحيط بها من تقاطعات تتعلق بوجوب إدراك الصورة القرآنية في إطارها الكلي لا الجزئي ، وذلك حتى لا تتشتت الرؤية في إطار التفصيلات الجزئية .

ثانياً : تغاير صيغ المشتقات ذات الأصل الاشتقاقي الواحد

تتنوع صيغ المشتقات ذات الأصل الاشتقاقي الواحد في سياقات القرآن الكريم بما يعضد دلالاتها الجمالية ، ويثري جوانبها التوظيفية ، مع الحفاظ على اللمحات الإعجازية لهذا التوظيف في آيات النص الكريم . كما أن الموجه للدلالة في هذه السياقات إنما هو الآية التي ترد فيها هذه الصيغ ، بالإضافة إلى السياق العام للسورة . وكل ذلك يتم في اتساق تام ومتكامل مع فنيات الانتقاء والاختيار لهذه الصِيغ كما تم على أدق هيئة وأتمّها . ولذا فإننا هنا نحاول الوقوف على بعض هذه التنويعات في الصيغ الاشتقاقية لتبيان ما تحويه من دلالات ومقاصد جمالية .

١ - سورة الحديد : آية رقم (٢٥) .
٢ - د. عبد المجيد الزنداني ، العلم وآيات القرآن ، ١١٣ .

فمن ذلك توظيف القرآن لصيغة اسم الفاعل (شاكر) في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [1] ، وتوظيفه لصيغة المبالغة (شَكور) في قوله تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ﴾ [2] ، والصيغتان من أصل اشتقاقي واحد هو مادة (شَكَرَ) .

وقد ورد اسم الفاعل من هذه الصيغة في (١٣ ثلاثة عشر موضعاً)[3] ، في حين وردت صيغة المبالغة من هذا الفعل في (١٠ عشرة مواضع)[4] . ومن هذه المواضع موضعان :

الأول : في وصف الله تعالى للخليل إبراهيم عليه السلام بصيغة اسم الفاعل في قوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

والثاني : في وصف الله تعالى لنوح عليه السلام بصيغة المبالغة في قوله تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ﴾ . فلمَ تمّت هذه المخالفة التعبيرية بالصيغ الاشتقاقية في سياق وصف اثنين من أنبياء الله لهما من المنزلة العليا ما لهما ، وهما من أولي العزم من الرسل ؟

ونلاحظ بداية أن اسم الفاعل عبارة عن وصف مأخوذ من فعل مضارع مبني للمعلوم للدلالة على من قام بالفعل . ويؤخذ من المضارع أساساً لأنه " وصف يدل على حدث وزمن ، ودلالته على الزمن ترتبط بالحال والمستقبل ، وهذا هو زمن المضارع ،

---

١ - سورة النحل : الآيتان رقم (١٢٠ ، ١٢١) .
٢ - سورة الإسراء : آية رقم (٣) .
٣ - محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ٤٧٤ – ٤٧٥ .
٤ - نفسه .

فكلاهما يدل على الاستمرار . ويكون المضارع المأخوذ منه مبنياً للفاعل لأن المأخوذ منه يكون وصفاً للفاعل أيضاً "[1] .

واسم الفاعل في حقيقة أمره نعت كما يقول الميداني (ت ٥١٨هـ) : "كل فعل ماضيه على (فَعَلَ) بفتح العين فإن النعت منه على فاعل نحو : ناصر ، وضارب "[2] . وهذا بالتأكيد لأن اسم الفاعل مأخوذ من دلالة الفعل على الاسم القائم بهذا الفعل ، ووصفه بأنه نعت فيه كثير من التخصيص ، لأن النعت نوع من الوصف العام ، لأنه يشمل في طياته اسم الفاعل وأخواته من المشتقات .

كما أن الكوفيين يسمون اسم الفاعل بالفعل الدائم ، ويجعلونه قسماً ثالثاً من أقسام الفعل ، حيث رفضوا فعل الأمر وجعلوه مقتطعاً من المضارع . ويرى د. مهدي المخزومي أن " تقسيم الفعل إلى ماض ومضارع ودائم ، تقسيم يؤيده الاستعمال ، وتؤيده النصوص اللغوية التي صدر عنها الكوفيون في مقالتهم بالفعل الدائم "[3] .

وإنما سُميَ اسم الفاعل بالفعل الدائم عند الكوفيين مراعاة لإيحاءاته الدلالية التي يفرضها سياقه التوظيفي ، فهو دال على وصف الفاعل بالحدث . وهذه الدلالة علي المعنى الصرفي بصفة عامة ، والوظيفة الصرفية المنوطة به كذلك على سبيل الحدوث والتجدد في حالة دلالته على الحال أو الاستقبال . أما إذا دلّ على الماضي فهو مثل الأسماء يكون مضافاً كما في قوله تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[4] ، بإضافة

---

١ - د . عبد الصبور شاهين ، المنهج الصوتي للبنية العربية ، ١١٤ .

٢ - الميداني ، نزهة الطرف في علم الصرف ، ٢٣١ .

٣ - د . مهدي المخزومي ، النحو العربي ، ١١٩ .

٤ - سورة آل عمران : آية رقم (١٨٥) .

اسم الفاعل (ذائقة) إلى (الموت) . وتعليل ذلك أن الزمن الماضي قد تم حدوثه ووقع فاصبح أمراً مؤكداً وثابتاً كثبات دلالة الاسمية في الأسماء [1] .

أما صيغة المبالغة على وزن (فَعُول) ، فالأصل فيها أنها اسم فاعل حُوِّلَ إلى صيغة أخرى هي صيغة المبالغة بقصد التأكيد والمبالغة في وصف القيام بالفعل . يقول أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) : " المبالغة بأحد أمرين : إما بالنسبة لتكرير وقوع الوصف . وإما بالنسبة إلى تكثير المتعلق " [2] . فصيغة المبالغة تدل على كثرة المعنى كماً وكيفاً .

ويرى د. أحمد مختار عمر أن وزن (فَعُول) من صيغ المبالغة يتميز " بنوع من المبالغة ناتج عن كثرة هذا الوزن للدلالة على اسم الشيء الذي يُفْعَل به نحو الوَضُوء ، والوَقُود ، والثَّقُوب . فكان استخدامه في المبالغة باعتبار أنه آلة معدة لإيقاع الفعل " [3] .

ونلمس عند العسكري رقياً تحليلياً عند وصفه لتدرجات المبالغة في صيغ المبالغة ، وقوة عمل كل منها . يقول : " إذا كان الرجل قوياً على الفعل قيل : (فَعُول) مثل صَبُور ، وشَكُور . وإذا فعل الفعل وقتاً بعد وقت قيل : (فَعّال) مثل عَلاَّم ، وصَبَّار . وإذا كان عادة له قيل : (مِفْعَال) مثل مِعْوَان ، و مِعْطَاء . ومن لا يتحقق المعاني يظن أن ذلك كله يُفيد المبالغة فقط ، وليس الأمر كذلك ، بل هي مع إفادتها المبالغة تفيد المعاني التي ذكرناها " [4] .

---

١ - ينظر : د . صفية مطهري ، الدلالات الإيحائية في الصيغ الإفرادية ، ٨٤ .
٢ - أبو حيان ، البحر المحيط ، ١ / ١٣٦ .
٣- د. أحمد مختار عمر ، أسماء الله الحسنى : دراسة في البنية والدلالة ، ٩٦ .
٤- أبو هلال العسكري ، الفروق اللغوية ، ١٢ – ١٣ .

وهذا التحليل الدقيق للعسكري يوقفنا على معنى صيغة (فَعُول) التي تقتضي القدرة على الفعل ، والقوة في أدائه . ويمكننا مناظرة الآيتين في ضوء هذه التفصيلات اللغوية للوقوف على السياق العدولي فيهما من ناحية تغاير الصيغ الاشتقاقية :

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ . ويقول تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ﴾ .

فالمناظرة إذاً بين (شاكر) و(شكور) ، بين (فاعل) و(فَعُول) ، رغم أن الأصل الاشتقاقي لهما واحد وهو مادة (شَكَرَ) . ويلاحظ في آية سورة النحل أن اسم الفاعل (شاكر) جاء في سياق تعداد صفات الخليل إبراهيم عليه السلام والثناء عليه من الله سبحانه وتعالى ، فهو (أمة وحده ، وقانت ، وحنيف ، وغير مشرك ، وشاكر) ، وكلها صفات مدحية . يقول البيضاوي (ت ٦٨٥هـ) في تعليقه على التعبير بصيغة (شاكر) في هذه الآية : " ذكر بلفظ القلة للتنبيه على أنه كان لا يخلّ بشكر النعم القليلة فكيف بالكثيرة ؟! "[1] .

فالتعبير بهذه الصيغة أفاد الشكر على القليل ، وهذا المعنى مستفاد من التعبير كلمة (أنْعُم) التي هي جمع قلة ، وما حققه هذا الجمع من مقاصد تتمثل في :

١- المبالغة في وصفه بالشاكر ، لكون الشاكر على قليل النعم أكثر شكراً على الكثير منها .

٢- التناسب البديع في سياق المقابلة بين صنيع إبراهيم عليه السلام من الشكر ، بصنيع أهل الكفر من الجحود والنكران لنعم الله . لذا كانت المكافأة الإلهية لهذا الشكر القليل بقوله تعالى : ﴿ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ، فما بالنا بثواب الشكر الكثير !

---

١ - البيضاوي ، أنوار التنزيل ، ٣ / ٢٨١ .

إذًا الوصف باسم الفاعل هنا وصف حال لا وصف ذات ، أي وصف حال خليل الرحمن عليه السلام حال تلقيه النعم ، لا حاله على الدوام . ولذا فإن صفة (الشكر) متاصلة فيه ، لكن السياق هنا حتم التعبير باسم الفاعل (شاكر) مناسبة لما بعده من التعبير بجمع القلة ، فناسب القليل بالقليل .

أما التعبير بصيغة المبالغة (شَكُور) في آية سورة الإسراء في وصف نبي الله نوح عليه السلام ، فذلك في سياق إيضاح حال هذا النبي الكريم مع المولى عز وجل . يقول ابن جزي : " شكور أي كثير الشكر ، كان يحمد الله على كل حال "[1] . ويقول ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) : " ورد في الحديث وفي الأثر عن السلف أن نوحاً عليه السلام كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشانه كله ، فلهذا سمي عبداً شكوراً "[2] . فهذا الوصف بصيغة المبالغة ، وصف ذات لا وصف حال .

إن الفيصل هنا في التفريق بين التعبير بكل صيغة إنما معقده السياق الذي وردت فيه كل صيغة ، وما يقتضيه هذا السياق من وصل دلالي وجمالي بالسوابق واللواحق على الصيغة . فالثابت أن كل الأنبياء أهل شكر على نعم الله ، وكلهم (شَكُور) . ولذا نرى المولى ﷻ يعبر عن فضيلة الشكر وعلو مقامها بتوظيف صيغة المبالغة في قوله تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾[3] ، فهذا حال العباد في مقام الشكر ، قليل فقط هو المتصف بصيغة المبالغة .

---

١ - ابن جزي ، التسهيل لعلوم التنزيل ، ٢ / ٣٠٤ .
٢ - ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ٣ / ٢٨ .
٣ - سورة سبأ : آية رقم (١٣) .

ومن أجمل ما ورد في الوصف بصيغة اسم الفاعل (شاكر) ما ورد في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ (١) ، فقد عبّر في جانب النعمة بصيغة اسم الفاعل (شاكر) الدالة على قلة من يؤديها ، وعبّر في جانب كفران النعم وجحودها بصيغة المبالغة من مادة (كَفَرَ) وهي (كَفُور) للدلالة على كثرة هذه الفئة . فناسب بالقليل القليل ، وبالكثير المبالغة . وهذا هو جوهر التعبير في صيغتي اسم الفاعل والمبالغة .

ومن ذلك قوله ﷻ : ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ (٢) ، وقوله ﷻ : ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾(٣). فقد عبّر في الآيتين بصيغتين اشتقاقيتين من أصل واحد هما : الصفة المشبهة باسم الفاعل (زهوق) في آية سورة الإسراء ، وصيغة اسم الفاعل (زاهق) في آية سورة الأنبياء ، فلم هذا التنويع ؟

والبلاغيون على تقرير معنى المبالغة للتعبير بصيغة الصفة المشبهة باسم الفاعل كما هو الحال في التعبير بصيغة المبالغة ، وأيضاً على معنى التكثير . ففي سياق آية سورة الأنبياء يدور المعنى حول انتصار الحق على الباطل ، وهزيمة هذا الباطل أمام الحق . وهذا مستفاد من توظيف الفعل (نَقْذِفُ) فكأننا نشاهد الحق قذيفة مندفعة سريعة تصل إلى قلب الباطل فتدمغه أي : تسحقه . يقول الراغب : "يَدْمَغُهُ : أي يكسر دماغه . وحجة دامغة كذلك . ويقال للطَّلْعَة تخرج من أصل النخلة فتفسده إذا

---

١ - سورة الإنسان : آية رقم (٣) .

٢ - سورة الإسراء : آية رقم (٨١) .

٣ - سورة الأنبياء : آية رقم (١٨) .

لم تقطع : دَامِغَة ، وللحديدة التي تشد على آخر الرحل : دَامِغَة . وكل ذلك استعارة من الدمغ الذي هو كسر الدماغ "[1] . فالمعنى هنا على تصوير قوة الحق ، وإزهاقه للباطل بمجرد تلاقيهما ، إذ يفيد التعبير بـ(إذا) الفجائية تصوير سرعة الاندحار أمام للحق . ولا ضرورة هنا لاستعمال الصفة المشبهة ، إذ الأمر قد تمّ بسرعة وقوة .

أما سياق الآية في سورة الإسراء فيدل على صورة تعبيرية لها مقدمات هي : (جاء الحق - زهق الباطل) ، وهذه نتيجة حتمية للمعطى الإلهي . لكن الأهم هنا ليست هذه المقدمات بل الناتج النهائي ، وهو وصف الباطل بصفة دائمة ومتكررة ، وهي لهذا التكرار توصف بالصفة المشبهة (زهوق) ، إذ الناتج النهائي المتمثل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ ، فهذه قاعدة دائمة ، وسنة مطردة . الباطل زهوق مضمحل لا قوة له أمام الحق ، الباطل وإن كبر أمره في فترة ما ، فسرعان ما يضمحل ويزول .

وهذا المعنى لا يناسبه إلا توظيف الصفة المشبهة باسم الفاعل التي تشير إلى وصف دائم ملازم للباطل ، لا يكفي فيه مجرد التعبير باسم الفاعل . وهنا لفتة جمالية مفادها : أن مادة (زهق) سبق توظيفها في سياق الآية ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ ، فالباطل هنا قد زهق ، فهو الفاعل هنا أي هو (الزاهق) ، ولذا لو كرر ثانية فقال في غير القرآن (إن الباطل كان زاهقاً) لما أفاد معنى جديداً لأنه كُرِّر . لكن العدول إلى التعبير بالصفة المشبهة أفاد دلالة جمالية في سياق الآية .

وعلى هذا ينهج النص القرآني في توظيفه للصيغ الاشتقاقية ذات الأصل اللغوي الواحد ، وما يتبع هذا التوظيف من إثراءات صوتية ملحقة بدلالات جمالية تتضمنها هذه السياقات .

---

١ - الراغب ، المفردات ، ١/ ١٦٣ .

ثالثاً : تغاير صيغ المصادر الراجعة إلى أصل اشتقاقي واحد .

المصدر هو الاسم الدال على الحدث مجرداً من الشخص والزمان والمكان ، وهو عند البصريين أصل المشتقات . وقد اختلف القدماء حول المصدر والفعل أيهما أصل وأيهما فرع ؟ فذهب البصريون إلى أن المصدر أصل الفعل ، وذهب الكوفيون إلى أن الفعل هو الأصل ، والمصدر فرع عليه [1] . والمصدر يختلف عن الفعل في كونه اسماً ، ويتفق معه في الدلالة على الحدث ، مع زيادة الفعل على المصدر في اقترانه بالزمن الذي هو جزء منه .

وقد تتعدد صيغ المصدر لأصل لغوي واحد دلالة على ثراء اللغة ، وتنوع موادها. ومن أمثلة ذلك ما جاء في تعليق أبي عبيدة (٢١٠هـ) على المصدر (أَمَنَة) في قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ [2]، بقوله : " وهي مصدر بمنزلة أَمَنْتُ أَمَنَة وأَمَاناً وأَمْناً ، كلهن سواء" [3]. فهذا التعليق بقوله : (وكلهن سواء) دلالة على أنه وقف على الصيغة في مظهرها اللغوي فقط ، أي أنه اكتفى بوصف الظاهرة دون الإمعان في تحليلها جمالياً .

ونجد الأخفش (ت ٢١٥هـ) يحلل كلمة (المحيض) في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾ [4] يقول : " وهو الحيض . وإنما أكثر الكلام في المصدر إذا بُنِيَ هكذا أن يراد به (المَفْعَل) نحو قولك : (ما في بُرك مَكَال) أي : كَيْل . وقد قيلت الأخرى أي قيل : مَكِيل " [5]. فنظر

١- ابن الأنباري ، الإنصاف ، ١/ ٢٣٠ .
٢- سورة الأنفال : آية رقم (١١) .
٣- أبو عبيدة ، مجاز القرآن ، ١ / ٢٤٢ .
٤ - سورة البقرة : آية رقم (٢٢٢) .
٥ - الأخفش ، معاني القرآن ، ١ / ٣٦٨ .

إلى الأمر من ناحية تعداد الأوزان الصرفية فقط دون أن يحاول تفسير لم ورد مثل هذا التعدد ؟

وقد وظف النص القرآني هذه الظاهرة أدق توظيف في سياق الآيات ، وفقاً لإمكانات هذه المصادر من الناحية اللغوية والصرفية والصوتية والدلالية ، وكل هذا يتم في سياق منظومة جمالية تتسم بالإعجاز في شتى مناحيه . فالقرآن الكريم يورد في سياق آياته ثلاثة مصادر لمادة (رَشَدَ) هي : (الرُّشْد ، والرَّشَد ، والرَّشَاد) . ومصدرين لمادة (تَوَبَ) هما : (التَّوْب ، والتَّوْبَة) ، ومادة (ضَلَّ) هما : (الضَّلال ، والضَّلالَة) ، ومادة (أَمَنَ) هما : (الأَمْن ، والأَمَنَة) ، ومادة (خَلَدَ) هما : (الخُلْد ، والخُلُود) ، ومادة (شَكَرَ) هما : (الشُّكْر ، والشُّكُور) ، ومادة (بَأَسَ) هما (البَأْس ، والبَأْسَاء) . ولنحاول أن نقف على بعض الفروق الدلالية لتوظيف هذه المصادر في سياق الآيات القرآنية .

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [1] . فقد وَظَّفَ القرآن في هذه الآية مصدري (الضلال) و(الضلالة) لفعل واحد (ضَلَّ) مضعّف العين . فلم هذا التلوين ؟

يوضح الراغب معاني المصدر بقوله : " الضلال : العدول عن الطريق المستقيم ، ويضاده الهداية . قال تعالى : ﴿ مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [2] . ويقال الضلال لكل عدول عن المنهج عمداً كان أو سهواً ، يسيراً كان أو كثيراً " [3] .

١ - سورة الأعراف : الآيتان رقم (٦٠ ، ٦١) .
٢ - سورة الإسراء : آية رقم (١٥) .
٣ - الراغب ، المفردات ، ٢ / ٢٢ .

وقد ورد المصدر من (ضَلَّ) بصيغة (ضلال) في القرآن في(٣٨ ثمانية وثلاثين موضعاً) ، وورد بصيغة (ضلالة) في (٩ تسعة مواضع) [1] . فالضلال أكثر توظيفاً كمصدر صريح من الضلالة التي هي اسم مرة في سياق الآيات القرآنية .

وفي آية سورة الأعراف نجد أن سياق الآية يشير إلى وصف قوم نوح عليه السلام له بانه في ضلال مبين ، ثم دفاعه عليه السلام عن نفسه بنفي هذه الضلالة . وقد كان مقتضى السياق أن يتم نفي ما وُصِفَ به وهو(الضلال) ، فلمَ عَدَلَ عن التعبير بصيغة (الضلال) إلى توظيف اسم المرة (الضلالة) ؟ يقول الزمخشري : " إن قلت : لم قال ﴿ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ﴾ ، ولم يقل ضلال كما قالوا . قلت : الضلالة أخص من الضلال ، فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه ، كأنه قال : ليس بي شيء من الضلال " [2] .

وهذا التوجيه يعتمد على دلالات التعبير بمصدر اسم المرة ، ومن باب نفي الأقل . لكن أليس من المقبول عقلاً أن يكون هذا النفي غير عام ، أو غير محيط ، فاحتمل الأمر أن يتسرب إلى النفس بعض الشك في أنه لو عبّر بنفي المصدر لكان ذلك أتم وأشمل ، وذلك لأن قولك : (هذا ليس بإنسان) لم يستلزم ذلك أن لا يكون حيواناً . لكننا لو قلنا : (هذا ليس بحيوان) لاستلزم ذلك أن يكون إنساناً . فنفي الأعم أبلغ هنا من نفي الأخصّ . ولذا فإنّ (الضلالة) أدنى من (الضلال) وأقلّ ، لكونها لا تطلق إلا على الفعلة الواحدة من (الضلالة) فهي اسم مرة . أما (الضلال) فكما أشار الراغب (يطلق على القليل والكثير) [3] .

---

١ - محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ٥٢٠ — ٥٢١ .

٢ - الزمخشري ، الكشاف ، ٢ / ١١٣ .

٣- ينظر : الرازي ، مفاتيح الغيب ، ٤ / ١٥٧ . — أبو حيان ، البحر المحيط ، ٤ / ٣٢١ .

وهذا الالتفات عن صيغة المصدر إلى اسم المرة ، وإيقاع هذه الصيغة في هيئة النكرة مع توظيف حرف الجر الملاصق وهو (الباء) ، كل ذلك يتعاضد معاً لإفادة معنى النفي القاطع في أن يكون قد علق بنوح عليه السلام أدنى قدر من هذه الضلالة [1] .

وهذا أيضاً يحتاج إلى شيء من التدقيق في توجيه الدلالة بالاستفادة من النفي الموظف في الآية يفصله ابن الأثير بقوله : " إن قيل لا فرق بين الضلالة والضلال ، وكلاهما مصدر قولنا : ضَلَّ يَضِلُّ ضَلالاً ، وضَلَّ يَضِلُّ ضَلالَةً . كما يقال : لذَّ يَلذُّ (لَذَاذاً) و(لَذَاذَةً) . فالجواب عن ذلك أن الضلالة تكون مصدراً كما قلت ، وتكون عبارة عن المرة الواحدة . تقول : ضَلَّ يَضِلُّ ضَلالَةً : أي مرة واحدة ، كما تقول : ضَرَبَ يَضْرِبُ ضَرْبَةً ، وقَامَ يَقُومُ قَوْمَةً ، وأَكَلَ يَأْكُلُ أَكْلَةً . والمراد بالضلالة في هذه الآية هو عبارة عن المرة الواحدة من الضلال الخاص ، ولا يدلّ نفي الخاص على نفي العام " [2] .

فإذا كان هناك مصدران أحدهما يتسم بالعمومية مثل (ضلال) ، والآخر يتسم ببعض الخصوصية مثل (ضلالة) ، فإن استعمال العام في حالة النفي أبلغ من استعماله في حالة الإثبات ، كما أن استعمال الخاص في حالة الإثبات أبلغ من استعماله في حالة النفي ، وذلك لأن ثبوت العام يدلّ بالتالي على ثبوت الخاص ، ولا يدلّ نفي الخاص على نفي العام [3] .

ونلمح عند ابن النقيب (ت٦٩٨ هـ) لفتة سياقية إذ يقول : " لو قال : ليس بي ضلال ، لما صحّ ، لأن اسم الجنس يقال على الكثير والقليل ، فيجوز أن يكون المنفي هو

١- ينظر : أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ٢ / ٢٣٥ .

٢- ابن الأثير ، المثل السائر ، ٢ / ٣١ .

٣- ينظر : الطوفي ، الإكسير في علم التفسير ، ٢٤٠ . - ابن الأثير ، الجامع الكبير ، ١٦٩ .

الكثير"[1]. وبالتالي فإن هذا القليل لم يشمله النفي ، فيكون ذلك مستقبحاً في حق نبي من أنبياء الله الكرام .

هكذا يكون التوظيف القرآني للمصدرين من صيغة واحدة في سياق آية واحدة ، مراعياً تعلقات السياق ، وتفصيلات الصورة في إطارها الكامل .

* ومن ذلك أيضاً توظيف القرآن الكريم لثلاثة مصادر متنوعة من مادة (رَهَبَ) هي : (الرَّهْب ، والرَّهَب ، والرُّهْبَة) ، وردت على التوالي في الآيات التالية :

١- الرَّهْب : ورد في موضع وحيد في قوله تعالى : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ﴾ [2] .

٢- الرَّهَب ، ورد في موضع وحيد في قوله تعالى :﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [3] .

٣- الرَّهْبَة ، ورد في موضع وحيد في قوله تعالى : ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [4] .

والمعنى الجامع لهذه الصيغ يجمله الراغب بقوله :"الرَّهْبَة والرَّهَب : مخافة مع تحرّز واضطراب" [5] .

فالمصدر الأول : الرَّهْب بإسكان الهاء ، ورد في سياق إخبار الله تعالى عن موقف المناجاة لنبيه موسى عليه السلام ، وما أعقب هذا الموقف من البشارات والمعجزات التأييدية

---

١ - ابن النقيب ، مقدمة تفسير ابن النقيب ، ٣٨١ .
٢ - سورة القصص : آية رقم (٣٢) .
٣ - سورة الأنبياء : آية رقم (٩٠) .
٤ - سورة الحشر : آية رقم (١٣) .
٥ - الراغب ، المفردات ، ١ / ١٩٢ .

التي منها (اضمم إليك جناحك من الرُهْب) ، أي كلما أصبت بالخوف والاضطراب اضمم يدك إلى صدرك ، وضعها موضع قلبك ، فسيزول عنك هذا الاضطراب ، وتعود إليك السكينة[1].

والمصدر الثاني : الرَّهَب بفتح الهاء موظف في سياق حديث المولى عز وجل عن طائفة خاصة من أهل الإيمان هم الأنبياء والصالحون الذين هم بين الرَّغَب في الثواب والمغفرة من الله عز وجل ، ونوال ما عنده ، والرَّهَب من عقوبته وجبروته . ونلمح هنا تناسباً سياقياً وإيقاعياً متوازناً مستمداً من توافق (رَغَبَاً) و (رَهَباً) في الوزن والحركات . وهذا التوازن تصوير لحالة هؤلاء الصالحين إذ إنهم دوماً ما بين الخوف والرجاء ، ما بين الرغب والرَّهَب . وفي سياق آية سورة الأنبياء يكون هذا الرَّغَب والرَّهَب وارداً في سياق مدح نبي الله زكريا عليه السلام وزوجه حال عبادتهم .

أما المصدر الثالث : الرَّهْبَة فقد ورد في سياق وصف حال المنافقين في تحالفهم مع اليهود ، فأهل النفاق أشد خوفاً وفزعاً من المسلمين ، لأنهم يتميزون بالجبن الشديد . وهذا الذمّ الإلهي لهم لكونهم أكثر مخافة لبشر مثلهم : هم المسلمون ، دون خوفهم من الله ﷻ. يقول الأنصاري : " إن علق قوله ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ بأشدّ ، لزم ثبوت الخوف لله ، وهو محال . أو بالرهبة ، لزم كون المؤمنين أشد خوفاً من المذكورين ، وليس مراداً ؟ قلت : الرهبة مصدر رُهِبَ بالبناء للمفعول هنا ، فالمعنى : أشد مرهوبية ، يعني أنكم في صدورهم أهيب من كون الله تعالى فيها "[2] . فالرهبة مصدر موظف على إرادة البناء

١- ينظر : ابن جزي ، التسهيل ، ٢٢٩/٣. – أبو حيان ، النهر الماد ، ٦٥٤/٢. – البيضاوي ، أنوار التنزيل ، ٢٢٥/٤.

٢ - الأنصاري ، فتح الرحمن ، ٣٥٣ .

أما كلمة (منهاج) فيقول عنها : " النَّهْج : الطريق الواضح . ونَهَجَ الأمر ، وأَنْهَجَ : وَضَحَ . ومَنْهَج الطريق : منهاجُه " [1] . وعلى هذا فإن الكلمتين تربطهما علاقة (السبب والغاية) ، فالشريعة غاية لا بد من سلوك السبب إليها ، والسبب المنهاج أي الطريق الواضح الموصل إلى هذه الغاية . ويؤيد هذا المعنى ما رويَ عن ابن عباس ﷺ في تبيان معنى اللفظين بقوله : " الشريعة هي الدين ، والمنهاج الطريق . والشريعة ما ورد به القرآن ، والمنهاج ما وردت به السنة " [2] .

وتأسيساً على ما سبق فالجمع بين المترادفتين غرضه إبراز ما قُصِدَ من تبيان الغاية وسبيل الوصول إليها ، وهي إحدى وسائل القرآن في تصوير فعل الهداية ، وتبيان مسلكه .

ومن ذلك ما ينهجه النص القرآني من الجمع بين المعنى ومضاده المنفيّ ، أي الجمع بين المعنى بالصيغة الصريحة ، وهو ذاته بنفي مضاده . وهذا موظف في القرآن الكريم في إطار الجمع الدلالي بين المترادفات . فمن ذلك ما نلمسه في قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [3] .

١- الراغب ، المفردات ، ٢ / ٢١٠ .

٢- ينظر : الماوردي ، النكت والعيون في تفسير القرآن ، ١ / ٥١ .

٣- سورة البقرة : آية رقم (١٠٢) .

فقد جمعت الآية بين كلمتي (يضرهم) بما تحمله من دلالات على هذا المعنى . وكلمة (لا ينفعهم) التي تساوي دلالياً (يضرهم) . فلم تم الجمع هنا بهذه الطريقة ؟ وهل أضاف هذا الجمع بهذه الطريقة جماليات نصية إلى الدلالة السياقية في الآية ؟

إن المعنى في الآية منعقد على تبيان حال نبي الله سليمان ﷺ مع الجن المسخرين لخدمته ، وما سلكه هؤلاء الجن من الافتراء على نبي الله بادعاء تسخيرهم بواسطة السحر . وكذلك ما جرى للملكين هاروت وماروت ، وما يقومان به من تعليم السحر مع التأكيد على الناس بأنّ هذا العلم كله شر ولا خير فيه ، وأن الله سبحانه وتعالى هو وحده الضار النافع [1] . ويقول الزمخشري في تفسير هذا التأكيد على معنى الضرّ بالجمع بين المترادفين : " لأنهم يقصدون به الشرّ " [2] . فهذا التوجيه المنعقد على ذمّ ما عند اليهود من شغف لتعلم السحر من الملكين (هاروت وماروت) ، ذلك لأن مقصد هذا التعلم هنا هو (الضرّ) وإيصال (الشرّ) . فالتأكيد هنا منعقد على الذمّ . يقول ابن كثير : " أي يضرهم في دينهم ، وليس له نفع يوازي ضرره " [3] .

لكن بتدقيق النظر في الآية نلمح جمالية تتمثل في عطف المرادف الثاني على الأول ، أي في عطف جملة (لا يضرهم) على جملة (ينفعهم) تتمثل في توظيف النفي مسلطاً على الجملة الثانية (لا ينفعهم) ، فيتأكد المعنى العام المستفاد من هذا الجمع استناداً إلى أن (الضرّ) و(عدم النفع) إمعان في ذم هذا العلم وهو (السحر والكهانة) ، وأيضاً على ذمّ المتعلّم له .

١- ينظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ١/ ١١٣.- أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ١/٩٤-١/ ٩٧.- أبو حيان ، البحر ، ١/ ٢٧٤- ١/ ٢٧٧ .

٢ - الزمخشري ، الكشاف ، ١/ ١٧٣ .

٣ - ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ١/ ١٤٥ .

ولعلنا ندرك النفور الحادث لو عدلنا عن الدلالة المنفية إلى الصريحة فقلنا - في غير القرآن - : (فيتعلمون ما يضرهم ويضرهم) بتكرار (يضرهم) بعيداً عن نفي المضاد ، لاستثقل هذا التكرار . ولذا جاء النسق التعبيري في الآية على أوفى ما يكون .

ومن توظيفات القرآن الكريم لهذا النهج التعبيري من الجمع الدلالي بين المترادفات باستعمال النفي المسيطر على المضاد ما نلمسه في :

* قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [1] ، بالجمع بين كلمتي (أموات) و (غير أحياء) .

* وقوله تعالى : ﴿ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ [2] ، بالجمع بين كلمتي (تضحكون) و (لا تبكون) .

وهذا أيضاً موظف في السياق التعبيري الذي يجمع بين هذه المترادفات بالسلب إبرازاً للأثر الدلالي الناتج عن مثل هذه التلوينات الصوتية في السياق القرآني .

ومن هذا أنماط هذا الأثر الصوتي ما نلحظه في السياقات القرآنية من فنية الجمع بين صيغتي المعلوم والمجهول في إطار تجاور مكاني في الوحدة الدلالية القرآنية (الآية) ، بلا تنافر أو ثقل ، وبتوافق تام مع السياق النصي لهذه الآيات ، وما يلحق ذلك من استثارة مكنونات توظيف هذا التلوين الصوتي .

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ [3] .

فالمعنى في الآية الكريمة يدور حول موضوع الربا وذم التعامل به نظراً لما فيه من

١- سورة النحل : الآيتان رقم (٢٠ ، ٢١) .
٢ - سورة النجم : الآيتان رقم (٥٩ ، ٦٠) .
٣ - سورة البقرة : آية رقم (٢٧٩) .

معصية لله ، وما فيه من جلب الآثام والشرور على الاقتصاد في المجتمع . ثم بيان حال من يتعامل بهذا الفعل ، وما له عند الله من عقاب . كذلك يدور الحديث عما يلزم التائب من هذا الفعل من أحوال ومعاملات . يقول الزمخشري : " ﴿وإن تُبتُم﴾ من الارتباء ﴿ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ ﴾ المديونين بطلب الزيادة عليها ، ﴿ولاَ تُظْلَمُونَ﴾ بالنقصان منها "[1] .

فمناط التحليل هنا الجمع بين صيغة الفعل (ظَلَمَ) في هيئة البناء للمعلوم (تَظلِمون) ، وصيغة الفعل مبنياً للمجهول (تُظْلَمون) متجاورتين ، أنّ الدلالة في الآية متسقة مع سياقها العام ، إذ المعنى هنا على شمول الحكم بالنسبة لمن تاب من إتيان الربا وله رؤوس أموال عند أهل الدين ، فهو بحكم الآية مستحق لرأس ماله (تَظلِمون) أي : لا يظلم المَدينين بطلب زيادة ، و(لا تُظْلَمون) بأن تعود إليكم هذه الأموال منقوصة عن أصلها . فدارت الدلالة بالجمع بين الصيغتين على شمول الحكم وكليّته .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً ﴾ [2] . إذ وظف النص القرآني صيغتي الفعل (خَلَقَ) بالبناء للمعلوم والمجهول في تجاور دلالي جميل ، مع تسلط النفي على الصيغة الأولى (يَخْلُقون) لكون المعنى مما لا يُشارَك فيه . يقول ابن الزملكاني :" ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ لأن عبادتهم تقتضي أن لا تكون مخلوقة "[3] .

---

١ - الزمخشري ، الكشاف ، ١ / ٣٢٢ .

٢ - سورة الفرقان : آية رقم (٣) .

٣- ابن الزملكاني ، المجيد في إعجاز القرآن المجيد ، ١١٥ .

وهذا صحيح لأنّ هذه الآلهة المزعومة لو كانت آلهة لما كانت مخلوقة ، إذ كيف يكون المخلوق خالقاً فيستحق العبادة ، فهذا منتقض من جهة العقل والعادة .

ومن جميل القول ما رآه عبد القاهر في هذه الآية حين وظفها في باب التقديم والتاخير ، وجعلها من قبيل عدم القصد إلى فاعلية الفاعل للحدث ، مع تحقيق القول عند السامع ، ومنعه من الشك في هذا الحدث ، ويتاتى ذلك بتوظيف ضمير الغياب قبل الفعل . كما أنه يجعل من تقديم المحدَّث عنه (هم) يقتضي تاكيد الخبر (الفعل) وتحقيقه ، وذلك في سياقات الإنكار والاعتراض على ما فيه شك ، أو تكذيب المدّعين . يقول عبد القاهر :" القياس في مثله إلا يكون كقوله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ ، وذلك أن عبادتهم لها تقتضي أن لا تكون مخلوقة " [1] .

فالأمر هنا على إهمال الفاعلية والاهتمام بالمفعولية فقط ، والمستفاد من الآية أنهم (يُخلَقون) بالبناء للمجهول ، فيتحقق الفعل أنهم مخلوقات عند السامع ، وينتفي الادعاء بالألوهية لهذه الأصنام . وما أدى إلى هذا الفهم إلا توظيف صيغتي المعلوم والمجهول للفعل ذاته في سياق تجاوري بُنِيَتْ عليه الدلالة ، واتكا عليه السياق في تفنيد هذه الادعاءات .

والقرآن حافل بالجمع بين صيغتي المعلوم والمجهول ، وذلك في :

١- قوله تعالى : ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ﴾ [2] .

---

١ - عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ١٢٤ .
٢ - سورة الأنعام : آية رقم (١٤) .

٢- وقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾[1] .

٣- وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾[2] .

٤- وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾[3] .

٥- وقوله تعالى : ﴿قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[4] .

والسياق في هذه الآيات على المنهج الدلالي ذاته ، مع مراعاة السياق الخاص بكل آية ، وسياقها العام الذي تندرج فيه في السورة التي تحويها .

٤ – التلوين الصوتي بالعدول :

تتعدد المصطلحات البلاغية الدالة على كسر النسق التعبيري ، ومخالفة السياق الكلامي إلى نسق آخر رغبة في قصدية ما . فالموروث البلاغي يحوي طائفة من المصطلحات الدالة على هذا الشكل من التعبير ، مثلما نجد في سياق مصطلحات (الصَّرْف) و(العُدول) و(الانصراف) و(التَّلَوُّن) و(مخالفة مقتضى الظاهر) و(شجاعة العربية)[5] . وهي تشترك جميعاً في التحول أو الانحراف عن المألوف من أنساق التعبير

---

١ - سورة الأنعام : آية رقم (٩٣) .
٢ - سورة التوبة : آية رقم (١١١) .
٣ - سورة النحل : آية رقم (٢٠) .
٤ - سورة المؤمنون : آية رقم (٨٨) .
٥- ينظر : ابن وهب ، البرهان ، ١٠٣. – الزمخشري ، الكشاف ، ١٨٦/٢. – العلوي ، الطراز ، ١٣١/٢ .

، وهذا التحول في خالص أمره ظاهرة أسلوبية تحقق مبدأي الانزياح والاختيار ، وكسر أفق التوقعات المعتادة[1] .

والبلاغيون رغم إيمانهم بوجود مستويين من مستويات التعبير لأي نمط إبداعي يتمثلان في : المستوى الأصلي (المثالي) أو ما يطلق عليه حديثاً (البنية العميقة) ، والمستوى السطحي (الفني) أو ما يطلق عليه (البنية السطحية) ، إلا أنهم لا يعطون البنية المثالية أية أهمية إلا من حيث كونها نقطة انطلاق لدراساتهم التحليلية لتحولات البنية في الأشكال البلاغية عن القواعد المثالية إلى الصورة العدولية ، فتصبح القاعدة المثالية أصلاً محايداً يُبْرِز جماليات الشكل البلاغي ، ويوّجه مرتكزاته السياقية والدلالية في إطار خطابه للمتلقي حين يستحضر الأصل المثالي ويقارنه بالناتج الصياغي النهائي[2] .

يقول ابن أبي الإصبع : " العرب متى أرادت المبالغة التامة في شيء ، قلبت الكلام فيه عن وجهه ، ليتنبه السامع عندما يرد على سمعه كلام قد خولف فيه عادة أهل اللسان ، إلى أن هذا إنما ورد لفائدة ، فينتظر فيرى حصول زيادة الكلام مبالغة ، ولو لم يقلب لم تحصل "[3] .

ويمدح ابن الأثير مثل هذا الانزياح التعبيري للصيغ في العربية ، ويجعله أمارة دالة على مدى بلاغة المبدِع ، وثراء اللغة ، لأن هذا الانزياح يكسب النص جمالاً فنياً ينبع من غموض المعنى الذي هو لبّ الفن والأدب . يقول ابن الأثير : " اعلم أيها المتوشح

---

١ - ينظر : د. حسن طبل ، أسلوب الالتفات ، ١١ .
٢ - ينظر : د.أسامة البحيري ، تحولات البنية في البلاغة العربية ، ٣٨ .
٣ - ابن أبي الإصبع ، بديع القرآن ، ١٥٣ .

لمعرفة علم البيان أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى ، لا يكون إلا لنوع خصوصيته اقتضت ذلك . وهو لا يتوخاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة ، الذي اطلع على أسرارها ، وفتّش عن دفائنها . ولا تجد ذلك في كلام فإنه من أشكل ضروب علم البيان ، وأدقها فهماً ، وأغمضها طريقاً "[1] .

وهذا العدول الجمالي لون من فنيات التلوين الصوتي والدلالي في اللغة ، بل هو أعلاها جمالية ، وأسماها نصية . يقول عبد القاهر : " إن صور المعاني لا تتغير بنقلها من لفظ إلى لفظ ، حتى يكون هناك اتساع ومجاز ، وحتى لا يراد من الألفاظ ظواهر ما وُضِعت له في اللغة ، ولكن يشار بمعانيها إلى معان أخر "[2] .

وبمعاودة النظر في القرآن الكريم لوحظ توظيف القرآن لألوان متنوعة من العدول المتعلق بالمفردات في سياقاته ، تكتسب هذه الألوان كثيرًا من الجماليات في هذه السياقات ، مما يوجب علينا أن نعرض لمثل هذه التلوينات من العدول في هذه السياقات ، ومحاولة تثوير الدلالات فيها ، والغوص على نصيات المقام في مراميها ، رغبة في استكناه هذا اللون من التوظيف القرآني .

١ – العدول عن نظائر المفردة الموظَّفة:

لا شك أن ألفاظ القرآن الكريم تمكن في أماكنها كما يجب أن تكون ، ولا يمكن أن يحل محلّ أي لفظ في القرآن غيره ، إذ هو الذي يراد هنا لا غيره . واختيار اللفظ القرآني يخضع لمحددات عديدة ، كما يخضع لسياق السورة التي ورد فيها ، ويخضع للتناسب الدلالي ، والتناسق التعبيري . والقرآن حين اختار المفردة إنما انتقاها من

١ – ابن الأثير ، المثل السائر ، ٢ / ١٨٠ .
٢ – عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ٢٦٥ .

بين نظائرها المتعددة التي تؤدي معناها ، بل إن بعضها يزيد عن معناها في غير القرآن الكريم . لكن التوظيف القرآني لهذه المفردة دون نظائرها أمر مقصود ، لا يُنظَر إليه في وضعها المفرد ، بل لا بد من الإحاطة بالصورة الكلية التي وُظّفت المفردة في إطارها .

فمثلاً قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾[1] . فلفظ (ليأخذوه) هنا موظف دلالياً بمعنى (ليقتلوه) ، لكن لمَ لمْ يوظف هذا المرادف الدال على المعنى ، وعدل إلى لفظ مناظر دون اللفظ الأصل ؟ يقول الإمام الباقلاني : " هل تقع موقع (ليأخذوه) كلمة ؟ وهل تقوم مقامه في الجزالة لفظة ؟ وهل يسد مسده في الأصالة نكتة ؟ لو وُضِعَ موضع ذلك (ليقتلوه) أو (ليرجموه) أو (ليطردوه) أو(ليهلكوه) أو(ليذلوه) أو نحو هذا ، ما كان ذلك بديعاً ، ولا بارعاً ولا عجيباً ولا بالغاً ... فانْقُد موضع الكلمة تعلم بها ما نذهب إليه من تخيُّر الكلام ، وانتقاء الألفاظ ، والاهتداء إلى المعاني "[2] .

ولعلّ وقوف الباقلاني أمام لفظة (ليأخذوه) في الآية الكريمة مسوّغه أن النص القرآني قد اختار لفظة تحمل في دلالاتها الواسعة كل معاني المفردات التي عددها ، وهذا مما يتناسب مع نية كل أمة لا تؤمن برسولها ؛ إذ تتنوع النوايا السيئة بين المعاني التي عددها الباقلاني من قتل أو نفي أو طرد أو إهلاك أو إيذاء . ولا تجد لفظة تحمل شحنات هذه الدلالات مجتمعة بشمولها وعموميتها سوى ما عبّر به القرآن الكريم في لفظة (ليأخذوه) .

١ - سورة غافر : آية رقم (٥) .
٢ - الباقلاني ، إعجاز القرآن ، ١٩٨ .

وقوله تعالى : ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[1]. إذ نجد التعبير بين أيديهم) يمكن أن يستدعي في الذهن الظرف (أمامهم) لمناسبة الظرف اللاحق وهو (خلفهم) ، فيكون الكلام – في غير القرآن – (يعلم ما أمامهم وما خلفهم) ، ولكن ذلك لم يتمّ التعبير به فلمَ حدث هذا ؟

ومن فرائد التوظيف أن القرآن الكريم يجمع بين التعبير بظرف المكان (بين) + كلمة (اليد) في تجاور دلالي مع الظرف (خلفهم) في (١٥ خمس عشرة آية)[2] ، مما يجعل من التركيب الظرفي (بين + اليد) مساوياً في المعنى لكلمة (أمام) التي هي أيضا ظرف ، وذلك ليتم إيجاد نوع من التناسب اللفظي في سياق هذه الآيات ، لكن ذلك لم يتمّ ! يقول الزمخشري :" ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ، ما كان قبلهم ، وما يكون بعدهم . والضمير لما في السماوات والأرض لأن فيهم العقلاء "[3] .

فقد جعل الظرفين هنا غير متعيّنين للمكان بل هما للزمان ، إذ دلاّ دلالة شاملة على استغراق الزمن الماضي والزمن الآتي ، وهذا مما يتسق مع علم المولى عز وجل فهو العليم الحكيم . غير أن الزمخشري جعل من التصاق الضمائر بهذين الظرفين إضماراً لأهل السماوات والأرض ، لكونهم أشد تعلقاً بما يحدث من أحداث في هذا الزمن .

---

١ - سورة البقرة : آية رقم (٢٥٥) .

٢ - محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ٨٥٩ – ٨٦٠ .

٣ - الزمخشري ، الكشاف ، ١ / ٣٠١ .

ويفصّل أبو حيان إذ يقول : " ضمير الجمع عائد على ما وهم الخلق ، غلب على من يعقل ، فجمع الضمير جمع من يعقل . وهو عائد على من يعقل من الأنبياء والملائكة مراعاة لقوله ﴿مَن ذا الذي﴾ . قال ابن عباس : (ما بين أيديهم) أمر الآخرة ، و(ما خلفهم) أمر الدنيا . والذي يظهر أن هذا كناية عن إحاطة علمه تعالى بسائر المخلوقات من جميع الجهات. وكنى بهاتين الجهتين عن سائر الجهات لأحوال المعلومات ، والإحاطة تقتضي الحفوف بالشيء من جميع جهاته "[1] . فقد أبان عن معنى (بين أيديهم) وهو إفادة الإحاطة الزمنية لا المكانية ، ولو عبّر بالظرف (أمام) لالتبس الأمر هنا بالمكان لا الزمان . كذلك لو عبّر بالظرف (أمامهم) لتطرق الذهن إلى تشخيص الجهات ، وهذا بالطبع محال في علم الله ، إذ علمه محيط شامل .

هكذا نرى في عدول النص القرآني عن نظائر المفردة تلويناً دلالياً أكثر شمولاً واتساعاً من الحصر في نطاق دلالة معينة ، لأن مناط التوظيف هنا هو الاتساق مع السياق . وذِكرنا لهذه المواضع التي تمّ فيها العدول عن نظائر المفردة إلى التعبير بها ، من باب التدليل على فرادة التوظيف في النص القرآني ، وليس ذلك طلباً للغريب من الألفاظ فيه ، إذ لهذا مواضعه من كتب الغريب ، وإنما الأمر فقط على تحري جمالية التوظيف لمثل هذا العدول .

ب : العدول عن الملائم للسياق إلى المجاور الدلالي :

يلجأ النص القرآني في توظيفه للمفردة إلى إيراد بعض الألفاظ المجاورة لها في المعنى بعيداً عن الترادف ، وهذا التجاور في حقيقة أمره عدول سياقي عن ألفاظ أكثر مناسبة – في غير القرآن – لهذه المفردة من هذا المجاور الدلالي . فعلى سبيل المثال نلمس في الآيات الآتية :

---

١ – أبو حيان ، النهر الماد ، ١ / ٢٥٤ .

١- قوله تعالى : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [١] . عدول عن اللفظ الملائم للفعل (كفروا) وهو لفظ (الكافرين) إلى مجاور دلالي هو لفظ (الفاسقين) .

٢- قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [٢] ، عدول عن الملائم للفعل (كفروا) وهو لفظ (كافرين) إلى مجاور دلالي هو (فاسقين) .

٣- قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ [٣] ، عدول عن اللفظ الملائم للفعل (كذب) وهو لفظ (الكاذبين) إلى مجاور دلالي هو لفظ (الظالمين) .

٤- قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [٤] ، عدول عن اللفظ الملائم للفعل (توكلوا) وهو لفظ (متوكلين) إلى مجاور دلالي هو لفظ (مسلمين) .

٥- قوله تعالى : ﴿مَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[٥] ، عدول عن اللفظ الملائم للفعل (يضلل) وهو (الضالون) إلى مجاور دلالي هو لفظ (الخاسرون) .

---

١ - سورة التوبة : آية رقم (٨٠) .
٢ - سورة التوبة : آية رقم (٨٤) .
٣ - سورة يونس : آية رقم (٣٩) .
٤ - سورة يونس : آية رقم (٨٤) .
٥ - سورة الأعراف : آية رقم (١٧٨) .

٦ - قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَعلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[1] ، عدول عن اللفظ الملائم للفعل (يتوكل) وهو لفظ (المتوكلون) إلى مجاور دلالي هو لفظ (المؤمنون) .

وهذه الألوان من العدول عن الملائم إلى المجاور الدلالي تحمل شحنات سياقية ونصية فريدة . فمثلاً ما نلمسه في قوله تعالى في سورة (إبراهيم : ١١) : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَعلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ . تم العدول عن (المتوكلون) كفاصلة للآية ، وملائمة في الوقت نفسه للفعل (يتوكل) قبلها ، إلى التعبير بكلمة مجاورة في الدلالة هي كلمة (المؤمنون) ، فلمَ تمَّ هذا العدول ؟

نلاحظ أن هذا العدول تمَّ في إطار الحفاظ على النسق الإيقاعي للفاصلة ، وتجنب تكرارها مرة أخرى ، إذ إن الفاصلة في الآية التالية لهذه الآية مبنية على كلمة (المتوكلون) في قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[2] ، فعدَلَ إلى لفظة أعمّ تحمل في دلالاتها صفة التوكل ، وهي كلمة (المؤمنون) ، فأفاد بذلك الحفاظ على نسق الفواصل بعدم تكرارها ، والتعبير بالأعم الذي يضم الأخص في جنباته .

أما بخصوص السياق في كل آية ، فإن المعنى في الآية الأولى يدور على دلالة المناجاة والجدل من جانب أنبياء الله لأقوامهم ، وكيف أن هذه النبوة ليست اجتهاداً

١ - سورة إبراهيم : آية رقم (١١) .
٢ - سورة إبراهيم : آية رقم (١٢) .

من عند أنفسهم ، بل هي مِنَّة مِنَ الله عليهم ، وليس في مقدور أي نبي أن يعدكم بأي سلطان أو ملك إلا بإذن الله . ولذا فإن الموعود بهذه النعم والخيرات إنما هو من اتبع هذا السبيل فآمن ، وتوكل على الله ، فعندئذ يكون له من الله كل الخير والثواب ، ولن يحظ بهذا كله إلا المؤمنون المتوكلون على الله .

والسياق في الآية الثانية على تفصيل معنى التوكل على الله وتفويض الأمر إليه من جانب هؤلاء المرسلين ، فهو الذي هداهم لهذا الطريق ، واصطفاهم للنبوة ، فحري بهم الصبر على كل الأذى من جانب هؤلاء الكفار ، والاستمرار في الدعوة إلى سبيل الله مهما كانت الصعوبات والعراقيل ، ثقة به وفي الله ، لأن من توكل عليه أفلح ونجا .

فالآية الأولى تدور على توكيد معنى الإيمان أولاً ، فناسب ذلك أن تكون فاصلتها معقودة بكلمة (المؤمنون) ، أما الآية الثانية فالمعنى فيها على توكيد معنى التوكل ، فناسب ذلك ذكر الفاصلة مبنية على كلمة (المتوكلون) ، رعاية لسياق المعنى في كل آية . يقول الأنصاري : " قوله : ﴿ وَعلى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ قال ذلك هنا ، وقال بعد ذلك : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ لأن الإيمان سابق على التوكل"[1] . وهذا يتسق مع ما ذكرناه هنا في سياق التحليل .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [2] ، إذ تمَّ العدول عن اللفظ الملائم للفعل (يضلل) وهو لفظ (الضالون) إلى مجاور دلالي هو (الخاسرون) . يقول الزمخشري :" (فَهُوَ الْمُهْتَدِي) حمل على اللفظ ، و(فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) حمل على المعنى"[3] . فهذا حُمِلَ على اللفظ إذ قال (يَهْدِي)

١ - الأنصاري ، فتح الرحمن ، ١٧١ . وينظر : الكرماني ، البرهان ، ٢١٢ .
٢ - سورة الأعراف : آية رقم (١٧٨) .
٣ - الزمخشري ، الكشاف ، ٢ / ١٧٩ .

فجاء اللفظ مناسباً لمعنى الفعل أي (المهتَدي) . أما اللفظ الآخر فجاء مناسباً للمعنى لا اللفظ لما قال (يضلل) ، فناسبه بالمجاور المعنوي للضلال وهي كلمة (الخاسرون) .

أما البيضاوي فينظر إلى المسألة من زاوية التعبير بالمفرد في جانب الهداية ، والتعبير بالجمع في جانب الضلال ، وذلك مناسبة لسياقات سابقة في السورة . يقول : " هذا تصريح بأن الهدى والضلال من الله ، وأن هداية الله تختص ببعض دون بعض ، وأنها مستلزمة للاهتداء والإفراد في الأول ، والجمع في الثاني باعتبار اللفظ ، والمعنى على أن المهتدين كواحد لاتحاد طريقهم بخلاف الضالين . والاقتصار عمن هداه الله (بالمهتدي) تعظيم لشأن الاهتداء ، وتنبيه على أنه في نفسه كمال جسيم ، ونفع عظيم ، لو لم يحصل له غيره لكفاه ، وأنه المستلزم للفوز بالنعم الآجلة والعنوان لها "[(١)] .

فقد جعل أهل الهداية فرداً واحداً لاتحاد طريقهم الإيماني ، لأن صراط الله المستقيم واحد ، فناسب ذلك الإفراد في جانب الهداية ، وناسب بالجمع في جانب الإضلال لأنه متشعب الطرق . يقول أبو حيان : " ناسب الإفراد هناك لأن المهتدي قليل ، وناسب الجمع في الثانية لأن الضالين كثير "[(٢)] .

غير أن هؤلاء الأعلام عبروا بالكناية فقط لسبب العدول عن لفظة (الضالون) إلى (الخاسرون) ، فدار حديثهم عن الثواب العظيم لأهل الهداية ، وما ينتظرهم من ثواب ونعيم مقيم ، فيوهم هنا على سبيل التضمين والكناية ما ينتظر الفئة الضالة من عقاب وعذاب أليم . وباستقراء الأمر نجد أن المولى ﷻ يجعل التعبير في الآية بلفظ

---

١ - البيضاوي ، أنوار التنزيل ، ٢ / ٢٤٤ .
٢ - أبو حيان ، النهر الماد ، ١ / ٨٨٨ .

(الخاسرون) وتوكيده بالضمير (هم) بعد اسم الإشارة (أولئك) ، كل ذلك يتم في سياق التعبير بالمآل لا الوصف للحال . فلو كان المراد وصف الحال لجاء اللفظ مناسباً للفعل (يضلل) فقال (هم الضالون) ، لكن السياق المقامي يقتضي تبيان المآل والعاقبة ، فلذا جاء توظيف (الخاسرون) مناسباً لسياق التعبير بالفعل (يضلل) مسنداً إلى لفظ الجلالة (الله) ، إذ كيف يستقيم أن يضل الله أحداً فيكون ضالاً فقط ، ثم يقبل المنطق العقلي- تخيّلاً- أنه قد يهتدي فيما بعد . لكن الأمر عندما يكون من الله فلا هداية مطلقاً فقد أضله الله فخسر ، ولذا عبر بالاسم الثابت الدلالة (الخاسرون) ، فالأمر هنا على ثبوت الحكم قطعياً لا ظنياً .

وهكذا فإن العدول عن الملائم هنا إلى المجاور كان أكثر مناسبة للمعنى ، وأكثر إثراءً للسياق النصي ، وأكثر تعضيداً للجمالية الدلالية المبنية على التوازي والتوازن معاً .

ج - العدول عن التعبير بالاسمية إلى الفعلية والعكس :

يوظف القرآن بنية الكلمة في حالات الاسمية والفعلية بما يخدم سياق الآيات ، ويحفظ رونق التعبير . إذ من المعلوم أن التعبير بالفعل يدل على التجدد والاستمرار ، في حين أن التعبير بالاسم يقتضي التاكيد على معنى الثبات والدوام . يقول عبد القاهر : " إن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئاً بعد شيء . وأما الفعل فموضوعه على أن يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء "[1] .

وعلى هذا التاسيس البلاغي يكون طرح الأمثلة القرآنية التي وظفها النص القرآني في سياق عدولي يتراوح توظيفياً بين الاسمية والفعلية لبعض الكلمات .

---

١ - عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ١٣٢ . وينظر : الرازي ، نهاية الإيجاز ، ١٥٦ .

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ (١) . فقد وظف في الآية الفعل (يُخرِج) مع حالة الإيجاد والخلق ، ووظف الاسم بصيغة اسم الفاعل (مُخرِج) مع حالة الإفناء .

فلم هذا العدول التوظيفي لبنية لغوية واحدة ، تنوعت هنا بين الاسمية والفعلية ؟

يقول د. فاضل صالح السامرائي : " استعمل الفعل مع الحي فقال (يُخرِج) ، واستعمل الاسم مع الميّت فقال (مُخرِج) ، وذلك لأن أبرز صفات الحيّ الحركة والتجدد ، فجاء معه بالصيغة الفعلية الدالة على الحركة والتجدد . ولأن الميّت في حالة همود وسكون وثبات جاء معه الصيغة الاسمية الدالة على الثبات " (٢) . فاقتضاء التوازي الإيقاعي في الآية يوجب أن يكون شكل الجمل - في غير القرآن - كما يلي :

يُخرِجُ الحيّ من الميّت ـــــــــــــ يُخرِجُ الميّت من الحيّ

فكَسرَ هذا النسق التعبيري إرادة للدلالات المبتغاة من التعبير بالفعل في حالة الإيجاد الحياتي لاستلزام ذلك الحركة ، وتجدد الفعل والحدث دلالة على قدرة الخالق . واستلزم التعبير بالاسم من الصيغة ذاتها حين وصف عملية الإفناء ، للتأكيد على ثبوت هذا المعنى في حقه تعالى وحده .

غير أننا نجد في القرآن الكريم ما يستوي فيه الطرفان في التعبير بالفعلية كما نجد في :

* قوله تعالى : ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣) .

---

١ - سورة الأنعام : آية رقم (٩٥) .
٢ - د. فاضل صالح السامرائي ، التعبير القرآني ، ٢٢ .
٣ - سورة آل عمران : آية رقم (٢٧) .

* وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ [1] .

* وقوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [2] .

فلمَ عَدَلَ في هذه الآيات عن التعبير بالاسمية ، واعتمد التعبير بالفعلية في صيغة الفعل (خَرَجَ) في الطرفين بخلاف آية سورة الأنعام ؟ والإجابة عن هذا العدول نجد ظلالها عند الأنصاري إذ يقول : " قوله ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ قال ذلك هنا ، وقال في آل عمران ويونس والروم ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ بالفعل لأن ما هنا وقع بعد اسم فاعل وهو (فالق) . وقيل : اسما فاعل هما (فالق) و(جاعل) ، فناسب ذكر (مُخْرِج) لكونه اسم فاعل ، وخُصّ بالاسم لتكرار الاسمين بعده ، وخص (يُخْرِج الحيّ) قبله بالفعل إذ لم يتقدمه إلا اسم واحد . وما في بقية السور لم يقع قبله إلا أفعال فناسب ذكره بالفعل " [3] .

فما ورد في سورة آل عمران من التعبير بصيغة الاسم (مُخْرِج) لأنه وقع بين اسمي فاعل هما (فالق الحبّ وفالق الإصباح) ، واسم الفاعل يشبه الاسم من وجهٍ ، فيدخله الألف واللام والتنوين والجار . ويشبه الفعل من وجهٍ ، فيعمل عمل الفعل ،

---

١ - سورة يونس : آية رقم (٣١) .

٢ - سورة الروم : آية رقم (١٩) .

٣ - الأنصاري ، فتح الرحمن ، ٩٩ .

ولهذا جاز العطف عليه بالاسم ، وجاز العطف عليه بالفعل . وعلى ضوء قاعدة العمل بالشبيهين بالنسبة لاسم الفاعل ، ناسب بذكر الاسم هنا ما قبله من أسماء ، وناسب بذكر الفعل في بقية السور ما قبله وبعده من أفعال[1].

وهكذا يكون تفسير هذا العدول الجمالي من الفعلية إلى الاسمية ، في سياق الآيات القرآنية متصلاً بالسياقات القبلية والبعدية لهذه الآيات .

* ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[2]. فعدل عن التعبير بالفعل في جانب المصطفى ﷺ إلى التعبير بالاسم بقوله (تابع) بدلاً من التعبير بالفعل (تبعت) ، فلمَ تمّ هذا العدول ؟

والمعنى في الآية يدور حول ترضية الرسول ﷺ لعدم متابعة أهل الكتاب له ، وعدم الإيمان به ، والإخبار ببراءته عليه ﷺ من اتباع قبلة هؤلاء اليهود[3]. وعلى هذا المعنى يمكننا التأسيس والتفسير لهذا العدول . فالمعنى على إرادة التجدد لحدوث الفعل في حق اليهود بأنهم لم يتّبعوا الرسول ﷺ في هذا الوقت ، لكن إرادة التجدد يمكن أن تشمل هؤلاء اليهود فيؤمنوا فيما بعد . فالأمر هنا مستفاد من التعبير بالفعلية في حق اليهود ، وإمكانية تغيّر هذا الموقف فيما بعد .

١- ينظر : الإسكافي ، درة التنزيل ،٥٢٨/٢.– الكرماني ، البرهان ، ١٥٦ . – الرازي ، مفاتيح الغيب ، ١٣ / ٩٨ .

٢ - سورة البقرة : آية رقم (١٤٥) .

٣ - ينظر : الزمخشري ، الكشاف ،٢٠٢/١.– ابن جزي ، التسهيل ، ١١٠/١.– أبو حيان ، النهر الماد ، ١ / ١٤٨ .

أما التعبير بالاسمية بكلمة (تابع) اسم الفاعل في حق الرسول ﷺ ، فالدلالة فيه على الثبات في الاستمرارية لهذه الصفة ، فهي لن تتغير لاستحالة أن يُغَيِّر المصطفى ﷺ دينه ، ويتبع دين اليهود ، فهذا مما لا سبيل إليه . فناسب التعبير بالاسمية هنا ، وجاء العدول ملائماً للسياق النصي .

والقرآن الكريم يوظف الصيغ الاسمية في سياقات قرآنية متعددة رغم دلالتها على حدث لم يحدث بعد ، يعني أنه متجدد ومستمر في الحدوث ، وهذا أيضاً من العدول التوظيفي ؛ إذ يجعل الأمر الذي لم يحدث بعد بمنزلة الحادث فعلاً ، والمستقر الثابت في حدوثه . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [1] . فالأمر في الآية أنه لم يجعل هذا الخليفة وقت هذا الكلام ، فكيف يُعَبِّر بالاسم (جاعل) للدلالة على سياق حدث متجدد حتى حدوثه ؟ وهذا يتمّ لأن الأمر على صفة الحدوث المؤكّد ؛ لذا ورد بصيغة اسم الفاعل (جاعِل) دون الفعل (سأَجْعَل) ، فالأمر حادث لا محالة ، فكأنه تمّ واستقر وثَبَت .

ويندرج في الإطار ذاته قوله تعالى : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [2] . إذ عَدَلَ عن التعبير بصيغة الفعل (سيغرقون) إلى التعبير باسم المفعول (مُغْرَقون) في وصف حدث لم يحدث بعد ، لكنه صادر عن الله سبحانه وتعالى ، فكأنه تمّ واستقرّ .

١ - سورة البقرة : آية رقم (٣٠) .
٢ - سورة هود : آية رقم (٣٧) .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ [1] . إذ عَدَلَ عن التعبير بالفعل (سنهلك) إلى التعبير بصيغة اسم الفاعل للجمع (مهلكوا) في وصف حدث لم يحدث بعد ، لكنه قصَدَ معنى ثبوت الحدث ، فكأنه تمّ وانتهى .

وهذا التوظيف العدولي للصيغ يُعَدّ من تفردات النص القرآني في توظيف الكلمة القرآنية في تشكيلات لغوية فريدة ، وما نتج عنها من جماليات إذا ما وظفت في السياق القرآني .

أما العدول عن الاسمية إلى الفعلية فقد تلمسناه في قوله تعالى : ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [2] . فقد عَدَلَ عن التعبير بالاسم (ماكلهم) إلى صيغة الفعل (يَأْكُلون) . وهذا العدول على معنى التجدد والاستمرار في الحدث وهو (الأكل) ، وذلك أن هذه الأنعام خُلِقَت أولاً من أجل مهمة محددة هي : توفير الراحلة ، ثم تأتي مهمة كونها طعاماً وزاداً لهم ثانية لا أولى [3] .

ولذا فإنه لمّا عبّر بالاسم (رَكُوب) إنما أراد ثبات هذه الصفة ودوامها ، فالأنعام خُلِقَت من أجل هذا الغرض أولاً ، ولذا فإن الأمر يقتضي هنا التأكيد على ثبات واستقرار هذه الصفة . أما التعبير بالفعل (ياكلون) إفادة للتجدد والاستمرار في هذا الفعل ، ولو عبَّر بالاسمية فقال - في غير القرآن - (ماكلهم) لاستلزم ذلك أن الأنعام جميعها بلا استثناء أهل للماكل ، وهذا مما تنقضه العادة ، ويكذبه الواقع . ولذا فإن

---

١ - سورة العنكبوت : آية رقم (٣١) .
٢ - سورة يس : آية رقم (٧٢) .
٣ - ينظر : الزمخشري ، الكشاف ، ٤ / ٢٨ . - البيضاوي ، أنوار التنزيل ، ٤ / ٤٣٨ .

جمالية التعبير بالفعلية هنا ملمح دقيق في هذا الانتقاء ، وتأكيد الاختيار لما يؤكل من هذه الأنعام .

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ يأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ (1) . فقد تمّ العدول عن التعبير بالاسمية إلى الفعلية في كلمة (يَحِلُّون) . وهذا العدول الذي تم لو كان – في غير القرآن – لأصبح شكل التعبير (لا هنّ حلٌ لهم ولا هم حلٌّ لهنّ) فلمَ تمّ هذا العدول ؟

فالآية تدور على معنى واحد ؛ وهو الحديث عن المؤمنات من أهل مكة اللاتي هاجرن دون أزواجهنّ الكفرة ، وكيفية التأكد من صدق إيمانهنّ ، والأمر بعدم إرجاعهنّ لأزواجهنّ الكفار . يقول الزمخشري : " فلا تردوهنّ إلى أزواجهنّ المشركين ، لأنه لا حلّ بين المؤمنة والمشرك "(2) . فالتعبير هنا إلى قسمين :

الأول : (لا هنّ حلّ لهم) ، أي أنّ هؤلاء المؤمنات أصبحن محرمات على أزواجهنّ المشركين ، لأنه لا يجوز لمؤمنة أن تكون زوجة لمشرك بعد إسلامها . فعبّر بالصيغة الاسمية (حلّ) تأكيداً على هذا المعنى ، وتثبيتاً لهذه الصفة التي لا يمكن أن تتغير لأنها من أحكام الإسلام .

والثاني : (لا هم يحلون لهنّ) أي إن هؤلاء المشركين انتفت عنهم صفة الزوجية من هؤلاء المسلمات بإسلامهنّ . ولكن الرحمة الإلهية عدلت عن التعبير بالاسمية في كلمة

---

١ – سورة الممتحنة : آية رقم (١٠) .

٢ – الزمخشري ، الكشاف ، ٥١٧/٤ . وينظر : أبو حيان ، النهر الماد ، ١٠٩٢/٣ .– البيضاوي ، أنوار التنزيل ، ٢٩٨/٥ .

(حل) إلى التعبير بالفعلية لإمكانية أن يُدرك هؤلاء المشركون الإسلام فيعودون إلى أزواجهم مرة أخرى . فافاد التعبير بالفعلية هنا على معنى الرحمة في التشريع ، وفتح الباب أمام هؤلاء لتجديد الفعل بالإسلام ، واسترجاع الحلّة مرة أخرى . ولو عبّر بالصيغة الاسمية لامتنعت عودة هؤلاء الأزواج إلى نسائهم المؤمنات ، وذلك بإفادة التعبير بالاسم معنى الثبات ، وهذا ما لم يتمّ .

هكذا يكون النسق التعبيري في القرآن الكريم حين يتعامل مع العدول بين صيغ الكلمة في اسميتها وفعليتها رعاية لمقاصد جمالية في هذه الآيات .

د – العدول عن توظيف المفرد إلى توظيف التركيب والعكس :

من فرائد التعبير في النص القرآني في إطار السياق العدولي بمعناه الشامل ، تبنّي القرآن الكريم فنية العدول عن التعبير بالكلمة المفردة إلى التعبير بالتركيب ، والعدول عن التعبير بالتركيب إلى التعبير بالكلمة المفردة ، وذلك في تبادلية فريدة .

* فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [1] . فالتوازن الإيقاعي كان يستلزم أن يكون التعبير – في غير القرآن – : (جعل لكم الليل لتسكنوا والنهار لتبصروا فيه) . لكن تم العدول عن التعبير بالتركيب (لتبصروا فيه) إلى التعبير بكلمة مفردة هي (مبصراً) ، فلمَ تمّ هذا العدول التعبيري مع أن الاستعمال الحقيقي والواقعي للغة يقتضي أن النهار مما يُبصَرُ فيه وليس مما يُبْصِر ؟

والأمر في الآية على نهج الجمع بين الحقيقة والمجاز في حيّز دلالي واحد ، ولو جعلهما بصورة تعبيرية واحدة أي بصيغة (التركيب) لفاتت المزية الفنية . فلو عبّر

---

١ - سورة غافر : آية رقم (٦١) .

بالاسمية في جانب الليل تحقيقاً لمبدأ توازي الجمل إيقاعياً فقال - في غير القرآن - : (هو الذي جعل الليل ساكناً) لانتفت الدلالة على نعمة الله على الخلق من ناحية ، ولأصبح موقع (لكم) على الزيادة . كما أن المجازية هنا تنتفي لأن الليل يصح أن يُوصَف بالسكون فنقول : (ليل ساكن) . فالعدول إلى الاسمية في جانب الليل - لو تمّ - لما كان له أية فائدة دلالية أو قيمة فنية جمالية ، أو تذكيرٌ للعباد بما أنعم الله عليهم بأن جعل لهم الليل ليسكنوا فيه .

وتحقيقاً للفنية الدلالية أيضاً عدل في جانب النهار عن التعبير بالتركيب الجملي (لتبصروا فيه) إلى التعبير بالكلمة المفردة (مُبْصِراً) ، فجمع بين الحقيقة والمجاز ، ذلك أن النهار لا يُبْصِر هو ، بل يُبْصَر فيه ، فدلّ على المقصد الأهم وهو الدلالة على نعمة الله على عباده . كما أنه حقّقَ الجمالية الفنية في التعبير بالجمع بين الحقيقة والمجاز . ولو تم إعمال مبدأ توازن الجمل وتوازنها لاختل هذا النظم الفريد ، إذ كيف يكون شكل التعبير لو قلنا - في غير القرآن : الليل لتسكنوا فيه والنهار لتبصروا فيه ، أو قلنا : الليل ساكناً والنهار مبصراً ، لفاتت الدلالة على النعمة ، ولانتفى القصد الجمالي بتوظيف المجاز هنا [1] .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [2]. فقد عَدَلَ في الآية عن التعبير بالمفردة (يهديه) إلى التعبير بالتركيب الجملي (يجعله على صراط مستقيم) ، فكيف يفسّر هذا العدول ؟

١ - ينظر : الزمخشري ، الكشاف ، ٢ / ٥٨ . - البيضاوي ، أنوار التنزيل ، ٥ / ١٦ .
٢ - سورة الأنعام : آية رقم (٣٩) .

المعنى في الآية يدور على ذمّ أهل الجهل المكذبين للرسالة ، وكيف أن الله وحده بيده مقاليد الأمور في الهداية والإضلال [1] . يقول أبو السعود : " (مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ) تحقيق للحق ، وتقرير لما سبق من حالهم ، ببيان أنهم من أهل الطبع لا يتأتى منهم الإيمان أصلاً . فمن مبتدأ خبره ما بعده ، ومفعول المشيئة محذوف على القاعدة المستمرة من وقوعها شرطاً ، وكونها مفعولًا مضمن الجزاء ، وانتفاء الغرابة في تعلقها به ، أي : من يشأ الله إضلاله ، أي يخلق فيه الضلال ... وقسْ عليه قوله تعالى : (وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) ، لا يضلّ من ذهب إليه ، ولا يزل من ثبت قدمه عليه " [2] .

والتوازي الإيقاعي في الآية بين فعل الله ﷻ في جانبي الهداية والإضلال يمثل بالشكل الآتي :

هداية ــــــــــــــــ الله ــــــــــــــــ خسران

يجعله على صراط مستقيم ++++ ------------ يضلله

فالفاعل واحد هو ﷻ ، لكن موضوع الفعل متنوع ؛ فالفعل الأول (يُضْلِله) : من يشأ الله يُضْلله . والفعل الثاني (يهديه) : من يشأ الله يجعله على صراط مستقيم . والمعنى على تقدير فعل قبل فعل الجزاء ، فيصير شكل الجملتين - في غير القرآن - كما يأتي :

* من يشأ الله أن يُضلّه (يُضلله) ـــ نتيجة فورية (آنية) .
* من يشأ الله أن يهديه (يجعله على صراط مستقيم) ـــ (بيان الطرق) .

---

١ - ينظر : ابن كثير ، تفسير القرآن ، ٢ / ١٣٣ .
٢- أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ٢ / ٢٥ .

فالجملة الأولى تضمنت التعبير بكلمة فعلية هي (يضلله) على معنى تجدد الفعل والحدث ، لا على الحكم القطعي . والجملة الثانية عدلت إلى اصطفاء التركيب (يجعله على صراط مستقيم) لمناظرة ما قبلها في الحكم ، ذلك لأن الهداية أمر نهائي لا بد من سلوك الطريق إليها ، ولذا بين المولى ﷻ هذا الطريق لمن أراد هدايته بأن يهديه فيجعله على صراط مستقيم . يقول السمرقندي (ت ٧٨٠هـ) : " (من يشأ الله يُضلله) يعني يخذله فيموت على الكفر ، (ومن يشأ الله يجعله على صراط مستقيم) يعني يستنقذه من الكفر فيرفقه للإسلام " [١] . وهذا يؤكد تحليل ما تمّ من عدول في الآية .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [٢] . فقد عدل عن التعبير بالتركيب الجملي المحقق لبنية التوازن الإيقاعي في الآية وهو (الذين كذبوا) إلى التعبير بمفردة دالة على معنى هذا التركيب وهي (الكاذبين) . فما دلالة هذا العدول ؟

والمعنى في الآية الكريمة على معاتبة الرسول ﷺ في إذنه لهؤلاء المرتابين في إيمانهم لمّا أرادوا التخلف عن الجهاد في سبيل الله . يقول ابن كثير : " قال مجاهد : نزلت هذه الآية في أناس قالوا : استاذنوا رسول الله ﷺ فإن أذن لكم فاقعدوا ، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا . ولهذا قال تعالى : (حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ) أي : في إبداء الأعذار " [٣] .

١- السمرقندي ، بحر العلوم ، ٢/ ١٥٨ .
٢ - سورة التوبة : آية رقم (٤٣) .
٣ - ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ٢ / ٣٦٢ .

ومن جميل التأويل ما لمحه أبو السعود (ت٩٨٢هـ) في الآية بقوله : "وتغيير الأسلوب بأن عبّر عن الفريق الأول بالموصول الذي صلته فعل دال على الحدوث ، وعن الفريق الثاني باسم الفاعل المفيد للدوام ، للإيذان بأن ما ظهر من الأولين صدق حادث في أمر خاص غير مصحح لنظمهم في سلك الصادقين ، وأن ما صدر من الآخرين وإن كان كذباً حادثاً بأمر خاص ، لكنه أمر جار على عادتهم المستمرة ، ناشئ عن رسوخهم في الكذب "[1] .

وهذا التحليل الدقيق للإمام أبي السعود يصيب الهدف ويربو على ذلك ، فقد لمح في التعبير بالصيغة الفعلية (صدقوا) تجدداً حادثاً لهذا الفعل ، وإنْ كان هذا الصدق منظوراً إليه بحذر . وهذا واضح من سياق الآية ، إذ عبّر قبل هذا الفعل بفعل آخر أشد في التحري هو (يَتَبَيَّن) ، وليس التبيّن هنا هو صدق العذر أو كذبه ، بل مدار الأمر على تبيّن مدلول الخبر عموماً لا الخبر ذاته .

أما التعبير بالكلمة المفردة (الكاذبين) بعد العدول عن التعبير بالتركيب الجملي (الذين كذبوا) ، فقد ورد في سياق الذين كذبوا في أعذارهم ، فذلك من باب التأكيد على هذه الصفة الثابتة فيهم الملازمة لهم ؛ وهي صفة الكذب . فجاء بالكلمة المفردة ؛ اسم الفاعل للجمع تأكيداً على هذه الصفة الخبيثة ، ولذا جاء بالفعل (تعلم) أي : المعرفة اليقينية بهذه الفئة ، بخلاف الفرقة الأولى إذ قال فيما يخصها (يتبيّن) ، حفاظاً على هذه الدلالة .

---

١ - أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ٢ / ٩٧ .

هـ - العدول في توظيف الصيغ الاشتقاقية :

من أشكال التوظيف القرآني لألوان العدول ما نلمسه في توظيف الصيغ الاشتقاقية كاسم الفاعل واسم المفعول وصيغة المبالغة وغيرها ، من تنوع هذا التوظيف ، وتعدد أنماط استعمالاته . فقد يستعمل النص القرآني صيغة اشتقاقية في مكان ما تمكن في مكانها ، ثمّ يعدل عنها في موضع آخر بتوظيف صيغة أخرى ، وذلك مراعاة لمقتضيات السياق .

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ [1] ، فقد تمّ العدول في هذه الآية عن صيغة اسم الفاعل (كافراً) إلى توظيف صيغة المبالغة تحقيقاً للمبالغة ذاتها في جانب الجحود والنكران من جانب الإنسان . وهذا العدول يحقق غايتين هما :

الأولى : الحفاظ على التوازن الإيقاعي بين فواصل الآيات في السورة ، إذ قبل هذه الآية وبعدها فواصل مبنية على الراء المتلوّة بألف الإطلاق ، والمردفة بالمدّ الواوي أو اليائي مثل : (مذكوراً ، وبصيراً ، وسعيراً) . ولو تمّ العدول عن صيغة المبالغة إلى توظيف اسم الفاعل لافتقد الردف الذي تتوازن به فاصلة الآية مع قريناتها في السياق [2] .

والثانية : معنى المبالغة المتولد من صيغة المبالغة . إذ تُبْرز الآية معنى إقبال الإنسان على الكفر بكثرة ، وقلة الإقبال على الشكر والامتنان . يقول أبو السعود : " إيراد الكفور لمراعاة الفواصل ، والإشعار بأن الإنسان قلّما يخلو من كفران ، وإنما المؤاخذ

١ - سورة الإنسان : آية رقم (٣) .
٢ - ينظر : د . محمد الحسناوي ، الفاصلة في القرآن ، ٢٤٢ .

عليه الكفر المفرط "[1]. إذاً تمّ العدول هنا رعاية للفاصلة ، وحفاظاً على دلالة المبالغة الموصوف بها الإنسان في جانب كفرانه لنعم الله ، وعدم شكره على هذه النعم .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴾[2]. فقد تمّ العدول هنا عن توظيف صيغة اسم الفاعل (مُنْذِراً) إلى توظيف صيغة المبالغة (نذيراً) ، فلمَ تمّ هذا العدول مع أن السياق النصي في الآية يعتمد التعبير باسم الفاعل في سياق الآية كلها مثل (شاهداً ، ومبشّراً) ، وكذلك في الآية التالية (داعياً) ، فلمَ تمّ هذا العدول ؟

الآية الكريمة واردة في سياق مدح النبي ﷺ بهذه الأوصاف من ربه ، وذلك تسرية للنبي عما أصابه من عنت الكافرين . والبلاغيون يعرضون لهذه الآية في باب النظم وأثره الجمالي في الكلام ، ويدرجونها في باب تنسيق الصفات[3] ، وكذلك في باب (المدح والذمّ)[4] بلا إشارة إلى ما تم من عدول بين الصيغ هنا .

ونلاحظ أن هذا العدول تم في إطار الحفاظ على جانبين هما :

الأول : الإيقاع الصوتي المتمثّل في ورود الفاصلة القرآنية متسقة مع سياق الآيات بعدها من حيث البناء على (الراء) المتلوّة بألف الإطلاق ، المتلوة بالمد الياني مثل (منيراً ، وكبيراً) .

والثاني : إرادة المبالغة في هذه الصفة وهي (الإنذار) ، إذ لو عبّر بصيغة اسم الفاعل (مُنْذِراً) لما شعرنا بأهمية التأكيد على هذا الإنذار ، ذلك أن جانب الإنذار في الدعوة أهم من جانب البشارة التي تأتي دوماً لاحقة في المرتبة الدعوية .

١- أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ٧ / ١٤٦ . وينظر : البيضاوي ، أنوار التنزيل ، ٥ / ١٦٤ .
٢- سورة الأحزاب : الآيتان رقم (٤٥ ، ٤٦) .
٣- ينظر : البحراني ، مقدمة شرح نهج البلاغة ، ١٣٨ . — الوطواط ، حدائق السحر ، ١٥٠ .
٤- ينظر : ابن النقيب ، مقدمة تفسير ابن النقيب ، ٤٠٠ .

١ - تكرار حروف المباني :

تلجأ العربية إلى إثراء سياقاتها بإنتاج صيغ جديدة وذلك يتم باعتماد تكرار الحروف داخل بنية الكلمة رغبة في إثراء دلالة هذه الكلمة . فتكرار الحروف في الفعل الثلاثي مثلاً يكون على وجه واحد بتضعيف الحرف الثاني (أي تكراره) ليصير الثاني والثالث في الكلمة من جنس واحد كما في (مدّ ، وشدّ ، وردّ ، وضلّ) . يقول ابن جني في حديثه عن التكرار والتضعيف في الفعل (جرّ) : " قدّموا الجيم لأنها حرف شديد ، وأول الجر بمشقة على الجار والمجرور جميعاً . ثم عقبوا ذلك بالراء وهو حرف مكرر ، وكررها مع ذلك في نفسها ، وذلك لأن الشيء إذا جرّ على الأرض في غالب الأمر اهتز عليها واضطرب صاعداً عنها ، ونازلاً إليها . وتكرر ذلك منه على ما فيه من التعتعة والقلق ، فكانت الراء لما فيها من التكرير ، ولأنها أيضاً قد كُررت في نفسها ، في جرّ وجررْت ، أوفق لهذا المعنى من جميع الحروف غيرها "[1] .

والفعل الثلاثي يُزاد بصور تكرارية ليصير رباعياً بأشكال منها :

١- التضعيف : مثل (قَتَلَ ـ قتَّلَ) . و (وَقَفَ ـ وَقَّفَ) .

٢- التكرار المقطعي : وذلك يكون بفك الإدغام في الثلاثي ، وتكرار الحرفين الأول والثاني ، ليتركب منهما مكررين فعل ذو مقطعين متساويين ، ويفيد ذلك المبالغة بالتكرير ، وذلك مثل : (كبّ / كَبْكَبَ) . و (عَسَّ / عَسْعَسَ) . و (زَلَّ / زَلْزَلَ) .

٣- تكرار الحرف المضعّف في الثلاثي ليصير رباعياً ، فيه ثلاثة حروف من جنس واحد ، اثنان منها مدغمان ، والثالث من جنسهما مفرد ، وذلك مثل : (مَدَّ ـ مَدَّدَ) . و (هَدَّ ـ هَدَّدَ) .

---

١ - ابن جني ، الخصائص ، ٢ / ١٦٦ .

وقد وظف القرآن الكريم هذا اللون من التكرار في قوله تعالى : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾ [1] . فقد ورد الفعل الرباعي (كَبْكَبَ) مبنياً للمجهول ، وذلك بتكرار المقطع الأول من الفعل مرتين ليصير الفعل على صورته الرباعية . وعلى ذلك فإن التكرار المقطعي في الفعل يلحقه تكرار الحدث الذي يدلّ عليه الفعل . يقول الزمخشري : " الكبكبة : تكرير الكبّ ، جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى ، كأنه إذا أُلقِيَ في جهنم ينكبّ مرة بعد مرة حتى يستقرّ في مقرها " [2] . فطابق التكرار الحرفي تكرار المعنى أيضاً .

ويرى ابن الهائم (ت٨١٥هـ) أن أصل المعنى في الفعل كبكبوا أنه مبني على " كُبّبُوا أي أُلقُوا على رؤوسهم في جهنم ، من قولك : (كَبَبْتُ الإناء) إذا قلبته " [3] . فحدث هنا إبدال من الباء الوسطى لتصير كافاً ، وذلك استثقالاً لاجتماع ثلاث باءات ، وهذا رأي الكوفيين . أما الجمهور فالرأي عندهم أن حروف الفعل كلها أصول ، وهو مضاعف من (كبّ) ، وجُعِلَ التكرير فيه دليلاً على تكرير المعنى [4] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [5] . فقد ورد الرباعي (عَسْعَسَ) على نمط التكرار المقطعي للفعل (عَسَّ) . يقول الراغب : "عسعس : أي أقبَلَ وأدبَرَ ، وذلك في مبدأ الليل ومنتهاه . فالعَسْعَسَة والعِسَاس : رقة الظلام ، وذلك في طرفي الليل " [6] . وتكرار هذا الفعل بالنسبة لمجيء الليل وزواله يتناسب تماماً مع تكرار المقطع فيه .

---

١ - سورة الشعراء ، آية رقم (٩٤) .
٢ - الزمخشري ، الكشاف ، ٣ / ٣٢٢ .
٣ - ابن الهائم ، التبيان في تفسير غريب القرآن ، ٣٢٠ .
٤ - ينظر : ابن قتيبة ، غريب القرآن ، ٣١٨ . - السيوطي ، معترك الأقران ، ١/ ٣٩٠ .
٥ - سورة التكوير : آية رقم (١٧) .
٦ - الراغب ، المفردات ، ٢ / ٥٥ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾[1]. فقد ورد الفعل الرباعي (حَصْحَصَ) على صورة التكرار المقطعي للفعل (حَصَّ) . ونلاحظ أن (الصاد) تبدو واضحة الظهور من مخرجها الصوتي ، فهي ظاهرة واضحة قوية . وحَصْحَصَ الأمر أي : انكشف وظهر[2]. ولذا ناسب هنا التعبير باقوى الحروف في الكلمة (الصاد) موقف انكشاف الأمر ، وكان المعنى في (حصحص) أي ظهرت حصة الحق من حصة الباطل . والتكرار في الفعل يدلّ عل[illegible]نا ، وهو ما حدث في قصة يوسف عليه السلام ، حيث ظهرت بوادر براءته في مواضع عديدة قبل اعتراف زوجة العزيز بهذه البراءة .

والقرآن الكريم زاخر بمثل هذه المواضع الجمالية التي وظف فيها تكرار حروف المباني في سياق الكلمة المفردة . فمن ذلك :

* قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[3].
* قوله تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾[4] .
* قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾[5] .
* قوله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾[6] .

---

١ - سورة يوسف : آية رقم (٥١) .
٢ - ينظر : أبو حيان ، البحر المحيط ، ٥ / ٣١٣ . - ابن الهائم ، التبيان ، ٢٤٦ .
٣ - سورة آل عمران : آية رقم (١٨٥) .
٤ - سورة الأعراف : آية رقم (٢٠) .
٥ - سورة الشمس : آية رقم (١٤) .
٦ - سورة الزلزلة : آية رقم (١) .

ب – تكرار الصيغة والوزن :

يتعامل القرآن الكريم مع ملمح تكرار الصيغة والوزن جميعاً وفق محددات سياقية تقوم على مراعاة الوشائج النصية بين اللفظة المكررة والسوابق واللواحق من الألفاظ في سياق الآية الواحدة . وتكرار اللفظ القرآني في مواضع متقاربة له دلالات كثيرة تتمثل في جانبها الأعظم في مناط العناية والاهتمام الخاص بدلالة المكرر ، ذلك لأن كل تكرار ليس دوماً للمدح أو التنويه بذكر المكرّر .

فمثلاً من أكثر الألفاظ القرآنية دوراناً في سياق الآيات لفظ الجلالة (الله) . فقد يرد هذا الاسم الجليل مكرراً في سياق الآية الواحدة كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ ﴾[1] . فالسياق في الآية يدور حول الحديث عن المنافقين وهم ألدّ الأعداء ، ولذا استحقوا حكم الله عليهم بالدرك الأسفل من النار . وهذا السياق يقتضي تكرار لفظ الجلالة (٤ أربع مرات) في سياق الآية للتعظيم والتخويف ، وإلقاء الرعب في قلوبهم لعلهم يتوبون إلى الله تعالى .

ومن ذلك أيضاً تكرار لفظ (الحق) في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[2] . فقد كرر لفظ (الحقّ) في سياق الحديث الموجّه إلى أهل الشرك والكفر ، وهم أهل الباطل ودعاته ، ولذا ناسب هذا المقام تكرار لفظ (الحق) في (٤ أربعة مواضع) لبيان أن السبيل الوحيد للنجاة في الدنيا والآخرة هو

---

١ – سورة التوبة : آية رقم (٥٩) .
٢ – سورة يونس : آية رقم (٣٥) .

اتباع سبيل الله الحق . ولذا جاء التوكيد للفظ بتكراره بصيغتي المصدر وأفعل التفضيل .

ومن ذلك أيضاً تكرار لفظ (الناس) لتقبيح شان اللفظ المكرر ، وذلك قصداً للزجر والتنفير من حال المكرر ذكرهم ، كما في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾[1] . فقد كان يمكننا – في غير القرآن – الاستغناء عن لفظ (الناس) بذكر الضمير (هم) كما ورد في آيات أخرى ، لكن التكرار هنا مقصود لتذكير الناس بان أكثرهم غير شكور ، للتنفير من النكران .

ومن ذلك أيضاً تكرار لفظ (أولئك) اسم الإشارة الدال على (تعيين البعيد) في سياقات المدح والذمّ .ففي قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾[2] . فقد كرر في الآية الثانية كلمة (أولئك) مرتين دلالة على مكانة هؤلاء المؤمنين الصابرين وكرامتهم عند ربهم ، وما يستحقونه لصبرهم .

وتكرر لفظ (أولئك) في سياق الذمّ والتقبيح في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[3] ، وذلك لتقبيح حال هذه الفئة ، والتنفير من التشبه بهم .

١ – سورة غافر : آية رقم (٦١) .
٢ – سورة البقرة : الآيتان رقم (١٥٦ ، ١٥٧) .
٣ – سورة الأعراف : آية رقم (١٧٩) .

ومن ذلك أيضاً تكرار لفظ (اصطفاك) في قوله ﷻ : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾[1]. يقول أبو السعود :" (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ) أولاً حيث تقبّلك من أمك بقبول حسن ، ولم يتقبّل غيرك أنثى ، وربّاك في حجر زكريا عليه السلام ، ورزقك من رزق الجنة ، وخصّك بالكرامات السنية... واصطفاك آخرا على نساء العالمين بأن وهبَ لك عيسى عليه السلام من غير أب ، ولم يكن ذلك لأحد من النساء"[2].

والمفسرون على اعتماد هذا المعنى في الاصطفاءين ؛ فالأول : اصطفاء الوهب للعبادة ، والخدمة في بيت المقدس ، والثاني بكونها أم عيسى عليه السلام[3] . فكرر الاصطفاء هنا لتكرار المعاني الجديدة ، إذ لكل اصطفاء موطنه وغرضه ، وما ذلك إلا دلالة على منزلة مريم عليها السلام وكرامتها عند ربها .

ومن ذلك تكرار كلمة (بإذني) في (٤ أربعة مواضع) في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ

١- سورة آل عمران : آية رقم (٤٢) .
٢- أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ١ / ٢١١ .
٣- ينظر : السمرقندي ، بحر العلوم ، ١ / ٨٦ . - ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ١ /٣١٨ . - أبو حيان ، البحر المحيط ، ٣ / ٩٦. - البيضاوي ، أنوار التنزيل ، ١ / ٤٠٥ . - الأنصاري ، فتح الرحمن ، ٥٠ .

الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [1] . ونفصّل اقتران كل لفظة من المكرر مع سياقها الخاص كما يلي :

الأول : (تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ) ـ بإذني ـــ (الخلق والتصوير) .

والثاني : (فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً) ـــ بإذني ـــ (نفخ الروح والحياة) .

والثالث : (وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ) ـ بإذني ـــ (الشفاء) .

والرابع : (تُخْرِجُ الْمَوتَى) ـــ بإذني ـــ (إحياء الموتى) .

يقول الزمخشري : " كرر (بإذن الله) دفعاً لوهم من توهّم فيه اللاهوتية " [2] . أي نفياً لظنّ من يعتقد بالوهية عيسى ﷺ، فجاء التكرار للدلالة على طلاقة القدرة ، ومطلق الألوهية لله ﷻ .

إن الاتكاء على تكرار كلمة (بإذني) إنما مقصده الأهم التذكير بأن هذه الأمور مما يختص بها الله سبحانه وتعالى وحده ، وأن هذا التاييد من جانب الله لنبيه عيسى ﷺ غرضه إثبات التحدي لقومه من ناحية إنكارهم لهذه الدعوة ، وبراعتهم في مجال الطبّ من ناحية أخرى. فجارى التحدي بالتحدي ، وقرنَ كلّ أمر بأنه بإذن الله وحده رعاية لهذا التحدي ، وتذكيراً بالقدرة الإلهية .

هكذا يكون التوظيف القرآني لسياقات التكرار بالصيغة والوزن معاً ، قصداً لجماليات سياقية ناتجة عن هذا التوظيف الصوتي لهذه التكرارات .

١- سورة المائدة : آية رقم (١١٠) .
٢ - الزمخشري ، الكشاف ، ١ / ٤٣١ .

ج – تكرار الوزن دون الصيغة :

من الفنيات الجمالية للتوظيف القرآني لمبحث التكرار ما نلمسه من الاتكاء على وزن صرفي بعينه في إطار الآية القرآنية قصداً إلى التأسيس الدلالي على هذا الوزن . فالتوظيف القرآني للصيغ الصرفية على نظام تكراري ، لا شك أنه يهدف إلى أغراض ودلالات سياقية متنوعة .

فمثلاً قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (١) . نلاحظ تكرار الصيغة الصرفية (يُفعِلون) التي وردت عليها الأفعال (يؤمنون ، ويقيمون ، وينفقون) على غرض إثبات تجديد الحدث والاستمرارية في الفعل في جانب الأتقياء ممن مُدِحوا في نهاية الآية السابقة في قوله تعالى : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) ، فهي صفة تحتاج إلى بيان صفات من تحلوا بها ، وعلى هذا توالت الصفات متكررة بهذا الوزن الصرفي ، وعلى الصورة الفعلية لإضفاء الاستمرارية في فعل هذه الصفات . يقول أبو حيان : " وترتيب هذه الصفات من باب الأهم فالأهم ، والألزم فالألزم ، فالإيمان لازم للمكلف دائماً ، والصلاة في كثير من الأوقات ، والنفقة في بعض الأوقات " (٣) .

ومن ذلك تكرار وزن (فُعْل) في سياق قوله تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ (٤) . فقد كرر صيغة أفعل التفضيل مجموعة في جانب هؤلاء المنافقين

---

١ – سورة البقرة : آية رقم (٣) .
٢ – سورة البقرة : آية رقم (٢) .
٣ – أبو حيان ، النهر الماد ، ١ / ٢٢ .
٤ – سورة البقرة : آية رقم (١٨) . وكذلك آية رقم (١٧١) .

المعاندين للإيمان ، الجاحدين للرسالة . فجعل حواس (السمع ، والكلام ، والبصر) مما لا يُنتَفَع به من جانبهم ، دلالة على أنه سبحانه وتعالى قد سدّ عليهم منافذ الإيمان التي لا تكون إلا بهذه الوسائل .

يقول الفراء في تفسير سبب الرفع الإعرابي لهذه الأسماء : " رُفِعْن وأسماؤهن في أول الكلام منصوبة لأن الكلام تمّ وانقضت به آية ، ثم استؤنفت (صم بكم عمي) في آية أخرى ، فكان أقوى للاستئناف . ولو تم الكلام ولم تكن آية لجاز أيضاً الاستئناف"[1] . فالرفع هنا على الخبرية أي (هم صم) ، والرفع على الخبرية يفيد العمدية في اتخاذ هذا الموقف حيال الإيمان ، والتنبه الواضح في هذا الموقف ، إذ هم مدركون تماماً ما يفعلون . وهذا التوجيه يبرز جانب العناد للإيمان .

ويرى الأخفش رفعها على الابتداء [2] . وهذا أيضاً يتسق مع ما سبق تقريره من إثبات القصدية في تبني هذه الصفات . ويرى أبو حيان في هذه الأسماء أنها " أخبار متباينة الوضع ، لكنها في معنى واحد وهو عدم قبولهم الحق " [3] .

ويعود الفرّاء في توجيه آخر ليرى أنها منصوبة وفقاً لقراءة عبد الله بن مسعود [4] ، وذلك " على وجهين : إن شئت على معنى : تركهم صماً بكماً عمياً ، وإن شئت اكتفيت بأن تُوقِع الترك عليهم في الظلمات ، ثمّ تستأنف (صُمّاً) بالذمّ لهم . والعرب تنصب بالذم والمدح " [5] .

---

١ - الفراء ، معاني القرآن ، ١ / ١٦ .
٢ - الأخفش ، معاني القرآن ، ١ / ٥٤ .
٣ - أبو حيان ، النهر الماد ، ١ / ٣٦ .
٤- ينظر : الأخفش، معاني القرآن ،١/ ٥٤.– النحاس ، إعراب القرآن ،١/ ٩.- مكي ، مشكل إعراب القرآن ، ١/ ١٠.
٥ - الفراء ، معاني القرآن ، ١ / ١٦ .

فقد رأى نصب هذه الأسماء في هذه القراءة على الحالية ، أو النصب على المفعولية ، أو الدعاء بالذمّ . ويتم التوجيه الدلالي وفقاً لذلك بأنّ هذه الحال قد تتبدّل فيصير هؤلاء غير ما اتّصفوا به ، ويصير الدعاء بالذمّ أيضاً عند هذا التغيّر غير مُجْدٍ ولا مُفيد .

وكل هذه التأويلات الجمالية لحركات الإعراب في الأسماء الواردة إنما تتم في سياق تبيان الدلالة دون ربط هذه الدلالة بالمعطى الصرفي في اختيار أفعل التفضيل للتوظيف في الآية دون غيره من المشتقات ، وما أفاده المعطى الصوتي من توظيف هذه الصيغة على هيئة الجمع .

غير أننا نلمح من سياق التعبير بالاسمية إفادة الثبات لهذه الصفات في جانب المنافقين ، واستحالة تغير هذا الموقف منهم تجاه الإيمان . ثم يعقب ذلك أيضاً توظيف ما يمكننا لمح سياق المبالغة فيه ؛ وهو أفعل التفضيل ، فتأتي مرتبة بعد مرتبة . ثم التعقيب بعد ذلك بجمع هذه الصيغة إرادة للمبالغة أيضاً . ويمكننا تلمس ما حدث هنا بهذا المخطط :

* الحالة الأولى : الاسمية ــــــ إفادة الثبات للصفة .
* الحالة الثانية : أفعل التفضيل ــــ المبالغة في ثبات الصفة .
* الحالة الثالثة : الجمع ــــ التكثير في المبالغة .

كذلك يمكن إضافة ما يفيده التكرار الصيغي لاشتقاق (أفعل التفضيل) من دلالات تتعاضد جميعاً في إبراز موقف واحد هو (عدم قبول الحق) .

ومن ذلك تكرار صيغة اسم الفاعل بجمع المذكر السالم في قوله تعالى : ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

والنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [1] . إذ كرر صيغة اسم الفاعل من الثلاثي في الآية الكريم في (٧سبعة مواضع) متتالية بلا عاطف . ويجب أن نقرر هنا أولاً أن النحاة على الرأي بأن النعت المفرد لا يكون إلا اسماً مشتقاً ، لفظاً أو تاويلاً . والمراد بالمشتق هنا أي ما أُخِذَ من المصدر للدلالة على معنى صاحبه مثل اسم الفاعل ، واسم المفعول ، والصفة المشبهة باسم الفاعل . [2] . والوصف بالمشتق هو الأصل ، أما المؤوّل بالمشتق فهو فرع على الأصل ، وذلك لأن الغرض من الصفة إبراز الفرق بين المشتركين في الاسم ، وهذا الفرق يحدث بالمعاني القائمة بالذوات ، وهذه المعاني هي المصادر . فالمشتقات تدلّ على حدث مسند إلى صاحبه ، وهذا جوهر علاقة الإسناد في الجملة الفعلية [3] .

وعلى هذا فإن دور المشتق الموظف سياقياً هو الدلالة على معنى إضافي إلى صاحب الفعل والحدث ، وهذا المعنى زيادة فوق زيادات أخرى تضاف إلى صاحب هذا الفعل .

ونلاحظ في سياق الآية تكرار (٩ تسعة أوصاف) في جانب المؤمنين في سياق التبشير والاستبشار الذي تدل عليه سياق الآيات في مدح هذه الفئة . وقد وردت هذه الصفات على هيئة اسم الفاعل من الأفعال الثلاثية التالية : (تَوَبَ ، و عَبَدَ ، وحَمَدَ ، وسيَحَ ، وركَعَ ، سَجَدَ ، وأَمَرَ ، ونَهَيَ ، وحفَظَ) ، ثم جمع هذه الأسماء المشتقة . وتوظيف الاسم هنا دلالة على ثبات هذه الصفات واستقرارها في جاب أهل الإيمان . يقول د. عبد الفتاح لاشين : " حسن إسقاط حرف الواو من الصفات السبعة الأولى لأن موصوفها متحد ، وقصد الإشعار بأن هذه الصفات في تلازمها كالصفة الواحدة " [4] .

---

١ - سورة التوبة : آية رقم (١١٢) .
٢- ينظر : ابن عقيل ، شرح الألفية ، ٢ / ٥٢ .
٣ - ينظر : السيوطي، الأشباه والنظائر، ٢ / ٨٩ .
٤ - د. عبد الفتاح لاشين ، من أسرار التعبير ، ٨٤ .

ثم إن اختيار صيغة اسم الفاعل دون غيرها تمّ في تناسب سياقي يفيد فاعلية هذا الموصوف في قيامه بهذه الصفات ؛ فهو تائب عابد سائح راكع ساجد آمر بالمعروف ما استطاع ، ناهٍ عن المنكر ما استطاع ، حافظ لحدود الله ، ولذا حقّت البشارة . يقول أبو حيان : " لما ذكر مجموع هذه الأوصاف ، أمر رسوله ﷺ بأن يبشر المؤمنين . وفي الآية قبلها (فاستبشروا) : أمرهم بالاستبشار فحصلت لهم المزية التامة بأن الله أمرهم بالاستبشار ، وأمر رسوله أن يبشرهم "[1] . ولو عدل إلى توظيف صيغة مشتقة أخرى غير اسم الفاعل كصيغة المبالغة مثلاً لخرج الأمر عن هذا النطاق الدلالي ، وذلك لعدم اقتضاء المبالغة في هذا السياق ، وفي هذه الصفات مهما تكررت .

وعلى هذا النهج يسير القرآن الكريم في تعامله مع تكرار الصيغ الاشتقاقية في سياق الآية بما يتسق مع المعطى الصوتي والصرفي والدلالي في هذه السياقات .

د – تكرار الصيغ لمادة واحدة :

كثيراً ما تتردد مشتقات وصيغ مادة لغوية في ثنايا الآية القرآنية في قصدية واضحة الدلالة على الاهتمام بما يراد من وراء هذا التوظيف التكراري لهذه الصيغ من هذه المادة ، وذلك في إطار السياق الدلالي لهذه الآية . فالمادة المكررة في علاقاتها بالمكونات السياقية السابقة واللاحقة تستدعي حالات من التماسك النصي في الإطار الأعم وهو المعنى المحوري الذي تنعقد عليه الآية .

فمن ذلك ما نلمسه في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾[2] . فقد تكررت مادة (هَدَيَ) في الآية (خمس مرات) على الصور التالية :

---

١ – أبو حيان ، النهر الماد ، ١ / ١٠٦ .
٢ – سورة يونس : آية رقم (٢٥) .

• الفعل المضارع المسند إلى ضمير الغائب (الفاعل) ـ(يهْدي) . ورد مكرراً أربع مرات .

• المضارع المبني للمجهول المسند إلى ضمير الغائب (نائب الفاعل) . (يُهْدى) ـ ورد مرة واحدة .

وتكررت صيغ مادة (حَقَّ) في سياق الآية أربع مرات، وردت على الصور التالية :

• صيغة المصدر (الحق) ــــــ تكررت (ثلاث مرات) .

• صيغة أفعل التفضيل (أحقّ) ــــــ وردت مرة واحدة .

وبملاحظة هذه التكرارات نجد أن التعبير بصيغ مادة (هَدَيَ) دارت كلها على الفعلية لإفادة التجدد والاستمرارية في أداء دلالات هذه المادة . يقول الزمخشري : " الله وحده هو الذي يهدي للحقّ بما ركب في المكلفين من العقول ، وأعطاهم من التمكين للنظر في الأدلة التي نصبها لهم ، وبما لطف بهم ووفقهم وألهمهم وأخطر ببالهم ، ووقفهم في الشرائع ، فهل من شركائكم الذين جعلتم أنداداً لله أحد من أشرفهم كالملائكة والمسيح وعزير يهدي إلى الحق مثل هداية الله "[1] .

ولنتأمل إسناد فعل الهداية الأول إلى الشركاء وتعديته بحرف الجر (إلى) ، في حين أن هذا الفعل في حالة إسناده إلى الله ﷻ تعدى بحرف الجر (اللام) و(إلى) ، فما سرّ ذلك ؟ والإجابة عن ذلك أن الفعل (هدى) إذا تعدى بحرف الجر (إلى) يتضمن معنى الانتهاء ، وإذا تعدى بحرف الجر اللام دلّ على أن المنتهى غاية الهداية ، وأن هذه الهداية لم تتوجه نحوه على سبيل الاتفاق . ولذا عبّرَ في جانب التهكم من الشركاء بالفعل (هدى) وقد عُدِّيَ بحرف الجر (إلى) تهكماً منهم ، إذ كيف تهدي إلى

١ - الزمخشري ، الكشاف ، ٢ / ٢٤٦ .

ما لم تهتدِ إليه ، ولا تعرف سبيله ، ولا غايته ؟! في حين جمع في جانب الحقّ ﷻ بين الفعل بتعديه بحرف الجر (إلى) و(اللام) للدلالة على مطلق الهداية وسلوك السبيل إليها . يقول أبو حيان : " بيَّنَ عجزهم عن هذا النوع من صفات الإله وهو الهداية للحق ، وإلى منهاج الصواب "[1] .

أما تكرار صيغ مادة (حقّ) على الاسمية المتنوعة بين المصدر وأفعل التفضيل فمبني على التناسق الدلالي مع صيغ مادة (هَدَيَ) ، فالحق غاية ، والهداية وسيلة ، فلمّا كرر الوسيلة تكررت غايتها[2] .

ومن ذلك تكرار صيغ متنوعة من مادة (قَتَلَ) في قوله تعالى : ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾[3] .

حيث تكررت صيغ المادة في (٦ ستة مواضع) ، وردت على النحو الآتي :

* فعل أمر ــــ (اقتُلوهم) ــــ ورد مرتين .
* فعل مضارع ــ (تُقاتِلوهم) ــ مرة واحدة .
* فعل مضارع ــ (يُقَاتِلوكم) ــ مرة واحدة .
* فعل ماض ــ (قَاتَلُوكم) ــ مرة واحدة .
* المصدر ــــ (القَتْل) ــــ مرة واحدة .

---

١ - أبو حيان ، النهر الماد ، ٢ / ٢٤ .
٢ - أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ٣ / ٦٥٦ .
٣ - سورة البقرة : آية رقم (١٩١) .

وإذا علمنا أن عدد دوال (كلمات) هذه الآية بلغ (٢٦ ستًا وعشرين كلمة) ، فإن نسبة تمثيل صيغ المادة المكررة هنا تمثل (٢٣ ٪) من هذه الكلمات ، أي الربع تقريباً ، وهذه نسبة تمثيل عالية بالنسبة لعدد الكلمات في الآية مما يتوافق مع السياق في الآية الذي يدور على أمر المؤمنين بالجهاد في سبيل الله ، وقتال المشركين نصرة لدين الله ، مع الحرص على عدم البدء بالقتال حتى يكون أهل الشرك هم شرارة البدء [1] .

وتنوع الصيغ ما بين الماضي والمضارع والأمر والمصدر دلالة على أهمية الأمر ، وشدة الحرص عليه ، دفعاً للشرك ، ونصرة للحق . فالتكرار هنا قائم على التنبيه والتأكيد ، وإظهار الحرص على هذا الأمر . فالمكرر هنا يشمل الأمر والنهي والإرشاد ، والحث على الخير ، والتنفير من الشرّ بمخالفة الأمر .

وهكذا ينهج القرآن الكريم في توظيف تكرارات صيغ المادة الواحدة في سياقاتها الجمالية على أتمّ ما يكون . كما أن القرآن الكريم زاخر بمثل هذه التكرارات .

---

١ - ينظر : الزمخشري ، الكشاف ، ١ / ١٣٦ . – أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ١ / ١٤٠ . – أبو حيان ، النهر الماد ، ١ / ١٨٤ . – البيضاوي ، أنوار التنزيل ، ١ / ٢٧٥ .

تلك هي بعض الإشارات الجمالية التي تولدت من معالجات القرآن الكريم لفنية التكرار في السياق الكلي للآيات ، وبيان ما يرتبط بهذا التكرار من فنيات أسلوبية ، وتلوينات صوتية تعاضدت جميعاً في أداء الدلالة ، لأنها المقصد الأهم لبيان أثر هذه التلوينات ، وما أفادته من ثراءات في السياق النصي .

٦ - التلوين الصوتي بالحذف :

الحذف في اللغة سواء كان قياسياً أو سماعياً وسيلة من وسائل التخفيف من الثقل النطقي للفظ داخل البينة اللغوية . ولذا اشترط اللغويون بعض الشروط التي يجب أن تكون حاكمة لبنية الحذف منها [١] :

١-ألا يؤدي هذا الحذف إلى التباس لفظ بآخر ، بحيث تتشابه الألفاظ مما يؤدي إلى التباس المعاني .

٢- ألا يؤدي الحذف إلى إنتاج صور مرفوضة ، أو صور لفظية ثقيلة ، كأن يؤدي الحذف مثلاً إلى توالي أربعة متحركات ، أو تجاور حرفين ثقيلين ، أو تجاور ساكنين . فالحذف إذا أدى إلى هذه الأشكال فهو مرفوض . يقول ابن جني : " العرب إذا حذفت من الكلمة حرفاً ، إما لضرورة ، أو إيثاراً ، فإنها تصور تلك الكلمة بعد الحذف منها تصويراً تقبله أمثلة كلامها ، ولا تعافه وتمجّه لخروجه عنها " [٢] .

٣- ألا يؤدي الحذف إلى غموض الدلالة في سياقها .

٤- أن يوجَد دليل على المحذوف ، لكي يكون اعتبار وجوده قائماً في المعنى [٣] .

ونظراً لأننا نخص الكلمة هنا بالتحليل فإننا سوف نعالج فنية الحذف كأحد التلوينات الصوتية في تعانق سياقاتها مع سياقات الكلمة ، وبيان الأثر الجمالي لهذه التعانقات .

---

١ - ينظر : سيبويه ، الكتاب ، ١ / ٣٢٠ . – المبرد ، المقتضب ، ٣ / ٢٢٥ . – ابن جني ، الخصائص ، ٢ / ٢٦٠ . – ابن يعيش ، شرح المفصل ، ١ / ٩٠ – ١٠٥ . – الرضي ، شرح الكافية ، ١ / ٢٧٥ – ٢٨٤ .

٢ - ابن جني ، الخصائص ، ٣ / ١١٢ .

٣ - ينظر : د . طاهر حمودة ، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي ، ١١١ - ١٢٨.

أ – حذف الحروف في الكلمة القرانية :

تلجأ العربية إلى حذف بعض حروف الكلمة قصداً لأغراض دلالية مبعثها الأهمّ التخفيف أو الترخيم وفقاً لمعطيات السياق ، ذلك لأن " الحذف في اللفظ وثيق الصلة بالمعنى " [1] . وحذف الحروف من اللفظ له أسباب منها :

١- الحذف لكثرة الاستعمال :

وهو من الحقائق المقررة عند المحدثين من علماء اللغة ، وذلك لأن كثرة الاستعمال تُبلي الألفاظ ، وتجعلها عرضة لقصّ أطرافها [2] . ونلمس ذلك عند الأخفش عند تعليله حذف ألف (اسم) من الخط تخفيفاً لكثرة الاستعمال [3] .

وكذلك تنبّه الفرّاء لهذه الظاهرة عند حديثه عن حذف الألف في (بسم الله) تخفيفاً لكثرة الاستعمال [4] . وتعليله الجميل لحذف الياء من كلمة (أم) في قوله تعالى : ﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[5] ، وهي ياء المتكلم التي تعدّ ضميراً مستقلاً ، أي أن حذفها ليس كحذف حرف من بنية الكلمة . يقول : " ذلك لأنه كثر في الكلام ، فحذفت العرب منه الياء . ولا يكادون يحذفون الياء إلا من الاسم المنادى يضيفه المنادي إلى نفسه ، إلا قولهم : يا ابن عمّ ، ويا ابن أمّ ، وذلك أنه يكثر استعمالها في كلامهم " [6] .

٢- الحذف كراهة التقاء الساكنين :

تكره العربية توالي الساكنين ، ولذا تلجأ إلى التخلص منها بعدة وسائل منها الحذف . وقد ارتأى المحدثون من علماء اللغة أن الحذف لكراهة التقاء الساكنين اختصت به العربية

١ – د. محمد أبو موسى ، خصائص التراكيب ، ١١٤ .
٢ – ينظر : د.رمضان عبد التواب ، التطور اللغوي: مظاهره وعلله ، ٩٥ .
٣ – ينظر : الأخفش ، معاني القرآن ، ١ / ١٤٧ — ١٥٥ .
٤ – ينظر : الفراء ، معاني القرآن ، ١ / ٢٨ .
٥ – سورة الأعراف : آية رقم (١٥٠) .
٦ – الفراء ، معاني القرآن ، ١ / ٢٩٤ . — وينظر : أبو عبيدة ، مجاز القرآن ، ٢ / ٢٥ .

من بين سائر اللغات مراعاة للتكافؤ والانسجام في بنية الكلمة الواحدة ، وفي اتصال الكلمة بغيرها ، حتى يجيء الكلام العربي على هيئة مخصوصة ، وبنية موسيقية منسجمة [1] .

فإذا التقى ساكنان في كلمة أو كلمتين وجب التخلص من أحدهما إما بحذف أولهما أو تحريكه ، فيحذف الأول صوتاً وخطاً إن كان حرف مدّ (والحذف هنا في الحقيقة تقصير للصائت الطويل) ، سواء كان الثاني منهما جزءًا من الكلمة ، أو كالجزء منها [2] .

وقد فطن أبو عبيدة إلى هذه الظاهرة عند تعليله حذف الألف من (اسجدوا) في قوله تعالى : ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [3] فقال : " وهذه الياء التي قبل الألف في (اسجدوا) تزيدها العرب للتنبيه إذا كانت ألف الأمر فيها من ألفات الوصل نحو قولك : اضرب يا فتى ، واسجد ، واسلم " [4] . فحذف الألف هنا مرتهن بزيادة الياء التي هي للتنبيه ، ولذا جاز حذف الألف من الكلمة اكتفاءً بالياء .وعلى هذا التوجيه الفرّاء والأخفش [5] .

٣- الحذف للوقف :

عرض سيبويه لقضية الحذف للوقف في باب ما يحذف من أواخر الأسماء في الوقف ؛ بقوله : " أما الأفعال فلا يُحذَف منها شيء لأنها لا تذهب في الوصل في حال ، وذلك : لا أقضي ، وهو يقضي ويغزو ويرمي . إلا أنهم قالوا : (لا أدرِ) في الوقف ، لأنه كثر في كلامهم " [6] .

---

١ – ينظر : د. إبراهيم السامرائي ، التطور اللغوي والتاريخي للغة العربية ، ٧٣ .
٢ – ينظر : د. طاهر حمودة ، ظاهرة الحذف ، ٧٣ .
٣ – سورة النمل : آية رقم (٢٥) .
٤ – أبو عبيدة ، مجاز القرآن ، ٢ / ٩٣ .
٥ – ينظر : الفراء ، معاني القرآن ، ١ / ٤٣١ . – الأخفش ، معاني القرآن ، ٢ / ٦٤٩ .
٦ – سيبويه ، الكتاب ، ٤ / ١٨٤ .

ويرى أبو عبيدة أن هذا اللون من الحذف من مناهج العرب في تعاملهم مع الكلمة حين يراد الوقف على آخرها فيحذفونه وقفاً . يقول في تعليله لحذف الياء من كلمة (يسر) في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾[1] : " العرب تحذف هذه الياء في موضع الرفع ، ومثل ذلك (لا أدرِ) "[2].

ويناقش الأخفش هذه المسألة في تحليله لحذف ياء الإضافة بقوله : " فإذا كان شيء من هذا الدعاء حذفت منه الياء نحو : ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾[3]. ومن العرب من يحذف هذه الياءات في الدعاء وغيره من كل شيء ، وذلك قبيح في رؤوس الآي ، فإنه يحذف في الوقف . كما تحذف العرب في أشعارها من القوافي "[4].

٤- الحذف كراهة توالي الأمثال :

فمن ذلك ما عرضه أبو عبيدة من تحليل لحذف حرف (النون) في كلمة (تبَشّرونِ) في قوله تعالى : ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾[5] بكسر نون الفعل ، وهي قراءة ابن كثير ونافع ، وبفتحها على قراءة أبي عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي[6]. يقول : " قوم يكسرون النون ، وكان أبو عمرو يفتحها ويقول : إنها إن أضيفت لم تكن إلا بنونين لأنها في موضع رفع ، فاحتج مَنْ أضافها بغير أن يُلحِق فيها نوناً أخرى بالحذف ؛ حذف أحد الحرفين إذا كانا من لفظ واحد"[7]. وهذا الحذف الذي تم هنا إنما هو في سياق الحذف لتوالي الأمثال . وهذا ما ذهب إليه الأخفش أيضاً[8].

---

١ - سورة الفجر : آية رقم (٤) .
٢ - أبو عبيدة ، مجاز القرآن ، ٢ / ٢٩٧ .
٣ - سورة الزمر : آية رقم (١٦) .
٤ - الأخفش ، معاني القرآن ، ١ / ٢٣٩ .
٥ - سورة الحجر : آية رقم (٥٤) .
٦ - ينظر : ابن مجاهد ، السبعة في القراءات ، ٣٦٧ .
٧ - أبو عبيدة ، مجاز القرآن ، ١ / ٣٥٢ .
٨ - الأخفش ، معاني القرآن ، ١ / ٤٤٣ .

٥- حذف الياء والواو والاجتزاء عنهما بالحركة المجانسة :

وهو من عادات العرب . فالفراء في تعليقه على قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾[1] ، وبيان سبب إثبات ياء (اخشوني) في الآية ، وعدم إثباتها في مواضع أخرى من القرآن يقول : " أثبتت فيها الياء ولم تثبت في غيرها ، وكل ذلك صواب . وإنما استجازوا حذف الياء لأن كسرة النون تدلّ عليها ، وليست تهيب العرب حذف الياء من آخر الكلام إذا كان ما قبلها مكسوراً . من ذلك ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ [2] ، و﴿أَهَانَنِ﴾[3] في سورة الفجر ، وقوله ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾[4] .ومن غير النون ﴿الْمُنَادِ﴾ [5] ، و﴿الدَّاعِ﴾[6] ، وهو كثير يُكتفى من الياء بكسرة ما قبلها ، ومن الواو بضمة ما قبلها " [7] .

وهذه الحروف المحذوفة كما في (يدع) في قوله تعالى : ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ﴾[8] ، حيث حُذِفَت الواو ، إنما تمّ الحذف فيها لدلالات سياقية كالدلالة على سرعة حدوث الفعل ، أو سهولته على فاعله ، أو شدة قبول المنفعل به في الوجود [9] .

أ – حذف التاء في أول الفعل المضارع :

ويتمّ ذلك إذا التقت التاء الأولى في الفعل بأخرى في أوله . وهذا في ثلاث صيغ (تَفَعَّلَ ، وتَفَاعَلَ ، وتَفَعْلَلَ) . ويُعلّل الحذف هنا بأنه لتوالي الأمثال [10] . وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة تدلل على الحذف في هذه الصيغ مثلما نجد في :

---

١ – سورة البقرة : آية رقم (١٥٠) .
٢ – سورة الفجر : آية رقم (١٥) .
٣ – سورة الفجر : آية رقم (١٦) .
٤ – سورة النمل : آية رقم (٣٦) .
٥ – سورة ق : آية رقم (٤١) .
٦ – سورة القمر : آية رقم (٦) .
٧ – الفراء ، معاني القرآن ، ١ / ٩٠ .
٨ – سورة الإسراء ، آية رقم (١١) .
٩- ينظر : د. غانم الحمد ، رسم المصحف، ٢٤٠. –د. عيسى شحاتة ، العربية والنص القرآني، ١٠٨.
١٠ – ينظر : د. طاهر حمودة ، ظاهرة الحذف ، ١٩١ .

- قوله تعالى : ﴿ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى ﴾ (1) .
- وقوله تعالى : ﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ (2) .
- وقوله تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ (3) .
- وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ (4) .

فقد حذفت التاء الأولى في (تصدّى ، وتلهّى ، وتنـزّل ، وتحاضّون) . وأصلها :(تتصدّى ، وتتلهّى ، وتتنـزّل ، وتتحاضون) . يقول د. رمضان عبد التواب : " فالكثير في العربية الاكتفاء بتاء واحدة ، وفي القرآن أمثلة كثيرة لذلك ، ففيه مثلاً كلمة (تَـذَكّرون) سبع عشرة مرة بالحذف ، في مقابل (تتذكّرون) ثلاث مرات بلا حذف " (5) .

وكلمة (تَتَذَكّرُون) مثلاً مكونة من المقاطع التالية :

١- تَ : مقطع قصير مفتوح من النوع الأول (صامت + حركة قصيرة) .

٢- تَ : مقطع قصير مفتوح من النوع الأول (صامت + حركة قصيرة) .

٣- ذَكْ : مقطع قصير مغلق من النوع الثالث (صامت + حركة قصيرة + صامت) .

٤- كَ : مقطع قصير مفتوح من النوع الأول (صامت + حركة قصيرة) .

٥- رو : مقطع قصير مفتوح من النوع الثاني (صامت + حركة طويلة) .

٦- نَ : مقطع قصير مفتوح من النوع الأول (صامت + حركة قصيرة) .

٧- رونْ : عند الوقف ، مقطع مغرق في الطول ، من النوع الرابع (صامت +حركة طويلة+ صامت) .

وحين النطق بهذه الكلمة في حالة حذف التاء يتغيّر عدد مقاطعها من خمسة أو ستة مقاطع إلى أربعة أو خمسة فقط (6) .

---

١ - سورة عبس : آية رقم (٦) .
٢ - سورة عبس : آية رقم (١٠) .
٣ - سورة القدر : آية رقم (٤) .
٤ - سورة الفجر : آية رقم (١٨) .
٥ - د. رمضان عبد التواب ، التطور اللغوي ، ٤٥ .
٦ - ينظر : د. أحمد هريدي ، حذف تاء تتفعّل وتتفاعل في القرآن الكريم ، ١٦٢ .

وقد أشار برجشتراسر في حديثه عن ظاهرة الترخيم إلى أن " من الترخيم ما هو جنس من التخالف ، وهو حذف أحد مقطعين متتاليين أولهما حرفان مثلان أو شبهان ، نحو تذكرون بدلاً من تتذكرون ، وأمثال ذلك في القرآن عديدة "[1] . فالمقطع المحذوف في هذه الكلمة مقطع مورفيمي تصريفي يتمثل في التاء المفتوحة سواء أكانت تاء المضارعة أم تاء المطاوعة في الماضي .

وقد أشار ابن جني لهذه الظاهرة بقوله : " يكره اجتماع المثلين زائدين ، فيحذف الثاني منهما طلباً للخفة بذلك "[2] .

والملاحظ أن التاءين في الأفعال (تصدّى ، وتلهّى ، وتنزّل ، وتحاضّون) زائدتان ، والحذف فيهما جائز لا واجب . يقول سيبويه : " أنت بالخيار ، إن شئت أثبتهما ، وإن شئت حذفت إحداهما "[3] .

وهذا ما جاء ممثلاً بدقة في التوظيف القرآني لهذه الصيغ من الأفعال ، إذ وظفها القرآن كاملة في مواضع ، ومحذوفة التاء في مواضع أخرى . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾[4] بإثبات التاءين في الفعل (تتبدّلوا) . وتوظيف الفعل ذاته بحذف إحدى التاءين في قوله تعالى : ﴿ لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاء مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾[5] .

فالآية الأولى ورد فيها الفعل (تتبدلوا) على صورته الكاملة بلا حذف في إطار خطاب المولى عز وجل للمؤمنين بأن يعطوا اليتامى أموالهم كاملة بلا نقصان ، فناسب الأمر شكل الأداء ، فورد الفعل على الصورة الكاملة دلالة على الاتساق مع الأمر المندوب هنا .

---

١ - برجشتراسر ، التطور النحوي ، ٧٠ .
٢ - ابن جني ، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، ٢ / ١١١ .
٣ - سيبويه ، الكتاب ، ٤ / ٤٧٦ .
٤ - سورة النساء : آية رقم (٢) .
٥ - سورة الأحزاب : آية رقم (٥٢) .

والآية الثانية ورد الفعل (تبدّلوا) على صورته المحذوفة ، وهي في خطاب النبي ﷺ بشأن زواجه من النساء ، وكيف أن الله ﷻ قد كفاه بما عنده من زوجات . فجاء الفعل هنا مناسب لهذا الأمر من حيث عدم التزيد في الزواج ، وقصره على ما تحته من الزوجات . فاقتصر من الفعل أيضاً مناسبة لهذا السياق . وهكذا ارتبط الحذف بالدلالة السياقية للآية كلها .

ومن ذلك أيضاً ورود الفعل (تنزّل) محذوف التاء في قوله تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾[1] . وورودِه بصورته الكاملة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[2] .

والسياق في آيتي سورة الشعراء على أن التنزّل فيها أقلّ ، ذلك لأن الشياطين لا تتنزّل بكثرة على كل الكفرة ، وإنما تتنزّل على طائفة مخصوصة ، أو على الكهنة كما في سياق الآية ، وهم الموصوفون بالإفك والإثم . وهؤلاء ليسوا كثرة في الناس ، وهم قلة ، فاقتطع من الحدث ما يناسب أهله وفاعله [3] .

أما السياق في آية سورة فصلت فهو يدور على استبشار من حضره الموت من أهل الإيمان برؤية الملائكة حين الاحتضار لتبشرهم بالجنة [4] . فالتنزّل هنا أكثر ، ذلك لأنه في كل لحظة يموت مؤمن ، فتتنزل الملائكة لتبشره بالجنة . فاعطى الفعل كل صيغته ولم يحذف منه شيئاً مناسبة لهذا السياق .

ومن ذلك أيضاً ورود الفعل (تولّوا) محذوف التاء في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾[5] ، وورودِه تام الصورة في قوله

---

١ - سورة الشعراء : الآيتان رقم (٢٢١ ، ٢٢٢) .
٢ - سورة فصلت : آية رقم (٣٠) .
٣ - ينظر : د. فاضل السامرائي ، بلاغة الكلمة في القرآن ، ١٣ .
٤ - ينظر : الشوكاني ، فتح القدير ، ٤ / ٥٠١ . — الألوسي ، روح المعاني ، ٢٤ / ١٢١ .
٥ - سورة الأنفال : آية رقم (٢٠) .

تعالى : ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ﴾[1] .

والسياق في آية سورة الأنفال على خطاب أهل الإيمان ، وهم أهل طاعة ، ولذا فإن توليهم أقل . بخلاف آية سورة هود الدائرة على خطاب الكافرين من قوم هود لأنهم أهل عصيان ، وطبيعي أن يكون تولّيهم عن نبيهم أكثر . فلمّا كان تولي المؤمنين أقل حذف من الفعل ما يدل على هذا الإقلال من الفعل المشين ، فجاء الفعل محذوف التاء . في حين دلّ بإثبات صيغة الفعل كاملة في حقّ الكفار في آية سورة هود دلالةً على كثرة تولّي هؤلاء عن الطاعة والإيمان ، ونصرة الأنبياء[2] .

وبهذا يرتبط حذف لبعض حروف الكلمة بدلالات السياق في إطار الآية التي وردت فيها الكلمة ، مع مراعاة روح السورة التي وظفت فيها هذه الآية ، مما يجعل الدلالة تتشابك في نسيج متكامل .

ب - حذف ياء المتكلم :

كثيراً ما نلمس في القرآن الكريم حذف ياء المتكلم مع الاجتزاء عنها بالكسرة ، وذلك لا يكون إلا لغرض دلالي ، فقد تذكر الياء في مقام الإطالة والتفصيل ، وتحذف ويُجتزأ عنها بالكسرة في مقام الإيجاز والاختصار ، أو تحذف لغرض سياقي يقتضيه المقام .

فمن ذلك ما نلمسه في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[3] بإثبات ياء المتكلم في الفعل (اخشوني) . وقوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ

---

١ - سورة هود : آية رقم (٥٢) .

٢ - ينظر : ابن كثير ، تفسير القرآن ، ١٨٩/٤ .– أبو حيان ، البحر ، ٨٦/٨ . – الشوكاني ، فتح القدير ، ٤١/٥ .

٣ - سورة البقرة : آية رقم (١٥٠) .

الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] ، بحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة في الفعل (اخشون) .

والسرّ في ذلك الحذف يكمن في مناسبات السياق في هاتين الآيتين . فالسياق في آية سورة البقرة يدور على دلالات حادثة تحويل القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام ، وما أثاره ذلك من فتنة وملاحاة من المشركين واليهود ، حتى قال المشركون إن محمداً تحيّر في دينه ، وحتى ارتدّ قسم من ضعاف الإيمان . يقول ابن عطية : " قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ﴾ تحقير لشأنهم ، وأمر باطراح أمرهم ، ومراعاة أمره "[2] .

أما آية سورة المائدة فهي في تعداد نعم الله ﷻ على عباده بذكر ما حرّم عليهم من أطعمة ، صيانة لأنفسهم ، وحفاظاً على أبدانهم . فاقتضى السياق مناسبة الزيادة في بناء الفعل في آية سورة البقرة ، وذكر المولى ﷻ نفسه بالضمير في الفعل (اخشوني) للتخويف منه . ولا شك أن التحول عن القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة فيه من الإرجافات والفتن ، ومظنة الارتداد عن الدين الكثيرُ ، مما اقتضى هنا الإشعار بذاته سبحانه بإظهار الياء في الفعل ليردَ على صورته الكاملة قصداً إلى هذه الدلالات .

أما آية سورة المائدة فليس فيها من المجادلة أو المماراة أي قدر ، إذ هي في مقام تعداد النعم بتحريم ما يضرّ من الأطعمة . فناسب المقام من باب شكر النعمة ، الاختصار والحذف في بنية الفعل ، بعيداً عن إظهار (الياء) الدالة عليه سبحانه وتعالى ، إذ ليس المقام هنا مقام تخويف ، بل هو مقام شكر وحمد .

---

١ - سورة المائدة : آية رقم (٣) .

٢ - ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ١ / ١٤٣ .

ومن ذلك ورود الفعل (تسألن) محذوف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة في قوله تعالى : ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾[1] ، وورده بصورته الكاملة في قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾[2] .

وبتدقيق النظر نجد أن سياق الآية في سورة هود ورد في معرض الحديث عن سؤال نوح عليه السلام لربه في شان ابنه عند بدء الطوفان ، ومحاول نوح عليه السلام الشفاعة فيه ، لكن الله عز وجل رده إلى جادة الصواب ، وبيّن له كيف أن ابنه قد عصى ، ولذا فهو ليس من الناجين ، فالتزم نوح عليه السلام بهذا الأمر تماماً .

أما آية سورة الكهف فهي في سياق اشتراط الخضر عليه السلام على نبي الله موسى عليه السلام ما يراه من شرط الصحبة ، فلا يسأله عن شيء حتى يكون هو الذي يخبره عنه أولاً . وبمقارنة السياقين نجد :

أن السؤال هو محور السياق في الآيتين ، غير أن السؤال كان مفرداً في آية سورة هود ، وعن أمر واحد . في حين أن السؤال في آية سورة الكهف متعدد بحسب المشاهد التي يراها موسى عليه السلام ، ويفعلها الخضر أمامه ، ولذا فإن نطاق الإلحاح في السؤال في شأن موسى كان أكثر اتساعاً .

كذلك تختلف نوعية السؤال في الآيتين ، ففي سورة هود هو سؤال الطلب والحاجة ، ولذا تعدى الفعل بنفسه دون الحاجة إلى حرف جر . أما في سورة الكهف فهي أسئلة استفهام واستفسار واستعلام عن حقيقة أمور وأحداث ، ولذا تعدى الفعل فيها بحرف الجر (عن) .

ولذا ناسب في آية سورة هود حذف الياء من الفعل والاجتزاء عنها بالكسرة مناسبة لسياق الالتزام بأمر الله بعدم مناقشة الأمر ، وإطاعة ما نهاه الله عنه في فحوى سؤاله .

١ - سورة هود : آية رقم (٤٦) .
٢ - سورة الكهف : آية رقم (٧٠) .

أما سياق آية سورة الكهف فإنه يقتضي الإطالة في بنية الفعل ، والتفصيل وفقا للأحداث ، فذكر الياء في الفعل مناسبة لهذا الصنيع .

ج - حذف ياء المنقوص :

يكثر في النص القرآني حذف ياء الاسم المنقوص لغير التقاء الساكنين . يقول العلوي (ت ٧٤٩هـ) : " وهذا إنما يكون وارداً على جهة السماع لا يُقاس . وهذا إنما يكون في الألفاظ التي تستعمل على جهة الكثرة دون ما عداها " [١] . ومن الأمثلة القرآنية التي وظفت حذف ياء الاسم المنقوص ما يلي :

* قوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [٢] .
* وقوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ [٣] .
* وقوله تعالى : ﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ [٤] .
* وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [٥] .
* وقوله تعالى : ﴿ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾ [٦] .
* وقوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ [٧] .
* وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ [٨] .
* وقوله تعالى : ﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ [٩] .

---

١ - العلوي ، الطراز ، ٢٥٦ .
٢ - سورة البقرة : آية رقم (١٨٦) .
٣ - سورة الرعد : آية رقم (٩) .
٤ - سورة الحج : آية رقم (٢٥) .
٥ - سورة الحج : آية رقم (٥٤) .
٦ - غافر : آية رقم (١٥) .
٧ - سورة غافر : آية رقم (٣٢) .
٨ - سورة الشورى : آية رقم (٣٢) .
٩ - سورة ق : آية رقم (٤١) .

والمنقوص ، حين ينبغي أن نرفض قواعدهم على ما يهدي إليه الاستقراء لكل مواضع الحذف والإثبات في الكتاب الحكيم "[1] .

وهذا الرأي يتسق في جانب منه مع ذهابنا إلى أهمية الدور الذي يؤديه السياق عندما يعانق مثل هذه الظواهر ، مع عدم إهمال النظرة الكلية لهذه الفنيات في إطار النص القرآني كله ، دون الاكتفاء بالنظرة الجزئية الضيقة . أما بقية الأسماء المنقوصة التي ورد فيها حذف الياء وليست بفاصلة ، وهي في دواخل الجمل ، فإن السياق فيها على مراعاة أحكام الوقف والوصل .

د – الحذف لالتقاء الساكنين :

وهو من نماذج التلوين الصوتي في القرآن الكريم ، وهو على السعة والكثرة في السياق القرآني . ومثل هذا الحذف في كلام العرب كثير . وقد تعرض لبيان هذا النوع من الحذف كثير من اللغويين مثل ابن يعيش ، والرضي [2] .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾[3] . فقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو عمرو ، والسلمي ، وابن المسيب ، وعلي بن أبي طالب ، وابن مسعود (يَقْضِ الحقّ) بسكون القاف ، وبدون ياء ، على تقدير : القضاء الحقّ ، أو يقضي بالحقّ ، وحذف الخافض [4] .

ويرى الزجاج (ت ٣١١هـ) أنها " كتبت هنا بغير ياء على اللفظ ، لأن الياء أُسقطت لالتقاء الساكنين " [5] . فعلل الحذف هنا لالتقاء الساكنين وهما : (الياء) من الفعل (يقضِي) ، وألف الوصل في كلمة (الحقّ) ، فحذفت الياء تخلصاً من هذا الثقل .

---

١ – د. عائشة عبد الرحمن ، الإعجاز البياني في القرآن ، ٢٥١ .
٢ – ينظر : ابن يعيش ، شرح المفصل ، ٩ / ١٢٣ . – الرضي ، شرح الشافية ، ٥ / ٢٢٥ .
٣ – سورة الأنعام : آية رقم (٥٧) .
٤ – ينظر : الفراء ، معاني القرآن ، ١ / ٣٣٨ . – ابن مجاهد ، السبعة في القراءات ، ٢٥٩ . – الداني ، التيسير ، ١٠٣. – الزمخشري ، الكشاف ، ١ / ٥٠٨ . – أبو حيان ، البحر ، ٤ / ١٤٢ .
٥ – الزجاج ، معاني القرآن وإعرابه ، ٢ / ٢٥٦ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [1]. فقد كتبت كلمة (سَنَدْعُ) بدون واو مع أن الخطاب للجمع . فالواو سقطت في الوصل لالتقاء الساكنين[2]. يقول البنا الدمياطي (ت ١١١٧هـ) : " بحذف الواو للكل للرسم " [3].

وعلى هذا قوله : ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ [4]. يقول أبو الفتح ابن جني : " كُتِبَت كذلك بغير واو دليلاً في الخط على الوقوف عليه بغير واو في اللفظ " [5].

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [6] . فقد قرأ القرّاء عدا يعقوب الحضرمي بحذف الياء من كلمة (آت) في الوقف والوصل ، وأثبتها يعقوب في الوقف[7]. يقول الداني (ت٤٤٤هـ) : "كل اسم مخفوض أو مرفوع لحقه التنوين فإن المصاحف اتفقت على حذف الياء من آخره رسماً " [8] .

ويرى ابن الأنباري (ت ٣٢٨هـ) أن الحذف في كلمة (لآتٍ) قد تم في إطار التخلص من التقاء الساكنين خاصة الضمة على ياء الاسم المنقوص . يقول : " استثقلوا الضمة في الياء فحذفوها ، فسكنت الياء فسقطت لسكونها وسكون التنوين " [9] .

فالحذف الذي تمّ هنا في كلمة (لآت) تمّ على مرحلتين هما :

الأولى : حذف الضمة على كلمة (آت) خبر إنّ ، فحذفت للثقل المتولد عنها على الياء .

والثانية : حذف الياء بعد سقوط الضمة ، لأنها سكنت بعد حذف الحركة ، فالتقى ساكنان ؛ (سكون الياء ، والتنوين) ، ولزم التخلص من أحدهما ، فحذفت الياء لأنها أسهل في الحذف . ولذا فإن ما تمّ هنا هو حذف أدّى إلى حذف آخر ، فكان الأول سبباً في الثاني .

---

١ - سورة العلق : آية رقم (١٨) .
٢ - ينظر : النحاس ، إعراب القرآن ، ٣ /٧٤٠ . - ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ٥ / ٥١٦ .
٣ - أحمد البنا ، إتحاف فضلاء البشر ، ١٠٥ .
٤ - سورة الشورى : آية رقم (٢٤) .
٥ - ابن جني ، المحتسب ، ٢ / ٢٢٨ .
٦ - سورة الأنعام : آية رقم (١٣٤) .
٧- ينظر : ابن الجزري، النشر، ١٨٢/٢. - البنا، الإتحاف، ١١٤. - المرعشي ، جهد المقل، ٢١٠ .
٨ - الداني ، المقنع في رسم مصاحف الأمصار ، ٤٢ .
٩- ابن الأنباري ، إيضاح الوقف والابتداء ، ٢٢٤ .

ومن ذلك ما نلمسه في قوله تعالى : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾[1] . إذ حذفت الياء من كلمة (غواش) . يقول مكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ) : " غواش : مبتدأ والمجرور خبرها ، وأصلها ألا تنصرف ، لأنها على فواعل مثل (سلاسل) في ترك الصرف . . إلا أن التنوين دخلها عوض من ذهاب حركة الياء المحذوفة . فلمّا التقى ساكنان : سكون الياء لثقل الضمة عليها ، التنوين ، حذفت الياء لالتقاء الساكنين ، فصار التنوين تابعاً للكسرة التي كانت قبل الياء المحذوفة "[2] .

وهذه النماذج من التلوين الصوتي بحذف الحرف تخلصاً من التقاء الساكنين مقصدها التخفيف ، وطلب السلاسة اللفظية ، إذ إن هذا التخلص بالحذف هو إحدى وسائل العربية لنفي الثقل النطقي في أبنيتها ، والحفاظ على جمالية أصواتها في التاليف المختلفة .

وخلاصة القول :

أن فنية الحذف في السياق اللفظي المفرد تتسق في كل تعانقاتها النصية في القرآن الكريم مع الدلالة ، إذ يُناط بهذا الحذف في الكلمة المفردة أداء مقاصد ودلالات جمالية تتعاضد في مجملها العام مع ألوان السياقات داخل النص القرآني ، فضلاً عن فرادة مثل هذا التوظيف للسياق الحذفي في الآيات القرآنية .

تلك هي أهم الآثار الدلالية والجمالية التي ترتبط بالتلوينات الصوتية وأثرها في الهيكل البنيوي للكلمة المفردة في مرحلة التوظيف ، والتي اتضح من عرض نماذجها مدى فاعلية هذه التلوينات في السياق التوظيفي للنص القرآني ، وما نتج عنها من استنطاقات دلالية ، وشحنات نصية وجمالية في إطار المعنى الخاص والعام معاً .

---

١ - سورة الأعراف : آية رقم (٤١) .

٢ - مكي بن أبي طالب القيسي ، مشكل إعراب القرآن ، ١ / ٣١٥ .

الفَصْلُ الرّابِعُ

أثرُ التّلْوينَاتِ الصّوتِيَةِ

في دَلالاتِ التّراكيبِ

ماهية الجملة :

الجملة هي الأساس الذي تقوم عليه الدراسة النحوية ،كما أنها هي الوحدة التي يتألف منها كل كلام ، والمركب الذي يحمل في ثناياه فكرة تامة ، والوسيلة التي يعبر بها المتكلم عما في نفسه من أفكار ، لأنها وسيلة نقل هذه الأفكار إلى الناس . فكل كلام ليس إلا مجموعة من الجمل المفيدة ، والجملة المفيدة في اللغة العربية على نوعين هما : جملة اسمية ، وجملة فعلية ، ولكل نوع ركنان أساسيان لا يمكن الاستغناء عنهما ، ولا يتم معنى الجملة إلاّ بهما معاً ، وما عدا هذين الركنين فهو مكملات ، لكل منها وظيفتها التي توضح المعنى الأساسي في الجملة أو تفصله ، أو تحدده ، أو تخصصه تخصيصاً دلالياً .

وقد استعملت الجملة بمعنى اصطلاحي مرادف للكلام ، ولعلّ المبرّد أوّل من استعملها بهذا المعنى حيث قال : " وإنّما كان الفاعل رفعاً ؛ لأنه هو والفعل جملة يحسن السكوت عليها وتجب بها الفائدة "[1] .

ويرى الفارسي (ت٣٧٧هـ) أنها :" ما ائتلف من هذه الألفاظ الثلاثة [الاسم والفعل والحرف] كان كلاماً ، وهو الذي يسمّيه أهل العربيّة : الجمل "[2] .

والرمّاني (ت٣٨٤هـ) يعرّفها بأنها " هي المبنيّة من موضوع ومحمول للفائدة "[3] . وهو تعريف يمنحها مضموناً مماثلاً لمضمون الكلام اصطلاحاً .

ويساوي ابن جنّي بين الكلام والجملة بقوله : " أمّا الكلام : فكل لفظ مستقلّ بنفسه مفيد لمعناه ، وهو الذي يسمّيه النحويّون : الجُمل "[4] .

وابن مالك يصرّح بالفرق بين الجملة والكلام ، إذ عرّف الكلام بقوله : " الكلام ما تضمّن من الكلم إسناداً مفيداً مقصوداً لذاته "[5]. وقد أراد بقيد (لذاته) إخراج ما هو

---

١ - المبرد ، المقتضب ، ١/ ٨ .
٢ - أبو علي الفارسي ، المسائل العسكريات ، ٨٣ .
٣ - الرماني ، الحدود في النحو ، ٣٩ .
٤ - ابن جنّي ، الخصائص ، ١/١٧. وينظر : ابن جني ، اللمع ، ٢٦.
٥ - ابن مالك ، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ، ٣ .

مقصود لغيره كجملة الصلة [1] ، نحو : (جاءَ أبوه) ، من قولنا : (جاء الذي قام أبوه) ، فهي جملة وليست كلاماً ؛ لأنَّ الإسناد فيها " ليس مقصوداً لذاته ، لتعيين الموصول وتوضيحه ، ومثلها الجملة الخبرية والحالية والنعتيّة " [2] ؛ إذ لم تقصد لذاتها ، بل لغيرها ، فليست كلاماً ، بل جزء من كلام .

وذهب الرضي إلى أنَّ " الفرق بين الجملة والكلام : أنَّ الجملة ما تضمَّن الإسناد الأصلي ، سواءً كانت مقصودة لذاتها أو لا ... فكل كلام جملة ولا ينعكس" [3] .

وقد عرَّف ابن هشام (ت ٧٦١هـ) الكلام والجملة ، فقال في تعريف الكلام : " هو القول المفيد بالقصد . والمراد بالمفيد ما دلّ على معنى يحسن السكوت عليه " [4] . أما تعريف الجملة فيرى أنها " عبارة عن الفعل وفاعله ، كـ(قام زيدٌ) ، والمبتدأ والخبر كـ(زيدٌ قائم) ، وما كان بمنزلة أحدهما نحو : ضُرِبَ اللصُّ ، وأقائم الزيدان ، وكان زيدٌ قائماً ، وظننته قائماً " [5] .

ويتابع ابن هشام النحويين في التفرقة بين الكلام والجملة ، إذ أنّ " كلّ كلام جملة ولا ينعكس ، ألا ترى أنّ نحو (إنْ قام زيد) من قولك : (إنْ قام زيدٌ قام عمرو) يسمّى جملة ولا يسمّى كلاماً " [6] .

وعليه فالجملة في خالص أمرها هي كل كلام يحسن السكوت عليه ، أي تحصل منه الفائدة ، ويدلّ على معنى . وعليه فإن جملة الصلة ، وجملة الشرط ، وجملة الجواب ، كل ذلك ليس مفيداً لعدم تمام الفائدة منه . فالجملة تتشكل وفق مفهوم الإسناد المفيد لمعنى ، فإذا تمَّ بالمسند والمسند إليه تَمَّت الجملة ، وقد يستدعي أحدهما أو كلاهما كلاماً

١ - ينظر : الأشموني ، شرح ألفية ابن مالك ، ١/ ٢١ .
٢ - الصبان ، حاشية الصبان على شرح الأشموني للألفية ، ١/ ٢١ .
٣ - الرضي ، شرح الكافية ، ١/ ٣٣ .
٤ - ابن هشام ، مغني اللبيب ، ٣٦٢ .
٥ - نفسه .
٦ - ابن هشام ، الإعراب عن قواعد الإعراب ، ٦٠ .

آخر لإتمام المعنى ، يقال له الفضلة ، وربما يحتاج ذلك كله إلى أدوات تسمى أدوات الربط . ولهذا فالكلام هو القول المفيد بالقصد . والمراد بالمفيد ما دل على معنىً يحسن السكوت عليه . فإذا لم يُفِد معنىً تاماً مكتفياً بنفسه فلا يسمى كلاماً .

والجملة كما قال د. إبراهيم أنيس : " أقل قدر من الكلام يفيد السامع معنىً مستقلاً بنفسه ، سواء تركب هذا القدر من كلمة واحدة أو أكثر "[1] . وإلا فلا تسمى جملة مفيدة ولا ينطبق عليها تعريف الكلام . ونلحظ في بناء الجملة تقدم الذات الفاعلة على أنها (المسند إليه) دائماً ، والذات أبداً تأتي اسماً ثابتاً في حين أنّ الفعل متغير ، بمعنى أن الذات سبقت الحدث في الوجود . ولهذا قُدِّمت الجملة المسبوقة بالاسم على المسبوقة بالفعل عند البلاغيين وأهل اللغة في إطار المسند والمسند إليه .

أما الفضلة فهي اسم يذكر لتتميم معنى الجملة (المكونة من المسند والمسند إليه) إذا لم يتم بهما معنى مفيد . وقد يلزم التركيب وجود أدواتٍ تربط أجزاء الجملة كالشرط والقسم والاستفهام والتمني والترجي . وتقع الأدوات حرفاً واسماً ، وتسمى أدوات الربط . وبناء على ذلك كله تنقسم الجملة إلى قسمين :(الاسمية والفعلية) ، باعتبار ركنيها فقط ؛ وسنوضح ذلك في إطار مفهوم البلاغة لا النحْو .

أ . الجملة الاسمية :

هي كل جملة تصدَّرت باسم ، ووضعت لإفادة ثبوت المسند للمسند إليه ؛ أو استمراره بالقرائن الدالة عليه ؛ أو الثبوت أو الاستمرار معاً . ولها عدة أشكال تتوارد عليها منها : المبتدأ والخبر ، والاسم والخبر مع إن وأخواتها ، ولا النافية للجنس ، واسم الفعل[2] .

والأصل في الجملة الاسمية أن تدل على الثبات كقولنا : (الشمسُ مضيئةٌ) فالمبتدأ مسند إليه لأنه لم يسبقه عامل ، وهو الشمس ، والخبر أسند إليه (مضيئة) ، وتمت به

١ - د . إبراهيم أنيس ، من أسرار اللغة ، ٢٧٦ .
٢ - ينظر : ابن يعيش ، شرح المفصل ، ٩٤/١ . - ابن هشام ، مغني اللبيب ، ٣٦٤ .

الفائدة . والإضاءة ثابتة لها على الاستمرار في الفعل . فالجملة الاسمية تفيد الاستمرار بالقرائن إذا لم يكن في خبرها فعل نحو : العلمُ نافعٌ ، فالعلم نفعه مستمر - هذا هو الأصل فيه - والسياق لا ينكره كما أن المنطق والعقل لا ينكره . وعليه قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [1] . فهذه الصفة من الخُلُق الكريم مقترنة على الدوام بذكر رسول الله ﷺ ، ومدعاة لتمثلها من قبل الناس أجمعين .

ويطلق على هذا النمط من الاستمرار : الاستمرارُ التجددي الذي يعرف كثيراً باستخدام الجملة الاسمية للقرائن فيها كما في قول مالك بن أسماء الفزاري يتمدح الغنى والكرم [2] :

لا يألف الدرهمُ المضروب صُرَّتَنا لكنْ يمرُّ عليها وهو منطلقُ

فالشاهد قوله : (وهو منطلق) فالدرهم لا يستقر عنده ، لذلك فهو باستمرار ينطلق كرماً وإغاثة للمحتاجين . والسياق به قرائن دالة على ذلك .

وقد يكون السياق في معرض ذم يراد به الاستمرار والثبوت معاً كقوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [3] ، فالشاهد (وهو خادعهم) ؛ والسياق أن المخادع ما يخدع إلا نفسه ، ولن يوقعه فعله إلا في الشرور على الدوام والثبات ، ولهذا كان الفعل (يخادعون) مفيداً للتجدد مرة بعد مرة ، ولم يقيد بزمن وإن كانت صورته صورة المضارع ، فقوّى المعنى في (خادعهم) .

وأما إذا كان خبر الجملة الاسمية جملة فعلية فإنها تفيد لفت السامع إلى حدوث الفعل مجدداً في زمن ما ، وصار على وجه الثبات كقولنا : (زيدٌ سافرَ) . وهذا مغاير لقولنا : (سافرَ زيدٌ) ، فهنا زيد لم يسافر إلا مرة واحدة في وقت مضى ، فالزمن الماضي المخصوص

---

١ - سورة القلم : آية رقم (٤) .
٢- ينظر : العباسي ، معاهد التنصيص شرح شواهد التلخيص ، ٢٠٧/١ .
٣ - سورة النساء : آية رقم (١٤٢) .

بالسفر محدّد . وكذلك نقول في الزمن المضارع (الحاضر) فهو مخصوص بوقت ما وإن تضمن معنى التجدد والاستمرار من بعدُ ، نحو : (زيدٌ يدرسُ) ، و(محمدٌ يأكلُ) ، فالفعل ليس على معنى الدوام الأزلي ، أو الثبات. فقد يأتي وقت لا يدرس فيه زيد ، ولا يأكل فيه محمد [1] .

ب ـ الجملة الفعلية :

هي كل جملة صدرها فعل ، وتوضع لإفادة الحدوث في زمن مخصوص كالماضي والمضارع ، أو تفيد الاستمرار التجددي إذا دلت عليه القرائن . ولها أشكال ؛ منها : الفعل التام مع فاعله أو نائبه ، والفعل الناقص مع الاسم والخبر ، والفعل اللازم والمتعدي ، والجامد والمتصرف . فمن الجمل التي تفيد الحدوث في زمن مخصوص قولنا : (وَصَلَ زيدُ إلى المدينة) . فالمتكلم أراد إفادة السامع بأن زيداً وصل في الزمن الماضي . ويصبح هذا الزمن أكثر خصوصية إذا قلنا : (وَصَلَ زيدٌ إلى المدينة مساءً) . أما إذا قلنا :(يَصِلُ زيدُ إلى المدينة) فالزمن مخصوص بالحاضر لا الماضي . وقد يفيد الفعل – سواء كان ماضياً أم مضارعاً – التجدد والاستمرار إذا وجدت القرائن ؛ كقوله تعالى :﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [2] ، فالخيرية ما زالت مستمرة دوام هذه الأمة وبقاء البشرية على الأرض .

وكلما زاد القيد زادت الخصوصية ومن ثم زادت الفائدة بزيادة تلك الخصوصية . ويرى د. شوقي ضيف أن لواحق الجملة الاسمية التي جاء خبرها فعلاً تزيد على الجملة الفعلية ، فكل ما يحمله الفعل من لواحق تحمله الجملة الاسمية معه ، كقولنا : (زيدٌ كتبَ مقالةً كتابةً حسنةً) [3]. ومن لواحق الجملة الاسمية التوابع كالنعت والعطف والبدل وغيرها .

كل هذا جعل علماء المعاني لا يتبعون خطوات النحويين فتراهم يقسمون الجملة إلى جملة رئيسية وجملة غير رئيسية . فالرئيسية ما لم تكن قيداً في غيرها ؛ وغير الرئيسية

---

١ – ينظر : د. شوقي ضيف ، تجديد النحو ، ٢٥٣ – ٢٥٥ .

٢ – سورة آل عمران : آية رقم (١١٠) .

٣ – ينظر : د. شوقي ضيف ، تجديد النحو ، ٢٥٤ .

المستوى البلاغي أن تقيم تمييزاً بين النظام العقلي والنظام العاطفي للكلمات "[1] .

فنقطة الصفر البلاغية تتمثل في الحد الأدنى للجملة المكونة من المسند والمسند إليه في العربية ، ثم تأتي التنوعات في الفضلة والأداة لتزيد فيها تنوعاً آخر ، وتُحَوِّل الشكل المعياري إلى شكل بلاغي مثير . فالجملة الصغيرة المكونة من الحد الأدنى (المسند والمسند إليه) على قيمة الانزياح اللغوي فيها تبقى ذات عناصر أولية مكونة للجملة البلاغية في حالة التقديم والتأخير ، والحذف والذكر ، والفصل والوصل . وهو عينه الذي انتهى إليه عبد القاهر فسبق به جاكبسون وأمثاله . فعلم الدلالة البنيوي الحديث ؛ على إصلاحه للنظم المعيارية التراكمية ظل متصلاً بالدرس البلاغي والدلالي الذي نشأ في مفهوم الجملة نحوياً وبلاغياً عند العرب ، وإن عمد أصحابه الجدد إلى وصف العمليات البلاغية "باعتبارها تحولات أو انحرافات تتضمن تصورات عديدة "[2] ، وتوحي بنظريات متطورة ابتعدت كثيراً عن الأصل .

ولم يأت دو سوسير بشيء كثير في حديثه عن نظام الجملة اللغوية ونسقها ، إذ حدّد نظام العلاقات اللغوية القائم على محورين : أحدهما استبدالي ، والآخر تركيبي ، وبهما تكتسب كل كلمة دلالتها من نظام وضعها في إطارهما وعلاقاتهما . وما تفعله اللغة الأدبية هي أنها تقوم بتكثيف هذه الممارسات المجازية ، مما يجعل الاستبدال فيها أصعب منالاً وأعز طلباً . وذلك نتيجة لتوخي العلاقات البعيدة ، أو لارتباطها بمنظومات ثقافية ليست في متناول الجميع[3] .

ولعل هذا الكلام يعد إنجازاً في ذاته نظراً لأنه أدرك طبيعة الجملة الثابتة ، وعَبَّر عنها بـ(التركيبي) وهو يقابل في العربية ركني الجملة (المسند والمسند إليه) ، ويقصر عنهما لما يمتلكانه من خصائص أسلوبية في العربية . وكذلك حين أدرك طبيعة الجملة المتغيرة بما يلحقها من تحولات في المحور الاستبدالي . وهذا كله موجود في لواحق المسند

---

١ - د. صلاح فضل ، بلاغة الخطاب وعلم النص ، ٨٦ .

٢ - السابق ، ٨٣ .

٣ - ينظر : دو سوسير ، دروس في الألسنية ، ٢١٦ .

والمسند إليه في العربية من الفضلة والأدوات ، فضلاً عن التبدُّل الذي يطرأ على ترتيب المسند والمسند إليه ، وتعريفهما ، أو تنكير أحدهما .

وأسلوب الجملة في نهاية المطاف لغة ، ولكنه لغة ذات نظام خاص . وقد تحدث العلماء عن ذلك ابتداءً بسيبويه واللغويين وليس انتهاء بالجرجاني والبلاغيين جميعاً ورأوا في أسلوب الجملة مستويين المستوى الحقيقي المباشر للدلالة ، والمستوى البعيد غير المباشر وفيه تتكثف دلالات رمزية كثيرة ، وتتغير طبيعة المستويين بتغير الإضافات ونمط التأليف وتناسبه .

إن المتغيرات الأسلوبيَة في الجملة ترتبط بالصوت والتركيب والدلالة ، وهذا كله مما عُنِيَ به في البلاغة العربية ، والنحْو العربي وصرفه . فكل شكل يظهر للجملة يمكن أن يتخذ وجوهاً عدة نتيجة التحولات التي تطرأ عليه بدخول الفضلة والأداة ، فحين نقول : (محمدٌ رسولُ الله) ، فإن دلالة هذه الجملة تختلف عن دلالتها لو قلنا : (ما محمدٌ إلا رسولٌ) . وكذا الأمر حين نقول : (ذهبَ محمدٌ) ، فهذا غير قولنا : (أينَ ذهبَ محمدٌ ؟) ، فأي أداة لا تترك طبيعة التركيب ثابتة في العربية . فالجملة الأولى جملة خبرية ، والثانية إنشائية . فبلاغة الجملة منذ وجود العربية ليست سكونية جامدة ، وإنما تتجسد كائناً إبداعياً يتجاوز الظرف الوصفي ، وتربو فوقه إلى إبداعية خالصة نابعة من تجلياتها الشاملة لكل مستوياتها .

وعليه فالجملة العربية في خالص صورها تستند إلى عناصرها المرتبطة بالكلمة ثم بالجملة في وحداتها المعنوية الصغرى ، ولو اتصلت بالسياق النصي فهو سياق مرتبط بالفضلة والأداة . فمفهوم البلاغة وإن راعى مقتضى الحال والمقام عند المتكلم والمخاطب ظل مشدوداً إلى نزعة الاقتصاد اللغوي والبلاغي ، فالبلاغة الإيجاز . لهذا لا تنظر البلاغة العربية إلى النص المتكامل باعتباره وحدة بنيوية عضوية متعاونة ، وإنما تنظر إليه نظرة جزئية قاصرة عن إدراك مكنوناته .

ولهذا يصبح اختيار الصورة اللغوية في حالة الأشكال البلاغية رفضاً مطلقاً للوضوح المباشر الذي يميز العلاقات اللغوية الثابتة في نظام دي سوسير التركيبي . وتغدو الوظيفة البلاغية متنوعة وثرية بثراء أساليب البلاغة العربية ، بحيث لا نجد نظائر لها في أية لغة من اللغات . ولا يمكن للبلاغي أن يتجاوز تلك الإشارات المهمة للجملة عند بعض الباحثين الغربيين أمثال (كريستيفا ، وجيرار جينيت ، وتودوورف ، وورولان بارت) ، وقد تخطت إشاراتهم عالم الأسلوبية إلى ما بعدها . فالجملة يعرفها تودوروف في سياق مفهومه للنص بقوله : " يمكن للنص أن يكون جملة ، كما يمكنه أن يكون كتاباً تاماً ، وهو يعرف باستقلاله وانغلاقه "[1] ، فالجملة هي النص ، والنص هو الجملة .

وترى كريستيفا أن للجملة دور مهم في إنتاجية نص ما ، فباعتبار " أن المحتمل الدلالي شرط أوّليّ لكل ملفوظ ، فإنه يتطلّب في لحظة ثانية (مُكَمِّلُه) ، أي البنية التركيبية (الجملة) التي ستملأ بتمفصلاتها الفضاءَ الذي رسم الجمعُ الدلالي ملامحه الأولى"[2] . فالجملة هي النص الشاغل للنص المنتج ، أو النص الأهم في البناء المهم .

وتربط كريستيفا بين النحو والبلاغة من خلال الجملة فهي البنية الوصلية بينهما لإدراك ما يُنَاط من مقاصد جمالية من تعانق النحو بالحكاية (البلاغة) . تقول : " الحكاية (البلاغة) تتبع الخيط التركيبي للجملة . فالمركبات البلاغية للحكاية هي امتدادات للمركبات النحوية "[3] .

والجملة العربية قد تأخذ الموقع نفسه الذي أراده تودوروف في كونها نصاً ، وفي كونها تتمتع بالانغلاق ، فالمتلقي ليس له الحق في تغييرها ، وإن كان له الحق في إثرائها بواسطة تأملها تأملاً واعياً . فالجملة العربية تتضمن في ذاتها قيماً أسلوبية ؛ ثم تستمد قيماً جديدة متحولة من النص والموقف والبيئة ، ومن طبيعة اللغة التي تنتمي

---

١ - تودوروف ، الشعرية ، ١٢٨ .

٢ - جوليا كريستيفا ، علم النص ، ٥٨ .

٣ - نفسه .

إليها ؛ وفي إطار العناصر المكونة لها والعلاقات التي تربط بينها . ومن هنا نقول : إن مفهوم الجملة باعتبارها نصاً لدى الغربيين يخالف على نحو ما مفهوم الجملة البلاغية عند العرب .

١- الجملة القرآنية وصياغتها :

إن خير ما تُوصف به الجملة القرآنية أنها بناء أُحْكِمَت لبناته ، ونسقت أدق تنسيق ، لا نحس فيها بكلمة تضيق بمكانها ، أو تنبو عن موضعها. يقول ابن عطية : "وكتاب الله لو نزعت منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد ، ونحن يتبيَّن لنا البراعة في أكثره ، ويخفى علينا وجهها في مواضع ، لقصورنا عن مرتبة العرب - يومئذ- في سلامة الذوق ، وجودة القريحة "[١] .

ويتحدث الرافعي عن هذا الإعجاز في بناء الجملة القرآنية فيقول : "وإنك لتحار إذا تأملت تركيب القرآن ونظم كلماته في الوجوه المختلفة ، التي يتصرف فيها ، وتقعد بك العبارة إذا أنت حاولت أن تمضي في وصفه ، حتى لا ترى في اللغة كلها أدلّ على غرضك ، وأجمع لما في نفسك ، وأبين لهذه الحقيقة غير كلمة الإعجاز . . . فترى اللفظ قاراً في موضعه ، لأنه الأليق به في النظم ، ثمّ لأنه مع ذلك الأوسع في المعنى ، ومع ذلك الأقوى في الدلالة ، ومع ذلك الأحكم في الإبانة ، ومع ذلك الأبدع في وجوه البلاغة ، ومع ذلك الأكثر مناسبة لمفردات الآية مما يتقدمه أو يترادف عليه "[٢] .

والجملة القرآنية تَتَتبَّع المعنى النفسي ، فتصوره بألفاظها لتُلْقِيه في النفس ، حتى إذا استكملت الجملة أركانها ، برز المعنى ظاهراً ، فليس تقديم كلمة على أخرى صناعة لفظية فحسب ، ولكن المعنى هو الذي جعل ترتيب الجملة ضرورة لا مَحيد عنها ، وإلاّ اختلّ وانهار .

---

١ - ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ١ / ٤٤ .
٢ - الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ٢٨٢ .

فمثلاً قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [1] ، نجد فيها كلمة (إسماعيل) معطوفة على (إبراهيم) ، فهو كأبيه يقوم بالفعل ، يرفع القواعد من البيت الحرام ، لكن تأخره في الذكر دون المعطوف عليه يوحي بأن دوره في هذا الفعل دور ثانوي ، أما الدور الأساس فقد قام به إبراهيم عليه السلام . يقول الزمخشري : " قيل : كان إبراهيم يبني ، وإسماعيل يناوله الحجارة " [2] .

وقوله تعالى : ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[3] . إذ نجد " المستعان عليه في الآية غير مذكور ، لا تخففاً من ذكره ، ولكن ليوحي هذا الحذف إلى النفس أن كل ما يقوم أمام المرء من مشقة ، وما يعترضه من صعوبات ، يُستعان على التغلّب عليه بالصبر والصلاة " [4] .

ودراسة الجملة القرآنية تتصل اتصالاً مباشراً بدراسة المفردة القرآنية لأنها الأساس للجملة ، ومنها تركيبها . وإذا كان علماء البلاغة يجعلون البلاغة درجات ، فإنهم مقرون دون جدل أن صياغة العبارة القرآنية في الطرف الأعلى من البلاغة الذي هو الإعجاز ذاته . وللإعجاز فيها وجوه كثيرة ، *فمنها :*

ما نجده من التلاؤم والاتساق الكاملين بين كلماتها ، وبين حركاتها وسكناتها ، فالجملة في القرآن تجدها دائماً مؤلفة من كلمات وحروف ، وأصوات يستريح لتآلفها السمع والصوت ، ويتكون من تضامها نسق جميل ينطوي على إيقاع رائع ، ما كان ليتم لو نقصت من الجملة كلمة أو حرف ، أو اختلف ترتيب ما بينها بشكل من الأشكال ، لنقرأ قوله تعالى : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى

١ - سورة البقرة : آية رقم (١٢٧) .
٢ - الزمخشري ، الكشاف ، ١ / ٣٦١ .
٣ - سورة البقرة : آية رقم (٤٥) .
٤ - د. منير سلطان ، بلاغة الكلمة والجملة والجمل ، ١٠٨ .

أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [1] ، ولنتأمل تناسق الكلمات في كل جملة منها ، ثمّ ندقق النظر في تآلف الحروف الرخوة مع الشديدة والمهموسة والمجهورة وغيرها ، ثم نتمعن في تأليف وتعاطف الحركات والسكنات والمدود اللاحقة ببعضها ، لنعلم أن هذه الجملة القرآنية إنما صُبَّتْ من الكلمات والحروف والحركات في مقدار ، وأن ذلك إنما قُدِّرَ تقديراً بعلم اللطيف الخبير ، وليس للمقاييس البشرية أن تضبط الكلام بهذه القوالب الدقيقة .

ومنها : أنك تجد الجملة القرآنية تدلّ بأقصر عبارة على أوسع معنى تام ، لا يكاد الإنسان يستطيع التعبير عنه إلا بأسطر وجمل كثيرة ، دون أن تجد فيه اختصاراً مخلاً ، أو ضعفاً في الأدلة . لنقرأ قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [2] ، ثم لنتأمل كيف جمع الله بهذا الكلام كل خُلُقٍ عظيم ، لأن في أخذ العفو صلة القاطعين والصفح عن الظالمين .

ولنقرأ قوله تعالى مخاطباً آدم ﷺ : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾ [3] ، لنقف على فرادة التعبير بهذه الجمل إذ جمع الله بها أصول معايش الإنسان كلها من طعام وشراب وملبس ، ومأوى .

ومنها : إخراج المعنى المجرد في مظهر الأمر المحسّ الملموس ، ثم بثّ الروح والحركة في هذا المظهر نفسه . ومكمن الإعجاز في ذلك ، أن الألفاظ ليست إلا حروفاً جامدة ذات دلالة لغوية على ما أُنيط بها من المعاني ، فمن العسير جداً أن تصبح هذه الألفاظ وسيلة لصبّ المعاني الفكرية المجردة في قوالب محسوسة ، تتحرك في داخل الخيال كأنها قصة تمر أحداثها على مسرح يفيض بالحياة والحركة الملموسة . استمع إلى القرآن الكريم وهو يصوّر لك قيام الكون على أساس من النظام الدقيق والتنسيق البديع الذي لا يتخلف ، ولا يلحقه الفساد ، فيقول : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ

---

١ - سورة القمر : الآيتان رقم (١١ ، ١٢) .
٢ - سورة الأعراف : آية رقم (١٩٩) .
٣ - سورة طه : الآيتان رقم (١١٨ ، ١١٩) .

استَوَى على العَرْشِ يُغْشِي اللَّيلَ النَّهارَ يَطلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الخَلْقُ وَالأمْرُ ﴾ [1] إنه يصوّر لك هذا المعنى في مظهر من الحركة المحسوسة الدائرة بسرعة دائبة في نظام مستمر يعيها ويصورها الشعور و الخيال .

كذلك يسترعي الانتباه في سياق النص القرآني ما نلحظه من فرادة التعبير التراكيبي ، وجمالية النظم السائد على أجزائه ، والذي يظهر في التعبير بأركان ثلاثة هي :

الأول : انسجام أجزاء الكلام والتئامها .

والثاني : وضع كل لفظ في موضعه اللائق .

والثالث : رعاية قوانين اللغة وقواعدها .

فالقرآن بلغ من ترابط أجزائه ، وتماسك كلماته وجمله وآياته ، مبلغاً لا يدانيه فيه أي كلام آخر مع طول نفسه ، وتنوّع مقاصده ، وافتنانه وتلوينه في الموضوع الواحد ، فبين كلمات الجملة الواحدة من التآخي والتناسق ما جعلها رائعة التجانس والتجاذب ، وبين جمل السورة الواحدة من التشابك والترابط ما جعلها واحدة متعانقة الآيات ، ولذلك يقول سبحانه : ﴿ قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [2] .

وبما أن قرينة الترابط والتآخي في الآيات القرآنية واضحة لمن أمعن فيها ، فلذلك نطوي الكلام عن الإكثار فيها ، ونعطف الكلام إلى الأمر الثاني وهو وضع كل كلمة في موضعها . فلكل نوعٍ من المعنى نوعٌ من اللفظ هو به أولى وأنسب ، وكان إلى الفهم أقرب ، وبالقبول أليق ، وكان السمع له أدعى ، والنفس إليه أميل . وهذا حكم سائر حتى في الألفاظ المتقاربة من حيث المعنى ، كالحمد والشكر ، والبخل والشحّ ، والقعود والجلوس ، والعلم والمعرفة وغير ذلك من الحروف والأسماء والأفعال ، فإن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها ، وإن كانتا تشتركان في بعضها . وقد اهتم القرآن باستعمال كل كلمة في موضعها بحيث لو أُزيلت الكلمة وأُقيم مكانها ما يظنّ كونه مرادفاً لها ، لفَسَدَ المعنى ، وزال الرونق ، ولإيضاح ذلك :

---

١ - سورة الأعراف : آية رقم (٥٤) .
٢ - سورة الزمر : آية رقم (٢٨) .

نلحظ أنه سبحانه يأمر بالحمد فيقول : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ [1] . وفي موضع آخر يأمر بالشكر ويقول : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ [2] . وما هذا إلاّ لأن الحمد هو الثناء على الجميل ، والشكر هو الثناء في مقابل المعروف ، فالحمد ضد الذمّ ، والشكر ضد الكفران . والآية الأولى ناظرة إلى صفة الله ﷻ أي التنزه عن الولد والشريك فناسب الأمر بالحمد . والآية الثانية ناظرة إلى إحسانه تعالى على آل داود فناسب الأمر بالشكر على المعروف .

ومن ذلك مجيء كلمة السهو في القرآن تارة متعدية بـ(في) في قوله ﷻ : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ [3] . وأخرى بـ(عن) في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [4] . وما هذا إلا لأن المراد في الآية الأولى أن الغفلة تغمرهم ، فناسب (في) الدالة على الظرفية ، لكن المراد من الثانية هو السهو عن الصلاة نفسها فناسب بـ(عن) . ولعل هذا سبب ما اشتهر بين البلاغيين من أن الكلمة في نظم القرآن تأخذ أعدل مكان في هذا البنيان ، ولا يصلح مكانها أخرى ، لاستلزام ذلك إمّا فساد المعنى ، أو عدم إفادة المقصود .

٢- الجملة القرآنية بين الاسمية والفعلية :

الجملة تتألف من ركنين أساسين : المسند والمسند إليه . وهذان الركنان هما عمدة الكلام . ويظهر تأليف الجملة – تبعاً للمسند – بصورتين هما :

الأولى : فعل + اسم ، وبالتعبير الاصطلاحي (فعل وفاعل أو نائبه) . والأصل أن يتقدم الفعل على الاسم المسند إليه (الفاعل) ، ولا يتقدم المسند إليه على الفعل إلا لغرض يقتضيه المقام .

والثانية : اسم + اسم ، أو المبتدأ والخبر . والأصل فيها أن يتقدم المسند إليه (المبتدأ) على المسند (الخبر) ، ولا يخالف ذلك إلاّ لأغراض يقتضيها السياق .

---

١ – سورة الإسراء : آية رقم (١١١) .
٢ – سورة سبأ : آية رقم (١٣) .
٣ – سورة الذاريات : آية رقم (١١) .
٤ – سورة الماعون : آية رقم (٥) .

والفرق الدلالي بين الصورتين يتمثّل في أن الجملة التي مسندها فعل إنما تدور على معنى دلالي هو الحدوث لارتباط هذا الفعل (المسند) بالزمن ، لأن الزمن جزء منه . وقد تفيد هذه الصورة الدلالة على الاستمرارية في الحدوث بالقرائن السياقية التي تتضافر معها لإفادة هذه الاستمرارية ، مثلما نلمس ذلك في قوله تعالى : ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [1] ، حيث إن الدلالة في (يرزقكم) تنعقد على أن الرزق من الله متجدد ومستمر ، لا ينقطع . فالحدث على الاستمرارية المستفادة من التعبير بالمضارع في جملته الفعلية .

أمّا الجملة الاسمية التي مسندها (اسم = خبر) فإنها تدل على معنى الثبوت ، وربما أفادت معنى الدوام بالقرائن المختلفة [2] . وإذا كانت الجملة الاسمية على دلالة إفادة معنى الثبات ، والجملة الفعلية على إفادة معنى التجدد والحدوث ، فإن الجملة الاسمية في دلالاتها تتسع في نطاقها النصي لتدل على معنى أوفى مما تدلّ عليه الفعلية ، ولهذا ذهب أهل البلاغة إلى أن الجملة الاسمية تفيد بهيئتها التركيبية تأكيد المعنى ، ولذا تؤثر في بعض المقامات على الجملة الفعلية [3] .

هذا وللبلاغيين في هذا المقام تفصيل جميل ، إذ جعلوا من حركية المسند إليه مؤشراً دلالياً على نوع الجملة ، ومن ثم القصد منها إلى أغراض ومقاصد دلالية متنوعة . نلمس ذلك في ثنايا حديثهم عن ملمح التقديم والتأخير في سياق الخبر المثبت [4] . وهذه العناية من جانبهم قائمة على إبراز الفروق التعبيرية المتولدة عن توظيف المركب الاسمي أو الفعلي ، وما ينعقد عليها من جماليات في سياقات النص .

---

١ - سورة فاطر : آية رقم (٣) .
٢ - ينظر : د. فضل عباس ، البلاغة : فنونها وأفنانها (علم المعاني) ، ٢٩ .
٣ - ينظر : العلوي ، الطراز ، ٢ / ٢٥ .
٤ - ينظر : عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، ١٢٨ — ١٣٦ . — الرازي ، نهاية الإيجاز ، ٢٠٧ — ٢١٠ . — البحراني ، مقدمة شرح نهج البلاغة ، ١٤٤ — ١٤٥ . — ابن الزملكاني ، المجيد ، ١١٤ — ١١٦ .

وعبد القاهر حين يتخذ من فنية التقديم والتأخير في سياق معانقاتها للسياق الخبري ، إنما كان مقصده الأول والأهم هو المعنى ، إذ يدور في فلكه ، ويبغيه من وراء تحليله ، لكنه ليس المعنى في ذاته ، لكنه المعنى المبتغى من وراء التركيب ، المعنى نتاج تزاوج الدلالة بين النحو والبلاغة ، بين التراكيب ومعانيها . فيرى الإمام أننا لو أردنا أن نتحدث عن فاعل ما فقدمنا ذكره ، ثم تليناه بالفعل الذي قام به فنقول : (زيدٌ قد فعل) و(أنا فعلت) فإن قصدك من ذلك هو الفاعل (معنى) ، وليس قصدك هنا الفاعل (رتبة) . يقول : " فإذا عمدت إلى الذي أردت أن تحدث عنه بفعل ، فقدّمت ذكره ، ثم بنيت الفعل عليه فقلت : زيدٌ قد فعل ، وأنا فعلت ، وأنت فعلت . اقتضى ذلك أن يكون القصد إلى الفاعل " [1].

لكنه يجعل المعنى المتولد من قصدية هذا الأسلوب على قسمين هما :

الأول : واضح لا غموض فيه . وهو أن يكون الفعل لفاعل منصوص عليه دون غيره ، وانفراده بالفعل دون سواه . كقولك : (أنا كتبت هذه الورقة) ، و(أنت قمت بهذه الزيارة) . ويتضح هنا تخصيص ضمائر المتكلم والمخاطب بهذا الفعل ، لأنها تساعد على أداء المعنى المقصود .

والثاني : وهو أن يكون الفعل لفاعل ما دون تخصيصه . فالفعل مثبت لفاعل غير معين كقولك : (هو كتب هذه الورقة) ، فاستخدام ضمير الغائب سوّغ عدم تعيين هذا الفاعل .

فعبد القاهر لمّا تحدث عن تقديم الاسم المخصص بالذكر إنّما يتحدث عن تقديم رتبي ، بمعنى أن هذا الاسم المقدَّم سيصير (مبتدأ به) ، والفعل المثبت له بعده هو الخبر الرتبي (خبر جملة فعلية) . كذلك كان هذا التقديم أيضاً (معنوياً) بمعنى الإقرار بهذا الفعل لهذا الفاعل ، وتخصيصه بالفعل ، أو عدم تخصيصه وتعيينه بهذا الفعل .

وهو في القسم الأول قصر الفاعلية على الذات المفردة دون غيرها ، وذلك باتخاذ ضميريّ المتكلم والمخاطب وسيلة ، وجعلهما مسنداً إليهما أي (مبتدأ) . في حين أنه في

١ - عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ١٢٨ .

٦- ما عبدتم ــــ جملة فعلية (فعل ماض + فاعل : تاء الخطاب) .

٧- ولا أنتم عابدون ـ جملة اسمية (مبتدأ + خبر مفرد) .

٨- ما أعبد ـ جملة فعلية (فعل مضارع + فاعل مستتر وجوباً : ضمير متكلم) .

فقد وردت ثلاث جمل اسمية في سياق التعبير بـ(٥ خمس جمل فعلية) ، إذ السياق في السورة دائر على إفادة تجدد الأحداث والمعاني كلٌ في جانبه .

ففي جانب المصطفى ﷺ تمَّ التعبير بالجمل الآتية :

١- لا أعبد ــــ جملة فعلية منفية .

٢- ما أعبد ــــ جملة فعلية .

٣- ولا أنا عابد ــــ جملة اسمية منفية .

٤- ما أعبد ــــ جملة فعلية .

فالجملة الاسمية هنا تدور على دلالة الثبات والاستقرار في نفي هذه العبادة من جانب المصطفى ﷺ لآلهة المشركين . ومزاوجة النفي هنا بدخوله على المسند إليه (المبتدأ أنا) على معنى إثبات فعل الفاعل لكن لغير هذا الفاعل ، بمعنى إثبات عبادة هذه الأوثان ، لكن في جانب المشركين لا في حق المصطفى ﷺ . فالنفي هنا متسلط على صاحب الفعل لا الفعل ذاته . يقول عبد القاهر : " إذا قلت : ما أنا قلت هذا ، كنت نفيت القائل له ، وكانت المناظرة في شيء ثبت أنه مقول "[1] .

أما التعبير بالجمل الفعلية في حق المصطفى ﷺ فقد تواردت على معنيين هما :

الأول : نفي العبادة من جانبه ﷺ لهذه الآلهة ، وذلك بتوظيف حرف النفي (لا) مع المضارع المسند إلى ضمير المتكلم (أنا) وهو (أعبد) على معنى بلاغي يدور على نفي فعل لم يثبت أنه فُعِلَ ، ذلك لأن نفي العبادة هنا عن النبي ﷺ لا يقتضي وقوعها أصلاً . يقول الرازي : " النفي إذا أدخلته على الفعل قلت : (ما ضربتُ زيداً) كنت نفيت فعلاً لم يثبت أنه

١- عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ١١٤ .

مفعول ، لأنك نفيت عن نفسك ضرباً واقعاً بزيد ، وذلك لا يقتضي كونه مضروباً ، بل ربما لا يكون مضروباً أصلاً " [1] .

والثاني : أن التعبير بجملة فعلية مكررة (ما أعبد) في هيئة الفعل المضارع المثبت الدال على التجدد الدائم والمستمر في هذا الفعل من جانب المصطفى ﷺ في حق الله سبحانه وتعالى .

وفي جانب الكافرين عبّر بالجمل التالية :

١- ما تعبدون ــــ جملة فعلية .

٢- ولا أنتم عابدون ــ جملة اسمية منفية .

٣- ما عبدتم ــــ جملة فعلية .

٤- ولا أنتم عابدون ــ جملة اسمية منفية .

فعبّر بالجملة الاسمية المنفية مكررة ليفيد المعنى هنا الثبات والاستقرار لهذا الفعل منهم ، فهم على النفور من عبادة الإله الواحد ، والإشراك به . ودخول النفي على الاسم في الجملة على معنى نفي الفعل عن فاعله مع تعيّن ثبوته لغير هذا الفاعل ، وهو المعنى المستفاد هنا .

أما التعبير بالجملة الفعلية في سياق المضارع والماضي فيفيد استمرارهم في القيام بعبادة الآلهة الأوثان ، فهم ما زالوا مقيمين على هذا الفعل إذ يتجدّد منهم ويستمر .

وبتدقيق النظر في السورة الكريمة نجد أن الرسول ﷺ نفى عبادة الأصنام عن نفسه بالصيغتين الفعلية والاسمية (لا أعبد ما تعبدون) و (ولا أنا عابد ما عبدتم) ، ونفى عن الكافرين العبادة الحقة بصيغة واحدة مرتين هي الصيغة الاسمية (ولا أنتم عابدون ما أعبد) ، وذلك لكونهم قد اتصفوا بصفة الكفر على وجه الثبات، فنفى عنهم عبادة الله أيضاً على وجه الثبات [2] . وهكذا يؤدي التركيب الاسمي والفعلي دوره في إثراء الدلالة السياقية المنوطة به في سياقات الآيات .

---

١ - الرازي ، نهاية الإيجاز ، ٣٠٥ .

٢ - ينظر : د. فاضل السامرائي ، التعبير القرآني ، ٢٩ .

* ومن ذلك أيضاً توظيف القرآن الكريم للفعل (سبّح) ، فقد ورد موظفاً في التركيب الفعلي بكثرة لدلالته على التجدّد والحدوث حيناً بعد حين كما في :

- قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ ﴾ [1] .
- وقوله تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [2] .
- وقوله تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [3] .
- وقوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [4] .
- وقوله تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ [5] .

فقد تنوّعت صيغ الفعل ما بين المضارع والماضي والأمر دلالةً على شمول الفعل للزمنية ، واتساقاً مع نعم الله المسبغة على العباد ، فوجب له تجديد التسبيح والشكر عليها .

غير أن هذا الفعل وظف في القرآن الكريم بالصيغة الاسمية في موضعين هما :

الأول : في وصف نبي الله يونس ، في سياق قصته مع قومه ومع الحوت عند ابتلاعه إياه ، ثمّ عفو الله عنه وعن قومه . يقول تعالى : ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [6] . فالمعنى على أن هذا التسبيح هو وصف سيدنا يونس الثابت له ، فنجا من محنته بتخلقه بهذا الوصف الدائم .

والثاني : في سياق حديث الملائكة الكرام عن أنفسهم بأنهم هم المسبحون في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [7] . وذلك لأن الصفة ثابتة لهم ومنهم ، ودائمة على مرّ الأزمان ، فهي خاصة بهم . فناسب بالتعبير الفعلي ما يوافقه من السياق ، وكذلك بالتعبير الاسمي .

---

١ - سورة الأعراف : آية رقم (٢٠٦) .
٢ - سورة الحديد : آية رقم (١) .
٣ - سورة الحشر : آية رقم (١) .
٤ - سورة الجمعة : آية رقم (١) .
٥ - سورة الأعلى : آية رقم (١) .
٦ - سورة الصافات : الآيتان رقم (١٤٣ - ١٤٤) .
٧ - سورة الصافات : الآيتان رقم (١٦٥ - ١٦٦) .

تلك هي أهم التلوينات الصوتية التي تولدت عن التنوع التعبيري بالجملة القرآنية في تركيباتها الاسمية والفعلية ، مراعية السياق القرآني وتوظيفاته النصية لهذه التركيبات ، ومتناسبة في الوقت ذاته مع معطيات الأداء التعبيري لها ، مع القصد إلى جماليات متنوعة تتكئ على فنية التلوين لأنها مناط الجمالية في هذه السياقات .

٣- تلوينات العدول في الجملة القرآنية :

أينما وُجِدَ العدول في التعبير اللغوي وُجِدَ التركيب الفني والجمالي ، فما العدول في حقيقته إلا اللغة في بنيتها السطحية (الفنية) ، مبتعدة في اتجاه مضاد لمستوى البنية العميقة (المعيارية) ، التي هي أصل بنية العدول . والقرآن الكريم كأعظم نص تعبيري باللغة العربية وظّف هذه البنية العدولية في مبانيه الجملية والتركيبية على أروع نسق ، وأجمل هيئة تعبيرية ، ذلك لأن فنية العدول في القرآن تتسع لتشمل في فضائها ألوانًا متنوعة تتمثل في :

١- العدول الرتبي (التقديم والتأخير الرتبي) .

٢- العدول المعنوي (التقديم والتأخير المعنوي) .

٣- العدول الضمائري (أسلوب الالتفات) .

ولذا فالتلوين بالعدول في سياقات التوظيف القرآني للتراكيب يهدف أولاً إلى إثبات فرادة النص الكريم ، وثانياً إلى تثوير الدلالات الجمالية المتولدة عن مثل هذا العدول . ولنحاول الآن الوقوف مع كل لون من هذه الألوان العدولية من خلال السياقات القرآنية ، محاولين تلمس جماليات التوظيف النصي ، وفنيات التركيب العدولي في هذه السياقات .

أولاً : العدول الرتبي [التقديم والتأخير الرتبي]

من المعلوم أن معنى الجملة ليس هو مجموع معاني المفردات التي تتألف منها ، بل هو حصيلة تركيب هذه المفردات في نمط معين حسب قواعد لغوية محددة . كما أن نسق الجملة وكيفية ترتيب الأجزاء فيها مما ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار في أثناء عملية الاختيار

البناني للجملة . يقول عبد القاهر : " وإن أردت أن ترى ذلك عياناً فاعمد إلى أي كلام شئت وأزل أجزاءه عن مواضعها وضعها وضعا يمتنع معه دخول شيء من معاني النحو فيها فقل في : (قِفا نبكِ مِنْ ذِكْرى حَبيبٍ ومَنْزِل) ، (من نبك قفا حبيب ذكرى منزل) ثم انظر هل يتعلق منك فكر بمعنى كلمة منها "[1] .

ذلك لأن المعنى إنما يتولّد فقط من ترتيب الألفاظ والعبارات ، والمعاني هي معاني النحو بالتقديم والتأخير [2] . ومعنى هذا أن لكل تركيب نظمه وترتيبه ومواقع ألفاظه ، ومعلوم أنّ الكلمات المختلفة الترتيب يكون لها معنى مختلف ، وأن المعاني المختلفة الترتيب يكون لها تأثيرات مختلفة أيضاً [3] ، وذلك لأنّ تقديم ما هو متأخِّر ، وتأخير ما هو متقدِّم لمناسبة تقتضي ذلك جائز لا مشاحة فيه .

وهذا الجواز ليس مجانياً ، بل ما من مقدَّم أو مؤخَّر يُزَال عن موضعه إلا ويترك ظلالاً معنويةً يخالف الوضع الثاني فيها الوضع الأول ، ومن ثم كان تقسيم القدامى للتقديم إلى مفيد وغير مفيد ، مما أثار حفيظة عبد القاهر فقال :" واعلم أن من الخطأ أن يقسّم الأمر في تقديم الشيء وتأخيره قسمين ، فيجعل مفيداً في بعض الكلام وغير مفيد في بعض ، وأن يعلل تارةً بالعناية وأخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب ، حتى تطرد لهذا قوافيه ولذلك سجعه ، ذاك لأن من البعيد أن يكون في جملة النظم ما يدل تارة ولا يدل أخرى ، فمتى ثبت في تقديم المفعول مثلاً على الفعل في كثير من الكلام أنه قد اختص بفائدة لا تكون تلك الفائدة مع التأخير ، فقد وجب أن تكون تلك قضية في كل شيء وفي كل حال ، ومن سبيل من يجعل التقديم وترك التقديم سواء أن يدعي أنه كذلك في عموم الأحوال ، فأما أن يجعله شريجين فيزعم أنه للفائدة في بعضها ، وللتصرف في اللفظ من غير معنى في بعض ، فمما ينبغي أن يرغب عن القول به "[4] .

---

١ - عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، ٤١٠ .
٢- ينظر : أبو حيان التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ، ١ / ١٢١.
٣ - ينظر : د. عبد الحكيم راضي ، نظرية اللغة في النقد العربي ، ٢١٣ .
٤ - عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، ١١١ .

وحاول البلاغيون التدليل على اختلاف الدلالة باختلاف التراكيب بالتقديم والتأخير ، واجتهدوا في بيان الفروق بين عبارات أصبحت رائجة في مصادرهم قديمها وحديثها مثل : زيداً ضربتُ ، وضربتُ زيداً ، فهما عبارتان ليستا بمعنى واحد " فإن في قولك : زيداً ضربتُ ، تخصيصاً له بالضرب دون غيره ، بخلاف قولك : ضربتُ زيداً ، وبيانه هو أنك إذا قدمت الفعل فإنك تكون بالخيار في إيقاعه على أي مفعول أردت بأن تقول : ضربتُ زيداً أو عمراً أو بكراً أو خالداً ، وإذا أخرت الفعل وقدمت مفعوله فإنه يلزم الاختصاص للمفعول على أنك لم تضرب أحدا سواه "[1] .

وقد أثارت هذه المحاولات د. إبراهيم أنيس فقال : " حاول عبد القاهر الجرجاني أن يفرق بين مثلين من صنعه هما : زيدٌ المنطلقُ ، والمنطلقُ زيدٌ ، فلقي من العنت والمشقة ما أجهده وأجهدنا معه ، ويظهر أن صعوبة تمييز المسند من المسند إليه في مثل هذه الجمل هو الذي ألجأ عبد القاهر وغيره إلى تكلف الشطط في علاجها . وهذه المزاوجات لا تعدو أن تكون أمر أسلوب إذ لا يكاد المعنى يختلف بتأخير أحدهما أو تقديمه"[2] .

ولعل د. إبراهيم أنيس حين أصدر حكمه هذا كان واقعاً تحت تأثير التصور النحوي الذي لا شأن له بالدلالات الجزئية ، فالمعنى لا يختلف سواء قدّمنا أو أخّرنا ، في حين يحدث التغيير في الدلالة ذاتها ففي قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ ﴾[3] وجدنا المعنى العام أنهم جعلوا الجن شركاءَ وعبدوهم مع الله ، أما الدلالة فتأتي من وراء الصياغة الإبداعية في التقديم والتأخير[4] .

ولهذا لم يستطع برجشتراسر أن يقف عند حدود فارقة بين التعبير بالتركيب الفعلي (جاءَ زيدٌ) ، والتركيب الاسمي (زيدٌ جاءَ) . يقول :" والأقرب إلى الاحتمال هو أن يكون معنى (زيد جاء) عين معنى (جاء زيد) ، وإنما الفرق بينهما أنه إذا قلت : (جاء زيد)

١ - العلوي ، الطراز ، ٢ / ٦٦ .
٢ - د. إبراهيم أنيس ، من أسرار اللغة ، ٣٢٣ .
٣ - سورة الأنعام : آية رقم (١٠٠) .
٤ - ينظر : د. محمد عبد المطلب ، البلاغة والأسلوبية ، ٢٥٢ .

أخبرت عن مجيئه إخباراً محضاً ولا يخالطه شيء غيره ، فتقديم الفعل هو العبارة المألوفة ، وإذا قلت : (زيد جاء) كان مرادي أن أنبه به السامع إلى أن الذي جاء هو زيد ، كأني قلت : زيد جاء لا غيره . فتقديم الفاعل دليل على أن الأهم كون زيد الفاعل لا كونه فَعَلَ الفعل ، وما ينبه به السامع على هذا المعنى شيئان : الأول : تغيير الترتيب العادي ، فكل شيء يخالف العادة هو أكثر تأثيراً في الفهم من المألوف . والثاني : أن أول كلمة في الجملة هي على العموم المضغوطة في اللغة العربية إذا صرفنا نظرنا عما تبتدئ به الجملة من الأدوات كإن وأخواتها إلى غير ذلك "[1] .

فبرجشتراسر لم يجد بداً من الاعتراف بهذه الفروق الدلالية الدقيقة وإرجاعها إلى تغيير الترتيب الذي يجعل بداية الجملة مضغوطة معتنى بشأنها ، وهذا الضغط هو ما سماه تمام حسان (المعنى الثاني) أو(البؤري) [2] ، وهو ما يفهم من الاهتمام بمضمون اللفظ بواسطة التقديم والتأخير .

يمكن أن نستخلص مما سبق أن أي تغيير في النظام التركيبي للجملة يترتب عليه بالضرورة تغير الدلالة وانتقالها من مستوى إلى مستوى آخر ، وملاك ذلك كله وتمامه الجامع له - كما ينص عليه البلاغيون ويلخصه القاضي الجرجاني- صحة الطبع وإدمان الرياضة ، فإنهما أمران ما اجتمعا في شخص فقصرا في إيصال صاحبهما عن غايته ، ورضيا له بدون نهايته - وأقل الناس حظاً في هذه الصناعة لا يعبأ باختلاف الترتيب واضطراب النظم وسوء التأليف ، ولا يقابل بين الألفاظ ومعانيها ولا يسبر ما بينهما من نسب ، ولا يمتحن ما يجتمعان فيه من سبب [3] .

---

١ - برجشتراسر ، التطور النحوي ، ١٣٣ .
٢ - ينظر : د. تمام حسان ، الأصول ، ٢٨٥ .
٣ - ينظر : القاضي الجرجاني ، الوساطة ، ٤١٢ — ٤١٣ .

إن اختيار المتكلم لترتيب دون ترتيب باعتبار الظروف التي يريدها ، ينتج عنه كون التقديم أو التأخير من نتائج الاختيار النحوي ، إذ يعود عدد الاختيارات الممكنة إلى بنية اللغة بالذات ، ففي بعض الأحوال لا يكون هناك سوى بديل واحد كتقديم الفاعل أو تأخيره ، فالمتحدث يختار أبنية لغوية تخضع لقواعد نحوية إجبارية في صياغتها لا مفر من اتباعها . وتظل هناك بعد ذلك مجموعة إمكانيات التعبير الاختيارية المتعادلة دلالياً بشكل أو بآخر يستطيع المتحدث أن يمارس فيها اختياراته الأسلوبية [1] .

وبهذا يكون التقديم والتأخير نمطاً من الأنماط الدالة ، وهو من أوجه الاختيار التي تُؤدَّى بها المعاني ، وانتقاء بديل من البدائل الأسلوبية المتاحة تمثل مجالاً لتباري المبدعين باعتبار أن هناك ممكنات يختص قوم دون قوم بإدراكها واكتشافها ، فتكون التراتيب اللغوية المناسبة لها ملكاً لأولئك الذين يدركون كيفية استعمالها . وقد رأينا استحسان الجرجاني للتراكيب والتراتيب المنتقاة والتي عمها الحسن من جهة أن قدّمت فيها كلمة وأخّرت أخرى .

التقديم والعناية :

صاغ البلاغيون بعض المبادئ التي يجدر بنا الوقوف عندها في أثناء مقاربة التقديم والتأخير منطلقين من مبدأ عام يتعلق بإفادات العلاقات النظمية ، ومصدر تلك الإفادات . والبلاغيون فسروا ظاهرة التقديم على أنها تركيز العناية والاهتمام بالعنصر المقدَّم ، فالمتكلم يختار ترتيباً دون آخر باعتبار الظروف ، وهو يقدّم ما العناية به أشد ، قصداً إلى التأثير في السامع الذي أصبح معتبراً في العملية التواصلية . إن مفهوم العناية يمكّننا من النظر في التحويلات الممكنة للتراكيب ، فرغم أن كل مكونات الجملة تهم المتكلم إلا أن هذا الاهتمام ليس على درجة واحدة ، فالمقدم درجة الاهتمام به تفوق غيره .

---

١ - ينظر : د. صلاح فضل ، علم الأسلوب ، ٨٩ - ٩٠ .

إذن فالأهم واجب التقديم ، وهذا أصل في تعليل التقديم . فتقديم المسند إليه ، وتقديم المسند ، وتقديم متعلقات الفعل ، كلّ ذلك يكون من أجل العناية والاهتمام ولهذا عدّ د. إلياس ديب بيان الأهمية أهم الدواعي البيانية لتعليل التقديم ، وأصلاً لباقي المتعلقات البلاغية الأخرى[1] . وتفسير هذا أن التقديم دليل على أن المقدَّم هو الغرض الأهم . ففي قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾[2] قدّم اسم الإشارة الذي يريد به البعث ، فكان دليلاً على أهمية البعث ، وأن الكلام قد سيق لأجله . وفي قوله تعالى : ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ﴾[3] ، قدَّم (نحن وآباؤنا) على اسم الإشارة (هذا) ، فكان دليلاً على أهمية المبعوثين ، وهم القصد من الحديث وليس البعث .

إن قضية العناية التي تناولها علماء النحو والبلاغة أساسها من صنع سيبويه فهو أول من أشار إليها ، يقول : " فإذا قدمت المفعول وأخّرت الفاعل كقولك : ضربَ زيداً عبدُ الله ، وكان حظ اللفظ فيه أن يكون الفاعل مقدماً ، وهو عربيٌّ جيدٌ كثيرٌ ،كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم ، وهم ببيانه أعنى ، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم "[4] .

ويرى الزركشي أن سيبويه قد وضع للتقديم والتأخير قاعدة عامة هي أنهم يقدمون ما يعنون به " وذلك أن من عادة العرب الفصحاء إذا أخبرت عن مخبر ما - وأناطت به حكماً - وقد يشركه غيره في ذلك الحكم أو فيما أخبر به عنه ، وقد عطفت أحدهما على الآخر بالواو المقتضية عدم الترتيب ، فإنهم مع ذلك يبدءون بالأهم والأولى . قال سيبويه : (كأنهم يقدمون الذي شأنه أهم لهم) "[5] .

ولعل سيبويه بلفتة النظر إلى هذا السر البلاغيّ الذي تلقفه علماء النحو والبلاغة يكون قد أثرى كثيراً المباحث البلاغية . ولا شك أن هذا يدلّ على أنه كان من الأوائل الذين

---

١ - د. إلياس ديب ، أساليب التأكيد في اللغة العربية ،٦٦ .
٢ - سورة النمل : آية رقم (٦٨) .
٣ - سورة المؤمنون : آية رقم (٨٣) .
٤ - سيبويه ، الكتاب ، ١ / ١٤ .
٥ - الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ٣ / ٢٢٥ .

أسهموا في تأسيس البعد التعليلي النظري للتقديم ، وفيه ما فيه من مراعاة موقع الوحدات داخل الرسالة اللسانية والشروط المتميزة التي يفرضها عليه المقام التخاطبي .

ولعلّ من أهم الذين انتفعوا بمبدأ الاهتمام الذي أقره سيبويه عبد القاهر الجرجاني ، فقد سعى إلى تسويغ تقدم اللفظ أو تأخره بالنظر إلى ما يمثله في السياق ، والبحث عن مصدر اهتمام المتكلم ببعض الأجزاء الكلامية دون بعض . يقول عبد القاهر : " واعلم أنا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئاً يجري مجرى الأصل غير العناية والاهتمام قال صاحب الكتاب وهو يذكر الفاعل والمفعول : *كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم* ... إن معنى ذلك أنه قد يكون من أغراض الناس في فعل ما ، أن يقع بإنسان بعينه ولا يبالون من أوقعه ، كمثل ما يعلم في حال الخارجي ، يخرج فيعيث ويفسد ويكثر به الأذى ، أنهم يريدون قتله ولا يبالون من كان القتل منه ، ولا يعنيهم منه شيء ، فإذا قُتل وأراد مريد الإخبار بذلك ، فإنه يقدم ذكر الخارجي فيقول : قتلَ الخارجيَّ زيدٌ ، ولا يقول : قتل زيدٌ الخارجيَّ ، لأنه يعلم أن ليس للناس في أن يعلموا أن القاتل له (زيد) جدوى وفائدة فيعنيهم ذكره ويهمهم "[1] .

فالتعليل بالعناية عند عبد القاهر ذو طابع عقلي . يقول د. تامر سلوم : " وفي التقديم نرى أن المعنى الوجداني ليس أصلاً في حديث عبد القاهر الجرجاني ، إذ القول بالأهمية ، أو العناية ، وتأكيد الحكم ، ودعوى الانفراد ذو صبغة عقلية ، لا يتضح فيه تلمس الجانب الوجداني أو المعنى الأدبي "[2] .

لقد أصبح مبدأ العناية والاهتمام أصلاً معتمداً عند البلاغيين المتأخرين الذين تابعوا سيبويه والجرجاني في دعوتهما إلى تسويغ تقدُّم اللفظ أو تأخُّره بالنظر إلى ما يمثله في السياق . يقول الزمخشري في تعليقه على قوله تعالى : ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ

---

١ - عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ١٠٧ – ١٠٨ .
٢ - د. تامر سلوم ، نظرية اللغة والجمال عند عبد القاهر الجرجاني ، ١٣١ .

الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾[1] : " هذا كلام جامع لا يزاد عليه . فإن قلت : كيف جعل (خير من استأجرت) اسماً لـ(إن) ، و (القوي الأمين) خبراً ؟ قلت هو مثل قوله :

أَلا إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ حياً وهالكاً أسيرُ ثقيفٍ عِنْدَهُم فِي السَّلاسِلِ

في أن العناية هي سبب التقديم "[2] .

ويعلّل الزمخشري لتقديم كلمة (راغب) في قوله تعالى : ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾[3] بقوله : " لأنه أهمّ عنده وأعنى ، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته ، وأن آلهته ما ينبغي أن يرغب عنها أحد "[4] . وقريب منه قول ابن الأثير في الآية نفسها : " ولم يقل : أأنت راغب لأنه كان أهم عنده ، وهو به شديد العناية "[5] .

ولم يخرج السكاكي عن ملاحظة سيبويه بقوله : " والحالة المقتضية هي كون العناية بما يقدم أتمّ ، وإيراده في الذكر أهمّ ، والعناية التامة بتقديم ما يقدم والاهتمام بشأنه نوعان : أحدهما : أن يكون أصل الكلام في ذلك هو التقديم ، ولا يكون في مقتضى الحال ما يدعو إلى العدول عنه . وثانيهما : أن تكون العناية بتقديمه والاهتمام بشأنه لكونه في نفسه نصب عينيك ، وأن التفات الخاطر إليه في التزايد ، كما تجدك قد منيت بهجر حبيبك وقيل لك : ما تتمنى ؟ تقول : وجه الحبيب أتمنى "[6] .

لقد جعل السكاكي التقديم للعناية مطلقاً أي سواء كان المقدم من معمولات الفعل أو غيرها . كما جعل الأهمية هنا قسيماً لكون الأصل التقديم ، ومراده بالأهمية : الأهمية العارضة بحسب اعتناء المتكلم أو السامع بشأنه ، واهتمامه بحاله لغرض ما كقولك : قتلَ الخارجيَّ فلانٌ ، بتقديم المفعول ، لأنّ الأهم قتل الخارجي ليتخلص الناس من شره[7] .

---

١ - سورة القصص : آية رقم (٢٦) .
٢ - الزمخشري ، الكشاف ، ٣ / ٤٠٣ .
٣ - سورة مريم : آية رقم (٤٦) .
٤ - الزمخشري ، الكشاف ، ٣ / ٢٠ .
٥ - ابن الأثير ، المثل السائر ، ٢ / ٢١٦ .
٦ - السكاكي ، مفتاح العلوم ، ٢٢٦ .
٧ - التفتازاني ، المطول ، ٢٠٢ .

مظاهر العناية والاهتمام :

إن تقديم بعض بنى التراكيب على بعضها لا يكون إلا بكون ذلك البعض أهمّ ، لكن ينبغي أن يفسر وجه العناية بشانه ، ويعرف له معنى ، ولا يكفي أن يقال : قدّم للعناية والاهتمام ، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية ؟ وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال : إنه قدّم للعناية ، ولتخيّلهم ذلك قد قصر أمر التقديم والتاخير في نفوسهم وهونوا الخطب فيه ، ولعل ذلك ما ذهب بهم عن معرفة البلاغة ومنعهم أن يعرفوا مقاديرها [1] .

إن معظم علل التقديم من مظاهر العناية بالمقدَّم ، وهو تفاصيل للعناية ، إذ كانت العناية بمثابة القانون الجامع ، وكانت هذه المعاني النفسية مظهراً لها ، وهي لا تنحصر . والذي يطبع هذه الظاهرة الأسلوبية البلاغية ويحكمها هو الأبعاد النفسية الانطباعية " ذلك أن النفس تُعنى وتتطلع إلى تقديم الذي بيانه لها أهم ، وهي بشانه أعنى ، فقد يشغل نفسَ المتلقي أمرٌ من الأمور ، وتتطلع إلى خبره ، وتتشوق إلى ما تمّ بشانه ، لكون التعرف عليه مهماً لديها ، أو لأن أموراً مهمة تترتب عليه ، فحينئذ ولكي يكون التعبير أكثر قدرة وقابلية على التاثير والإثارة ، يقدَّم فيه ما انعقد القلب به ، وإن كان حقه الترتيبي من حيث الوجود الذهني التاخير ، وذلك حتى يعجل للنفس ما تريد التعرف عليه فتطمئن وتستقر ، وإلا فقدَ النص قيمته لانشغال النفس عما يرد فيه بما تعلقت به وتاخر بيانه في النطق " [2] .

وقد كان عبد القاهر أقرب البلاغيين إلى تفهُّم حقيقة هذه الظاهرة والكشف عن بعدها النفسي حينما ذهب إلى أن النفس إنما تُعنى بتقديم ما تهتم بشانه ، وذلك لأنه ماثلٌ نصب العينين ، وأن التفات الخاطر إليه في ازدياد . وعلى هذا يتضح أن العناية

---

١ - ينظر : عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، ١٠٨ .
٢ - د. مجيد ناجي ، الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، ١١٧ .

ومظاهرها أصل من أصول التعليل البلاغي لظاهرة التقديم والتأخير ، وأن ارتباطها بالملكات النفسية المعبّر عنها بما تفرّع عن العناية الدالة على حسن مراعاة المخاطب لا يمكن تجاهله البتة . وبذلك يمكننا تفسير التلوين الصوتي المتولد عن العدول التركيبي في الجمل بمعانقتها لسياقات التقديم والتأخير بما يحمله من مظاهر العناية ، وتفريعات أهل النحو والبلاغة هنا .

فمن هذا ما نلمسه من عدول تركيبي يتمثل في تقديم المسند إليه (المبتدأ) وهو في صورته المنكرة ، حيث إن حقه التأخير في هذه الحالة . وقد تناول البلاغيون الابتداء بالنكرة في أثناء حديثهم عن تنكير المسند إليه ، وقد جعلوا لهذا التنكير أغراضاً هي[1] :

١- للإفراد : أي القصد إلى فرد بعينه دونما تحديد .

٢- للنوعية : أي القصد إلى نوع بعينه محدد .

٣- للتعظيم .

٤- للتكثير .

٥- للتقليل .

٦- لإرادة العموم .

فإذا أردنا تلمس هذه الأغراض في الآيات القرآنية ، يكون النسق كالآتي :

فمما ورد من النكرة للتعظيم ، يتمثّل في الآيات الآتية :

- قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ [2] .

- وقوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [3] .

- وقوله تعالى : ﴿ لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ [4] .

١- ينظر : السكاكي ، مفتاح العلوم ، ٢٨٦ – ٢٩٠ . الطيبي ، التبيان ، ٢٥٧ .
٢ - سورة الذاريات : آية رقم (٦٠) .
٣ - سورة الطور : آية رقم (١١) .
٤ - سورة الطور : آية رقم (٢٣) .

- وقوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ [1] .
- وقوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ [2] .
- وقوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ [3] .

يقول الزمخشري : " فويل للمصلين على معنى : فويل لهم ، إلا أنه وضع صفتهم موضع ضميرهم ؛ لأنهم كانوا مع التكذيب ، وما أضيف إليهم ساهين عن الصلاة مرائين " [4] . وكل ما ورد من نكرة مبتدأ بها بغرض الدعاء ، وبلفظ (ويل) على إرادة تهويل العذاب المنتظَر لهذه الفئات ، ليكون ذلك أقوى رادع لهم .

أما ما ورد من النكرة ويراد به التكثير ، فيتمثل في الآيات التالية :

- قوله تعالى : ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ [5] . فهذه الفئة المؤمنة من أصحاب رسول الله ﷺ هم أكثر أهل الجنة ، وهم أهل المنزلة العالية . وهم لهذا البلاء الحسن (ثلة) كبيرة كثيرة آثرت الآخرة فنالوها معاً ، واستحقوا ما وعدهم الله من عظيم الجزاء والثواب .
- وقوله تعالى : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ [6] .
- وقوله تعالى : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ [7] .
- وقوله تعالى : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ [8] .

فهذه الأصناف جميعها من الفئات التي ضلّت وأضلّت ، ولذا كان الأصل فيها أن تكون كثيرة في جانب أصحاب النار . فقد جاء سياق النكرة هنا دالاً على كثرة هذه الفئات يوم القيامة

---

١ - سورة المطففين : آية رقم (١) .
٢ - سورة الهمزة : آية رقم (١) .
٣ - سورة الماعون : آية رقم (٤) .
٤ - الزمخشري ، الكشاف ، ٨٠٤/٤ .
٥ - سورة الواقعة : آية رقم (١٣) .
٦ - سورة القيامة : آية رقم (٢٤) .
٧ - سورة النازعات : آية رقم (٨) .
٨ - سورة عبس : آية رقم (٤٠) .

، فقد ورد الحديث بها عن القيامة وما يتبعها من أحداث ، لم تخالف آية منها في ذلك السياق . وجاءت النكرة في هذه الآيات مدللة على فداحة الخطب ، وكثرة الفئات الضالة في ذلك اليوم لأنه يوم الحساب ، فهو يوم العرض ، والمجازاة بالأعمال .

أما ما ورد من النكرة ويراد بها التقليل ، فيتمثل في الآيات الآتية :

- قوله تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ [1] .
- وقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ [2] .
- وقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ [3] .
- وقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ [4] .

فالسياق هنا سياق تقليل لهذه الفئات الناجية يوم القيامة ، فالسابقون الأولون أكثرهم من الأولين ، وأقلهم من المتاخرين . ومن ينعم برؤية المولى ﷻ منهم فئة ذات مقام أعلى استحقت بإخلاصها هذه المنة العظمى . ولذا كان سياق النكرة في هذه الآيات سياق تقليل ، وذلك لإبراز تميز هذه الفئات وتفردها بهذا المقام ، وهذه المكانة السامقة .

وما ورد من النكرة للنوعية ، فيتمثل في الآية الآتية :

- قوله تعالى : ﴿ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ [5] . أي أن هذا السلام مختلف تماماً عما عهدناه من سلامات ، فهو سلام أهل الجنة للنبي ﷺ سلام أصحاب اليمين ، يبلّغه ربُّ العزة ﷻ فهو سلام مختلف في نوعه ، مختلف في مصدره ، مختلف في منتهاه ، مختلف تماماً فيمن يبلغه ويحمله . ويجوز هنا حمل النكرة على (التكثير) ، وذلك لكون أهل اليمين في الجنة كثير ، وهم يسلمون على النبي ﷺ فتحمل النكرة هنا على هذا الغرض .

---

١ - سورة الواقعة : آية رقم (١٤) .
٢ - سورة القيامة : آية رقم (٢٢) .
٣ - سورة عبس : آية رقم (٣٨) .
٤ - سورة الغاشية : آية رقم (٨) .
٥ - سورة الواقعة : آية رقم (٩١) .

وهكذا فإن سياقات العدول في تقديم النكرة جاءت متناسبة مع السياق في هذه الآيات ، ورعاية للبعد الدلالي والجمالي لهذه التوظيفات .

* كذلك من أشكال التلوين العدولي بالتقديم والتاخير ما أشار إليه أهل البلاغة من فروق دلالية بين الابتداء باحد المعرفتين في السياق التركيبي ، أي عندما يكون المبتدأ والخبر معرفتين . فقد كان تقرير النحويين للجملة الاسمية صريحاً إذ جعلوا لهيكلها الرئيسي ركنين رئيسيين هما : المبتدأ + الخبر . وقد يتم اختراق هذا الهيكل لأغراض ومقاصد متعمدة . وفي إطار البحث في هذه المقاصد المؤدية إلى هذا الاختلال التركيبي للنسق المثالي لهيكل الجملة الاسمية ، تناول النحويون أحد فروض هذه الهيكلة ، وهو (التعريف والتنكير في ركني الجملة الاسمية) . وما يقصد بالتعريف والتنكير هو فروض شكلية تتخذ شكلاً من الأشكال الآتية :

١- (مبتدأ معرفة) + (خبر نكرة) .

٢- (مبتدأ معرفة) + (خبر معرفة) .

٣- (مبتدأ نكرة) + (خبر نكرة) .

هذه الأشكال هي التي حكمت مسألة التعريف والتنكير لركني الجملة الاسمية . لكن أي هذه الأشكال هو الأصل الأول لتشكيل الهيكل التركيبي للجملة الاسمية ؟ وأيها ياتي تالياً ؟ والإجابة نجدها عند الكثير من النحويين . فابن السراج يشير إلى أنه " إذا اجتمع اسمان معرفة ونكرة ، فحق المعرفة أن تكون هي المبتدأ ، وأن تكون النكرة الخبر ، لأنك إذا ابتدأت فإنما قصدك تنبيه السامع بذكر الاسم الذي تحدثه عنه ليتوقع الخبر بعده ، فالخبر هو الذي ينكره ولا يعرفه ، ويستفيده ، والاسم لا فائدة له لمعرفته به ، وإنما ذكرته لتسند الخبر إليه "[1].

فهو يجعل من الشكل الأول : الأصل ، فالمبتدأ حقه التعريف ، والخبر حقه التنكير ليصح الإخبار عنه ، والتنبيه عليه . وتامل قوله : (لأنك إذا ابتدأت فإنما قصدك

١ - ابن السراج ، الأصول في النحو ، ٥٩/١ .

تنبيه السامع بذكر الاسم الذي تحدثه عنه ليتوقع الخبر بعده) فقد جعل غرض هذا التعريف والتنكير هو تنبيه السامع ولفت انتباهه للخبر الذي لا يعرفه ، وذلك عن طريق المبتدأ الذي يعلمه جيداً . وهذا هو أسلوب البلاغة في أداء المعاني ، بالدلالة على المجهول بما هو معلوم ليكون ذلك أوكد للمعاني في الذهن .

والسهيلي يرى أنّ هذا الشكل هو الأصل المقرر لأنّ "حق المبتدأ أن يكون معرفة أو مخصوصاً ، وإلا لا فائدة في الإخبار عنه ، فإن لم يكن منعوتاً أو مخصوصاً ولا مستفهماً عنه ولا منفياً نحو : ﴿لا لَغْوٌ فِيهَا﴾[1] فلا يخبر عنه "[2] .

والمهلبي يفصّل المسألة أكثر بقوله : " حكم الاسم المبتدأ أن يكون معرفة لأنه إذ لم يعرف في نفسه فاجدر أن لا يعرف في غيره ، ولأنك إنما تخبر الرجل عمن لا يعلمه بما يعلمه ، فتقع الفائدة بإخبارك إياه ، فأما إذا أخبرته عمّن لا يعلمه بما لا يعلمه لم تقع بذلك فائدة "[3].

ويسلك ابن يعيش في المسألة باحثاً في جوانبها بقوله : " أصل المبتدأ أن يكون معرفة ، وأصل الخبر أن يكون نكرة ، وذلك لأن الغرض في الإخبارات إفادة المخاطب ما ليس عنده ، وتنزيله منزلتك في علم ذلك الخبر ، والإخبار عن النكرة لا فائدة فيه" [4]. والنحويون على هذا الرأي ، إذ يقررونه في مؤلفاتهم ، كلّ بأسلوبه وطريقته الخاصة[5] .

أما الشكلان الأول والثاني وهما كون المبتدأ والخبر معرفتين أو نكرتين معاً ، فقد فصل بعض النحويون القول في الابتداء بأحدهما . فقد أشار سيبويه إلى أنه إذا اجتمع معرفتان فالفيصل في الابتداء بأحدهما واعتماده مبتدأ ، واعتماد الثاني منهما خبراً ، هو المتلقي

---

١ - سورة الطور : آية رقم (٢٣).
٢ - السهيلي ، نتائج الفكر ، ٤٠٩ .
٣ - المهلبي ، نظم الفرائد ، ٦١.
٤ - ابن يعيش ، شرح المفصل ، ٨٥/١ .
٥- ينظر : ابن عقيل ، شرح الألفية ، ٢١٦/١ . - السيوطي ، الأشباه والنظائر ، ٢/ ٢٥٧ .

نفسه . يقول :"إذا كانا معرفتين فانت فيهما بالخيار ، أيهما جعلته فاعلاً ورفعته ، ونصبت الآخر كما فعلت ذلك في (ضَربَ) وذلك قولك : كان أخوك زيداً ، وكان زيدٌ أخاك ، وكان هذا زيداً ، وكان المتكلم أخاك " [1] .

فسيبويه هنا يجعل الأمور كلها في يد المتلقي ، تامل قوله : (فانت فيهما بالخيار) أليس هذا معناه أنه لا فرق في المعنى إذا ابتدأت باحدهما ؟ لأنك بالخيار ، فلا فرق في الدلالة بين التركيبين (زيدٌ أخوك) و(أخوك زيدٌ) . وهذا مستغرب على سيبويه الذي يكرر في كتابه الكثير من الإشارات في بيان الفروق الدلالية بين التراكيب ، والمتولدة عن حركية أحد أركان الجملة في ذات الجملة إيجاباً وسلباً [2] .

والمبرد يحاولُ إبراز الفروق المتولدة من الابتداء بأحد المعرفتين إذ يقول : " إذا قلت : (ظننت زيداً أخاك) فإنما يقع الشك في الأخوة ، فإن قلت : (ظننت أخاك زيداً) أوقعتَ الشك في التسمية " [3] .

أما ابن يعيش فيسلك سبيل البلاغيين إذ يغوص على الفروق الدلالية المتولدة من كون المبتدأ والخبر معرفة والابتداء بأحدهما ، فيجعل لكل منهما دلالات خاصة . يقول : " قد يكون المبتدأ والخبر معرفتين معاً نحو : (أخوك زيدٌ) و(عمرو المنطلقُ) و(الله إلهُنا) و(محمدٌ نبيُنا) ، فإذا قلت : (زيدٌ أخوك) وأنت تريد أخوة النسب ، فإنما يجوز مثل هذا إذا كان المخاطب يعرف زيداً على انفراده ، ولا يعلم أنه أخوه لفرقة كانت بينهما أو لسبب آخرَ ، أو يعلم أن له أخاً ولا يدري أنه زيد هذا ، فتقول : (زيدٌ أخوك) أي هذا الذي عرفته هو أخوك الذي كنت علمته ، فتكون الفائدة في مجموعهما ، فإن كان يعرفهما مجتمعين لم يكن في الإخبار فائدة " [4] .

١ - سيبويه ، الكتاب ، ١/٥٠ .
٢ - السابق ، ١/٥٩ ، ٢/٨٨ ، ٢/١٢٧ .
٣ - المبرد ، المقتضب ، ٣/٩٥ .
٤ - ابن يعيش ، شرح المفصل ، ١/٩٨ .

وعدم بلوغ هذه الحكمة العليا ليس إلا عيباً فينا ، لأننا لم نتسلح بما يجب من وسائل للوصول إليه . ونحاول في هذا المقام أن نطالع خاطرات العلماء : (نحويين وبلاغيين) حول هذه المواضع ، كلٌ يُعمل ذوقه لا عقله لإدراك كنه هذه التنويعات السياقية ، والتلوينات الصوتية للألفاظ بالتقديم تارة ، وبالتأخير تارة أخرى ، مما شَكَّلَ لنا تراثاً ذوقياً تحليلياً لهذه المواضع ، نرى فيه اجتهادات تقترب أو تبتعد عن مناط الاستحسان ، لكن يبقى لهم دوماً فضل الاجتهاد .

ولعل توظيف هذا اللون من البلاغة على هذا النسق الإعجازي يكون بمثابة المنبه القوي للعلماء- على اختلاف زوايا نظرهم إلى النص القرآني - بأن بحوثهم لابدّ وأن تبدأ أولاً من النص القرآني ثم تنتهي به . لا أن تبدأ تلك البحوث بالتقريرات والتقعيدات ثم محاولة قياس النص القرآني في ضوء هذه التقريرات . فالذي يتضح جلياً أن لهذا النص الجليل نمط من التوظيف غير ثابت ، نمط طليق بلاغياً وتركيبياً وسياقياً ودلالياً ، وهذا أحد أوجه إعجاز النص العظيم .

والتقديم والتأخير المعنوي تناوله العلماء بالتحليل من خلال سياقات النص القرآني ، وكانوا على وتيرة واحدة إذ يقررون أن " الألفاظ تابعة للمعاني ، والمعاني لها في التقديم أحوال خمسة هي : التقدم بالشرف ، والتقدم بالذات ، وتقدم العلة على معلولها ، والتقدم بالمكان ، والتقدم بالزمان "[1]. أي أنهم يؤكدون على فكرة تبعية الألفاظ للمعاني ، فما تقدم من الكلام تابع في تقدمه في اللسان على حسب ما يدور من معان في الذهن والعقل .

وابن الزملكاني[2] يدور مع الفكرة ، وكذلك فعل ابن القيم[3] ، والعلوي[4] .

---

١ - السهيلي ، نتائج الفكر ، ٢٦٧ .
٢ - ابن الزملكاني ، المجيد في إعجاز القرآن المَجيد ، ١٤٦ .
٣ - ابن قيم الجوزية ، بدائع الفوائد ، ١ / ٥٨ .
٤ - العلوي ، الطراز ، ١ / ٢٣٠ .

هذا وقد جاء اتفاق البلاغيين على تحديد ثلاثة ألوان للتقديم والتأخير المعنوي مستنبطة من سياقات التوظيف في النص القرآني . هذه الألوان هي :

١ - ما قُدِّم والمعنى عليه ، أي أن هذا التقديم مقصود لأغراض معينة .

٢ - ما قُدِّم والمراد به التأخير ، ولهذا أشكل ، فلما اتضح ما فيه زال إشكاله .

٣ - ما قُدِّم في آية وأُخِّرَ في أخرى .

وهذه الألوان حظيت من البلاغيين بالعناية التامة ، ولذا نفصل القول فيها :

١- ما قُدِّمَ والمعنى عليه

ويُقصد به أن الكلمة الموظفة في السياق القرآني إذا قُدِّمت فإنما يكون ذلك لغرض مقصود . ولعل أولى الإشارات في بيان أسباب التقديم والتأخير المعنوي كانت للزجاجي إذ يقول : " اعلم أن للأشياء مراتب في التقديم والتأخير ، فمنها ما يكون إما بالتفاضل ، أو بالاستحقاق ، أو بالطبع ، أو على حسب ما يوجبه المعقول ، فإذا سبق معنى من المعاني على الخلد والفكر بأحد هذه الأسباب أو بأكثرها ، سبق اللفظ الدال على ذلك المعنى السابق ، وكان ترتب الألفاظ بحسب ذلك "(١) .

فقد ذكر الزجاجي هنا أربعة أسباب لهذا اللون من التقديم هي :

١- التقديم بالتفاضل ، أو الفضل والشرف .

٢- التقديم بالاستحقاق ، أي يكون الأصل في هذا اللفظ هو التقديم .

٣- التقديم بالطبع أو الذات .

٤- التقديم بحسب ما يقتضيه العقل . ولعل هذا السبب الرابع يمكن رده إلى السبب الثاني أي : التقديم بالاستحقاق لكون العقل يحكم للمتقدم بما يستحقه من التقديم .

والسهيلي يأخذ من قول الزجاجي ويضيف إليه ، مفصلاً كل سبب ، ومستشهداً بالآيات القرآنية . يقول السهيلي : " ما تقدّم من الكلام فتقديمه في اللسان على حسب

---

١ - الزجاجي ، الأمالي النحوية ، ٢٨٢ .

تقديم المعاني في الجنان ، والمعاني تتقدّم بأحد خمسة أشياء : إما بالزمان ، وإما بالطبع ، وإما بالرتبة ، وإما بالسبب ، وإما بالفضل والكمال ، فإذا سبق معنى من المعاني على الخلد والفكر بأحد هذه الأسباب أو بأكثرها ، سبق اللفظ الدال على ذلك المعنى السابق ، وكان ترتب الألفاظ بحسب ذلك "[1] . فهو هنا يورد أسباباً خمسة لهذا اللون من التقديم والتأخير هي :

١- التقديم بالزمان .

٢- التقديم بالطبع .

٣- التقديم بالرتبة - التقديم بالاستحقاق .

٤- التقديم بالسبب .

٥- التقديم بالفضل والكمال .

ثم يعود السهيلي ويذكر سبباً سادساً للتقديم والتأخير المعنوي هو : (خفة اللفظ) كقولك : (ربيعة ومضر) . يقول : "كان تقديم (مُضَر) أولى من جهة الفضل ، ولكنهم آثروا الخفة ، لأنك لو قدّمت(مُضَر) في اللفظ كثرت الحركات وتوالت ، فلما أخّرت وقف عليها بالسكون "[2] . فهو بذلك يكون مجدداً بذكره ثلاثة أسباب هي :

١- التقدم بالزمان .

٢- التقدم بالسبب .

٣- التقدم للخفة اللفظية .

ويُحمَد للسهيلي روعة التدليل بالآيات القرآنية لكل سبب من هذه الأسباب ، وكذلك جمال تحليله . ومن أمثلة ذلك تحليله لسبب التقديم في قوله تعالى : ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[3] إذ حلّلَ هنا سبب تقديم (السجود) على (الركوع)

---

١ - السهيلي ، نتائج الفكر ، ٢٦٧ .
٢ - نفسه .
٣ - سورة آل عمران : آية رقم (٤٣) .

فيجعله من باب (التقديم للفضل والشرف) لأن السجود أفضل . لكنه لا يترك المسألة هكذا دون تفصيل ، بل يسأل سؤالاً يجيب عنه في طلاقة وتمكن يحسبان له . يقول : " إن قيل : فالركوع قبل السجود بالزمان وبالطبع والعادة لأنه انتقال من علو إلى انخفاض ، والعلو بالطبع قبل الانخفاض ، فهلاّ قُدِّم في الذكر على السجود لهاتين العلتين ؟! فالجواب أن يقال لهذا السائل : انتبه لمعنى هذه الآية من قوله (اركعي مع الراكعين) ، ولم يقل : (اسجدي مع الساجدين) ؛ فإنما عبَّر بالسجود عن الصلاة كلها ، وأراد صلاتها في بيتها ، لأن صلاة المرأة في بيتها أفضل لها من صلاتها مع قومها . ثم قال لها : (اركعي مع الراكعين) أي : صلّي مع المصلين في (بيت المقدس) ، ولم يرد أيضاً الركوع وحده دون سائر أجزاء الصلاة ، ولكنه عبَّر بالركوع عن الصلاة كلها كما تقول : (ركعت ركعتين) و(ركعت أربع ركعات) ، إنما تريد الصلاة لا الركوع بمجرده ؛ فصارت الآية متضمنة لصلاتين ؛ صلاتها وحدها ، عبَّر عنها بالسجود ، لأن السجود أفضل حالات العبد ، وكذلك صلاة المرأة في بيتها أفضل لها ، ثم صلاتها في المسجد عبَّر عنها بالركوع ، لأنه في الفضل دون السجود ، وكذلك صلاتها مع المصلين دون صلاتها في بيتها ومحرابها . وهذا نظم بديع ، وفقه دقيق " [1] .

وهذا التحليل الدقيق لموضع التقديم في هذه الآية ، يدلّ على ذوق رائق للسهيلي .

وابن الأثير يتناول المسألة ويجعل التقديم والتاخير على ضربين هما [2] :

الأول : يختص بدلالة الألفاظ على المعاني ، ولو أُخِّرَ المقدّم أو قُدِّمَ المؤخّر لتغير المعنى ، وهو الرتبي .

والثاني : يختص بدرجة التقدّم في الذكر لما يوجب له ذلك ، ولو أُخِّرَ لما تغير المعنى . وهو المعنوي .

١ - السهيلي ، نتائج الفكر ، ٢٧٢ .
٢ - ابن الأثير ، المثل السائر ، ٢ / ٢٥ .

ويشير ابن الأثير إلى قيمة هذا اللون من التقديم والتأخير بقوله : "إنه مما لا يحصره حدّ ، ولا ينتهي إليه شرح"[1] . ثم يذكر أسباباً خمسة لها اللون هي :

١- التقديم بالسبب .

٢- تقديم الأكثر على الأقل .

٣- التقديم للدلالة على قدرة الخالق .

٤- التقديم لمناسبة المعنى لسياق الآيات السابقة .

٥- التقديم للاهتمام .

ونلاحظ أن ابن الأثير قد تفرّد بأربعة أسباب لم يذكرها من سبقوه ؛ هي :

* التقديم للدلالة على قدرة الخالق .
* والتقديم للأكثر على الأقل .
* والتقديم للمناسبة .
* والتقديم للاهتمام .

ويعتمد ابن الأثير تحليل الآيات القرآنية سبيلاً للتدليل التقديم والتأخير المعنوي . ويمكننا الوقوف على ذلك من خلال تحليله لقوله تعالى : ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[2] ، بقوله : "إنما قدّم الأرض في الذكر على السماء ، ومن حقها التأخير ، لأنه لما ذكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم ، ووصل ذلك بقوله : (وما يعزب) لاءم بينهما ، ليَلي المعنى المعنى . فإن قيل : قد جاء تقديم الأرض على السماء في الذكر في مواضع كثيرة من القرآن . قلنا : إذا جاءت مقدمة في الذكر فلابد لتقديمها من سبب اقتضاه ، وإن خفي ذلك

١ - ابن الأثير ، المثل السائر ، ٢ / ٤٢ .
٢ - سورة يونس : آية رقم (٦١) .

السبب ، وقد يستنبطه بعض العلماء دون بعض "[1]. فهو هنا يؤكد على أن تقديم السماء على (الأرض) هو الأصل لأنه تقديم بالفضل والشرف ، لكن العدول عن ذلك هنا كان مقصوداً لمناسبة سياق الآية كما وضح . كما أنه في ختام تحليله يؤكد على تفرد القرآن بهذا التوظيف ، وخفاء أسراره على كثيرين .

ويتناول ابن الزملكاني المسألة بقوله : " لما كانت الألفاظ تابعة للمعاني ، والمعاني تتقدم باعتبارات خمسة : الأول : تقدم العلة والسببية على المعلول والسبب . والثاني : التقدم بالذات ، كالواحد مع الاثنين . والثالث : التقدم بالشرف كالأنبياء . والرابع : بالرتبة : كالإمام ، والجنس الأعلى . والخامس : بالزمان : كـ﴿وعَاداً وثمُود﴾[2] "[3] .

فهو هنا يورد خمسة أسباب للتقديم والتأخير المعنوي ، هي في مجملها تكرار لما أورده السابقون من قبل .

أما ابن النقيب فيرى أن للتقديم والتأخير أقساماً أربعة : " إما أن يكون موجبا لزيادة في المعنى ، أو لا يكون كذلك . وإما أن يكون ما قدم الأولى به التقديم ، أو الأولى به التأخير ، أو يتكافا الأمران فيه"[4] . ثم يفصّل القول في كل على حدة .

وما يهمنا هو القسم الثاني (أن يكون ما قدم الأولى به التقديم ، أو الأولى به التأخير) ، فقد جعل له ابن النقيب أسباباً مؤدية هي[5] :

١- كون التقديم أدلّ على قدرة الخالق من التأخير .

٢- أن يكون للمتقدّم تأثير في وجود المتأخر = (العلة والسببية) .

٣- أن يكون المتقدّم أكثر وجوداً = (الأكثر على الأقل) .

---

١ - ابن الأثير ، المثل السائر ، ٢ / ٤٥ .
٢ - سورة العنكبوت : آية رقم (٣٨) .
٣ - ابن الزملكاني ، المجيد في إعجاز القرآن المجيد ، ١٤٦ .
٤ - ابن النقيب ، مقدمة تفسير ابن النقيب ، ١٦٧ .
٥ - ينظر : السابق ، ١٦٩- ١٧١ .

٤- أن يكون المتقدّم في الوجود بالذات .

٥- أن يكون متقدّماً لأجل كلام تقدّم - (مناسبة السياق المتقدم) .

٦- أن يكون التقديم للاهتمام .

٧- أن يكون التقديم رعاية للسجع (الفاصلة) .

والسبب الأخير هو الوحيد الذي تفرّد ابن النقيب بذكره . وهذه إشارة جميلة ، ذات دلالة بليغة في مسألة التقديم والتأخير المعنوي .

والطيبي يتناول المسألة ويجعل لها أسباباً [1] :

١- أن يكون التقديم للاهتمام .

٢- أن يكون التقديم للفضل والشرف .

٣- أن يكون التقديم للاحتياط .

٤- أن يكون التقديم رعايةً للفاصلة .

٥- أن يكون التقديم لمراعاة النظم .

٦- أن يكون التقديم للكثرة .

٧- أن يكون التقديم للسبب على المسبب .

ويلاحظ تفرد الإمام الطيبي بذكر سببين لم يذكرهما من سَبقه هما :

الأول : أن يكون التقديم للاحتياط . يقول الطيبي :"ربما يكون التقديم للاحتياط نحو قوله تعالى : ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ [2] فلو أخَّرَ (من آل) لأوهم أنه من صلة (يكتم) فلم يفهم أن الرجل من الآل " [3] .

والثاني : أن يكون التقديم لمراعاة النظم . يقول : "ولمراعاة النظم قدَّم قوله : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ [4] ليكون على نسق الآيتين السابقتين" [5] .

١- ينظر : الطيبي ، التبيان ، ٢٨٧ — ٢٩١ .
٢- سورة غافر : آية رقم (٢٨) .
٣- الطيبي ، التبيان ، ٢٨٩ .
٤- سورة يس : آية رقم (٣٩) .
٥- الطيبي ، التبيان في البيان ، ٢٨٩ .

فتقديم المفعول به (القمر) كان داعياً لمراعاة النظم في الآية وتضافره مع الآيتين السابقتين .

والعلوي يتناول المسألة بذكره أن للمعاني في التقديم أحوال خمسة هي [1] :

الأول : تقدّم العلة على المعلول ، مثل تقدّم السراج على ضوئه .

والثانية : التقدّم بالذات ، نحو تقدّم الواحد على الاثنين .

والثالثة : التقدّم بالشرف ، نحو تقدّم الأنبياء على الأتباع ، والعلماء على الجهال .

والرابعة : التقدّم بالمكان ، نحو تقدّم الإمام على المأموم .

والخامسة : التقدّم بالزمان ، نحو تقدّم الظلمات على النور ، والجهل على العلم .

وهي أسباب مكررة ، وقد كان للعلوي منهج خاص في تحليل الآيات الدالة على التقديم والتأخير المعنوي . يقول في تعليقه على قوله تعالى : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [2] : " تقديم (رجالاً) فيه وجهان :أحدهما : أن يكون تقدماً بالرتبة ، فإن الغالب أن (الرجالة) إنما يأتون من الأمكنة القريبة ، و(الركبان) يأتون من الأمكنة البعيدة ، فلهذا قدم (الرجالة) . وثانيهما : أن يكون تقديم (الرجالة) لأجل الفضل ، فإن من حجّ (راجلاً) أفضل ممن حج (راكباً) ، فلهذا قال ابن عباس ﷺ : (وددت لو حججت راجلاً ، فإن الله قدَّم (الرجالة) على الركبان في القرآن) . فدلّ ذلك على أنه فهم من التقديم في الآية الفضل ، فالمعنيان محتملان في الآية كما ترى " [3] . فهو هنا يعتمد التأمل الذوقي لفهم سرّ التقديم في الآية ، مما أتاح له إدراك بعض أسرارها .

١- ينظر : العلوي ، الطراز ، ١/ ٢٣٠ – ٢٢٩ .
٢ - سورة الحج : آية رقم (٢٧) .
٣ - العلوي ، الطراز ، ١ /٢٣١ .

أما تفصيل المسألة فكان على يد الزركشي إذ فَصَّلَ الكلام فيها ، وجعل لها (٢٥ خمسة وعشرين سبباً) ، كرَّر فيها (١٧ سبعة عشر سبباً) ذكرها السابقون ، وتفرد بذكر (٨ ثمانية أسباب) لم يسبق إليها ، وهذه الأسباب هي[١] :

١- التقديم لتحقّق ما بعده .

٢- التقديم للتنبيه على أنه مطلق لا مقيد .

٣- التقديم للتنقل .

٤- التقديم للتنبيه على أن السبب مرتب .

٥- التقديم لمراعاة الإفراد .

٦- التقديم للتحذير منه والتنفير عنه .

٧- التقديم للتعجيب من شانه .

٨- التقديم للترتيب .

وهذه الأسباب ليست جديدة تماما . فمثلاً : يرى الزركشي في قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ﴾[٢] ، إنما هو من باب التقديم (للتنبيه على أنه مطلق لا مقيد)[٣] . في حين يرى الطيبي أنّ التقديم في الآية من باب الاهتمام عند المخاطب . والرأي الراجح رأي الطيبي ، إذ المخاطب أكثر شغفاً بمعرفة هؤلاء الشركاء ، ليزداد لهم إنكاراً واحتقاراً .

وما ذكره في (التقديم للتنقل) والذي جعله الزركشي على أقسام هي[٤] :

الأول : من الأقرب إلى الأبعد ، كقوله تعالى : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاءً﴾[٥] .

---

١ - ينظر : الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ٣ / ٢٣٨ - ٣ / ٢٧٥ .

٢ - سورة الأنعام : آية رقم (١٠٠) .

٣ - ينظر : الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، ٣ / ٢٦٧ .

٤ - ينظر : السابق ، ٣ / ٢٦٨ — ٢٧٠ .

٥ - سورة البقرة : آية رقم (٢٢) .

والثاني : من الأبعد إلى الأقرب ، كقوله :﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾[1] .

والثالث : من الأعلى إلى الأدنى ، كقوله : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ ﴾[2] .

والرابع : من الأدنى إلى الأعلى ، كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً ﴾[3] .

وهذه الأقسام أجملها السيوطي فيما بعد في كتابيه (الإتقان) و(معترك الأقران في إعجاز القرآن) تحت عنوان (الترقّي من الأدنى إلى الأعلى) و (التدلّي من الأعلى إلى الأدنى)[4] .

كذلك ما ذكره في (التقديم للتنبيه على أن السبب مرتّب) ، كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾[5]. يقول : " قدّم الجباه ثم الجنوب لأن مانع الصدقة في الدنيا كان يصرف وجهه أولاً عن السائل ، ثم ينوء بجانبه ، ثم يتولى بظهره "[6] . وهذا مما تفرد الزركشي بذكره ، ولم نجد له ذكراً عند سابق ولا لاحق ممن تناولوا هذا اللون من التقديم والتأخير .

أما ما ذكره عن (التقديم لمراعاة الإفراد) الذي جعل منه تقديم (الأموال) على (البنين) في قوله تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ ﴾[7] . فالتقديم في هذه الآية تقديم (بالعلة والسببية)[8] . وعند ابن الزملكاني تقديم (بالعلة والسببية)[9] . وعند ابن القيم

---

١ – سورة المؤمنون : آية رقم (٨٦) .
٢ – سورة آل عمران : آية رقم (١٨) .
٣ – سورة التوبة : آية رقم (١٢١) .
٤ – ينظر : السيوطي ، معترك الأقران ، ١/ ١٣٥ .
٥ – سورة التوبة : آية رقم (٣٥) .
٦ – ينظر : الزركشي ، البرهان ، ٣/ ٢٦٨ .
٧ – سورة الكهف : آية رقم (٤٦) .
٨ – ينظر : السهيلي ، نتائج الفكر ، ٢٧٠ .
٩ – ينظر : ابن الزملكاني ، المجيد ، ١٤٧ .

تقديم بالعلة والسببية [1]. وعليه فالزركشي ليس مجدداً بالمعنى الصحيح، بل هو فقط مجدد في ذكر المسمى.

وما ذكره عن التقديم من باب (التقديم للتحذير منه والتنفير عنه)، وعليه قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾[3]. يقول الزركشي في تعليقه على آية سورة الإخلاص: "إنه لما وقع في الأول منازعة الكفرة وتقولهم، اقتضت الرتبة بالطبع تقديمه في الذكر، اعتناء به قبل التنزيه عن الوالد الذي لم ينازع فيه أحد من الأمم"[4].

أما تناوله لسبب التقديم في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾[5] فقد جعله من باب (التقديم للتعجيب من شأنه)، وهذا من تفرّداته.

وكذلك ما ذكره عن (التقديم لقصد الترتيب)، ودلّل عليه بقوله تعالى: ﴿فَاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ﴾[6]. فقد ذكر هذه الآية في تدليله على (التقديم بالفضل والشرف)، وذكر فيها فضل تقديم الوجه على اليد[7]. وذكرها السهيلي في (التقديم بالفضل)[8]، والعلوي في (التقديم بالشرف)[9].

وجملة ما تفرّد الزركشي به ينحصر في أربعة أسباب هي:

١- التقديم لتحقق ما بعده.

---

١ - ينظر: ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، ١/ ٦٢.
٢ - سورة النور: آية رقم (٣).
٣ - سورة الإخلاص: آية رقم (٣).
٤ - ينظر: الزركشي، البرهان، ١/ ٢٧٢.
٥ - سورة الأنبياء: آية رقم (٧٩).
٦ - سورة المائدة: آية رقم (٦).
٧ - ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ٣/ ٢٥٦.
٨ - ينظر: السهيلي، نتائج الفكر، ٢٦٩.
٩ - ينظر: العلوي، الطراز، ١/ ٢٢٢.

٢- التقديم للتحذير منه والتنفير عنه .
٣- التقديم للتعجيب من شأنه .
٤- التقديم للتنبيه على أن السبب مرتّب .

ويحمد للزركشي هذا الجهد الكبير في محاولته إحصاء الأسباب الداعية إلى (التقديم والتأخير المعنوي) مما وضعه في مقدمة أهل العلم الذين تناولوا هذا النوع بالتحليل .

أما السيوطي فقد تناول المسألة في مؤلفيه (الإتقان في علوم القرآن) و (معترك الأقران في إعجاز القرآن) . وإن كان ما ذكره في المؤلَف الثاني لم يخرج قيد أنملة عما ذكره في (الإتقان) وتلك من عادات السيوطي الأثيرة . هذا وقد جعل السيوطي للتقديم والتأخير قسمين هما :

الأول : ما أشكل معناه بحسب الظاهر ، فلما عُرِفَ أنه من الباب اتضح .

والثاني : ما ليس كذلك .

وجعل للقسم الثاني عشرة أنواع نقلها عن الإمام شمس الدين ابن الصائغ الحنفي في كتابه المفقود (المقَدِّمَة في سر الألفاظ المقَدَّمَة) . وهذه الأنواع هي [1] :

١- التقديم للتبرّك ، نحو : ﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ﴾ [2] .
٢- التقديم للتعظيم ، نحو قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [3] .
٣- التقديم للتشريف .
٤- التقديم للمناسبة .
٥- التقديم للحثّ عليه ، والحضّ على القيام به .
٦- التقديم بالسبق المكاني أو الزماني ، أو بالإيجاد ، أو بالوجوب ، أو بالذات .
٧- التقديم بالعلة والسببية .
٨- التقديم بالغلبة والكثرة .

١- ينظر : السيوطي ، معترك الأقران ١/ ١٣٠ – ١٣٦ .
٢- سورة آل عمران : آية رقم (١٨) .
٣- سورة الأحزاب : آية رقم (٥٦) .

٩- التقديم للترقّي من الأدنى إلى الأعلى .

١٠- التقديم للتدلي من الأعلى إلى الأدنى .

وهذه الأسباب من نقولات السيوطي عن ابن الصائغ . وقد أضاف إليها سببين[١] :

الأول : كون التقديم أدلّ على قدرة الخالق .

والثاني : التقديم لرعاية الفاصلة .

وتجدر الإشارة إلى أن البحث في هذا اللون من التقديم والتأخير يجب استيفائه على مستوى النص القرآني كاملاً ، وذلك حتى يتسنى لنا الخروج بدلالات مفيدة لتوظيفات هذه المواضع .

فمثلاً : وردت كلمة السماء في القرآن الكريم في (٣١٠ ثلاثمائة وعشر آيات) ، واجتمعت مع كلمة (الأرض) في (٢٢٩ مائتين وتسع وعشرين آية) ، وتقدّمت على كلمة (الأرض) في القرآن الكريم في (٢١٤ مائتين وأربع عشرة آية)[٢]. هذا التقديم الموظّف في هذه الآيات يُحكَمُ عليه بأنه تقديم (بالفضل والشرف) لأسباب استعلاء السماء ، واشتمالها على البيت المعمور ، والملائكة الكرام المقربين . لكن من العجيب أن نجد كلمة (الأرض) تتقدّم على كلمة (السماء) في (١٥ خمس عشرة آية) . ولذا فإن مناط البحث في هذه الجزئية لابد أن ينأى تماماً عن إحصاء مرات تقدّم السماء على الأرض ، وذلك لأنه الأصل ، بل يجعل مناط البحث تحرّي الأسباب الداعية لتقدّم الأرض على السماء بخلاف التوظيف الأصل ، يحكمنا في ذلك السياق الكلي للآيات .

فمثلاً قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾[٣]. في هذه الآية تقديمان معنويان :

١- ينظر : السيوطي ، معترك الأقران ، ١/ ١٣٦ .

٢ - محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ٤٤٥ – ٤٥٠ .

٣ - سورة الحديد : آية رقم (٤) .

الأول : تقديم السماوات على الأرض ، وهو من قبيل التقديم بالفضل والشرف .

والثاني : تقديم الأرض على السماء ، وهو تقديم (لمناسبة السياق المتقدم) .

ولنحلل هنا التقديم الثاني لنتخيل شكل الحركة في هذه اللوحة القرآنية كما يلي :

(يعلم ما يلج في الأرض) ↓ ↑ (وما يخرج منها)

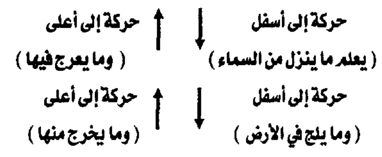
حركة إلى أسفل — حركة إلى أعلى

(وما ينزل من السماء) ↓ ↑ (وما يعرج فيها)

حركة إلى أسفل — حركة إلى أعلى

فنجد حركة (يلج) في الأرض (إلى أسفل) ، مقابل حركة (ينزل) من السماء أيضاً (إلى أسفل) . ونجد حركة (يخرج منها) أي من الأرض (إلى أعلى) ، مقابل حركة (يعرج فيها) أي في السماء (إلى أعلى) . والنظرة الأولى توحي بأن هناك توافقاً حركياً في توظيف الشكل البصري لهذه الآية بعيداً عن (مناسبة السياق المتقدم) .

لكن لنا أن نتساءل : هل لو اطرد تقديم (السماء) في هذه الآية - لو كان- هل كانت اللوحة البصرية تغيرت ليصبح شكلها :



فماذا يفيد ذلك من دلالات ؟! ولأن بقاء اتجاه الحركة ثابت لم يتغير فقد أضاف ذلك لنا بعداً آخر هو أنّ تقديم السماء بما يستلزمه من حركة ، السبب في اتجاه حركة الأرض ، وذلك لأنّ المطر يكون بلا شك سبباً لعملية الولوج في الأرض ، ثم الخروج منها على هيئة النبات . كما أن توظيف الفعل (يخرج) هنا استلزم بناء التركيب عل نمط حركي معين . فقد لزم أن تكون هناك حركتان متضادتين في الاتجاه هما :

- (يخرج) من الأرض (النبات) ـــ (حركة إلى أعلى) .
- (ينزل) من السماء (المطر) في هذا السياق ـ (حركة إلى أسفل) .

هذا التوظيف الحركي للفعلين (يخرج) و(ينزل) استلزم في بناء الآية في النص القرآني أن يقدّم الفعل (يلج) الذي يشير إلى (المطر) على الفعل (يخرج) الذي يشير إلى (النبات) ، لأن هذا من باب التقديم (بالعلة والسببية) ، فالمطر سبب الإنبات .

ويكفي استعراض شكل البناء الفعلي الموظف في الآية ، وما نلحظه من توالي الأفعال بشكل فريد دلاليا كما يلي : (يلج ـ يخرج ـ ينزل ـ يعرج) . لتأكيد أهمية ما حدث من تقديم الأرض على السماء ، وما أفاده ذلك من إشارة توافقات سياقية مرتبطة أوثق الارتباط بما قبلها في إقامة نظام نسقي مرتب لظواهر طبيعية ، ومن ناحية أخرى ما أسهم به في إيضاح لوحة شكلية تتلاءم مفرداتها بشكل دقيق لتؤدّي دلالات سياقية رائعة بعيداً عن التضافر الحركي والإيقاعي والبصري في هذه الآية .

٢- ما قُدمَ والأولى به التأخير :

وهذا اللون متوافر توظيفياً في آيات النص القرآني . فقد تُقَدَّم كلمة من كلمات الآية القرآنية فيؤدي ذلك إلى صعوبة فهم الدلالة فيها ، فإذا ما عُرِفَ أن (المُقدَّم) أولى به التأخير زال هذا الإشكال واتّضح معنى الآية ، واستبانت دلالاتها . وقد تناول هذا اللون بالتحليل عدد من علماء الإعجاز القرآني منذ بدايات التأمل في النص القرآني .

فيتناول ابن قتيبة هذا اللون من التقديم المعنوي بالتحليل إذ يقول : " ومن المقدَّم والمؤخَّر قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً قَيِّماً ﴾ [1] أراد : أنزل الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً . وقوله : ﴿ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ ﴾ [2] أي : بشرناها بإسحاق فضحكت " [3] . فهو يجعل هذه الإشارة من باب

١- سورة الكهف : الآيتان رقم (١ ، ٢) .
٢- سورة هود : آية رقم (٧١) .
٣- ابن قتيبة ، تأويل مشكل القرآن ، ٢٠٥ .

(المقلوب) فقد تقدمت كلمة (عوجاً) في الآية الأولى ، وكلمة (ضحكت) في الآية الثانية ، ولذا أشكل المعنى . ففي الآية الأولى تتوالى صفات الحسن للقرآن الكريم ، ثم تتلوها صفات (نَفْي) ما هو ضد الحسن . ولذا يقول الرضي :" إنما وصف القرآن – والله أعلم – بأنه قيم لا عوج فيه ، ذهاباً إلى نفي الاختلاف عن معانيه ، والتناقض في أوضاعه ومبانيه ، وأنه غير ناكب عن المنهاج ، ولا مستمر على الاعوجاج " [1] .

أما الآية الثانية فالإشكال فيها عند ابن قتيبة مبني على الرأي القائل بأن الضحك هنا يقصد به الحيض [2] ، وعلى هذا فإنه من غير المعقول أن يسبق (الحيض) هذه (البشرى) . فالترتيب العقلي يقتضي أن (البشرى) سابقة و(الحيض) لاحق . فالأمر هنا على الترتيب الإدراكي البشري أولاً ، ثم الشروع الرباني في تحقيق مقتضيات هذه البشارة ، والحيض أول درجات هذا الشروع لأنها كانت قد أسَنَّتْ ، ولذا فإن عودة هذه الحالة لها دليل على عودتها إلى أحوال النساء ومنها الحمل ثم الولادة ، وهذا جوهر البشارة .

وعلى هذا النسق كان تناول البلاغيين لمثل هذه المواضع بالتحليل والبحث ، مع محاولة إبراز ما تحتويه من جماليات نسقية ودلالية رائعة [3] . وجدير بالذكر أن الزركشي كان متفرداً بين جموع المتناولين لهذا النوع بالتحليل الدقيق ، إذ جعل لهذا النوع دليلين يدلان عليه هما [4] :

الأول : ما دل عليه الإعراب ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [5] ، فلو لم يدلّ الإعراب هنا على تعيين الفاعل والمفعول لأشكلَ معنى الآية .

---

١ - الرضي ، تلخيص البيان في مجازات القرآن ، ٢٠٦ .
٢ - هذا رأي مجاهد ، وعكرمة رضي الله عنهما . ينظر : البغوي ، معالم التنزيل ، ٢ / ٤٥٦ .
٣- ينظر : الرضي ، تلخيص البيان ،٢٥١ .- الزركشي ، البرهان ، ٢/ ٢٧٥- ٢٨٣ .- السيوطي ، الإتقان ،١/ ١٢٩- ١٣٠ . - السيوطي ، معترك الأقران ،١/ ٢١٥ .
٤- ينظر : الزركشي ، البرهان ، ٣ / ٢٨٠ .
٥ - سورة فاطر : آية رقم (٢٨) .

والثاني : ما دلّ عليه المعنى ، كقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾ [1]. يقول الإمام الزركشي : " أي أحوى غثاء ، أي أخضر يميل إلى السواد ، والموجب لتاخير (أحوى) رعاية الفاصلة " [2] . فالذي أزال الإشكال هو المعنى اللغوي للكلمات الموظفة هنا . وهذان الدليلان لابدّ أن يكونا عمدة البحث في هذا اللون من التقديم والتاخير .

٣- ما قدم في آية وأخر في أخرى :

ومن أمثلة هذا اللون قوله تعالى : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [3] . فقد قدّم الملائكة على (الروح) على إرادة الكثرة ، لأن الروح وهو على رأي الجمهور جبريل عليه السلام ، محكوم في عروجه إلى السماء بالإبلاغ للوحي ، وهي مرات معدودة قد انقضى زمنها بوفاة الرسول ﷺ وذلك بالمقارنة بكثرة عروج الملائكة بما يحملونه من أعمال البشر ، وكسبهم . ولذا فإن تقديم الملائكة هنا على الروح على إرادة الغلبة والكثرة .

أما تقديم الروح على (الملائكة) في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ﴾ [4] . فالأمر هنا على إبراز لوحة من مشاهد القيامة يكون فيها أهل الفضل مقدمون . فالروح عليه السلام أشرف الملائكة بلا جدال على رأي جمهور أهل السنة [5] ، ولذا يقدم على (الملائكة) في هذا المقام .

أما تقديم (الملائكة) على (الروح) في قوله تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾ [6] . فهو في سياق الحديث عن قدر هذه الليلة . يقول ابن كثير : " يكثر تنزل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها ، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة " [7] .

---

١ - سورة الأعلى : آية رقم (٥) .
٢ - الزركشي ، البرهان ، ٣ / ٢٨٠ .
٣ - سورة المعارج : آية رقم (٤) .
٤ - سورة النبأ : آية رقم (٣٨) .
٥- ينظر : النسفي ، مدارك التنزيل ، ٤ / ٣٢٧ .
٦ - سورة القدر : آية رقم (٤) .
٧- ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ٤ / ٥٢٥ .

وعلى هذا فتقديم الملائكة هنا على (الروح) على إرادة (الكثرة) لجعل ذلك سببا في تنزل الرحمة والبركة ، وهذا مما يناسب سياق العطاء الإلهي في هذه الليلة .

إن المتأمل لتوظيفات هذا النوع من التقديم والتأخير المعنوي يدرك عظمة هذا النص القرآني في توظيفاته لكلمات اللغة ، بل لأحرفها ، فما بالنا بالتراكيب والأساليب .

وبذلك فإن تأمل سياقات العدول المعنوي بهذا اللون من التلوين الصوتي هو في حقيقة أمره تأمل لفنيات التوظيف الإعجازي للنص القرآني في مجمله . فما يتبع هذه التلوينات من جماليات هو مناط الأمر ، لأنّ هذه الجماليات هي الدلالة النصية التي تولدت من تعانقات السياقات العدولية مع هذه التلوينات .

ثالثاً : العدول الضمائري [الالتفات] .

من أساليب التلوين الصوتي بالعدول ما نلمسه من كسر لأفق التوقعات التعبيرية في سياق التوظيف الضمائري داخل بنية الجملة . فالتحول عن صيغة ضمائرية إلى أخرى إنما تنعقد مقصديته على جذب الانتباه ، واستثارة الحواس تجاه هذا الكسر التعبيري . فالمتلقي مرهون دائماً بما يقَدَّم إليه ، لا بما يقَدّمه . يقول د. محمد أبو موسى عن هذا العدول الضمائري : " أنه لون من ألوان الصياغة يُعين ذا الموهبة الصادقة على الإيحاء بكثير من اللطائف والأسرار ، ويلفت النفس المتلقية الواعية إلى كثير من المزايا "[1] .

والالتفات في أخصّ صوره هو الناتج العدولي الذي يختص بالضمائر ، وذلك لأنه يدور حول التعبير في بنية دائرية تقوم على إثارة الذهن نحو أفق دلالي معين ، ثم كسر هذا الأفق ليحل محله آخر ، ثم إذا كان مركباً عاد التعبير مرة أخرى إلى الأفق الأصل ، فيشمل في رحلته النصية آفاقًا نصية وتعبيرية متنوعة ، استحضرت في دلالاتها متلقين أكثر وعياً بلعبة اللغة والتراكيب[2] .

١- د. محمد أبو موسى ، خصائص التراكيب ، ٢٤٩ .

٢- ينظر : جاك دريدا ، الكتابة والاختلاف ، ٢٦٨ .

والبلاغيون حينما رصدوا هذا العدول الضمائري وقفوا على قيمته الجمالية بالنظر إلى الصيغة ، وما تحويه من إمكانات لغوية مجاوزة تخرق المألوف ، وتكسر آلية الاعتياد اللغوي ، وكان قصدهم في ذلك العبور باللغة إلى آفاق سياقية أرحب ، ومناطق تعبيرية أشمل لفضاءات التعبير في هذه اللغة . يقول ابن الناظم في وصف جمالية هذا العدول : " العرب يستكثرون منه ، لأنهم يرون الانتقال من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القبول عند السامع ، وأحسن تطرية لنشاطه ، وأملأ باستدرار إصغائه " [1] . إذن فالمتلقي هو الغرض الأسمى لهذه الفنية العدولية ، المتلقي بما يحمله في ذاكرته من استنطاقات لهذه الفنية ، وبما يقوم به من تاويلات لتفسير مثل هذا العدول ، لأنه هو المعني بمثل هذا العدول .

وقد توارد البلاغيون على لمح سياقات العدول الضمائري ، ووقفوا على إشاراته في السياق القرآني أو في السياق الشعري ، وإن كان أكثرهم يخلط بين فنية الالتفات وفنيات بلاغية أخرى . فقد لمسنا سياقات المصطلح عند أبي عبيدة فيسميه الترك والتحويل إذ يقول : " ومن مجاز مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب ، قوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾[2] ، أي : بكم"[3] . ويتابعه الفراء في (معاني القرآن) ، إلا أنه يسميه (الانتقال) [4] .

ويدرسه ابن قتيبة في باب (مخالفة ظاهر اللفظ معناه) ، فيقول : " ومنه أن تخاطب الشاهد بشيء ثم تجعل الخطاب له على لفظ الغائب ، كقوله عز وجلّ : ﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ . وكذلك خطاب الغائب للشاهد " [5] .

---

١ - ابن الناظم ، المصباح ، ٣٠ .
٢ - سورة يونس : آية رقم (٢٢) .
٣ - أبو عبيدة ، مجاز القرآن ، ١ / ٢١١ .
٤ - ينظر : الفراء ، معاني القرآن ، ١ / ٤٦٠ .
٥ - ابن قتيبة ، تاويل مشكل القرآن ، ٢٨٩ .

وقد تواتر البلاغيون على تناول العدول في آية سورة يونس السابقة كدليل على الانتقال أو الانصراف أو الترك أو التحويل ، وكانت اجتهاداتهم متنوعة ما بين خلط المصطلح بغيره من مصطلحات البلاغة كالاعتراض ، والتذييل ، والإطناب ، وما بين التأصيل الدقيق لأصول المصطلح ، ومناطق تصرفه ، وحدود عمله [1] .

على أننا يجب أن نشير إلى وجود اتجاهين في التعامل مع فنية الالتفات هما :

الأول : رأي السكاكي وأنصاره كالقزويني وشراح التلخيص . ويدور حول تضييق نطاق عمل المصطلح ، وقصره على العدول الضمائري فقط . يقول : " نقل الكلام عن الحكاية إلى الغيبة لا يختص المسند إليه ولا هذا القدر ، بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتها يُنقل كل واحد منها إلى الآخر ، ويسمى هذا النقل التفاتاً عند علماء علم المعاني " [2] .

فالالتفات على هذا الرأي عدول في وجوه المطابقة بين الضمائر ، فالسكاكي بهذا الرأي يميل إلى توسيع نطاق البنية المثالية للغة ، والذي يمثل الالتفات عدولاً عنها [3] .

والاتجاه الثاني : رأي الجمهور من أهل البلاغة ، الذي يدور حول اعتماد كل خروج عن مقتضى الظاهر ، وكل مخالفة للنسق التعبيري من باب الالتفات . وعلى هذا الاتجاه التنوخي ، والطوفي ، وابن النقيب ، وابن الأثير ، والعلوي [4] . والالتفات بهذا المفهوم يتسع لصور متعددة من مخالفة مقتضى الظاهر في وجوه المطابقة في الضمير (المتكلم ،

١- ينظر : ابن المعتز ، البديع ، ٥٨–٥٩ . – العسكري ، كتاب الصناعتين ، ٣٩٢ . – الباقلاني ، إعجاز القرآن ، ٩٩–١٠٢ . – أسامة بن منقذ ، البديع ، ٢٠٠ . – الزمخشري ، الكشاف ، ٢/ ٣٧٥ . – ابن رشيق ، العمدة ، ٢/ ٤٥ . – ابن وهب ، البرهان ، ١٢٢ . – الطوفي ، الإكسير ، ١٤٠ . – ابن النقيب ، مقدمة التفسير ، ٢٠٢ – ٢١٣ . – التنوخي ، الأقصى القريب ، ٤٥ . – السكاكي ، مفتاح العلوم ، ١١٢ . – ابن الأثير ، المثل السائر ، ٢/ ١٦٧ – ١٨١ . – العلوي ، الطراز ، ٢/ ١٣١ .

٢ – السكاكي ، مفتاح العلوم ، ١١٢ .

٣ – ينظر : د. أسامة البحيري ، تحولات البنية ، ٢٩٦ .

٤ – ينظر : التنوخي ، الأقصى القريب ، ٤٦ . – الطوفي ، الإكسير ، ١٤٠ . – ابن النقيب ، مقدمة التفسير ، ٢١٠ . – ابن الأثير ، المثل السائر ، ٢ / ١٨٥ . – العلوي ، الطراز ، ٢ / ١٣٢ .

والمخاطب ، والغائب) ، والعدد (الإفراد ، والتثنية ، والجمع) ، وفي الزمن (المضارع ، والماضي ، والأمر) ، وفي النوع (التذكير والتانيث) .

ويرى د. عبد الواحد علام أن رأي هذا الاتجاه له قيمته ، ذلك لأنه يسهم في جمع الألوان البلاغية الدالة على العدول تحت مصطلح واحد ، بدلاً من تشتيت أذهان الدارسين بمصطلحات كثيرة لفنون فرعية يمكن أن يوحّدها فن بلاغي شامل . وعلى هذا فمن الأفضل تناول الالتفات بهذا المفهوم الواسع ، بل يمكن أن يتسع لصور أخرى ، مادام يقف وراء هذه الصور جميعها غرض بلاغي [1] .

ولما كنا تناولنا في الفصل السابق العدول في الصيغ الاشتقاقية ، وفي العدد ، وفي الزمنية ، فإننا سنقصر الحديث هنا على العدول الضمائري ، ومدى إسهاماته النصية في السياقات التوظيفية لهذا اللون من العدول من خلال معانقته للآيات القرآنية .

صور العدول الضمائري :

الالتفات في الضمائر يقوم على كسر آلية عملية التوصيل ، لأنه يحدث اهتزازاً في مرجعية الضمير على المستوى السطحي للصياغة ، فيَتَنَبَّه المتلقي ويعيد للضمير استقراره على مستوى البنية العميقة ، وإذا لم يتنبه المتلقي لهذا العدول فإنه يحدث لديه خلل في مرجعية الضمير ، ومن ثم يفقد تواصله مع النص ، ويقلّ انفعاله به . كما أن الالتفات الضمائري يتيح للمبدع حرية كبيرة في إضفاء ذاتيته الحيّة على نسيج نصّه من خلال انفتاح النسق التعبيري ، واتساع زاوية الرؤية في هذا النسق .

ونظراً لاختصاص العدول في هذا المقام بالضمائر في سياقاتها الزمنية حال التلفظ ، أي (المتكلم ، والمخاطب ، والغائب) فإنه من المفيد هنا أن نقف على أسلوبية التعبير لكل منها ليتسنى لنا إدراك البعد العدولي في توظيفاته النصية .

١- ينظر : د. عبد الواحد علام ، البديع ، المصطلح والقيمة ، ٢٩ .

فضمير المتكلم يتمحور حول الذات ، والإشارة إلى الأنا الخاصة ، أي أن التعبير بهذا الضمير يحمل في طياته وجهة نظر خاصة تبدأ من الذات ولا تنتهي إليها [1] . أما التعبير بضمير الخطاب فيقوم على دلالة المواجهة والمباشرة التعبيرية . والتعبير بضمير الغياب يجسد دوماً حالة من الإغراق في التذكر واستدعاء ما هو خفي عن اللحظة الآنية إلى السياق التعبيري الحاضر ، مما يسهم في زيادة القيمة الأسلوبية للسبك النصي من خلال التركيز على هذه البنية الضمائرية [2] .

ولنحاول الآن الولوج في تبيان سياقات العدول الضمائري من خلال إبراز صوره المتنوعة في السياقات القرآنية ، وذلك لبيان ما يسهم به من جماليات نصية فيها .

١- الالتفات من صيغة التكلم إلى الخطاب :

اعتماداً على النسق الأصل في سياق المُرْسَلة الكلامية باعتبار أطرافها من متكلم ومخاطب ورسالة وشفرة تلك الرسالة ثم وسيلة أداء هذه الرسالة ، وقناة الاتصال ، فإن ما يحدث من كَسْر لسياق التكلم في هذه المنظومة إنما مقصده الأهم ينعقد على جذب مختلف حواس المتلقي للمشاركة في عملية إنتاج النص (الرسالة) ، وهذه الإشراكة الإنتاجية (للنص / الرسالة) تقوم على تحديد الأدوار ، وفهم طبيعة كل منها ، ثم الانغماس في تأويل المنتَج النصي المتولد عن هذه الرسالة / النص . وكسْر أفق التوقعات التعبيرية في هذا السياق يتمّ بتوظيف بنية الالتفات ، ويقوم على دفع المتلقي إلى متابعة حركية الصياغة في مستويين هما :

الأوّل : مستوى الذاتية الفردية ، وهو مستفاد من التعبير بصيغة التكلم .

والثاني : مستوى التأمل المشترك ، ويستفاد من البنية المتولدة عن توظيف الالتفات .

وهما ينتجان من عملية العدول ،كما أنهما ينتجان في بنيتهما العميقة لدى المتلقي عندما يتمّ تأويل الضمائر التي لابست بنية العدول ، وإرجاعها إلى صيغة تعبيرية متحدة [3] .

١- ينظر : جزيل فالانسي ، النقد النصي ، ٢٥٢ .

٢ - ينظر : السابق ، ٢٤٨ .

٣ - ينظر : د. أسامة البحيري ، تحولات البنية ، ٣٠٧ .

فمما نلمسه من عدول عن سياق التكلم إلى سياق الخطاب قوله تعالى : ﴿ وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[1] . حيث بدأت الصياغة في الآية باعتماد سياق التكلم في كلمات (ما ليَ ، وأعبد ، وفطرني) التي تحيل مباشرة إلى ضمير التكلم الآني ، وما يحدثه من إشاعة جو مشبع بالذات . والسياق الحاكم للآية قائم على خالص النصح من جانب مؤمن القرية لقومه حين كذّبوا رسل الله ، وهذا النصح حرصًا على مصلحتهم ومنفعتهم . يقول أبو السعود : " تلطّف في الإرشاد بإيراده في معرض المناصحة لنفسه ، وإمحاض النصح ، حيث أراهم أنه اختار لهم ما يختار لنفسه "[2] .

- والسياق في الآية على الالتفات من التكلم في قوله : ﴿وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ إلى الخطاب المباشر لقومه بقوله : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ . وفضلاً عما يفيده الالتفات هنا من إثارة لمشاعر المتلقي وأحاسيسه ، وتنبيه ذهنه وفكره لما يحتويه التعبير هنا من تنويع أسلوبي ، وعدم انسيال التعبير على وتيرة سياقية واحدة ، فإننا نشعر بحسّ صاحب هذا التعبير ، وحرصه على هداية قومه ، فتعجّبَ من عدم العبادة في جانبه بقوله : ﴿وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ﴾ لئلا ينفروا من قبول هذا النصح .

يقول ابن الأثير :"وإنما صرف الكلام عن خطاب نفسه إلى خطابهم لأنه أبرز الكلام لهم في معرض المناصحة ، وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم ، لأن ذلك أدخل في إمحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه "[3] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَىَ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[4] ، إذ عبّر عن المعنى أولاً بسياق التكلم في قوله : ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ

١ - سورة يس : آية رقم (٢٢) .
٢ - أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ٤ / ٨٤٨ .
٣ - ابن الأثير ، المثل السائر ، ٢ / ١٧٢ .
٤ - سورة الأنعام : الآيتان رقم (٧١ ، ٧٢) .

الْعَالَمِينَ ﴾ ، ثم انتقل بالدلالة التعبيرية إلى السياق الخطابي المباشر في قوله : ﴿ وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَاتَّقُوهُ ﴾ . فالتفت من التكلم إلى الخطاب . يقول الألوسي : " السرّ في أنه عَدَلَ عن ذلك إلى الخطاب ، للإيذان بأن الكافر ما دام كافراً كان كالغائب الأجنبي ، فخوطب بما خوطب فيه في الغائب . وإذا أسلم ودخل زمرة المؤمنين صار القريب الحاضر ، فخوطب بما يخاطب به الحاضرون "[1] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[2] ، إذ الأصل في مستوى البنية العميقة أن يقال : (أمرت أن أكون أول من أسلم ولا أكون من المشركين) ، وذلك اتساقاً مع ضمير المتكلم المهيمن على السياق التعبيري في الآية . يقول د. عبد الحليم شادي : " من يتذوق المعنى في الآية يجد أن سبب هذا العدول أنه مع الحديث مع أمر الله له بالإسلام جعل الضمير لنفسه أولاً ، لأن هذا هو الأصل في الحديث عن النفس ، وثانياً كأنه يتباهى بإضافة الإسلام إليه إشعاراً بعزته به . ولما كان هذا الأمر مخالفاً للنهي بعده ، التفت من التكلم إلى الخطاب كان الجملة الأولى مستقلة عن الثانية ، وقضية قائمة بذاتها "[3] .

ويرى د. بسيوني فيود أن وراء هذا الالتفات أغراض دلالية تقوم على الوعيد والتحذير من الوقوع في الشرك ، وذلك باعتماد الانتقال الصياغي من الخبر إلى النهي عن هذا الإشراك بعد الأمر بأن يكون أول من يسلم[4] .

٢- الانتقال من صيغة التكلم إلى الغياب :

وعليه يخرج قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾[5] . في سياق الحديث الإلهي بالمنّ والفضل على النبي ﷺ بالنعم العظيمة ، ومنها

---

١ - الألوسي ، روح المعاني ، ٧ / ١٩٠ .
٢ - سورة الأنعام : آية رقم (١٤) .
٣ - د. عبد الحليم شادي ، بلاغة المعاني ، ٢٣٠ .
٤ - ينظر : د. بسيوني فيود ، علم المعاني ، ١ / ٢٣٣ .
٥ - سورة الكوثر : الآيات من (١ - ٣) .

(ربي) . والأصل أن يكون النسق التعبيري في سياق واحد فيقال : (إن ربكم رحيم ودود) ، مطابقة للتوازن الإيقاعي في قوله :(استغفروا ربكم) . وهذا الالتفات ينبئ بعظمة الله سبحانه وتعالى ورحمته وسرعة إجابته لمن دعاه ، وبيان كيف أنه وحده مختصّ بتلك الصفات ، لأنه الربّ ، وهو أيضاً الرحيم الودود [1] .

وقوله تعالى : ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [2] ، إذ التفت عن المخاطب في (اعبدوا ، ومالكم ، وأنشأكم ، واستعمركم واستغفروه) إلى سياق التكلم في (ربي) ، على دلالة الثقة بالإله الواحد من جانب نبي الله صالح – عليه السلام – .

٤- الانتقال من صيغة الخطاب إلى الغياب :

وعليه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [3] . حيث إن السياق التعبيري في الآيات يتخذ من ضمائر المخاطب بنية مهيمنة متمثلة في (إنكم ، وآكلون ، ومالئون ، وشاربون) ثمّ تمّ العدول عنها إلى توظيف ضمير الغياب في قوله (هذا نزلهم) ، ومقتضى النظم يشير إلى أن الواجب في التعبير أن يقال (هذا نزلكم) ، لكنه خاطبهم أولاً في مقام الوعظ والتهديد الذي يتناسب مع سياق الخطاب ، ويكون أشد تأثيراً في النفس ، ثم التفات إلى مقام الإخبار عن حالهم فعدل إلى ضمير الغياب تحقيراً لهم ، وغضاً من شأنهم . يقول أبو السعود :"(هذا نزلهم) الجملة مسوقة من جهته سبحانه وتعالى بطريقة الفذلكة ، مقررة لمضمون الكلام الملقن ، غير داخلة تحت القول" [4] .

---

١ - ينظر : الزمخشري ، الكشاف ، ٢ / ٢٥٨ . – الشوكاني ، فتح القدير ، ٢ / ٤٨١ .
٢ - سورة هود : آية رقم (٦١) .
٣ - سورة الواقعة : الآيات من (٥١ – ٥٦) .
٤ - أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ٩ / ٣٠٢ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [1]. فالتفت عن الخطاب في (يسيركم ، وكنتم) إلى سياق الغياب في (بهم ، وفرحوا ، وجاءتها ، وجاءهم ، وظنوا ، وأنهم ، وبهم ، ودعوا) . يقول ابن الأثير : " إنما صرف الكلام هاهنا من الخطاب إلى الغيبة لفائدة وهي : أنه ذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها كالمخبر عنهم ، ويستدعي منهم الإنكار عليهم ، ولو قال : حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بكم بريح طيبة وفرحتم بها ، وساق الخطاب معهم إلى آخر الآية ، لذهبت تلك الفائدة التي أنتجها خطاب الغيبة " [2] . وعليه يُخَرَّج :

* قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [3] .
* وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾[4] .
* وقوله تعالى : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [5] .
* وقوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ [6] .

٥- الانتقال من صيغة الغياب إلى التكلم :

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً ﴾ [7] ، حيث التفت من سياق التعبير بصيغة

١ - سورة يونس : آية رقم (٢٢) .
٢ - ابن الأثير ، المثل السائر ، ٢ / ١٧٨ .
٣ - سورة آل عمران : آية رقم (٩) .
٤ - سورة النساء : آية رقم (٦٤) .
٥ - سورة النحل : آية رقم (١) .
٦ - سورة الروم : آية رقم (٣٩) .
٧ - سورة الأنعام : آية رقم (٩٩) .

الغياب المتمثلة في الضمير (هو) إلى سياق التعبير بصيغة التكلم المتمثلة في إسناد الفعل (أخرج) إلى (نا الفاعلين) في قوله : (فاخرجنا) التي تكررت مرتين في سياق الآية ، ثم الضمير المستتر وجوباً في الفعل (نُخرج) . وكلّ ذلك يتمّ في سياق تعداد صفات العظمة الإلهية في مسألة خلق النعم . يقول الإمام أبو السعود : " التفت إلى التكلم إظهاراً لكمال العناية بشان ما أنزل الماء لأجله ، أي : فاخرجنا بعظمتنا بذلك الماء مع وحدته (نبات كل شيء) من الأشياء التي من شانها النمو من أصناف النجم والشجر وأنواعهما المختلفة في الكم والكيف والخواص والآثار" [1] . والانتقال هنا من الغياب إلى التكلم يهدف إلى إثارة انتباه المتلقي ليقوم باستجلاء مظاهر القدرة الإلهية في عملية الإنبات ولواحقها .

وعليه قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [2] ، فقد التفت من الغيبة في (أمّن خلق ، وأنزل) إلى التكلم في (فأنبتنا) لتأكيد اختصاص الله بهذا الفعل وحده .

وقوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ [3] ، التفت من الغيبة في (أسرى ، وبعبده) إلى سياق التكلم في (باركنا ، ولنريه ، وآياتنا) .

٦- الانتقال من صيغة الغياب إلى الخطاب :

وذلك مُمثّل في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [4] ، فقد التفت من

---

١ - أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ٢ / ١٨٧ . وينظر : أبو حيان ، البحر ، ٦ / ١٨١ .
٢ - سورة النمل : آية رقم (٦٠) .
٣ - سورة الإسراء : آية رقم (١) .
٤ - سورة التوبة : آية رقم (٣٥) .

سياق الغيبة في (يحمى ، عليها ، تكوي ، بها ، جباههم ، جنوبهم ، ظهورهم) إلى الخطاب في (كنزتم ، أنفسكم ، ذوقوا ، كنتم ، تكنزون) .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (1) . حيث التفت عن سياق الغياب في (هم الخاسرون) إلى التعبير بسياق المخاطب في قوله (تكفرون) ، ومقتضى السياق - في غير القرآن - أن يكون (كيف يكفرون) . وقيمة هذا الالتفات تنعقد في كون " الإنكار إذا توجه للمخاطب كان أبلغ من توجهه إلى الغائب لجواز أن لا يصله الإنكار . بخلاف من كان مخاطباً ، فإن الإنكار عليه أردع له عن أن يقع فيما أنكر عليه " (2) .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً ﴾ (3) ، فالتفت هنا من الغياب في (قالوا ، اتخذ) إلى سياق الخطاب في قوله : (جئتم) . يقول ابن الأثير : " إنما قيل : (لقد جئتم) وهو خطاب للحاضر بعد قوله (وقالوا) ، وهو خطاب للغائب لفائدة حسنة وهي زيادة التسجيل عليهم بالجراءة على الله تعالى ، والتعرض لسخطه ، وتنبيه لهم على عظم ما قالوه ، كأنه يخاطب قوماً حاضرين بين يديه ، منكراً عليهم ، وموبخاً لهم " (4) .

ويرى د.عبد الحليم شادي أن " الالتفات إلى الخطاب تمّ هنا ليظلّ صالحاً لخطاب أتباعهم الحاضرين إلى يوم القيامة . وهذه دقة لطيفة ، فيها إيجاز كثير ، وسر بليغ"(5) .

تلك هي أهم ألوان العدول الضمائري (الالتفات) في بنيته الخاصة التي توظف فقط العدول بين الضمائر ، في جماليات سياقها التوظيفي في القرآن . وهو ما أسهم في إدراك

---

١ - سورة البقرة : الآيتان رقم (٢٧ ، ٢٨) .
٢ - د. إبراهيم داود ، أسرار الالتفات في الذكر الحكيم ، ٦٢ .
٣ - سورة مريم : الآيتان رقم (٨٩ ، ٩٠) .
٤ - ابن الأثير ، المثل السائر ، ٢ / ٥ .
٥ - د. عبد الحليم شادي ، بلاغة المعاني ، ٢٢٨ .

المتلقي لما يتمّ من مفارقات معنوية وانفعالية تسيطر على نسيج التوظيف من خلال مخالفة مقتضى الظاهر ، وذلك بالانتقال الجمالي بين صيغ المتكلم والمخاطب والغائب ، وما يتبع هذا الانتقال من جماليات نصية ودلالية اكتسبت خصوصيتها من أدائها لفنية العدول قصداً لأغراض بعينها في سياق التوظيف القرآني . وما التلوين الصوتي بالعدول في مجمله إلا تأكيد لهذه الخصوصيات ، وأداءً لتلك الجماليات في القرآن الكريم .

٤- تلوينات التكرار في الجملة القرآنية :

يلجأ المتكلم إلى تكرار الجملة قصداً لمعانٍ يريدها ويبغيها من ذلك التكرار ، هذه القصدية تستند في جمالياتها إلى ردّ فعل المتلقي وقدرته على إدراك مزية هذا التكرار أينما وُجِد . كما أنها تتكئ في مقصودها على نسج كلام المُبْدِع لأنه الموجه الأهم لهذا التكرار . ولذا فالتلوين الصوتي بتوظيف التكرار في سياق التراكيب لا بد من اعتماده نسقاً معيناً من أنساق التعبير من ناحية ، ثم بيان أغراض هذا التعبير بهذا النسق من ناحية أخرى ، وذلك من حيث مقصدية هذا التكرار .

والحديث عن التلوين بالتكرار في سياقات التراكيب يتخذ عدة صور تعبيرية في سياق النص القرآني ، نعرض لها كما يلي :

أولاً : تكرار شبه الجملة

من فرائد التوظيف القرآني توظيفه لشبه الجملة (الظرف ، أو الجار والمجرور) في بنية تكرارية مقصود من وراء توظيفها أغراض دلالية محددة . فقد تكرّر شبه الجملة للتخويف ، أو لزيادة التقرير ، أو للتأكيد ، وذلك لما تتضمنه من معان . ونلمس ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَـئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1] . حيث كرّر شبه الجملة : الجار والمجرور (لهم) في الآية ثلاث مرات على

---

١ - سورة البقرة : آية رقم (١١٤) .

دلالة تشنيع هذا العذاب ، وبيان ما أعدّ لهم من خزي في الدنيا والآخرة . يقول أبو السعود : " تقديم الظرف في الموضعين للتشويق إلى ما يذكر بعده من الخزي والعذاب لما مرّ من أن تأخير ما حقه التقديم موجب لتوجه النفس إليه فيتمكن منها عند وروده فضل تمكن"[1] .

ويرى ابن عاشور أن التكرار بعطف أشباه الجمل في الآية دليل على أنها " تتميم لما قبلها ، إذ المقصود من مجموعها أن لهم عذابين : عذاباً في الدنيا ، وعذاباً في الآخرة "[2] . فبنية التكرار لشبه الجملة هنا أفادت تنويع العذاب ، وبيان عدم اتحاده ، إذ لهم في الدنيا نوع ، وفي الآخرة نوع آخر مختلف . فالتكرار على دلالة التهويل والتخويف ثم تشنيع صورة هذا العذاب في النفس .

ومن ذلكَ قوله تعالى : ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾[3] ، حيث كرّر شبه الجملة الجار والمجرور (عليهم) في جانب طائفتين هما : (المُنْعَم عليهم) و(المغضوب عليهم) . يقول الزمخشري في تعليله تكرار شبه الجملة في الآية : " إن قلت : أي فرق بين (عليهم) الأولى ، و (عليهم) الثانية ؟ قلت : الأولى محلها النصب على المفعولية ، والثانية محلها الرفع على الفاعلية "[4] .

وهذا كلام دقيق راعى الزمخشري فيه الموقع الإعرابي لتعلق شبه الجملة ، إذ هي في جانب المُنْعَم عليهم في محل نصب مفعول به (سدّت مسدّه) ، وفي جانب المغضوب عليهم تقع في محل رفع نائب فاعل لاسم المفعول من المضارع المبني للمجهول . فالتكرار جاء لتحقيق :

١- التفرقة بين الفريقين من حيث الجزاء لأنهما متغايران .

٢- الحكم الإعرابي لكل منهما ، لأنهما متغايران في هذا أيضاً .

---

١ - أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ١ / ١٠١ .
٢ - ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ٢ / ٢٨٥ .
٣ - سورة الفاتحة : آية رقم (٧) .
٤ - الزمخشري ، الكشاف ، ١ / ١٧ .

فأفاد التكرار هنا جمالية موظفة ، هذه الجمالية مستفادة من بنية التكرار الذي هو هنا حتمي ولازم في التعبير لدفع التوهم إذ لم يكن تكراراً .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ [1] ، حيث كرّر شبه الجملة : الظرف (قبل) مسبوقاً بحرف الجر (من) في موضعين من الآية ، وذلك في سياق الإخبار عن نعمة المطر . يقول ابن الأثير : " تكرير (من قبله) يدلّ على بُعْدِ عهدهم بالمطر وتطاوله ، فاشتد لذلك يأسهم ، فكان استبشارهم بالمطر على قدْر اغتمامهم لانقطاعه " [2] .

ويرى الطوفي أن التكرار في هذه الآية فائدته " تحقيق إبلاسهم وإياسهم من المطر في تلك المدة ، وذلك الزمان ، أعني : الذي قبل نزول الغيث " [3] . وعلى هذا يوجد رأيان :

١- رأي ابن الأثير : التكرار لبيان الأثر اللاحق لنزول المطر . فنظر للتكرار من جهة أثره .

٢- رأي الطوفي : إذ يرى في التكرار تذكيراً بما كان من حالهم قبل هذا الغيث . أي أنه نظر إلى الحال السابق لنزول الغيث .

ولكل منهما حقه في النظر إلى المسألة من زاويته الخاصة . فابن الأثير نظر إلى (الحال بَعْد) أي إلى الأثر الإيجابي للمطر ، في حين نظر الطوفي إلى (الحال قَبْل) أي إلى الأثر السلبي . والسياق في الآية يقوم على إيضاح معنى (الحال) قبل نزول المطر وهو الإبلاس واليأس ، وعندئذ يكون التعبير - في غير القرآن - (وإن كانوا قبل نزول المطر عليهم لمبلسين) ، فما الحاجة إذن إلى تكرار الظرف ؟! وهل الظرف في الموضعين متحد الجهة ؟! يقول العكبري : " قوله تعالى : (من قبله) ، قيل : هي تكرير للأولى ، والأَوْلَى أن تكون الهاء فيها للسحاب أو للريح أو للكسف ، والمعنى : وإن كانوا من قبل نزول المطر من قبل السحاب أو الريح ، فتتعلق (من) بينزل " [4] .

---

١ - سورة الروم : آية رقم (٤٩) .
٢ - ابن الأثير ، الجامع الكبير ، ٢٠٦ .
٣ - الطوفي ، الإكسير ، ٢٧٤ .
٤- العكبري ، إملاء ما من به الرحمن ، ١/ ١٨٥.

والأخفش يحمل هذا التكرار على معنى اتحاد المرجع فيه ، ومن ثم فهو للتاكيد [1] . وهذه المعاني جميعها مستفاد من بنية التكرار للظرف في الآية .

إضــــاءة :

نَلحظ من توظيفات النص القرآني لتكرار شبه الجملة ملحظاً فريداً يتمثل في أن القرآن الكريم يوظف سياق الآية شبه الجملة (حرف الجر + الاسم الصريح) ثم يعدل إلى تكرارها مرة أخرى لكن بصورة بنيوية غير الأولى تتمثل في (حرف الجر + الضمير العائد على الاسم المتقدّم) . ونلمس ذلك في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [2] ، حيث عبّر بشبه الجملة (بالحياة) ثم لمّا أراد تصوير اطمئنان هؤلاء المعاندين بهذه الحياة كنّى بالضمير عنها ، فكرر شبه الجملة المذكورة أولاً لكن بصيغة الضمير فقال : (بها) . وتوظيف صيغة الماضي في جملة (رضوا) و (اطمانوا) " للدلالة على التحقق والتقرير " [3] .

ويحتمل هذا التكرار لشبه الجملة بصيغة الضمير أن يكون دالاً على التحقير لهذه الحياة ، إذ هم على وهم أنها أفضل من الآخرة ، ولذا اطمانوا بالأدنى دون الأعلى .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [4] ، حيث ذكر أولاً شبه الجملة (في الأرض) ثم كرّرها بتوظيف ضمير الغائب للمفرد المؤنث العائد على كلمة الأرض فقال : (فيها) مرتين . يقول أبو السعود : " المعنى : أتجعل فيها من يفسد فيها خليفة . والظرف الأول متعلق بتجعل ، وتقديمه لما مرّ مراراً . والثاني بيفسد ، وفائدته تاكيد الاستبعاد ، لما في استخلاف المفسد في محلّ إفساده من البعد ما

١ - ينظر : الأخفش ، معاني القرآن ، ٢ / ٤٧٦ .
٢ - سورة يونس : آية رقم (٧) .
٣ - أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ٣ / ١٢٨ .
٤ - سورة البقرة : آية رقم (٣٠) .

ليس في استخلافه في غيره " [1] . فالتكرار هنا لشبه الجملة ذات الضمير على دلالة الاستنكار في جانب (المستَخلَف) لا الاستنكار في جانب (المُستَخلِف) . كما أنه على معنى الاستبعاد لاستخلاف سبب فساد الأرض في مكان إفساده نفسه ، إذ ذلك ما لا يستقيم مع علومهم وعقولهم . ويرى ابن عاشور أن التكرار " لضمير الأرض للاهتمام بها ، والتذكير بشأن عمارتها ، وحفظ نظامها ، ليكون ذلك أدخل في التعجب من استخلاف آدم ، وفي صرف إرادة الله تعالى عن ذلك إن كان في الاستشارة انتمار " [2] .

وعليه قوله تعالى : ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [3] ، فذكر شبه الجملة : من النار ، ثم كررها بالضمير في قوله : (منها) .

يقول الزمخشري : " كنتم مشرفين على أن تقعوا في نار جهنم لما كنتم عليه من الكفر ، فانقذكم منها بالإسلام . والضمير للحفرة أو للنار أو للشفا ، وإنما أنَّث لإضافته إلى الحفرة وهو منها " [4] . فجعل التكرار هنا للتأكيد على الإنقاذ بالإسلام .

ومنه قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [5] ، حيث عبّر أولاً بشبه الجملة (لربّهم) ثم كررها بالضمير في قوله (له) . والدلالة المستفادة هنا أن التعبير بلفظ (ربهم) مسبوق بحرف الجر (اللام) في جانب أهل الإيمان ممن استجابوا للدعوة الحق ، فكان جزاؤهم الحسنى . فناسب ذكر

---

١ - أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ١ / ٥٦ .
٢ - ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ٢ / ٢٣٠ .
٣ - سورة آل عمران : آية رقم (١٠٣) .
٤ - الزمخشري ، الكشاف ، ١ / ٣٩٥ .
٥ - سورة الرعد : آية رقم (١٨) .

الاسم الصريح هنا مقام الاستبشار بهذا اللفظ الدال على موجبات الرحمة والعناية . لكنه عدل إلى توظيف الضمير العائد عليه سبحانه وتعالى دون ذكر الاسم الصريح في جانب أهل الكفر كنوع من التبكيت والتقريع ، ولذلك حذف الجزاء فلم يقل (لهم السوأى) ، كما قال في جانب المؤمنين أنّ (لهم الحسنى) . يقول أبو السعود : " الموصول مبتدأ ، والشرطية كما هي خبره ، لكن لا على أنها وضعت موضع (السوأى) فوقعت في مقابلة الحسنى الواقعة في القرينة الأولى لمراعاة حسن المقابلة ، فصار كأنه قيل : (والذين لم يستجيبوا لهم السوأى) كما يُوهِم ، فإن الشرطية وإن دلّت على سوء حالهم ، لكنها بمعزل عن القيام مقام لفظ (السوأى) مصحوباً باللام الداخلة على الموصول أو ضميره " [1] . فكرّر للتهويل مما ينتظرهم لعدم الاستجابة ، والتقريع بإبهام الجزاء للعناد .

هكذا يتسق التوظيف القرآني لسياقات شبه الجملة في تعانقها مع فنية التكرار لأداء مقاصد دلالية في النسيج القرآني ، ورعاية لسياقات التعبير في هذه التوظيفات .

ثانياً : تكرار الجملة

تتكرر الجمل في القرآن الكريم على صورتين هما :

أ- التكرار التام المتماثل : أي تكرار الجملة بلا تغيير في مركباتها . وعليه تكرار ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وهي جملة فعلية تكررت في سورة الرحمن في (٣١ إحدى وثلاثين آية) .

ب - التكرار غير التام : أي تكرار الجملة مع التغيير في بنياتها التركيبية . كقوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [2] ، فكرّر التركيب الدال على التكذيب مع التنويع في صوره .

ونفصل القول في تكرار الجمل من حيث اسميتها أو فعليتها كما يأتي :

---

١ - أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ٤ / ٩٣ .

٢ - سورة ص : الآيات من (١٢ - ١٤) .

١- تكرار الجملة الاسمية :

تتكرّر الجملة الاسمية في النص القرآني لتوكيد المعنى وتقريره في النفس ، مع الارتباط في الوقت ذاته بالدلالة على أغراض سياقية خاصة بكل سياق تكراري . وقد تكرّرت الجملة الاسمية في القرآن الكريم بكثرة . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [1]. فقد كرّر الجملة الاسمية (أإله مع الله) المكونة من : (همزة الاستفهام + المبتدأ النكرة (إله) + الخبر شبه الجملة : الجار والمجرور (مع الله) ، في خمسة مواضع متتابعة . يقول أبو حيان في تبيان دلالة هذا التكرار : " اعتقب كل واحدة من هذه الجمل قوله تعالى (مع الله بل) على سبيل التوكيد والتقرير أنه لا إله إلا هو تعالى " [2] .

فقد ذكر ﷻ هنا على سبيل الإنعام على العباد في معرض المحاجاة ، فذكر خلق السماوات والأرض ، وإنزال الماء من السماء ، وإنبات الحدائق والأشجار ، وشق الأنهار ، وخلق الجبال والبحار ، وإجابة الدعاء ، وإرسال الرياح ، وبدء الخلق وإفنائه ثم بعثه من جديد . وفي هذه المحاجاة يكون السؤال التهكمي : أإله مع الله يفعل مثل هذا ؟! والإجابة بالتأكيد : لا . ولذا كان تعقيب هذه الجمل بحرف الإضراب (بل) دلالة على كذب دعواهم ، وفساد ما ذهبوا إليه .

---

١ - سورة النمل : الآيات من (٦٠ – ٦٤) .
٢ - أبو حيان ، البحر المحيط ، ٩ / ١٩٧ .

ويربط الكرماني تكرار هذه الجملة بما يليها من ختام وتعقيب لكل آية منها . يقول : " قوله تعالى : ﴿ أإله مع الله ﴾ في خمس آيات على التوالي ، ختم الأولى بقوله : ﴿ بل هم قوم يعدلون ﴾ ، ثم قال : ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ ، ثم قال : ﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ ، ثم قال : ﴿تعالى الله عما يشركون﴾ ، ثم ﴿ هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ ، أي : عدلوا . وأول الذنوب العدول عن الحق ، ثم لم يعلموا ، ولو علموا لما عدلوا ، ثم لم يتذكروا فيعلموا بالنظر والاستدلال ، فأشركوا من غير حجة وبرهان ، قل لهم يا محمد (هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) "[1] . فهو يسير مع الاستدلال بالعقل على الله من خلال النظر في خواتيم الآيات ، وربطها بهذا الاستدلال .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾[2] ، التي تكرّرت في (١٠ عشر آيات) ، والتكرار هنا وارد بعد ذكر كل أمر عظيم من أمور الدنيا والآخرة ، إذ يفيد هذا الوعيد للمكذبين الدلالة على التخويف الذي ترجف منه القلوب . يقول الكرماني في تعليل هذا التكرار للجملة الاسمية : " لأن كل واحدة منها ذُكِرَت عقيب آية غير الأولى ، فلا يكون تكراراً مستهجناً ، ولو لم يكرّر كان متوعداً على بعض دون بعض "[3] .

ويرى الطوفي أن التكرار لهذه الجملة الاسمية في السورة فائدته " تحقيق وقوع الويل بهم ، وتأكده ، تحذيراً من التكذيب ، وتنفيراً منه ، أو زجراً "[4] .

أما الرازي فيرى أن إعادة الجملة الاسمية ضروري" لأنه ذكر ذلك عند قصص مختلفة ، فلم يعد تكراراً (مستقبحاً) لأنه أراد بما ذكره أولاً (ويل يومئذ للمكذبين) بهذه القصة ، ثم لما أعاد قصة أخرى ذكر مثله على هذا الحدّ ، ولما اختلفت الفائدة خرج عن أن يكون تكراراً"[5] .

١ - الكرماني ، البرهان في توجيه متشابه القرآن ، ٢٦٠ .
٢ - سورة المرسلات : الآيات رقم (١٥ – ١٩ – ٢٤ – ٢٨ – ٣٤ – ٣٧ – ٤٠ – ٤٥ – ٤٧ – ٤٩) .
٣ - الكرماني ، البرهان في توجيه متشابه القرآن ، ٢٢٠ .
٤ - الطوفي ، الإكسير ، ٢٧٧ .
٥ - الرازي ، نهاية الإيجاز ، ٣٨٩ .

ومنه قوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ التي تكررت في (٤ أربع آيات) من سورة القمر هي (١٦- ١٨- ٢١-٣٠) [١] . يقول الكرماني : "هذا التكرار خُتِمَ به قصة نوح وعاد وثمود ولوط لما في كل واحدة منها من التخويف والتحذير ، وما حلّ بهم " [٢] . فالتكرار هنا على تبيان دلالة التخويف مما حلّ بالأمم السابقة لما كفروا ، ثم التحذير من إمكانية وقوع مثل هذا العذاب لمن يجدّد هذا الفعل التكفيري ، أو أن يجحد الإيمان بالله تعالى .

٢- تكرار الجملة الفعلية :

الجملة الفعلية أكثر تكراراً من الاسمية في العربية ، وهذه الكثرة ربّما تعود إلى أن الجملة الفعلية تعبّر عن الحدث غالباً ، والحدث يتّسم بالتكرار ، ويذكر إسرائيل ولفنسون أن " اللغات السامية في الحقيقة تعتمد على الجمل الفعلية أكثر من اعتمادها على الاسمية . فالفعل في اللغات السامية هو كل شيء ، فمنه تتكون الجملة ، ولم يخضع الفعل للاسم والضمير ، بل نجد الضمير مسنداً إلى الفعل ، ومرتبطاً به ارتباطاً وثيقاً "[٣] .

والتكرار بالجملة الفعلية إنما هو تكرار للحدث مرتبط بالزمنية التي يتحقق فيها وبها ، ولذا فهذا التكرار الفعلي يتكئ في مقصده الأهم على ملابسات الزمن بالحدث ، ثم التدرج إلى الاستفادة السياقية لهذا التعاضد النصي من خلال الإلحاح على بنية التكرار في هذا السياق .

ومن أبرز مظاهر التكرار للجمل الفعلية في القرآن قوله تعالى : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ التي تكررت في (٣١ واحد وثلاثين آية) من سورة الرحمن [٤] . والجملة هنا فعلية تقدم متعلَّقها (الجار والمجرور) على الفعل . يقول المرتضى : " أما التكرار في سورة

---

١ - محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس ، ٥٥٩ .
٢ - الكرماني ، البرهان ، ٣٠٥ .
٣ - إسرائيل ولفنسون ، تاريخ اللغات السامية ، ١٥ .
٤ - محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس ، ٧٠٤ .

الرحمن فإنما حسُن للتقرير بالنعم المختلفة المتعددة ، فكلما ذكر نعمة أنعم بها قرر عليها ، ووبّخ على التكذيب بها "[1] .

وملمح التكرار هنا لتعدّد النعم هو الذي هيمن على تفكير البلاغيين عند تحليل هذا التكرار . يقول العسكري : " كرّر الله عزّ وجلّ في سورة الرحمن قوله : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ ، وذلك أنه عدّد فيها نعماءه ، واذّكر عباده آلاءه ، ونبههم على قدرها وقدرته عليها ، ولطفه فيها ، وجعلها فاصلة بين كل نعمة ليُعرَف موضع ما أسداه إليهم فيها "[2] .

ويرى د. عبد الملك مرتاض أن " تكرار هذه الآية يعكس خصوصية الأمر ، أو الاحتفاء به ، أو توكيده ، أو الرغبة إليه ، أو الحنق عليه ، أو الرضا عنه . كما أن التكرار استطاع أن يُكَيِّف سطح الخطاب في هذه السورة ، ويؤثر في طبيعة بنائه ، وهندسة معمارية نسجه ، إضافة إلى أنه منح هذه السورة العروس شيئاً من التمكن والثبات للإيقاع الذي يقوم عليه المقطع (آن) "[3] .

كما أن تكرار هذه الجملة الفعلية يتوزع في السورة على أربعة أقسام هي :

الأول: الآيات من (١٣- ٣٠) ، وهو على تعداد نعم الله في الخلق ، وتكرّرت فيه (ثماني مرات) .

والثاني: الآيات من (٣١- ٤٥) ، ويدور على ذكر العذاب بالنار ، وتكرّرت الآية فيه (سبع مرات) .

والثالث: الآيات من (٤٦-٦١) ، وهو على بيان نعم الآخرة كالجنة ، وتكرّرت فيه (٨ ثماني مرات) .

والرابع : الآيات من (٦٢-٧٨) ، ويدور على ذكر الجنتين ، وتكرّرت الآية فيه (ثماني مرات) .

يقول د. أحمد بدوي : " لعلّ في هذا السؤال ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ المتكرر ما يثير في نفس سامعيه اليقين بأنه ليس من الصواب نكران نعم تكرّرت ، وآلاء توالت "[4] .

١ - المرتضى ، أمالي المرتضى ، ١/١٢٣.
٢ - العسكري ، كتاب الصناعتين ، ١٩٤ . وينظر : الكرماني ، البرهان ، ٢٠٦ .
٣ - د. عبد الملك مرتاض ، نظام الخطاب القرآني ، ٣٢٨ .
٤ - د. أحمد بدوي ، من بلاغة القرآن ، ١٥٣ .

الوليد بن المغيرة ، وبيان حاله حين سمع القرآن من المصطفى ﷺ . يقول أبو السعود في بيان جمالية هذا التكرار للجملتين الفعليتين بأنه : " ثناء عليه بطرق الاستهزاء به ، أو حكاية لما كرروه من قولهم : (قتل كيف قدر) تهكماً به ، وبإعجابهم بتقديره ، واستعظامهم لقوله "(١) .

ويحلل الألوسي هذا التكرار بقوله :" تكرير للمبالغة كما هو معتاد من أعجب غاية الإعجاب . والعطف بثمّ للدلالة على تفاوت الرتبة ، وأن الثانية أبلغ من الأولى ، فكأنه قيل : قُتِلَ بنوع ما من القتل ، لا بل قُتِلَ بأشده وأشده ، ولذا ساغ العطف فيه مع أنه تأكيد "(٢) . فالتكرار في هذا الموضع للجملتين الفعليتين قائم على دلالة المبالغة في الجزاء الشنيع لهذا الكافر المعاند .

وعلى هذا النسق يوظّف تكرار الجملة الفعلية بدقة في سياقات النص القرآني مع ما يستفاد من التعبير بهذه الفعلية من تجدد حدوث الفعل ، وارتباطه بالزمنية التي تحويه ، وتسمح بتجدده ، ثم الارتباط بسياقات الآية ، ونسيج السورة كلها . وهذا التلوين تنعقد مقصديته على إيضاح الجانب الإيقاعي في السياق القرآني من ناحية ، ثم بيان التماسك النصي والدلالي لهذه التكرارات .

ثالثاً : التكرار الإيقاعي

يمثل الإيقاع عنصراً أساسياً في التشكيل البنيوي للغة العربية ، ذلك لأنها لغة إيقاعية تعتمد على البنيات التي تحدث نغماً صوتياً ، وهذا النغم بكل تشكيلاته وصوره يعتمد بصوره رئيسة على فنية التكرار . والتكرار الإيقاعي ظاهرة فريدة في العربية تفرضها طبيعة اللغة نفسها ، لأنها في خالص أمرها لغة اشتقاقية تعتمد على تكرار الأصل البنيوي للمواد التشكيلية فيها ، وذلك لتنتج لنا صوراً اشتقاقية متحدة الأصول متباينة الهيئات .

---

١ - أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ٩ / ١٢٨ .
٢ - الألوسي ، روح المعاني ، ١٠ / ٢٠٦ .

ومن روائع التوظيف القرآني ما لمسناه من إيقاعات متنوعة في التوظيف ، تدور حول الأغراض الجمالية المقصودة من وراء هذا التوظيف . فالنص القرآني يوظف مثلاً تكرار المادة اللغوية بصورة رائعة كما أسلفنا في الفصل السابق ، ويوظّف تكرار الألفاظ بصورتها متحدة البنية والدلالة ، ويوظّف تكرارات اللفظ متحد الدلالة مختلف الهيئة ، ويوظّف تكرارات الصورة الصرفية باعتماد الوزن ، وما يحدثه كلّ ذلك من إكساب الكلام جرساً وموسيقى نصية ، وما يتبع ذلك التلوين التكراري من جماليات دلالية وسياقية . ولذا فإننا نعمد هنا إلى الحديث عن التكرارات الإيقاعية في معانقاتها للجملة القرآنية ، وما يحدثه ذلك من تأثيرات جمالية في النسيج القرآني .

١- التداعي الصوتي :

من جماليات التوظيف التكراري في النص القرآني ما نلحظه في بعض الآيات من شيوع تكرارات صوتية وصرفية في ثنايا التراكيب ، مما يؤدي إلى تآلف أصوات الحروف في هذه التراكيب مع بعضها البعض . كما أن الاتكاء على تكرار حرف معين إنما تنعقد مقصديته على سياقات دلالية يؤديها هذا الحرف فيما يسمى (التداعي الصوتي) الذي يتمثل في الاتكاء على حرف بعينه ، ليتردد بصفة منتظمة في مجموعة الدوال المتجاورة ، ليحكم علاقتها صوتياً [١] .

والتكرار الحرفي في السياق القرآني يحمل شحنات سياقية نصية يتمّ توظيفها في إطار الأخص والعام معاً ، وفي الوقت ذاته لتحقيق الملحظ الإيقاعي لدى المتلقي من ناحية ، وتعميق دلالة الأثر الناشئ عن هذه التكرارات من ناحية أخرى [٢] .

ومن أمثلة هذا التداعي الصوتي ما نلمسه في قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَـذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا

---

١ - ينظر : د. محمد عبد المطلب ، هكذا تكلم النص ، ٤٠ .
٢ - ينظر : د . محمد العياشي ، نظرية إيقاع الشعر العربي ، ٢٨٣ .

وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [1]. إذ تكرر حرف (الواو) في (٥ خمسة مواضع) كحرف عطف ، أو كجزء من بنية الفعل . وهذا التكرار يعدّ " أسلوباً إغرائياً من قِبَل أخوة يوسف عليه السلام لأبيهم لكي يوافق على اصطحابهم أخيهم " [2] .

كما أنّ تكرار حرف الواو " لا يحمل المغايرة الدلالية بل يعتمد المزاوجة بين المتعاطفات ، أو يوافي بينها بحيث تبدو مجتمعة وهي متفرقة ، وذلك لما فيه من الرفادة واللين ، حتى تصبح هذه المتعاطفات على هذا النسق كياناً واحداً ، ومطلباً متحداً ، لا يمكن الفصل بين أجزائه " [3]. فتكرار الواو شكّل تداعياً صوتياً مكّن الدلالة من الظهور في السياق .

ومن ذلك ما نلحظه من تكرار القاف (١٠عشر مرات) في قوله تعالى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [4] . فرغم أن القاف حرف ثقيل في النطق ، إلا أن هذا التكرار بما فيه من الشدة جاء لتاكيد الأمر في نفوس المتلقين في شان ابني آدم عليه السلام ، وما دار حولهم من قصص من جانب أهل الكتاب ، فجاء القرآن بالخبر اليقين .

ومع هذه الشدة المستفادة من تكرار حرف القاف في الآية ، يُحدِث النص القرآني توازناً إيقاعياً جميلاً عندما يكرّر حرف الباء (٨ ثماني مرات) من الآية ، وذلك لتخفيف هذه الشدة المتولدة عن تكرار حرف القاف ، إذ الباء حرف خفيف في النطق . وهذه التكرارات أكسبت السياق في الآية إيقاعاً يدركه الوجدان السليم سمعاً وبصراً أيضاً [5] .

ومن ذلك أيضاً ما نلحظه من تكرار لحرف الميم في (١٦ ستة عشر موضعاً) في قوله تعالى : ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَركَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ

---

١ - سورة يوسف : آية رقم (٦٥) .
٢ - د. إبراهيم جنداري ، الإيقاع في القصة القرآنية ، ١٩٤ .
٣ - عبد الكريم الخطيب ، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ، ٤٦٣ .
٤ - سورة المائدة : آية رقم (٢٧) .
٥ - ينظر : د. عز الدين السيد ، التكرير بين المثير والتأثير ، ٤١ .

ثمّ يمسّهم منّا عذابٌ أليمٌ﴾ [1] ، ومن هذه الميمات ما هو مشدّد ومدغم ، ويمكن أن يرتفع العدد في حالة النطق المجوّد إلى (٢١ إحدى وعشرين ميماً) تتوالى في آية واحدة ، وهذا أمر يفوق بكثير معدّل تكرار حرف الميم في آيات أطول من هذه في القرآن الكريم . يقول د. عبد الفتاح لاشين : " في (أمم ممن معك) ثماني ميمات متواليات ، والأصل (أمم مِنْ مَنْ معك) قلب تنوين (أمم) ميماً ، فهذه ثلاث ميمات ، ثم قلبت نون (مِنْ) ميماً ، فهذه خمس ميمات ، ثم قلبت نون (مَنْ) ميماً ، فهذه سبع ميمات ، والميم الثامنة ميم (معك) ، وقلب النون ميماً واجتماع هذه الميمات متفق عليه من جميع القراء " [2] .

فتكرار حرف الميم هنا يوحي بشدة الحالة التي كان عليها نوح عليه السلام حين كانت السفينة تكابد الأمواج التي أغرقت قومه . ويعلل عبد الكريم الخطيب هذا التداعي الصوتي لحرف الميم في الآية بقوله : " الميم وحده حرف ثقيل مضغوط يشد عضلات الفم كلها حتى يؤدى على هيئة صوت ، فكيف إذا كرر ؟! ثم كيف يكون ميزانه من الثقل حتى يتكرر بهذه الكثرة المتلاحقة ؟ وليس هذا النغم المجلجل المتتابع من هذه الميمات إلا أداء لما يقتضيه المقام من دواعي القوة التي تحيط بالموقف وتظاهره . فهذا نوح عليه السلام قد طوفت به وبمن معه السفينة في مجاهل هذا الطوفان المروع العاتي الذي أتى على كل شيء ، حتى أذن الله لهذه الغمة أن تنجلي ، وتصل السفينة إلى شاطئ الأمان والسلام . فما كانت هذه الميمات إلا مراعاة لما يقتضيه الحال من دواعي القوة التي تحيط بهذا الموقف " [3] . وهكذا يرتبط التداعي الصوتي بما يحيط به من دلالات سياقية في الآيات ، ليبرز الصورة الكلية لهذه الدلالات متعاضدة مع سياقات السورة .

---

١ - سورة هود : آية رقم (٤٨) .

٢ - د. عبد الفتاح لاشين ، من أسرار التعبير ، ٢٤ . وينظر : القرطبي ، الموضح ، ١٧٤ . — مكي ، الرعاية ، ٢٤٠ . — ابن الجزري ، النشر ، ٢ / ٢٦ . — ابن الجزري ، التمهيد ، ٥٦ . — المرعشي ، جهد المقل ، ١٣٣ .

٣ - عبد الكريم الخطيب ، إعجاز القرآن في دراسات السابقين ، ٢ / ٢٧٤ .

٢- التكرار الصوتي :

يعتمد التكرار الصوتي على معطيات المحسنات اللفظية . وما تحدثه من أثر جمالي نابع من فنية تكرارها على نسق تعبيري معين ، ويتخذ من الاتكاء على تكرار المقاطع المكونة لبنية اللفظ أساساً لإحداث هذا الإيقاع . والنظر إلى التكرار الصوتي لا بد وأن يشمل في طياته الإشارة إلى كلية النظرة ، وإدراك بنية التكرار كوحدة متلاحمة الأجزاء ، ذات بناء نسيجي موحد . وعليه فالواجب أن نعتمد البنية التكرارية على أنها ليست مجرد تقنية بسيطة ذات فوائد بلاغية أو لغوية محددة ، وإنما يجب النظر إليها على أنها " تقنية معقدة تحتاج إلى تأمل طويل يضمن رصد حركيتها وتحليلها ، انطلاقاً من معطياتها ، ومستويات أدائها وتأثيرها ، فضلاً عن دورها الدلالي التقليدي الذي أطلق عليه القدماء التوكيد ، وفائدتها في جمع ما تفرّق من الدلالات النصية " [1] .

وهذا التكرار الصوتي يتمثل في سياقات متنوعة ، نحاول تلمسها فيما يلي :

أ- التكرار بالجناس :

الجناس تكرار موسيقي ، ولون بديعي عرفه أهل العربية من قديم ، واستعملوه في نثرهم وشعرهم ، إلا أن استعمالهم له في النثر كان أكثر ، نظراً لما في الشعر من ألوان موسيقية تغنيه عن الجناس . وهو ظاهرة تكرارية تعتمد على تكرار لفظ ما تكراراً تاماً ، أو تكراراً غير تام لبعض الحروف فقط ، وذلك عند اختلاف لفظي الجناس . وهو وسيلة فنية لتحقيق مزايا الجرس الصوتي الموسيقي الذي ينبه الأذن والعقل . كما أنه ينبغي توظيفه بحرفية شديدة ، ودقة متناهية ، وذلك لأنه إذا ما كثر في الكلام دخل في إطار التكلّف ، فيفسد الكلام . يقول عبد القاهر : " أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظين إلا إذا كان موقع معنيهما من العقل موقعاً حميداً ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً " [2] .

---

١ - د. محمد بنيس ، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب ، ٦١ .

٢ - عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، ٧ .

وجمالية الجناس تقوم على أساس تكرار مجموعة من الحروف في كلمتي الجناس مما يمنح الكلام صفة النغمية ويقول السيوطي : " فائدته الميل إلى الإصغاء إليه ، فإن مناسبة الألفاظ تحدث ميلاً وإصغاءً إليها ، ولأن اللفظ المشترك إذا حُمِلَ على معنى ، ثم جاء والمراد به آخر ، كان للنفس تشوّق إليه "[1] .

وهذه الجمالية هي التي دعت د. صلاح فضل إلى حصرها في " تكرار الملامح الصوتية ذاتها في كلمات وجمل مختلفة بدرجات متفاوتة في الكثافة ، وغالباً ما يهدف ذلك إلى إحداث تأثير رمزي عن طريق الربط السببي بين المعنى والتعبير ، حيث يصبح الصوت مثيراً للدلالة "[2] .

ولنحاول تبيان بعض مواضع الجناس في سياقات القرآن الكريم ، وبيان تأثيراتها الجمالية :

قوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[3] .

حيث جانس بين (اليسر) و(العسر) باختلاف حرف واحد هو (الياء) في الأولى ، و(العين) في الثانية . وصوت الياء غاري نصف علّي مجهور مرقّق ، أما صوت العين فهو حلقي رخو مجهور مرقق ، فالصوتان يشتركان في صفتي الجهر والترقيق . ودلالة الآية الكريمة على بيان نعم الله على عباده في تشريع الصيام ، وما يلحق به من أحكام ومباحات لتلك الأحكام ، وكلها على إرادة التيسير الإلهي للقيام بهذه الفريضة[4] .

---

١ - السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، ٢ / ١١٦ .
٢ - د. صلاح فضل ، بلاغة الخطاب وعلم النص ، ٢١٠ .
٣ - سورة البقرة : آية رقم (١٨٥) .
٤ - ينظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ١ / ١٧٠ . - أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ١ / ١٣٢ .

وبملاحظة سياق الجناس في الآية نجد أنّ تكرار الفعل (يريد) في سياق طباق السلب ، وتكرار شبه الجملة (بكم) ، ثم التكرار الصوتي بتوظيف بنية الجناس الذي أتى ختاماً لهذه التكرارات قصداً إلى تأكيد دلالة معنى اليسر لا العسر . ولو كان السياق التعبيري - في غير القرآن - لأمكن القول : يريد الله بكم اليسر لا العسر ، ولاستقامت الدلالة على هذا السياق ، وكذلك لاستقام تخريج بنية الجناس باعتباره الملمح التكراري الوحيد ، لكن هذا لم يحدث ! ولذا فالنظر إلى فنية التكرار بالجناس في هذه الآية على صورته الجزئية المفردة دون النظر في إطاره العام بتعاضده مع بقية الصور ، يعدّ إجحافاً لجماليات هذه التكرارات ، وإهداراً لنصياتها المتنوعة . ويؤكد هذا ما ذهب إليه ابن عاشور في تحليله لهذه الآية بقوله : " قد كان يقوم مقام هاتين الجملتين جملة قصر نحو : (ما يريد بكم إلا اليسر) ، لكنه عدل عن جملة القصر إلى جملتي إثبات ونفي لأن المقصود ابتداء هو جملة الإثبات لتكون تعليلاً للرخصة ، وجاءت بعدها جملة النفي تأكيداً لها "[1] . ولذا فإن الجناس الحاصل هنا بين كلمتي (اليسر) و (العسر) ليس على إرادة إبراز الملمح الصوتي فقط ، بل أيضاً ليسهم في تعضيد دلالة التأكيد على تعليل الرخصة الإلهية في جانب من لم يستطع الصوم .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[2] . فقد جانس هنا بين كلمتي (منهم) و(عنهم) ، وهما أحرف الجر مسندة إلى ضمير الجمع (هم) . وسياق الآية على الخطاب لبني إسرائيل وأمرهم باتباع الرسل ، وعدم نقض الميثاق . كذلك التوجه بالتحذير للنبي ﷺ من شرهم وخيانتهم ما عدا القليل منهم ، فلهم الصفح والعفو إن

١ - ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ٢ / ٢٣ .
٢ - سورة المائدة : آية رقم (١٣) .

أحسنوا [1] . ونلمح في سياق الآية تكرار شبه الجملة (منهم) في جانب اليهود ، ثم تعانق هذا التكرار بالجناس مع لفظة (عنهم) . وهذا التكرار على إثبات أمرين :

الأول : أن هؤلاء اليهود غير مأمونين ، لأنهم أهل خيانة ، إلا قليلاً منهم ممن حسن إسلامه .

والثاني : وجوب الصفح عمن دخل في زمرة الإسلام منهم ، وحسن إسلامه .

فالجناس هنا على إثبات صفة الخيانة (منهم) ، ونفي هذه الصفة (عنهم) بشرط حسن الإسلام . فحققت بنية الجناس هذا المعنى ، بالإضافة إلى جمالية الإيقاع المستفاد من هذه البنية ، لتخفف من حدة التراكيب في الآية التي اتسقت مع سياق الحدث المتضمن فيها .

* وعلى هذا يمكن تخريج الجناس في الآيات الآتية :

- قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ [2] .
- وقوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [3] .
- وقوله تعالى : ﴿ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء ﴾ [4] .
- وقوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ [5] .
- وقوله تعالى : ﴿ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً ﴾ [6] .
- وقوله تعالى : ﴿ عُذْراً أَوْ نُذْراً ﴾ [7] .

وهكذا يتم توظيف بنية التكرار الإيقاعي بالجناس في الآيات القرآنية رغبة في دلالات نصية مقصودة ، وطلباً للإيقاع الصوتي وما يتبعه من جماليات سياقية .

---

١ ينظر : أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ٢ / ٩٢ . — أبو حيان ، البحر ، ٤ / ٢٥٦ .
٢ - سورة البقرة : آية رقم (١١٨) .
٣- سورة الأنعام : آية رقم (١٠٠) .
٤- سورة الأعراف : آية رقم (٩٥) .
٥- سورة الأنبياء : آية رقم (٩٠) .
٦- سورة الحشر : آية رقم (١١) .
٧ - سورة المرسلات : آية رقم (٦) .

ب- التكرار بطباق السلب :

يعتمد طباق السلب في فنيته الجمالية على إثبات الحدث أو الفعل ثم نفيه في آن . كما أن محور طباق السلب الأهم ليس الإثبات أو النفي ، لكنه الوسيلة التي يتم بها هذا الإثبات والنفي ، أي (أداة النفي) التي يتم في ضوئها هذا التكرار الإيقاعي ، ويحدث الانزياح الصوتي والدلالي معاً . ويرى د. سعد أبو الرضا أن " الوظيفة الأهم في توظيف طباق السلب صوتياً هو الكشف عن الدلالة بأبعادها المختلفة خلال هذه البنية اللغوية "[1] .

كما يرى د. منير سلطان أن " الطباق السلبي هو طباق ذاتي ، فالحدث هو هو"[2] . ووحدة الحدث هي مناط تميز طباق السلب ، إذ الأمر يدور على النفي والإثبات لهذا الحدث وفق سياقات المعنى ، واعتبارات الدلالة . والنص القرآني يوظف طباق السلب في صورتين هما :

الأولى : توظيف الطرف المثبت أولاً ثم يليه الطرف المنفي ممثلاً في الآيات الآتية :

- قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾[3] .
- وقوله تعالى : ﴿ هَاأَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ ﴾[4] .
- وقوله تعالى : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً ﴾[5] .
- وقوله تعالى : ﴿ فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ ﴾[6] .
- وقوله تعالى : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُواْ ﴾[7] .
- وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾[8] .

---

١ - د. سعد أبو الرضا ، في البنية والدلالة ، ٢٩ .
٢ - د. منير سلطان ، البديع في شعر شوقي ، ١٦٧ .
٣- سورة البقرة : آية رقم (١٨٥) .
٤- سورة آل عمران : آية رقم (١١٩)
٥- سورة النساء : آية رقم (١٢٠)
٦- سورة المائدة : آية رقم (٢٧)
٧- سورة التوبة : آية رقم (٩٤)
٨- سورة النحل : آية رقم (١٧)

والثاني : توظيف الطرف المنفي أولاً ثم يليه المثبت ممثلاً في الآيات التالية :

- وقوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ﴾ [1] .
- وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ [2] .
- وقوله تعالى : ﴿ لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ [3] .
- وقوله تعالى : ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً﴾ [4] .
- وقوله تعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [5] .

وهذا التنوع الأسلوبي في توظيف طباق السلب إرادة للتكرار الإيقاعي ما هو إلا مؤشر دقيق على تنوع طرق الصياغة القرآنية ، وفرادة التوظيف لمثل هذه السياقات . ولنحاول الوقوف بالتحليل على بعض هذه السياقات لاستكناه ما تحمله من شحنات جمالية رائعة .

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [6] ، إذ وظف الفعل (يؤاخذكم) في سياق طباق السلب فورد في صيغتين ؛ واحدة مثبتة ، والأخرى مسبوقة بحرف النفي (لا) . وتمثلت البنيتان في الشكل التالي :

* بنية النفي : (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم) .
* بنية الإثبات : (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) .

يقول أبو السعود : " اللغو ما سقط من الكلام عن درجة الاعتبار " [7] . فتقديم الطرف المنفي على إرادة الإيناس ، ثم عقب ذلك بإيراد الحدث مُثْبَتاً للتوضيح ، وبيان ما تكون به المؤاخذة في الكلام .

١- سورة البقرة : آية رقم (١٥٠)
٢- سورة النساء : آية رقم (٤٨)
٣- سورة الأنعام : آية رقم (١٠٣)
٤- سورة الفرقان : آية رقم (١٤)
٥- سورة القصص : آية رقم (٥٦)
٦ - سورة البقرة : آية رقم (٢٢٥) .
٧ - أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ١ / ١٤٨ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [1] . حيث وظف الفعل (يستخفون) في سياق الإثبات ثم النفي في سياق تجاوري قُصِدَ منه إبراز الحدث في ذاته ، مع توظيف أداة النفي لسلب هذه القصدية عن هذا الحدث . يقول أبو السعود : " ﴿ يستخفون من الناس ﴾ أي : يستترون منهم حياء ، وخوفاً من ضررهم . و﴿ لا يستخفون من الله ﴾ أي : لا يستحيون منه سبحانه وتعالى ، وهو أحق أن يُستَحى منه ، ويُخاف عقابه " [2] .

ويرى ابن عاشور أن توظيف فعل الاستخفاء من الله على المجاز " إذ لا يعتقد أحد يؤمن بالله بأنه يستطيع أن يستخفي على الله " [3] . والطباق هنا على دلالة النعي على هؤلاء المعاندين الذين يحذرون الناس ويستخفون منهم ، ويتركون الاستحياء منه . فالطباق بالسلب على دلالة إبراز المفارقة الدلالية بين فعلين لفاعل واحد .

ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [4] ، حيث طابق بين الفعل (يخلق) في معرض التقريع لأهل الكفر على مساواتهم الأوثان بالله تعالى في العبادة ، فقرَّعهم على ذلك بأن ذكر لهم فعل الألوهية وهو (الخلق) ، وكيف أنهم بهذا الوهم جعلوا مَنْ لا يخلق على حذو واحد بمن يخلق . كما أن ذكر حرف التشبيه هنا على جهة التشبيه المقلوب يسهم في تبيان الصورة المغلوطة عند هؤلاء ، إذ الأصل أن يشبَّه الأدنى بالأعلى في تحقق الصفة ، فالأولى أن يقال - في غير القرآن - : (أفمن لا يخلق كمن يخلق) ، وعدل هنا للتوبيخ ، ثم الإهمال والتحقير . يقول أبو حيان : " ذكر الله تعالى التباين بين من يخلق وهو الباري تعالى ، وبين من لا يخلق ، وهي الأصنام ، ومن عُبد ممن لا يعقل ، فجدير أن يُفرد بالعبادة من له الإنشاء دون غيره " [5] .

---

١ - سورة النساء : آية رقم (١٠٨) .
٢ - أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ٢ / ١٢٢ .
٣ - ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ٥ / ٣٢ .
٤ - سورة النحل : آية رقم (١٧) .
٥ - أبو حيان ، البحر المحيط ، ٧ / ٢٠٩ .

ولأن النفي متسلط هنا على قضية مهمة هي قضية الخلق ، وذلك في جانب هذه الأوثان ، جاء دور طباق السلب ليؤدي هذه المهمة المتمثلة في إثبات هذه الصفة الجليلة للخالق ﷻ ، ونفيها هي لا غيرها باللفظ ذاته عن هذه الأصنام . يقول الألوسي : " كان حق الكلام بحسب الظاهر في بادئ النظر (أفمن لا يخلق كمن يخلق) ، لكن قيل : حيث كان التشبيه نسبة تقوم بالمنتسبين ، اختير ما عليه النظم الكريم مراعاة لحق سبق الملكة على العدم ، وتفادياً عن توسيط عدمها بينها وبين جزئياتها المفصلة قبلها ، وتنبيهاً على كمال قبح ما فعلوه من حيث إن ذلك ليس مجرد رفع أصنامهم عن محلها ، بل هو حطّ لمنزلة الربوبية إلى مرتبة الجماد " [1] . فاسهم تعاضد طباق السلب مع فنية التشبيه المقلوب في إفادة عظمة الله تعالى وفضله بنعمة الخلق ، وفساد زعم هؤلاء الكافرين في تقديسهم مخلوقات حقيرة ورفعها لمصاف الخالق .

تلك هي أهم ملامح التلوين الصوتي بالتكرار في سياق الجملة القرآنية ، وما تبعه من تقاطعات سياقية في إطار التعبير القرآني مع هذه الفنية ، وتضافره معها في إثراء الدلالة في هذه التراكيب القرآنية في ضوء ارتباطها بالغرض العام لهذه السياقات .

خامساً : تلوينات الحذف في الجملة القرآنية

يعرّف د. طاهر حمودة الحذف بأنّه " ظاهرة لغوية عامة تشترك فيها اللغات الإنسانية ، حيث يميل الناطقون إلى حذف بعض العناصر المكرّرة في الكلام ، أو إلى حذف ما يمكن للسامع فهمه اعتماداً على القرائن المصاحبة حالية كانت أو عقلية أو لفظية " [2] .

وإذا كان الحذف لجزء من أجزاء الكلمة مسوقاً لغرض التخفيف في الأداء النطقي ، فإن الحذف على مستوى التراكيب ينساق في هذا الإطار ، سواء كان الحذف للكلمة أو للجملة في إطار التراكيب ، وذلك بشرط ألا يؤثر هذا الحذف على وضوح معنى العبارة أو

---

١ - الألوسي ، روح المعاني ، ٥ / ٢٥٩ .
٢ - د. طاهر حمودة ، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي ، ٤ .

لفظه بمداخلات الإبهام أو اللبس أو الإخلال بالمعنى واللفظ .كما أن الحذف " إنما يتم لوجود دليل أو قرينة على المحذوف فيستبين المعنى "[1] . وتتعدد الأسباب الداعية إلى الحذف في سياق التراكيب ، فمنها [2] :

١- التخفيف .

٢- الإيجاز والاختصار .

٣- الاتساع .

٤- التفخيم والإعظام .

٥- صيانة المحذوف عن الذكر تشريفاً له .

٦- التحقير .

٧- الجهل بالمحذوف .

٨- رعاية الفاصلة في القرآن الكريم .

والحذف ظاهرة أسلوبية بارزة في سياق الكلام العربي ، تناولها أهل النحو البلاغة والبيان بالتفصيل ، ووقفوا على قيمتها الجمالية ، وإسهامها البياني في السياق الملفوظ والمكتوب . يقول سيبويه : " والحذف في كلامهم كثير ، إذا كان في الكلام ما يدلّ عليه "[3] .

وقد وظّف القرآن الكريم فنية الحذف في سياق تلويني رائع يعتمد على إفادات المقام في أروع تعبيراته لمعاضدة هذه الفنية ، إذ لكلّ كلمة في الآية مكانها المناسب المتناسق مع باقي الكلمات ومعانيها ، والمتّفق مع السياق العام لهذه الآية .

والتعبير القرآني المعجز قد يوظف كلمة أو جملة في آية ثم يحذف هذه الكلمة أو الجملة في آية أخرى مشابهة للأولى ، وتتّسق مع موضوعها ، فيكون الذكر والحذف في

١- د. أحمد عفيفي ، ظاهرة التخفيف ، ٢٧٤ .

٢- ينظر : د. طاهر حمودة ، ظاهرة الحذف ، ٩٥ – ١٠٧ .

٣- سيبويه ، الكتاب ، ١ / ١٥٣ . وينظر : ابن جني ، الخصائص ، ٢ / ٣٦٠ .

الآيتين مقصوداً ، ومتفقاً مع دلالات السياق ، ومبرزاً للإعجاز البياني فيهما معاً . فمن ذلك ما نلمسه في قوله تعالى : ﴿واللهُ خلقكم ثمَّ يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيْ لا يعلمَ بعدَ علمٍ شيئاً﴾ [1] ، وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناسُ إن كنتم في ريبٍ من البعث فإنا خلقناكم من ترابٍ ثمَّ من نطفةٍ ثمَّ من علقةٍ ثمَّ من مضغةٍ مخلقةٍ وغير مخلقةٍ لنبين لكم ونقرُّ في الأرحام ما نشاء إلى أجلٍ مسمى ثمَّ نخرجكم طفلاً ثمَّ لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يردُّ إلى أرذلِ العمرِ لكيلا يعلمَ من بعدِ علمٍ شيئاً ﴾ [2] .

فقد ذكر في الآية الأولى جملة (بعد علم) بحذف حرف الجر (من) ، وفي الثانية ذكر جملة (من بعد علم) بذكر حرف الجر (من) ، فما سر هذا الذكر والحذف هنا ؟ والملاحظ أن آية سورة الحج ذُكِر فيها حرف الجر (من) في (٦ ستة مواضع) : خمسة منها قبل جملة (من بعد علم) ، وكلها أفادت معناها الذي سيقت من أجله ، إلا التي في جملة (من بعد علم) فإن النظم مع سقوطها ملتئم ، والمعنى مكتمل ، فاستوى ذكرها وحذفها من جهة المعنى ، وناسب ذكرها ظاهر النظم لتناسب هذا النظم [3] .

ويرى الكرماني أن حذف (من) في آية سورة النحل فيه نوع من التناسب النظمي " لأنه أجمل الكلام في هذه السورة فقال : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ ، وفصّله في الحج فقال : ﴿خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ﴾ الآية ، فاقتضى الإجمال الحذف ، والتفصيل الإثبات ، فجاء في كل سورة ما اقتضاه الحال " [4] . فمراعاة سياق التعبير ، وحال النظم في الآيتين هو الداعي إلى لمح فائدة ما حُذِف وما ذُكر ، وسبب هذا الحذف والذكر .

ويمكننا تلمس سياقات التلوين بالحذف في القرآن من خلال المباحث الآتية :

---

١ - سورة النحل : آية رقم (٧٠) .
٢ - سورة الحج : آية رقم (٥) .
٣ - ينظر : ابن الزبير ، ملاك التأويل ، ٢ / ٧٤٨ .
٤ - الكرماني ، البرهان في توجيه متشابه القرآن ، ٢٢٢ .

١- حذف الأسماء :

الحذف لا يكون إلا بدليل على المحذوف ، هذا الدليل من بنية معهودة ، أو قرينة قائمة ، أو معنى في السياق لا يستقيم إلا مع تقدير الحذف . وحذف الأسماء أياً كان نوعها وموقعها الإعرابي في التراكيب يستقيم في هذا الإطار . ويستدلّ على حذفها إما بأصل التركيب عند حذف المبتدأ والخبر ، وإما بقرينة السياق ومعناه العام .

فمن حذف المبتدأ ما نلمسه في قوله تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ [1] ، فقد تمّ حذف المبتدأ (اسم الإشارة : هذا) من سياق التركيب ، والتقدير : هذا ذِكْرُ . والحذف هنا تمّ لدلالة الأصل عليه ، أي أن المُقَدَّم (مبتدأ) حُذِفَ من السياق للتخفيف ، ثم لتعظيم شأن المحذوف طلباً للفائدة المتوخاة من هذا الحذف ، ثم للتشويق إلى هذا المحذوف لجذب انتباه المتلقي لمعرفة هذا الذكر . فالحذف هنا تمّ طلباً لثلاثة مقاصد بلاغية هي (التخفيف ، والتعظيم ، والتشويق) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ [2] ، فحذف المبتدأ وتقديره : (بلدتكم) و (ربُّكم) بدلالة قرينة السياق المعقود على الخطاب في الآية كلها . والمعنى : بلدتكم بلدةٌ طيبةٌ ، وربُّكم ربٌّ غفور . وقد تمّ الحذف هنا في حق المبتدأ لإبراز شأن المحذوف ، وتعظيم قدره ، وذلك بحذف الأسماء المسندة إلى ضمير الخطاب للجمع اكتفاءاً بما سيق من قبل من هذه الضمائر ، فيكون ذلك أكثر اتساقاً مع غرض التعظيم لشأن المحذوف ، وأدلّ على تمام النعمة عليهم في هذا المقام .

ومن حذف الخبر ما ذكره أبو عبيدة في قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ [3] ،

---

١ – سورة مريم : آية رقم (٢) .
٢ – سورة سبأ : آية رقم (١٥)
٣ – سورة الرعد : آية رقم (٣٥) .

من كون الخبر في قوله تعالى : ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وظِلُّهَا﴾ محذوف ، والتقدير : وظلها دائمٌ ، فتم حذف الخبر على المجاز . يقول أبو عبيدة : " مجازه مجاز المكفوف عن خبره ، والعرب تفعل ذلك في كلامها "[1].

فحذف الخبر في الآية على الإيجاز منعاً للتكرار ، وذلك لتوحّد الخبر في اللفظ .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾[2]. يقول الطبري في تعليل حذف الخبر في الآية : " وكذلك عدّد اللائي لم يحضن من الجواري لصِغَرٍ إذا طلقهن أزواجهن بعد الدخول "[3]. فحذفَ الخبر هنا لأنه قام دليلٌ في الكلام على ذكره ، فيكون ذكْره ثانياً كاللغو . فالصمت عن الخبر ، وعَطْف (اللائي لم يحضن) على (اللائي يئسن) مؤذناً باتحادهما في الخبر .

ومنه حذف المضاف الذي يرد في اللغة على نوعين هما[4] :

الأول : حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، بشرط وجود القرينة الدالة على المحذوف .

والثاني : حذف المضاف وبقاء عمله في المضاف إليه ، أي بقاء أثره الإعرابي .

ومنه ما نلمسه في قوله تعالى : ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾[5] ، أي : حبّ العجل ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه .

* وقوله تعالى : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾[6] ، أي : أكل الميتة .
* وقوله تعالى : ﴿وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[7] ، أي : أمر ربّك .

---

١ - أبو عبيدة ، مجاز القرآن ، ١ / ٣٢٣ .
٢ - سورة الطلاق : آية رقم (٤) .
٣ - الطبري ، جامع البيان ، ١٦ / ١٨٤ .
٤ - ينظر : ابن جني ، الخصائص ، ٢ / ١٦٤ - ١٦٥ . - ابن القيم ، بدائع الفوائد ، ٢ / ٢٤ . - ابن هشام ، مغني اللبيب ، ٥٨٧ . - ابن عقيل ، شرح الألفية ، ٢ / ٦٢ .
٥ - سورة البقرة : آية رقم (٩٣) .
٦ - سورة المائدة : آية رقم (٣) .
٧ - سورة الفجر : آية رقم (٢٢) .

والكوفيون لا يرون هنا أي حذف ، ويجيزون دخول (إذا) على الأسماء [1] . وعلى هذا : قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [2] .

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ وَإِذَا السَّمَاء كُشِطَتْ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ [3] .

وقوله تعالى : ﴿إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [4] ، فالأفعال المحذوفة هنا على غرض الإيجاز والاختصار .

٣- حذف الجمل :

تُحذَف الجمل في اللغة إرادة للتخفيف ، وتجنّباً لطول الكلام منعاً للتكرار ، وقصداً إلى الإيجاز والاختصار . ويلحظ أن حذف الجمل يتم في الأساليب المركبة من أكثر من جملة مثل أساليب الشرط ، والقسم والعطف ، والاستفهام . ومن ذلك :

حذف جواب الشرط في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [5] ، فجواب الشرط محذوف ، وتقديره : أعرضوا . يقول الزمخشري : " جواب إذا محذوف مدلول عليه بقوله : ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [6] ، فكأنه قال : وإذا قيل لهم اتقوا أعرضوا " [7] .

وقوله تعالى : ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [8] ، فحذف جواب الشرط ، والتقدير : إن شكرتم وآمنتم لم يعذبكم ، لأن معنى (ما يفعل

١ - ينظر : ابن عقيل ، شرح الألفية ، ١/٤٠١ .
٢ - سورة التوبة : آية رقم (٦) .
٣ - سورة التكوير : الآيات من (١ — ١٣) .
٤ - سورة الانفطار : الآيات من (١ — ٤) .
٥ - سورة يس : آية رقم (٤٥) .
٦ - سورة يس : آية رقم (٤٦) .
٧ - الزمخشري ، الكشاف ، ٤/١٩ .
٨ - سورة النساء : آية رقم (١٤٧) .

الله بعذابكم) أي شيء يفعل الله بعذابكم . فـ(ما) هاهنا مخرجها مخرج الاستفهام . ومعنى الكلام " التقرير بأن العذاب لا يكون للشاكر المؤمن ، لأن تعذيب الشاكر المؤمن لا غرض فيه لحكيم ، فكيف بمن لا تضره المضار ، ولا تنفعه المنافع سبحانه وتعالى "[1] .

وحذف جملة جواب القسم إذا تقدّمها أو لابسها ما يغني عن ذكر الجواب وعليه قوله تعالى : ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾[2] ، إذ حذف جواب القسم الذي تقديره : لأعذبنّ هؤلاء المعاندين ، والدليل عليه ما يلحق من آيات دالة على إهلاك المعاندين من الأمم السابقة .

ومنه قوله تعالى : ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾[3] ، فحذف جواب القسم ، وتقديره : لأهلكنّ ، أو لأعذبنّ ، والدليل عليه ما يلحق من آيات .

ومنه حذف جواب (لو) ، كما في قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً﴾[4] ، إذ تقديره : لكان هذا القرآن . يقول الفراء : " لم يأت بعده جواب لـ(لو) ، فإن شئت جعلت جوابها متقدّماً : (وهم يكفرون ولو أنا أنزلنا عليهم الذي سألوا) . وإن شئت كان جوابه متروكاً لأن أمره معلوم . والعرب تحذف في جواب الشيء إذا كان معلوماً ، إرادة الإيجاز "[5] .

ومنه حذف جواب (لولا) ، كقوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾[6] ، وتقدير الجملة المحذوفة : لما أنزل عليكم ستر هذه الفاحشة . يقول أبو السعود :"جواب (لولا) محذوف لتهويله ، والإشعار بضيق العبارة عن حصره ، كأنه قيل ولولا تفضله تعالى عليكم ورحمته ، وأنه تعالى مبالغ في قبول التوبة ، حكيم في جميع

١ - ابن الشجري ، الأمالي الشجرية ، ١ / ٣٥٥ .
٢ - سورة الفجر : الآيتان رقم (١ ، ٢) .
٣ - سورة ق : آية رقم (١) .
٤ - سورة الرعد : آية رقم (٣١) .
٥ - الفراء ، معاني القرآن ، ٢ / ٦٣ .
٦ - سورة النور : آية رقم (١٠) .

أفعاله ، وأحكامه التي من جملتها ما شرع لكم من حكم اللعان ، لكان ما كان مما لا يحيط به نطاق البيان" [1] .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [2] ، والتقدير : لعجّل لكم العذاب . يقول ابن عطية : "جواب (لولا) محذوف لدلالة الكلام عليه ، تقديره : لفَضَحَكُم بذنوبكم ، ولَعَذَّبَكُم فيما أفضتم فيه من قول الباطل والبهتان " [3] .

وعلى هذا يطرد حذف الجمل في السياقات القرآنية ، وما تنعقد عليه من أغراض ودلالات مبتغاة من هذا الحذف ، كما أنها تتسق مع تقريرات اللغة في هذا السياق .

بهذا يتضح جلياً ما يسهم به التلوين الصوتي بالحذف في سياق الجملة القرآنية من إثراءات دلالية متنوعة ، تنسجم في تفريعاتها مع السياقات القرآنية لهذه الجمل ، وتتسم بالجمالية النصية في تعاضدها مع النسيج القرآني ، لأداء ما يُهْدَف إليه من مقاصد .

وبعد :

تلك هي أهم التلوينات الصوتية التي تعاضدت في سياق التراكيب القرآنية لأداء ما يُبْتَغَى من مقاصد دلالية ، وأغراض سياقية جمالية في إطار التركيب ، ومن ثَمَّ الآية ، ثُمَّ السورة القرآنية بما تنعقد عليه من أهداف ، وما ترمي إليه من أغراض .

---

١ – أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ٦ / ١١٦ .
٢ – سورة النور : آية رقم (٢٠) .
٣ – ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ٤ / ١٤٥ .

الفَصلُ الخامِسُ

بَلاغَةُ التّلْوينِ الصّوْتيِّ

في القِراءَاتِ القُرآنيّةِ

القراءات القرآنية المتواترة بكل ما تحويه من ثراء لغوي وبلاغي ، وما ترتّب عليها من أحكام فقهية وتشريعية ، هي في مجملها تلوين صوتي مناسب وملائم لما تقتضيه طبيعة المدرج الصوتي لكل قبيلة من المسلمين إبّان عهد المصطفي ﷺ ، إذ كان من الصعب أن تقوم كل قبيلة منها باعتماد لهجة قريش والتخلّي عن لسانها ، مخالفة بذلك سنّة الطبيعة البشرية التي تنفر من التغيير الفجائي . ولذا كان التيسير الإلهي على أمة المصطفي ﷺ بقراءة القرآن الكريم على سبعة أحرف تناسب -بما تحويه من ألوان صوتية - لسان كل قبيلة ، وما ذاك إلا مراعاة إلهية جليلة لأحوال البشر في طبائعهم .

والزمن الذي نشأت فيه القراءات القرآنية ، هو نفسه زمن نزول القرآن الكريم ، وذلك لأنّ هذه القراءات قرآن نزل من عند الله فلم تكن من اجتهاد أحد ، بل هي وحي أوحاه الله تعالى إلى نبيه ﷺ ، وقد نقلها عنه أصحابه الكرام ﷺحتى وصلت إلى الأئمة القراء ، فوضعوا أصولها ، وقعّدوا قواعدها ، في ضوء ما وصل إليهم ، منقولاً عن النبي ﷺ . وعلى ذلك ، فالمعوّل عليه في القراءات ، إنما هو التلقي بطريق التواتر ، جمعٌ عن جمع يؤمَن عدم تواطؤهم علي الكذب ، وصولاً إلى النبي ﷺ . أو التلقي عن طريق نقل الثقة عن الثقة وصولاً كذلك إلى النبي ﷺ .

وانطلاقاً من ذلك فإن إضافة هذه القراءات إلى أفراد معينين ، هم القراء الذين قرأوا بها ، ليس لأنهم هم الذين وضعوها أو اجتهدوا في تأليفها ، بل هم حلقة في سلسلة من الرجال الثقات الذين رووا هذه الروايات ونقلوها عن أسلافهم ، انتهاءً بالنبي ﷺ ، الذي تلقّاها وحياً عن ربه ﷻ . وإنما نسبت القراءات إلى القراء لأنهم هم الذين اعتنوا بها وضبطوها ووضعوا لها القواعد والأصول .

ما سبب اختلاف القراءات ؟

لقد عرفنا فيما مضى أن هذه القراءات منقولة عن النبي ﷺ ، ومعنى ذلك أن الوحي قد نزل بها من عند الله . والإجابة عن السؤال المطروح لمسها الصحابة وقت نزول القرآن واقعاً لا نظرية ، ك أن الصحابة ﷺكانوا من قبائل عديدة ، وأماكن مختلفة ، وكما هو معروف أنه كما تختلف دات والطباع باختلاف البيئات ، فهكذا اللغة أيضاً ، إذ تنفرد كل بيئة ببعض الألفاظ التي قد ـ تتوارد على لهجات بيئات أخرى ، مع أن هذه البيئات جميعها تنضوي داخل إطار لغة واحدة ،

وهكذا كان الأمر . فالصحابة عربٌ خُلص بيْدَ أنّ اختلاف قبائلهم ومواطنهم أدّى إلى انفراد كل قبيلة ببعض الألفاظ التي قد لا تعرفها القبائل الأخرى مع أنّ الجميع عرب ، والقرآن الكريم جاء يخاطب الجميع ، لذلك راعى القرآن الكريم هذا الأمر ، فجاءت قراءاته المتعددة موائمة لمجموع من يتلقون القرآن ، فالتيسير على الأمة هو السبب في تعدد القراءات .

والأحاديث المتواترة الواردة حول نزول القرآن علي سبعة أحرف تدل علي ذلك : جاء في الصحيحين : عن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : " أقرأني جبريل على حرف فراجعته ، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف "[1] . وزاد مسلم : " قال ابن شهاب : بلغني أن تلك السبعة في الأمر الذي يكون واحداً لا يختلف في حلال ولا حرام "[2] .

وأخرج مسلم عن أبيّ بن كعب ، أن النبي ﷺ كان عند أَضَاة بني غفار[3] قال : " فأتاه جبريل ﷺ فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يامرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم جاء الثالثة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم جاءه الرابعة فقال : إن الله يامرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف . فأيما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا "[4] .

ويؤخذ من ذلك ما يلي :

١- إن الأحرف السبعة جميعها قرآن نزل من عند الله ، لا مجال للاجتهاد فيها .

٢- السبب في هذه التوسعة هو التهوين على الأمة ، والتيسير عليها في قراءة القرآن الكريم .

المراد بالأحرف السبعة :

هناك أقوال عديدة ساقها العلماء حول مفهوم الأحرف السبعة ، التي تواترت الأحاديث في إثبات أن القرآن نزل عليها ، ونشير إلى رأيين :

١- ينظر : صحيح البخاري ،كتاب فضائل القرآن ، باب : أنزل القرآن علي سبعة أحرف ، ٩ / ٢٠ .
٢- ينظر : صحيح مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب : بيان أن القرآن أنزل علي سبعة أحرف، ٢/ ٢٠٢.
٣ - مستنقع ماء كالغدير ، كان بموضع بالمدينة نزل عنده بنو غفار فتسب إليهم .
٤ - ينظر صحيح مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف ، ١ / ٣٩٢ .

أحدهما : هو ما ذكره ابن قتيبة . وحاصله أن الأحرف السبعة هي سبعة أوجه لا يخرج عنها الاختلاف في القراءات ، وهي :

١- اختلاف الأسماء من إفراد ، وتثنية ، وجمع ، وتذكير ، وتانيث.

٢- اختلاف تصريف الأفعال من ماض ومضارع وأمر .

٣- اختلاف وجوه الإعراب .

٤- الاختلاف بالنقص والزيادة .

٥- الاختلاف بالتقديم والتاخير .

٦- الاختلاف بالإبدال .

٧- اختلاف اللغات كالفتح والإمالة ، والتفخيم ، والترقيق ، والإظهار والإدغام [1] .

وقد مال لهذا الرأي صاحب كتاب (مناهل العرفان) وساق الأمثلة لكل وجه من الوجوه المذكورة ، ورجّحه على غيره مقرراً أنه الرأي الذي تؤيده الأحاديث ، وأنه الرأي المعتمد على الاستقراء التام دون غيره [2] .

وثانيهما : وهو ما ذهب إليه سفيان بن عيينة ، وابن جرير ، وابن وهب ، والقرطبي ، ونسبه ابن عبد البر لأكثر العلماء [3] وحاصله : أن المراد بالأحرف السبعة هي سبع لغات في كلمة واحدة تختلف فيها الألفاظ مع اتفاق المعاني وتقاربها ، مثل : هلم ، وأقبل ، وتعال ، إليّ ، وقصْدي ، ونحْوي ، وقُرْبي . فإن هذه سبعة ألفاظ مختلفة ، يعبّر بها عن معنى واحد ، هو طلب الإقبال . وليس معنى ذلك أن كل معنى في القرآن عبر عنه بسبعة ألفاظ من سبع لغات ، بل المراد أن منتهى ما يصل إليه عدد الألفاظ المعبرة عن معنى واحد هو سبعة . وأصحاب هذا الرأي أيّدوا كلامهم بأن التيسير المنصوص عليه في الأحاديث موجود في هذا الرأي .

وبناءً على الرأي الأول تكون القراءات التي رواها القراء بوجوه متعددة راجعة إلى الأحرف السبعة . وبناءً على الرأي الثاني تكون راجعة إلى حرف واحد وهو حرف قريش ، الذي نسخت عليه المصاحف العثمانية .

١- ينظر : ابن قتيبة ، تاويل مشكل القرآن ، ٣٦- ٣٨ .

٢- ينظر : الزرقاني ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، ١/ ١٥٥ – ١٥٧ .

٣- ينظر : السيوطي ، الإتقان ، ١/ ٤٨ .- الزرقاني ، مناهل العرفان ، ١/ ١٧٤

النسبة بين الأحرف السبعة والقراءات السبع :

نسبة القراءات السبع إلى الأحرف السبعة هي نسبة الخاص إلى العام ، فالأحرف السبعة تشمل جميع القراءات بما فيها السبع . ومن يعتقد أن القراءات السبع هي الأحرف السبعة ، فقد أبان عن جهله ، وكشف النقاب عن قلة إدراكه ؛ لأن هؤلاء القراء السبعة وهم : ابن عامر ، وابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة ، ونافع ، وأبو الحسن الكسائي . وهؤلاء القراء السبعة لم يكونوا قد ولدوا حين ذكر النبي ﷺ الأحرف السبعة ، فهل معنى ذلك أن حديث النبي ﷺ "أنزل القرآن علي سبعة أحرف" كان عارياً من الفائدة ، وبعيداً عن الواقع ، إلى أن ظهر هؤلاء القراء ، وماذا فهم الصحابة إذن من الحديث ؟ فما أبعد هذا القول عن الواقع !!

أقسام القراءات وبيان ما يقبل منها وما لا يقبل :

يفصّل ابن الجزري أنواع القراءات إلى ستة أنواع هي [1] :

الأول : المتواتر ؛ وهو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب ، عن مثلهم إلى منتهاه ، حتى يبلغوا به النبي ﷺ ، ومثاله ما اتفقت الطرق على نقله عن السبعة ، وهذا الغالب في القراءات .

الثاني : المشهور ؛ وهو ما صح سنده بأن رواه العدل الضابط عن مثله وهكذا ، ووافق العربية ولو بوجه ، ووافق رسم المصحف العثماني ، واشتهر عند القراء فلم يعدوه من الغلط ولا من الشذوذ ، إلا أنه لم يبلغ درجة المتواتر . ومثاله ما اختلفت الطرق في نقله عن السبعة ، فرواه بعض الرواة عنهم دون بعض ، وقد ذكر كثيراً من هذا النوع الداني في (التيسير) والشاطبي في (الشاطبية) وغيرهما . وهذان النوعان ، هما اللذان يقرأ بهما ، مع وجوب اعتقادهما ولا يجوز إنكار شيء منهما .

الثالث : ما صح سنده ، وخالف الرسم أو العربية ، أو لم يشتهر الاشتهار المذكور ، وهذا النوع لا يقرأ به ولا يجب اعتقاده ، ومثاله قراءة : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ [2] ، بجمع كلمتي (رفرف) و (عبقري) على (رفارف) و (عباقري) .

١- ينظر : ابن الجزري ، النشر ، ١/ ٥٤ – ٧٥ .

٢- سورة الرحمن : آية رقم (٧٦) . وهي قراءة ابن محيصن . ينظر : القباقبي ، إيضاح الرموز ومفتاح الكنوز في القراءات الأربعة عشر ، ٦٨٥ .

الرابع : الشاذ ، وهو ما لم يصح سنده ، مثل قراءة ابن السَّميفع ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَحِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ آيَةً ﴾ (١) ، بالحاء المهملة في كلمة (ننحيك) ، وبفتح اللام من كلمة (خَلَفك) .

الخامس : الموضوع ، وهو ما نسب إلى قائله من غير أصل ، مثل القراءات التي جمعها محمد بن جعفر الخزاعي ، ونسبها إلى أبي حنيفة .

السادس : ما يشبه المدرج من أنواع الحديث ، وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير ، كقراءة سعد بن أبي وقاص ﴿ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ من أمٍّ ﴾ (٢) ، بزيادة (من أمّ) .

وخلاصة الأمر أن النوعين الأولين هما اللذان يقرأ بهما وأمّا غيرهما فلا . والنوع الأول وهو المتواتر مقطوع بقرآنيته بلا نزاع . أما النوع الثاني وهو المشهور الذي اتفقت فيه الضوابط الثلاثة المذكورة وهي : صحة السند ، وموافقة اللغة العربية ولو بوجه ، وموافقة الرسم العثماني ولو احتمالاً ، فهذا النوع لم يوافق عليه بعض العلماء ، بل اشترطوا التواتر دون صحة السند ، أي لم يكتفوا بصحة السند . وهذا لون من التعسف لأن التواتر إذا ثبت ، لا يحتاج فيه إلي الركنين الأخيرين من العربية والرسم ، إذ ما ثبت من أحرف الخلاف متواتراً عن النبي ﷺ وَجَبَ قبوله والقطع بكونه قرآناً سواء وافق الرسم أو لا (٣) .

وقد حاول البعض تقريب وجهة النظر حول قبول هذه القراءة ، أو عدمه ، إذ يقول : " إن هذا القسم - يعني الذي استجمع الأركان الثلاثة المذكورة - يتنوع إلى نوعين : الأول : نوع استفاض نقله وتلقته الأمة بالقبول ، وهو يلحق بالمتواتر من حيث قبوله والعمل بمقتضاه ، لأنه وإن كان من قبيل الآحاد إلا أنه احتفت به قرائن جعلته يفيد العلم لا الظن . والنوع الثاني : وهو ما لم تتلقه الأمة بالقبول ولم يستفض ، وهذا فيه خلاف بين العلماء ، من حيث قبوله ، والقراءة به ، أو عدم ذلك ، والأكثرون على قبوله " (٤) .

أوجه الاختلاف بين القراءات الثابتة :

سبق أن قرّرنا أن القراءات مرجعها النقل الثابت عن النبي ﷺ ؛ ولذلك لم يكن الاختلاف بينها على سبيل التضاد في المعاني ، بل القراءة إما مؤكّدة لغيرها ، أو موضّحة ، أو مضيفة إليها

- سورة يونس : آية رقم (٩٢) . وينظر : ابن الجزري ، النشر ، ١ / ٧٥ .
- سورة النساء : آية رقم (١٢) . وينظر : ابن الجزري ، النشر ، ١ / ٥٤ .
٣ - ينظر : السيوطي ، الإتقان ، ١ / ٧٨ .
٤ - الزرقاني ، مناهل العرفان ، ١ / ٤٦٧ .

معنى جديداً ، فتكون كل قراءة بالنسبة للأخرى ، بمنزلة الآية مع الآية . وكما أن الاختلاف بين هذه القراءات لم يكن على سبيل التضاد في المعاني ، فإنه كذلك لم يكن على سبيل التباين في الألفاظ ، وقد تم حصر أوجه الاختلاف بينها في الوجوه الآتية :

الأول : الاختلاف في شكل آخر الكلمات ، أو بنيتها ، مما يجعلها جميعاً في دائرة الفصحى ، بل أفصح هذه اللغة ، المتسقة في ألفاظها ، ورنّة موسيقاها ، والتواؤم بين ألفاظها ومعانيها .

والثاني : الاختلاف في مدّ الحروف ، من حيث الطول والقصر ، وكون المدّ لازماً أو غير لازم ، وكلّ ذلك مع التآخي في النطق في القراءة الواحدة ، فكل قراءة متناسقة في ألفاظها من حيث البنية ، ومن حيث طول المدّ أو قصره .

والثالث : الاختلاف من حيث الإمالة أو عدمها .

والرابع : الاختلاف من حيث النقط ومن حيث شكل البنية في مثل قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[1] ، حيث قرئ متواتراً ﴿فتثبّتوا﴾[2] . ومع ذلك فالقراءتان تلتقيان في المعنى ، فالأولى طالبت بالتبيّن المطلق ، والأخرى بيّنت طريق التبيّن ، وهو التثبت بتحري الإثبات .

والخامس : زيادة بعض الحروف في قراءة ما ، ونقصها في أخرى ، مثل قراءة ابن عامر ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾[3] ، بدون واو قبل (قالوا) ، في حين قرأ الباقون بالواو هكذا (وقالوا اتخذ الله ولدا)[4] .

فإن قيل : ما الثابت من القراءتين في المصحف العثماني ؟ فالردّ أنّ المصاحف العثمانية أُثبتت كل ما يحتمله الرسم بطريقة واحدة[5] ، وأما ما لا يحتمله الرسم كالزيادة والنقصان ، فإنه كان يثبت في بعض المصاحف بقراءة ، وفي بعضها بقراءة أخرى . يقول القرطبي مفصّلاً القول

١- سورة الحجرات : آية رقم (٦) . قراءة الجمهور عدا حمزة والكسائي . ينظر : ابن الجزري ، النشر ، ٢ / ٣٧٥ .

٢- هي قراءة حمزة الزيات والكسائي . ينظر : ابن خلف ، العنوان ، ١٧٨ . - ابن الجزري ، النشر ، ٢ / ٣٧٧ .

٣ - سورة البقرة : آية رقم (١١٦) .

٤- ينظر : الفارسي ، الحجة ، ٢ / ٢٠٢ . - الداني ، المقنع ، ١٠٢ . - ابن الفحام ، التجريد ، ١٩١ .

٥- أعني طريقة واحدة تجمع القراءات الواردة في الكلمة مثل قوله تعالى : { ملك يوم الدين } الفاتحة ٤ : ، فإن كلمة { ملك } كتبت بهذه الطريقة لتشمل قراءتي { مالك } و { ملك } وهكذا كلمة { فتبينوا } الحجرات : ٦ . حيث كتبت هكذا لتشمل قراءتي { فتثبتوا } و { فتبينوا } حيث كان الرسم خاليا من النقط والشكل .

في ذلك : " وما وجد بين هؤلاء القراء السبعة من الاختلاف في حروف يزيدها بعضهم ، وينقصها بعضهم ، فذلك لأن كلاً منهم اعتمد علي ما بلغه في مصحفه ورواه ، إذ كان عثمان كتب تلك المواضع في بعض النسخ ، ولم يكتبها في بعض ، إشعاراً بأن كلّ ذلك صحيح ، وأن القراءة بكل منها جائزة " [1] .

فوائد اختلاف القراءات :

مسالة اختلاف القراءات وتعدّدها كانت ولا زالت محل اهتمام العلماء ، ومن اهتمامهم بها بحثهم عن الحكم والفوائد المترتبة عليها ، وهي عديدة نذكر الآن بعضاً منها :

١- التيسير على الأمة الإسلامية ، ونخصّ منها الأمة العربية التي شوفهت بالقرآن ، فقد نزل القرآن الكريم باللسان العربي ، والعرب يومئذٍ قبائل كثيرة ، مختلفة اللهجات ، فراعى القرآن الكريم ذلك ، فانزل فيه – أي بين قراءاته – ما يواكب هذه القبائل على تعددها ؛ دفعاً للمشقة عنهم ، وبذلاً لليسر لهم .

٢ – الجمع بين حكمين مختلفين كما في قوله تعالى : ﴿ فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾ [2] ، حيث قُرِئَ (يطهرن) بتخفيف الطاء وتشديدها [3] . ومجموع القراءتين يفيد أن الحائض ، لا يجوز أن يقربها زوجها إلا إذا طهرت بأمرين : انقطاع الدم ، والاغتسال .

٣- الدلالة على حكمين شرعيين في حالين مختلفين كقوله تعالى : ﴿ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إلى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إلى الْكَعْبَيْنِ ﴾ [4] حيث قُرِئَ (وأرجلكم) بالنصب عطفاً على (وجوهكم) وهي تقتضي غسل الأرجل ، لعطفها على مغسول وهي الوجوه . وقُرِئَ (وأرجِلكم) بالجر عطفاً علي رءوسكم [5] . وهي تقتضي مسح الأرجل ، لعطفها على ممسوح وهو الرءوس . وفي ذلك إقرار لحكم المسح على الخفين .

١- القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ٤٧/١ .
٢- سورة البقرة : آية رقم (٢٢٢) .
٣- قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بتشديد الطاء والهاء ، وقرأ الباقون بتخفيفهما . ينظر : ابن الفحام ، التجريد ، ١٩٧ . – ابن الباذش ، الإقناع ، ٢ / ٦٠٥ .
٤ – سورة المائدة : آية رقم (٦) .
٥ – قراءة النصب هي قراءة نافع والكسائي وابن عامر وحفص ، وقرأ الباقون بالجرّ . ينظر : ابن الفحام ، التجريد ، ٢١٣ . – ابن الباذش ، الإقناع ، ٢ / ٦٣٤ . – القباقبي ، إيضاح الرموز ، ٢٥٧ . – ابن الجزري ، النشر ، ١ / ٦٥ .

٤- دفع توهم ما ليس مراداً ؛ ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾[1] حيث قرئ (فامضوا إلي ذكر الله) [2]. وفي ذلك دفع لتوهم وجوب السرعة في المشي إلى صلاة الجمعة المفهوم من القراءة الأولي ، حيث بينت القراءة الثانية أن المراد مجرد الذهاب[3] .

٥- إظهار كمال الإعجاز بغاية الإيجاز ، حيث إن كل قراءة مع الأخرى بمنزلة الآية مع الآية ، وذلك من دلائل إعجاز القرآن الكريم ، حيث دلّت كل قراءة علي ما تدلّ عليه آية مستقلة .

٦- اتصال سند هذه القراءات علامة على اتصال الأمة بالسند الإلهي ، فإن قراءة اللفظ الواحد بقراءات مختلفة ، مع اتحاد خطّه وخلوه من النقط والشكل ، إنما يتوقف على السماع والتلقي والرواية ، بل بعد نقط المصحف وشكله ، لأن الألفاظ إنما تقدلت وشكلت في المصحف علي وجه واحد فقط ، وباقي الأوجه متوقف علي السند والرواية إلى يومنا هذا . وفي ذلك منقبة عظيمة لهذه الأمة المحمدية بسبب إسنادها كتاب ربها ، واتصال هذا السند بالسند الإلهي ، فكان ذلك تخصيصاً بالفضل لهذه الأمة [4] .

٧- في تعدد القراءات تعظيم لأجر الأمة في حفظها والعناية بجمعها ونقلها بأمانة إلى غيرهم ، ونقلها بضبطها مع كمال العناية بهذا الضبط إلى الحد الذي حاز الإعجاب [5] .

وانطلاقاً من هذا التبيان لتفصيلات القراءات القرآنية وأهميتها القصوي في مجال الدراسات القرآنية ، فإننا نسترشد بسناها لإدراك ما تزخر به من تلوينات صوتية تؤثّر بدورها في إثراء الدلالة القرآنية ، وتسهم في زكاء تفريعاتها البلاغية في تعاضدها مع سياقات هذه الآيات .

---

١ - سورة الجمعة : آية رقم (٩) .

٢ - قراءة جمع من الكرام منهم علي بن أبي طالب ، وعمر ابن الخطاب ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبي بن كعب ، وعبد الله بن عمر ، وسالم بن عبد الله . ينظر : ابن جني ، المحتسب ، ٢ / ٣٢٢ . ابن الجزري ، النشر ، ١ / ٧٤ .

٣ - ينظر : الزرقاني ، مناهل العرفان ، ١ / ١٤٧ ، ١٤٨ .

٤- ينظر : د . محمد العسال ، جواهر البيان في علوم القرآن ، ٩٤ .

٥ - ينظر : د . محمد بكر إسماعيل ، دراسات في علوم القرآن ، ١٣٢ .

١- التلوين بالتعريف والتنكير :

قد يكون التعبير بالنكرة مقصوداً في موضع معيَّن من السياق ، ولا يؤدي معناها لفظ آخر في هذا المقام ، ذلك لأن مقتضيات السياق ومحدّدات المعنى هي الأساس الأول الذي تعتمد عليه بنائية التراكيب في العربية . والأمر ذاته ينطبق على مواضع اختيار المفردة في التعريف في هذه السياقات التركيبية . ومبدأ المصادفة لا يمكن أن يُؤْخَذ به في مثل هذه السياقات ، لأن المصادفة معناها فشل المبدع في السيطرة على نصّه ، واعتماده مبدأ العشوائية أساساً لإبداعه الذي لا يستحق حينئذ الوصف بأنه إبداع ، وهذا في كلام البشر ، فما بالنا بكلام رب البشر !

وقد سبق الحديث عن فنية التوظيف الجمالي التي سار عليها النص القرآني في توظيفه لسياقات التعريف والتنكير داخل البنى التركيبية للنص القرآني . يقول د. صلاح الدين الخالدي : " إنَّ مجيء لفظ في القرآن معرفة ، ومجيء لفظ آخر نكرة ، ومجيء لفظ في موضع معرفة ونكرة في موضع آخر ، لم يكن مصادفة في القرآن ، إنما هو مقصود في كل موضع ، وجيء به على تلك الحالة لينسجم مع السياق الذي ورد فيه ، ويتناسق معه "[1].

وليس من سبيل إلى فهم أسرار هذا التلوين سوى تدبّر سبل الأداء لهذا السياق ، ومفرداته التركيبية في ضوء النظم الكلي لهذه السياقات .

والقراءات القرآنية وظّفت هذه الفنية الجمالية بدقة متناهية ، انسجمت مع محدّدات السياق ومتطلبات المعنى ، وأثمرت في تعاضدها مع النسيج القرآني في إثراء الدلالة المبتغاة من توظيف مثل هذا التلوين بالتعريف والتنكير .

* فمن ذلك مثلاً قراءة كلمة (حياة)[2] بالتعريف والتنكير في قوله تعالى :﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ﴾[3] . فما الدلالات الجمالية لمثل هذا التلوين في الكلمة ؟

إنّ قراءة الكلمة نكرة تستمد من سياقاتها الدلالة على التحقير ، إذ إن اليهود أشدّ حرصاً على مثل هذه الحياة مهما تكن قيمتها ، فهم أهل دنيا . ويرى الزمخشري أن مثل هذا التنكير

١ - د. صلاح الخالدي ، إعجاز القرآن البياني ، ٢٣٠ .
٢ - قرأها الجمهور نكرة منونة ، وقرأها أبي بن كعب بالألف واللام . ينظر : أبو حيان ، البحر المحيط ، ٢١٢/١ .
٣ - سورة البقرة : آية رقم (٩٦) .

للكلمة مبعثه إظهار شغفهم بهذه الحياة المنكرة : " لأنه أراد حياة مخصوصة ، وهي الحياة المتطاولة " [1] . وهذا التنكير للكلمة يفيد تصوير مدى الحرص الذي عليه اليهود لهذه الحياة ، وتمنيهم أن لو امتدت بهم ألف سنة . وهم في هذا الحرص يريدون أي يحيوا أي حياة ، ولا يهمهم نوعها أو ما فيها ، فقط ما يهمهم هو أن يحيوها .

ويرى أبو حيان أن المعنى في الآية على تقدير حذف مضاف قبل كلمة (حياة) ، أي : طول حياة ، أو على تقدير حذف صفة ، أي : حياة طويلة ، حتى أنه " لو لم يقَدَّر حذف لصحّ المعنى ، وهو أن يكون أحرص الناس على مطلق حياة ، لأن من كان أحرص الناس على مطلق حياة ، وهو تحققها بادنى زمن ، فلأن يكون أحرص على حياة واحدة أولى . وكانوا قد ذُمّوا بانهم أشد الناس على حياة ولو ساعة واحدة " [2] .

ويعلل ابن النقيب التنكير بانه من منطق أن هذا الحرص بأي صورة هو على الحياة المستقبلة ، وليست الحياة عموماً. يقول : " فائدة التنكير أن الحريص لا بد وأن يكون حيّاً ، وحرصه لا يكون على الحياة الماضية والراهنة ، بل على الحياة المستقبلة . ولمّا لم يكن الحرص متعلقاً بالحياة على الإطلاق بل بالحياة في بعض الأحوال ، لا جرم جاءت بلفظ التنكير " [3] . فبهذه الدلالات تُخَرَّج قراءة الكلمة على التنكير ، إفادة لدلالة التحقير لهذه الحياة أيا كان نوعها .

أما القراءة بالتعريف فإنها قائمة على ذكر المعهود لدى هؤلاء اليهود من الحياة الدنيا ، أي أنّ التعريف هنا دالّ على تحديد نوعية هذه الحياة ، وبيان حقارتها [4] .

ويرى عبد القاهر فائدة هذا التعريف لكلمة الحياة في الآية بانه " يصلح حيث تراد الحياة على الإطلاق كقولنا : كلّ أحد يحبُّ الحياة ، ويكره الموت . كذلك الحكم في الآية " [5] .

فالمعنى المستفاد من هذا التعريف هو الدلالة على مطلق الحياة المحروص عليها دون تحديد لماهيتها أو كنهها ، أي إنها بهذا الوصف ضاربة في الهوان والتحقير .

---

١ - الزمخشري ، الكشاف ، ١ / ١٦٨ .
٢ - أبو حيان ، البحر المحيط ، ١ / ٣١٣ .
٣ - ابن النقيب ، مقدمة التفسير ، ١٤٣ .
٤- ينظر : الشهاب الخفاجي ، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ، ٢ / ٢٠٩ .
٥ - عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ، ٢٨٩ .

* ومن ذلك قراءة كلمة (الحقّ) [1] بالتعريف والتنكير في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ [2] .

فالكلمة على قراءة الجمهور نكرة منونة مسبوقة بهمزة الاستفهام ، وعلى قراءة الأعمش هي معرفة مسبوقة بهمزة الاستفهام . ويرى ابن جني أن فائدة تنكير الكلمة أو تعريفها تتساوى لأن " الأجناس تتساوى فائدتا معرفتها ونكرتها في نحو هذا ، وتقول : ثِقْ بأمان الله ، وثِقْ بالأمان من الله ، وهذا الحقّ ، وهذا حقٌّ ، وهذا صِدق ، وهذا الصدق . ومنه قولهم : خرجتُ فإذا بالباب أسد ، وإذا بالباب الأسد ، المعنى واحد ، ووضع اللفظ مختلف ، وسبب ذلك كون الموضع جنساً " [3] . فالكلمة دالة على جنس هو (الحقّ) ، ولذا تساوت الفائدة المرجوة من تعريفه أو تنكيره .

ويجعل الزمخشري الاستفهام في الآية مناط الأمر في توجيه دلالتها ، فيجعله محوراً ارتكازياً للمعنى يرتبط في تشابكه النصي مع تعريف الكلمة أو تنكيرها . فهو يرى أن الاستفهام " على جهة الإنكار والاستهزاء . وقرأ الأعمش : آلحق هو . وهو أدخل في الاستهزاء لتضمنه معنى التعريض بأنه باطل ، وذلك أن اللام للجنس ، فكأنه قيل : أهو الحق لا الباطل ؟ أو هو الذي سَمَّيْتُمُوه الحق " [4] .

ويرى د. أحمد سعد أنّ معنى التعريض الذي أشار إليه الزمخشري هو محور الدلالة النصية في الآية إذ تضافر على " إبراز معنى التعريض بكون ما أخبر به ﷺ في زعمهم باطلاً ، ذلك التقدير الإعرابي الذي ارتآه الزمخشري ، إذ جعل (الحق) خبراً مقدّماً ، فأفاد قصر المسند على المسند إليه ، وفي ذلك خلاف بين البلاغيين . لكن الحق الذي نعتقده هو أنّ قراءة الجمهور تحتمل هذا المعنى بلا أدنى تمحّل ، إذا قدّرنا (هو) مبتدأ ، و (حقّ) خبره مقدّماً ، فضلاً عن كونه جنساً يستوي تعريفه وتنكيره " [5] .

---

١ - قرأها الجمهور نكرة منونة ، وقرأها الأعمش معرّفة بالألف واللام . ينظر : ابن جني ، المحتسب ، ١/ ٣١٢ . - أبو حيان ، البحر المحيط ، ٥/ ١٦٨ .
٢ - سورة يونس : آية رقم (٥٣) .
٣ - ابن جني ، المحتسب ، ١/ ٣١٢ ، ٣١٣ .
٤ - الزمخشري ، الكشاف ، ٢/ ٣٥٢ .
٥ - د. أحمد سعد ، التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية ، ١٤٤ .

وعلى هذا فإن القراءتين تحتملان دلالات التعريف و التنكير في سياق الآية ، وتتضافران معاً مع سياق الاستفهام فيها بما يخدم هذه الدلالات .

* ومن ذلك أيضاً قراءة كلمة (زينة) [1] بالتعريف والتنكير في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾[2] . ويمكننا تفصيل القراءات في هذه الكلمة كالتالي :

الأولى : تنوين كلمة (زينة) ، وجرّ كلمة (الكواكب) على البدلية . وهي قراءة حمزة وحفص عن عاصم .

والثانية : تنوين كلمة (زينة) ، ونصب كلمة (الكواكب) على المفعولية بتقدير فعل . وهي قراءة أبي بكر عن عاصم .

والثالثة : قراءتها على الإضافة (زينة الكواكب) ، وهي قراءة أغلب القراء .

وعلى هذا فإنّ القراءتين : الأولى والثانية تدخل ضمن فنية (التنكير) لإبراز قيمة هذه الزينة وجمالها في سياق الآية . أما القراءة الثالثة فهي منعقدة على معاضدة فنية التعريف بالإضافة المستفادة من إبهام كلمة (زينة) ثم إيضاحها بالمضاف إليه كلمة (الكواكب) ، وتحديد شكل هذه الزينة في هذا النوع فقط دون غيره ، فتقع كلمة (الكواكب) بياناً لهذا الإبهام في كلمة (زينة) [3] .

كما أنّ الجمالية المتوخاة من التعريف والتنكير لهذه المفردة تدور في فلك التعظيم لهذه الزينة حين تنكيرها ثم تعقيبها بما يبيّن فحواها . وكذلك على دلالة الإيضاح لما سبق إبهامه وذلك بالإضافة البيانية لهذه المفردة . وكلا التخريجين يتسقان مع سياق الآية ، وتوجهات الدلالة فيها .

---

١ - قرأها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر والكسائي بالتعريف بالإضافة ، وقرأها حمزة وحفص عن عاصم بتنوين كلمة (زينة) وجرّ كلمة (الكواكب) . ينظر : ابن مجاهد ، السبعة ، ٥٤٦ . - مكي ، مشكل إعراب القرآن ، ٣ / ٢٢٨ . - ابن الجزري ، النشر ، ٢ / ٢٥٦ . - الدمياطي ، إتحاف فضلاء البشر ، ٢ / ٤٠٧ .

٢ - سورة الصافات : آية رقم (٦) .

٣ - ينظر : الزمخشري ، الكشاف ، ٤ / ٣٤ . - أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ٥٢٧/٤ . - أبو حيان ، البحر ، ٧ /٣٥٢ .

ويطّرد بنا الأمر لو حاولنا استقراء كلّ ما عنّ في القراءات القرآنية من تلوينات بالتعريف والتنكير ، لكن يجدر بنا أن نؤكد على أن هذه القراءات القرآنية المتواترة بما تحمله من فنيات تلوينية بالتعريف والتنكير إنما تتكئ في محتواها على خطاب السياق ، ومحددات الدلالة القرآنية في هذا السياق ، وهذا ما نلمحه حين التوجيه البلاغي للتلوينات في هذه القراءات .

٢- تلوينات التغاير التصريفي :

يميل بعض الناس إلى تخفيف الكلام توفيراً للجهد العضلي ، وقصداً إلى التيسير الأدائي ، فينزعون إلى تغيير بعض الأصوات ما أمكنهم التخفيف في نطقها ، وتحقيق الانسجام فيما بينها . ويظهر هذا التغيير في بعض الصيغ ، فيكون في صدر الكلمة أو في حشوها أو آخرها . وهذا التخفيف معروف لدى القدماء ، ومشهور لدى أهل النحو بألفاظ متعددة منها : المضارعة ، والمقاربة ، والتقريب ، والإتباع [١] . وهذه التغييرات في جوهرها مجرد أحوال عارضة تطرأ على الملفوظ لغرض صوتي ودلالي معاً .

والقراءات القرآنية توظف هذا التغاير في الصيغ على نحو جميل رائع ، إذ تستثمر كل ما جادت به اللغة من أنماط هذه التغييرات تيسيراً على الناطقين بهذه اللغة ، ومن ثمّ القارئين للقرآن الكريم . فنحن نلمس في هذه القراءات تغايراً في صيغ الأفعال ، أو تغايراً في موضع الحركات ، أو في تضعيف الحروف .

* فمن ذلك ما نلمسه من قراءات في كلمة (واعدنا) [٢] في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [٣] . فنحن أمام وزنين صرفيين لصيغة معجمية واحدة هي (وَعَدَ) ، والجمهور على قراءة الفعل بألف المفاعلة (وَاعَدَ) على وزن (فَاعَلَ) . ومن قرأها على غير ذلك فهي على وزن المجرّد أي (فَعَلَ) . ولكل قراءة وجهها الدلالي التابع للتلوين التصريفي .

١- ينظر : سيبويه ، الكتاب ، ٤ / ٤٧٨ . — المبرد ، المقتضب ، ١ / ٢٠٧ . — ابن السراج ، الأصول ، ٣ / ٤٢٩ . — ابن جني ، الخصائص ، ٢ / ١٤٤ . — الرضي ، شرح الشافية ، ١ / ٤٠ .

٢- قرأها أبو عمرو ويعقوب بغير ألف المفاعلة ، ووافقهما اليزيدي وابن محيصن . وقرأها الجمهور بالألف . ينظر : ابن مجاهد ، السبعة ، ١٥٥ . - ابن الجزري ، النشر ، ٢ / ٢١٢ . - الدمياطي ، إتحاف فضلاء البشر ، ١ / ٣١٩ .

٣ - سورة البقرة : آية رقم (٥١) . وينظر أيضاً : سورة الأعراف : آية (١٤٢) ، وسورة طه : آية (٨٠) .

فقراءة التجريد (وَعَدَ) بغير ألف المفاعلة يتكئ أصحابها على أنّ معنى المفاعلة يقتضي الاشتراك بين طرفين ، وهذا محال في هذه الآية لأنّ الوعد من الله ﷻ وليس لموسى عليه السلام وعد لله . لأنّ " المواعدة إنما تكون من البشر ، فأما الله ﷻ فإنما هو المتفرد بالوعد والوعيد "[1]. فالمفاعلة تفيد الاشتراك في أصل الفعل بين طرفين ، وهذا غير قائم في هذه الآيات ، لأن الله وحده هو الذي قام بالوعد ، وليس هناك أي اشتراك في هذا الفعل من جانب آخر . وأصحاب هذا التوجيه صدروا فيه من مبدأ التنزيه لله ﷻ ، وعدم توجيه الظنّ إلى اشتراك أحد معه في فعل من الأفعال ، وذلك درءا لما قد يظنّه صاحب نحلة باطلة .

أما قراءة (واعدنا) بالمفاعلة فأصحاب توجيهها على معنى أن الوعد الأول من الله ﷻ ، ثم تلاه وأعقبه وعد من موسى عليه السلام بالقيام بما أُمر به إجابة للوعد الأول . وبذلك فإنّ المواعدة هنا تتضمن وعداً ووعداً ، فكأنها أعمّ من الوعد فقط . يقول مكي : " علة من قرأ بالف أنه جعل المواعدة من الله ومن موسى ، وَعَدَ اللهُ موسى لقاءه على الطور ليكلّمه ويناجيه ، ووعدَ موسى المسير لما أُمِرَ به . والمواعدة أصلها من اثنين ، وكذلك هي في المعنى . ويجوز أن تكون المواعدة من الله جلّ ذكره وحده . فقد تأتي المفاعلة من واحد في كلام العرب ، قالوا : طَارَقتُ النعْل ، وداوَيْتُ المريض ، وعَاقبتُ اللص . والفعل من واحد ، فيكون لفظ المواعدة من الله خاصة لموسى كمعنى (وَعَدنا) ، فتكون القراءتان بمعنى واحد "[2] .

ففي هذا الرأي يحدد مكي رأيه وتوجيهه الرائع لهذا التغاير في أمرين هما :

الأول : أنّ المواعدة حقيقة هنا تمّت بين الله ﷻ وموسى عليه السلام ، لكنها مواعدة الآمر والمأمور ، وعدَ اللهُ موسى التكليم وما فيه من أوامر ، ووَعَدَ موسى بالمسير والاستجابة لما يُؤمَر به .

والثاني : أن المواعدة قد تأتي في كلام العرب من جانب واحد فقط ، ولذا فإن المواعدة هنا على كلام العرب من جانب الله ﷻ وحده .

---

١ - النحاس ، إعراب القرآن ، ١ / ٢٢٣ .

٢ - مكي ، الكشف عن علل القراءات ، ١/ ٢٣٩ .

ومكي مع قراءة الفعل بألف المفاعلة لأنها تتضمن معناه بغيرها ، إذ " الاختيار (واعدنا) بالألف لأنه معنى (وعدنا) في أحد معنييه ، ولأنه لا بد لموسى من وعد أو قبول يقوم مقام الوعد ، فتصح المفاعلة على الوجهين جميعاً "[1] .

وعلى هذا التخريج أكثر المفسرين والموجهين للقراءات[2] . ومن الجميل هنا أن نورد قولاً لأبي حيان إذ يقول : " لا وجه لترجيح إحدى القراءتين على الأخرى ، لأن كلا منهما متواتر ، فهما في الصحة على حد سواء "[3] . وهو الأساس الذي عليه الجميع حين البحث في جماليات القراءات القرآنية . ولا شك أن الأساس اللغوي هو الذي حكم توجيهات الدلالة في هاتين القراءتين ، ومن ثم مُنحت هذه التفسيرات حيزاً سياقياً فسيحاً جعل من قراءة الفعل بألف المفاعلة أعمّ في الدلالة من قراءته بدونها ، فجاءت العلاقة بينهما على العموم والخصوص مما أثرى دلالة هذا السياق .

* ومن ذلك قراءة كلمة (تمسّوهن) بألف المفاعلة وبغيرها[4] في قوله تعالى : ﴿لاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾[5] . فقراءة (تمسّوهن) ذات الأصل الثلاثي يرى فيها سيبويه أنها تندرج في مجموعة الأفعال الدالة على النكاح مثل (نَكَحَ) و(سَفَدَ) و(قَرَعَ) ، وأفعال هذا المعنى غالباً ما تكون ثلاثية[6] .

والصيغة بهذا المعنى تدلّ على تفرّد أحد طرفي الحدث بالفعل دون الآخر ، وهذا يتسق مع طبيعة هذا الفعل ، إذ إنّ الفاعل هو (الرجل) ، وبذلك تستقيم دلالة الفعل. أما قراءة المفاعلة فعلى وجه المشاركة في الفعل الذي يقتضي تلك المشاركة ، وعلى هذا المعنى تتكئ القراءة[7] .

---

١ - مكي ، الكشف عن علل القراءات ، ١ / ٢٤٠ .
٢ - ينظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ١ / ١٥٦ . — أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ١ / ١٣٨ . — القرطبي ، الجامع ، ٢ / ١١٨ . — الرازي ، مفاتيح الغيب ، ٣ / ٤٨ .
٣ - أبو حيان ، البحر ، ٢ / ١١١ .
٤ - قرأها ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر بغير ألف حيث كانت في القرآن . وقرأها حمزة والكسائي وخلف بألف المفاعلة مع ضم التاء . ينظر : ابن مجاهد السبعة ، ١٣٨ . — ابن الجزري ، النشر ، ٢ / ٢٢٨ . — الدمياطي ، إتحاف فضلاء البشر ، ١ / ٤٤١ .
٥ - سورة البقرة : آية رقم (٢٣٦) .
٦ - ينظر : سيبويه ، الكتاب ، ٤ / ٩ .
٧ - ينظر : الأزهري ، معاني القراءات ، ١ / ٢٠٧ . — الفارسي ، الحجة ، ٢ / ٣٣٧ . — مكي ، الكشف ، ١ / ٢٩٨ . — أبو شامة ، إبراز المعاني ، ٣٦٢ .

ويلحظ أن سياق الكلمة في نسيج الآية يُشْعِر بأن الفعل هنا ليس على حقيقته بل هو على الفرض الحدوثي ، أي أنه لم يحدث بعد ، بدليل أن السياق يتسق في شأن حكم الطلاق لمن لم يُدْخَل بها ، فالحدث هنا لم يقع بعد . ولذا نجد الراغب يقول : " المسّ يقال فيما يكون معه إدراك بحاسة اللمس ، وكني به عن النكاح فقيل : مسّها ، وماسّها "[1] . فهما بمعنى واحد عند الراغب ، إذ العبرة عنده بالفعل فقط ، أي أن العرف اللغوي لا يفرق بينهما في أصل المعنى .

إن التغاير التصريفي هنا قائم على إدراك أوجه متنوعة من دلالات المعاني بحسب زيادات الصيغ الصرفية ، إذ الزيادة في المبنى تتبعها زيادة المعنى ، وهذا ما حدث في قراءة هذه الكلمة .

• ومن ذلك أيضاً قراءة كلمة (مُبينة) بالفاعلية والمفعولية[2] في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهاً وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾[3] .

فالتنوع في قراءة كلمة (مبينة) في هذه الآية إنما منشؤه الأصل الجانب التصريفي ، إذ تقوم قراءة الكلمة بفتح الياء على كونها اسم مفعول من غير الثلاثي (بَيَّنَ – يُبَيِّنُ) . وقد تمّ إسناد الفاحشة إلى الفاعل الذي بيّنها وهو الله ﷻ ، ذلك لأن الفاحشة لا يمكن أن تُبيّن بذاتها ، فقد تم تبيانها من خلال تشريع الله ﷻ .

أما القراءة بكسر الياء على كون الكلمة اسم فاعل من غير الثلاثي ، فالفعل فيها مسند إلى الفاحشة على سبيل المجاز ، لأن الفاحشة لا تُبيِّن ، بل هي التي تُبَيَّن من خلال تشريع الله ﷻ . غير أن الأصل في المعنى أن تكون هذه الفاحشة (مُبَيَّنة) أي مفعولة ، لأن الله ﷻ هو الذي وضّح سبل اجتنابها ، وعقوبة من يقترفها . وهذه القراءة تخرّج على المجاز العقلي الذي تمّ فيه إسناد الفعل إلى غير فاعله الحقيقي نظراً لوجود القرينة الشرعية الدالة على هذا الفاعل الحقيقي في هذه الآية وهو المشرّع الأعلى : الله ﷻ[4] .

---

١ - الراغب ، المفردات في غريب القرآن ، ٢ / ١٨٥ .
٢ - قرأها ابن كثير وشعبة (مُبيَّنَة) حيثما وقعت في القرآن ، وقرأ الباقون (مُبيِّنَة) حيثما وقعت . ينظر : ابن مجاهد ، السبعة ، ٢٣٢ . – ابن الجزري ، النشر ، ٢ / ٢٤٨ .
٣ - سورة النساء : آية رقم (١٩) .
٤ - ينظر : عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ٢٢٧ .

وهذا التخريج أشدّ في إبراز صورة التغليظ الأمري الموجه للمخاطَب بهذه الآية الكريمة ، إذ تمّ نهيه عن إرث النساء كرهاً كما كان حال أهل الجاهلية ، وما لذلك سبيل إلاّ أن تقع المرأة في الفاحشة المبيَنة الواضحة بذاتها [1] .

وعلى هذا المنوال ينسجم التغاير التصريفي في القراءات القرآنية مع السياق ، وتتسق معطيات هذا التغاير مع محددات الدلالة في هذه السياقات ، إثراء لهذه الدلالات باتكائها على هذا المعطى التصريفي في إبراز مسارات التنوع في هذه الدلالات بتنوع هذه الصيغ الصرفية .

٣- *التلوين بالعدول* :

تلجأ العربية في صياغة كلامها إلى اعتماد ما يوافق ظاهر الحال ويقتضيه بالمطابقة والوضوح ، وما ذاك إلا طلباً لأداء المعاني في أجمل صورة ، وأدقّ تعبير . غير أنّ هذه الصياغة قد يتمّ العدول عنها إلى نهج تعبيري مغاير لمبدأ مطابقة مقتضى الحال قصداً إلى أغراض تعبيرية مبتغاة من وراء هذا التلوين بالعدول [2] . وتتعدد صور هذا العدول في القراءات القرآنية نظراً لما يتميز به النص القرآني من قصدية ، لأنه نص موجّه ومشرّع . ولذا فمن الأهمية أن نقف أمام بعض صور العدول في سياق هذه القراءات قصداً إلى إبراز جمالية هذا التلوين ، والوقوف على ثراء الدلالة في هذه السياقات .

أولاً : العدول العددي

يقصد بهذا التلوين أن يتمّ العدول عن التعبير بأحد مفردات العدد (مفرد ، أو مثنى ، أو جمع) إلى الآخر في سياق قراءة اللفظ القرآني . وهذا العدول يتسق دلالياً مع سياق الآية وما تؤديه من دلالات . ويتم ذلك يتمّ في إطار نظرة بلاغية دقيقة في فنية هذا الاختيار لأحد مفردات العدد والعدول عن الآخر .

وقد لمسنا في القراءات القرآنية العديد من المواضع التي تمّ فيها العدول العددي ، وفي هذا لالة واضحة على ثراء هذا المعطى التلويني في سياق القراءات القرآنية .

١- ينظر : أبو حيان ، البحر المحيط ، ٣ / ٢٠٤ .
٢- ينظر : د. شكري عياد ، مدخل إلى علم الأسلوب ، ٤٥ . - د.عبد الحكيم راضي ، نظرية اللغة ، ٤٨٥ .

* فمن ذلك ما نلمسه من قراءات لكلمة (سمعهم)[1] في قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[2]. ويلحظ أن كلمة (السمع) حيثما ترد في القرآن الكريم ترد مفردة ، في حين أن لفظة (البصر) تتلوّن في سياقاتها ما بين الإفراد والجمع حسب السياق التي ترد فيه . يقول الزمخشري في تعليل السر الذي من أجله جاءت كلمة السمع في الآية مفردة : " وَحَّدَ السمع كما وَحَّدَ البطن في قوله : (كلوا في بعض بطنكم تعفّوا) . يفعلون ذلك إذا أمن اللبس ، فإذا لم يؤمن كقولك : (فرسهم ، وثوبهم) وأنت تريد الجمع رفضوه ، ولك أن تقول : السمع مصدر في أصله ، والمصادر لا تجمع ، فلمح الأصل ، يدلّ عليه جمع الأذن في قوله : ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾[3] ، وأن تُقَدِّر مضافاً أي : وعلى حواس سمعهم "[4].

وعلى هذا فإن إفراد كلمة السمع – في توجيه الزمخشري – تمّ تسويغه هنا لأمور :

الأول : أمن اللبس .

والثاني : أنّ المصادر تعامل على الأصل ، وهي لا تجمع ، فكان الكلمة مصدر على الأصل يعامل مفرده معاملة الجمع .

والثالث : التخريج على تقدير مضاف محذوف .

وهذا الرأي منتقد من جانب أمن اللبس ، إذ السؤال لمَ لمْ يتم هذا الأمن مع كلمتي (قلوبهم ، وأبصارهم) في الآية ، وتمّ توحيد الكلمات كلها على الإفراد أو الجمع ؟

وعلى هذا فإن قراءة الجمهور بإفراد كلمة (سمعهم) تدور بلاغتها على أساس أن مصدر إدراك عمل الحاسة هنا موحّد وهو (الأصوات) ، في حين أن البصر " مصدر يقع للقليل والكثير ، وأيضاً لما أُضيف إلى ضمير الجماعة دلّ المضاف إليه على المراد "[5].

---

١ – قرأ الجمهور بالإفراد ، وقرأ ابن أبي عبلة بالجمع (أسماعهم) . ينظر : ابن خالويه ، مختصر الشواذ ، ٢ .
٢ – سورة البقرة : آية رقم (٧) .
٣ – سورة فصلت : آية رقم (٥) .
٤ – الزمخشري ، الكشاف ، ١ / ٢٩ .
٥ – ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ١ / ١٠٨ .

ويرى السيوطي أنّ هذا الإفراد لكلمة (سمعهم) إنما مقصده مراعاة التعلّق ، وذلك لأنّ " متعلّق السمع الأصوات ، وهي حقيقة واحدة ، ومتعلّق البصر الألوان والأكوان وهي مختلفة ، فأشار في كل منهما إلى متعلقه "[1] .

ومن العجيب أن نجد لهذه القراءة تأويلاً علمياً حديثاً ينقله د. حسن طبل أثناء تعرّضه لتحليل قراءة الإفراد لكلمة (السمع) ، وهذا التأويل يستند إلى ما حدث من ثورة تكنوطبية هائلة ، مكّنت العلماء من الكشف الدقيق عن مسارات الجهاز العصبي ، وما يتعلق بهذه المسارات من توزيعات ووظائف بيولوجية تصون الإنسان وتحمي حياته . فقد اكتشف الأطباء المختصون في فرع الاستجابة النيرولوجية للجهاز العصبي أن مركز الحسّ السمعي في المخّ يعتمد في وظيفته على عصب دماغي واحد هو العصب الثامن ، أما مركز الحسّ البصري فإنه يعتمد في أداء وظيفته على أربعة أعصاب تتضافر معاً فيما يشبه الضفيرة العصبية لإمداد الحاسة البصرية بما تحتاجه من استجابات لإدراك المرئيات . وهذه الأعصاب هي :

١- العصب المخي الثاني : وهو المسئول عن توصيل الصور التي تسقط على شبكية العين إلى مراكز الإبصار العليا في مؤخرة المخ .

٢- العصب المخي الثالث : وهو المسئول عن حركة العين في مجال الحقل الإدراكي البصري ، وكذلك عن التحكم الدقيق في دخول الضوء إلى العين ، وضبط شكل الحدقة والعدسة حسب نوع الإبصار المطلوب للشيء المُدرَك .

٣- العصبان الرابع والسادس : وهما المسئولان عن حركة العين في مجال الحقل البصري كله[2] .

وهذا الرأي يستند إلى المستحدثات العلمية ، ويؤيد ما ذهب إليه الأسلاف من الاجتهادات الدالة حول سبب إفراد لفظة السمع وجمع لفظة البصر في القرآن الكريم .

أما قراءة الكلمة بالجمع فهي من القراءات الشاذة ، ويخرجها العكبريّ على أنها إنما سيقت على هيئة الجمع تحقيقاً للمشاكلة اللفظية بين ما قبلها وما بعدها ، حيث إنّ المفردات في سياق الآية مُساقَة على هيئة الجمع كما في كلمة (قلوبهم) و(أبصارهم) ، فَجُمِعَت تحقيقاً لهذه

١- السيوطي ، الإتقان ، ١/ ٢٥٣ .

٢- ينظر : د. حسن طبل ، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية ، ٩٠ – ٩١ .

المناسبة والمشاكلة [1] . وبذلك يتضح ما أسهم به التلوين العددي في سياق القراءتين من جماليات نصية .

• ومن ذلك أيضاً قراءة كلمة (عبده) بالإفراد والجمع [2] في قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [3] . فقراءة المفرد على أن الكلمة خاصة بالنبي ﷺ تكرمة له ، واختصاصاً بهذه المنزلة من الرعاية والحماية . يقول أبو السعود : " المراد بالعبد إما الرسول ﷺ ، أو الجنس المنتظم له عليه السلام انتظاماً أولياً " [4] .

فكلمة العبد على الإفراد لها دلالتان :

الأولى : الإشارة إلى شخص المصطفى ﷺ ، فيتحقّق الإفراد على حقيقته .

والثانية : الدلالة على جنس الأنبياء ، فكأنه مفرد دالّ على معنى الجمع ، أي على العموم .

والقراءة على الإفراد تتسق مع سياق الآيات الدال على توعّد قريش للرسول ﷺ بالإيذاء ، وذلك ردّاً على قيامه بعيب آلهتهم ، ولذا طمأنه الله ﷻ بأنه راعيه وحاميه وكافيه . أو أنها على الإشارة إلى تكفل الله ﷻ بحماية كل عباده الأنبياء من شرور أقوامهم . والرأي الأول أوجه لدلالة سياق الخطاب بعد ذلك على شخص النبي ﷺ .

أما قراءة الجمع (عباده) فالقصد منها كما يقول ابن عاشور : " النبي ﷺ والمؤمنون ، فإنهم لمّا خوّفوا النبي ﷺ فقد أرادوا تخويفه وتخويف أتباعه ، وأن الله كفاهم شرّهم " [5] . فاللفظ في حالة جمعه دال على الفئة ، أي العموم . ويرى العكبري أن الجمع للفظ ليس على حقيقته ذلك لأنه موضوع موضع المفرد من باب التشريف والتفخيم لشخص النبي ﷺ تكرمة له وتشريفاً [6] .

---

١ - ينظر : العكبري ، إعراب القراءات الشواذ ، ١ / ٣١ .
٢ - قرأها بالجمع حمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف ومجاهد وطلحة والأعمش ، والباقي على قراءتها بالإفراد . ينظر : ابن مجاهد ، السبعة ، ٥٦٢ . – ابن الجزري ، النشر ، ٢ / ٣٦٢ . – الدمياطي ، إتحاف فضلاء البشر ، ٢ / ٤٢٩ .
٣ - سورة الزمر : آية رقم (٣٦) .
٤ - أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ٨ / ٥٦ .
٥ - ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ١٥ / ٢٩٣ . وينظر : الألوسي ، روح المعاني ، ٨ / ٢٦١ .
٦ - ينظر : العكبري ، إعراب القراءات الشواذ ، ١ / ٤٩ .

غير أنّ الزمخشري يصل في نهاية الأمر إلى أنه " يجوز أن يريد العبد والعباد على الإطلاق ، لأنه كافيهم في الشدائد ، وكافل مصالحهم "[1] . وعلى هذا التخريج تتقارب دلالة القراءتين وتتسقان معاً في الدلالة على رعاية الله ﷻ للنبي ﷺ ولأمته معه ، والأمران يحمدان معاً .

* ومن ذلك أيضاً قراءة كلمة (رسالته)[2] بالإفراد والجمع في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾[3] .

ومعنى الآية يدور حول الأمر الإلهي للنبي ﷺ بإبلاغ الرسالة وتوصيلها إلى الثقلين جميعاً بلا تقصير أو تفريط . وقد جاء التعبير عن المفعول به في سياق الآية بلفظ (ما) النكرة الدالة على شيء كريم عظيم ، بما يدل على العموم الإبلاغي لأهل الثقلين جميعاً . كما أن تعاضد الشرط في هذا السياق قائم على تَرَتُّب الجملة الثانية على الأولى للدلالة على المبالغة في التأكيد على حتمية هذا التبليغ بصيغته التامة الكاملة ، وأنّ عدم القيام بهذا الأمر على استحقاقاته مُسَوِّغ لعدم منح صفة (التبليغ) . فكان الشرط لمنح هذه الصفة هو القيام بالأداء التام الكامل الأمين لهذه الأمانة الشديدة الثقيلة[4] .

وقد جاءت قراءة الكلمة بالإفراد دلالة على اسم الجنس ، أي عموم الرسالة ، دون قصد إلى رسالة بعينها. ولذا فإنّ اسم الجنس " يعامل معاملة المصدر من حيث لزومه الإفراد الدال على الجمع "[5] .

ويعلل ابن عطية هذا الإفراد بقوله : " من أفرد الرسالة فلأنّ الشرع كله شيء واحد ، وجملة بعضها من بعض "[6] . فالقصد من الإفراد هنا هو الدلالة على عموم الوحي باسم الجنس الإفرادي ، وليس قصداً إلى نوع معين ومحدد من الرسالة .

---

١ - الزمخشري ، الكشاف ، ٤ / ١٢٩ .
٢ - قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر وشعبة ويعقوب بالجمع (رسالاته) ، وقرأ الباقون ومنهم حفص الإفراد . ينظر : ابن مجاهد ، السبعة ، ٢٤٦ . – ابن الجزري ، النشر ، ٢ / ٢٥٥ .
٣ - سورة المائدة : آية رقم (٦٧) .
٤ - ينظر : الزمخشري ، الكشاف ، ١ / ٦٥٩ . – أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ٢ / ١٢٠ . – الرازي ، مفاتيح الغيب ، ١١ / ٥١ . – أبو حيان ، البحر ، ٣ / ٢٢٩ .
٥ - أبو زرعة ، حجة القراءات ، ٢٣٢ .
٦ - ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ٢ / ١٨٥ .

المراد هنا هو ماء الأعين ولذا أفرد هذا الماء للتخصيص دون ماء السماء . وهذا تأويل جميل يحمل في طياته مراعاة الأقرب للمتعلّق . كما يلمح أن المقصود هنا أيضاً هو اعتبار الإفراد دال على اسم الجنس ليشمل ماء السماء والأرض معاً بدليل توحيد الفعل قبله (التقى) الذي يقتضي التعدد لفاعله ، وكان من الممكن أن يُقال (فالتقيا) دلالة على الماءين ، لكن لم يحدث .

ويلحظ أن مناط الاهتمام في قراءة الإفراد هو (الحدث) أي فعل الالتقاء في نقطة الالتقاء ، فكان الحدث هو المهيمن على سياق الآية ، ودليل ذلك تعقيب الآية بقوله : ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ ، أي في مكان وزمان مقدّر محدّد معلوم .

أما قراءة التثنية فالقصد فيها إبراز اختلاف نوعي الماء ، وافتراق الجهتين . فالتصوير هنا على إبراز حركية الفاعل (الماءين) ، لأن هذا من أسفل ، وذاك من أعلى ، فكأنهما يطبقان معاً على كل ما يوجد بينهما . يقول أبو السعود : " قُرِئَ الماءان لاختلاف النوعين "[1] .

ويرى ابن عاشور في هذه اللوحة التصويرية مفردات جمالية محكومة بسياقات الحدث الذي تصوره الآيات . يقول : " التقاء الماء : تجمُّع ماء الأمطار مع ماء عيون الأرض ، فالالتقاء مستعار للاجتماع ، شبه الماء النازل من السماء ، والماء الخارج من الأرض بطائفتين جاءت كل واحدة من مكان ، فالتقتا في مكان واحد كما يلتقي الجيشان . والتعريف في (الماء) للجنس . وعُلِمَ من إسناد الالتقاء أنهما نوعان من الماء : ماء المطر ، وماء العيون "[2] . وهذا تفصيل جميل ، وتحليل دقيق لبيان جمالية القراءتين معاً في سياق الإفراد والتثنية .

تلك هي أهم سياقات التلوين العدولي العددي في سياق القراءات القرآنية ، وما نتج عنه من أداءات بلاغية تندرج في سياق الإثراء الدلالي لهذه العدولات العددية .

ثانياً : العدول الضمائري (الالتفات)

يُسهم الالتفات كبنية بلاغية في تحقيق نقلة نوعية في سياق الدلالة المُعَبَّر بها في إطار كلامي معيّن ، وهذه النقلة تعتمد في الغالب على سياق المفارقة من أسلوب إلى أسلوب ، تحقيقاً لجذب انتباه المتلقي إلى زاوية خفية من فنيات التعبير ، فيصبح المتلقي من أركان عملية إنتاج

١ - أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ٩ / ٥٠ . وينظر : الألوسي ، روح المعاني ، ٩ / ٢٦٥ .
٢ - ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ١٧ / ٣٣٩ .

النص الدلالي الموازي بسياقه للنص الأصلي ، أو بعبارة أخرى يتمَ تشكّله وفقاً لمحددات عديدة منها الالتفات الجاذب لما حدث من نقلات في جانب المعنى .

والقراءات القرآنية ثرية بمثل هذه الأساليب العدولية ، وإن كانت في مجملها تميل إلى حصر هذه النقلات الدلالية في سياق الأفعال تحقيقاً للتجدّد الحدثي ، واتساقاً مع نهج التعبير القرآني . ويمكننا تلمّس بعض صور العدول الضمائري في سياقات القراءات القرآنية كما يأتي :

* فمن ذلك قراءة كلمة (يؤتيهم)[1] بالياء والنون في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَـئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[2] .

وسياق الآية يدور على إبراز المفارقة بين جزاء أهل الكفر وأهل الإيمان . فالمؤمنون لهم عند الله الجزاء الأوفى بما انتهجوه في حياتهم في الطريق إلى الله . والإيمان به تعالى ، وبرسله جميعاً دون تفرقة بينهم . ولذا كان الوعد الإلهي لهم بالأجر الوافي ، والمغفرة والرحمة[3] .

والتوجيه البلاغي لقراءة حفص بالياء على أنها من باب تحقيق المناسبة التعبيرية في سياق الآية القائم على اعتماد صيغة الغياب محوراً للتعبير ، ولذا جاء الفعل هنا بالياء الدالة على هذا الغياب (يؤتيهم) . كما ناسبَ هذا السياق باعتماد اسم الإشارة (أولئك) في دلالته على هذا السياق الغائب ، فاطرد التعبير على انسجام التعبير في هذا الإطار .

أما القراءة بنون العظمة (نؤتيهم) في سياق التكلم تحقيقاً لنقلة نوعية في الأداء التعبيري . فمقتضى التعبير - في غير القرآن - يكون على النمط التالي : (والذين آمنوا بنا وبرسلنا ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف نؤتيهم أجورهم) اتساقاً مع نهج التعبير بسياق التكلم . لكن هذا لم يتمّ !! يقول الرازي في تحليل هذه القراءة : " قرأ عاصم في رواية حفص (يؤتيهم) بالياء ، والضمير راجع إلى اسم الله . والباقون بالنون ، وذلك أولى لوجهين : أولهما أنه أفخم . والثاني : أنه شاكَلَ لقوله : ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾[4] "[5] .

١- قرأ حفص (يؤتيهم) بالياء ، وقرأ الباقون بالنون (نؤتيهم) . ينظر : ابن مجاهد ، السبعة ، ٢٤٠ . - ابن الجزري ، النشر ، ٢/٢٥٣ .
٢- سورة النساء : آية رقم (١٥٢) .
٣- ينظر : السمرقندي ، بحر العلوم ، ١ / ١٨٥ . - ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ٢ / ١٠٩ . - أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ٢ / ٧٢ . - أبو حيان ، البحر ، ٣ / ٣٨٦ .
٤- سورة النساء : آية رقم (١٥١) .
٥- الرازي ، مفاتيح الغيب ، ١١ / ٥٦ .

والذي ذهب إليه الرازي من تفضيل قراءة متواترة على أخرى متواترة غير مقبول على الإطلاق ، لأنهما جميعاً متواترتان ، فلا تفضيل لإحداهما على الأخرى لأنهما جميعاً قرآن . أما قوله بالمشاكلة النحوية من حيث إسناد الفعل (نؤتيهم) إلى نون العظمة اتساقاً مع الإسناد الحاصل في الآية السابقة من حيث إسناد الفعل (أعتدنا) إلى نون العظمة ، فتوجيه حسن يعتمد الاتساق التعبيري ، وتعادلية الأداء منهجاً له .

وهكذا تسهم بنية الالتفات من الغياب إلى التكلم في إحداث نقلة نوعية في السياق التعبيري بما تستدعيه من مراعاة السياق النحوي أو التشاكل التعبيري في إطار التعبير .

* ومن ذلك أيضاً قراءة كلمة (يتقون) [1] بالياء والتاء ، أي الالتفات من الغائب إلى المخاطب في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلاَ يَتَّقُونَ ﴾ [2] .

فقراءة الجمهور بالياء على الاستئناف التعبيري ، إذ تمّ الكلام عند قوله : ﴿ قوم فرعون ﴾ الذي هو إيضاح للقوم الظالمين وهم قوم فرعون ، ثم استؤنفَ الكلام بكلام آخر على الغياب للإهمال بقوله ﴿ ألا يتقون ﴾ . يقول الزمخشري : " هو كلام مستأنف أتبعه ﷺ إرساله إليهم الإنذار ، والتسجيل عليهم بالظلم ، تعجيباً لموسى من حالهم التي شنَعَت في الظلم والعسف ، ومِن أَمنِهم العواقب ، وقلة خوفهم وحذرهم من أيام الله "[3] . وهذا الاستئناف لجملة (ألا يتقون) يحمل معنى الزجر والوعيد ، ويتضمن دلالة التهكم والسخرية من هذه الحال ، إذ كيف لهم بمواجهة الخالق ﷻ .

أما قراءة الكلمة على الالتفات من الغائب إلى المخاطب بالتاء (تتقون) ، فهو على إفادة هذا الالتفات معنى الإنكار عليهم لما هم فيه من حال . يقول ابن جني : " هو عندنا على إضمار القول فيه ، وإيضاحه : (وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون فقل لهم : ألا تتقون ؟!) . وقد كثُرَ حذف القول عنهم " [4] .

- قرأها الجمهور بالياء (يتقون) ، وقرأها عبد الله بن مسلم ، وشقيق بن سليمان ، وأبو قلابة بالتاء (تتقون) . ينظر : ابن جني ، المحتسب ، ٢ / ١٢٧ . - أبو حيان ، البحر ، ٧ / ٧ .
٢ - سورة الشعراء : الآيتان رقم (١٠ ، ١١) .
٣ - الزمخشري ، الكشاف ، ٣ / ٣٠١ .
٤ - ابن جني ، المحتسب ، ٢ / ١٢٧ .

فالالتفات بنية قائمة على إضمار القول تحقيقاً لسياق المخاطبة لقوم غائبين ، في إطار الزجر والوعيد . وفائدة هذا النسق الالتفاتي " إجراء ذلك في تكليم المرسَل إليهم في معنى إجرائه بحضرتهم ، وإلقائه إلى مسامعهم ، لأنه مُبَلِّغه ومنهيه ، وناشره بين الناس ، وله فيه لطف وحثّ على زيادة التقوى "[1] .

إذن قراءة الكلمة بالتاء للخطاب في سياق إضمار قول قبل هذا الخطاب على سبيل الإبلاغ المتضمّن معنى الزجر والوعيد والتحذير . يقول ابن عطية : " معناه : قل لهم ، فجمع في هذه العبارة من المعاني ، نفي التقوى عنهم ، وأمرهم بالتقوى "[2] .

ويلمح الألوسي في توظيف الأداة (ألا) دلالة توكيدية للحثّ على التزام أمر ما . يقول : " الظاهر أنّ (ألا) للعرض المضمّن الحضّ على التقوى في جميع القراءات "[3] .

وعلى هذا النسق تتعاضد بنية الالتفات في الآية مع سياق إضمار قول قبل الالتفات إلى الخطاب تحقيقاً لإرادة الحض على التقوى والتزامها .

* ومن ذلك أيضاً قراءة كلمتي (تحبون ، وتذرون)[4] بالياء والتاء على نسق الالتفات من الخطاب إلى الغياب في قوله تعالى : ﴿ كَلا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴾[5] . فقراءة الفعلين بالياء على دلالة الإهمال لهم ، وعدم استحقاقهم لشرف الخطاب من الله ، فعوملوا معاملة الغائب المهمل . ويرى الألوسي أن " القراءة بياء الغيبة أبلغ من حيث إن فيها التفاتاً وإخراجاً له ﷺ من صريح الخطاب بحبّ العاجلة مضمّناً طرفاً من التوبيخ على سبيل الرمز ، لطفاً منه جلّ شأنه في شأنه ﷺ "[6] . وفي هذا الكلام دلالة على تفضيل قراءة على أخرى من جانب بلاغة الدلالة فيها ، وهذا مردود كما سبق ذكره . ويمكن عدّ بنية الالتفات في هذه الآية على

---

١ - الزمخشري ، الكشاف ، ٣ / ٣٠١ .
٢ - ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ٤ / ١٩١ .
٣ - الألوسي ، روح المعاني ، ٧ / ٥٦ .
٤ - قرأ ابن كثير وأبو عمرو ومجاهد والحسن وقتادة والجحدري بالياء للفعلين ، وقرأ الباقون بالتاء . ينظر : ابن مجاهد ، السبعة ، ٦٦١ . – القباقبي ، إيضاح الرموز ، ٧١٥ . – ابن خلف ، العنوان ، ٢٠٠ . – ابن الفحام ، التجريد ، ٣٣١ .
٥ - سورة القيامة : الآيتان رقم (٢٠ ، ٢١) .
٦ - الألوسي ، روح المعاني ، ٢٩ / ١٧٩ .

نسق التوبيخ بذكر شيء متاصل في النفس الإنسانية ، إذ هي مجبولة على حبّ الفاني الآني لأنه أقرب ، وإهمال الموعود به الباقي لأنها لم تعاينه بعد .

أما قراءة الفعلين بالتاء فهي على دلالة التوبيخ أيضاً . يقول الزمخشري : " لأنكم خلقتم من عجل ، وطبعتم عليه ، تعجلون في كل شيء ، ومن ثم تحبون العاجلة " [1] .

وعلى هذا تتسق القراءتان على دلالة التوبيخ المستفاد من الالتفات في قراءة الفعلين بالياء ، أو قراءتهما بالتاء لتحقيق هذه الفائدة الدلالية في حق الكفار ، أو الإنسان عامة .

* ومن ذلك قراءة كلمة (ينبت) [2] بالياء والنون على نسق الالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [3] .

والآيتان واردتان في سياق إبراز أدلة التوحيد ، وبيان بعض هذه الأدلة مثل الآيات الكونية الحياتية المتمثلة في إنزال الماء ، وإخراج شتى صنوف النباتات به ، في سياق تعداد ألوان النعم الإلهية من نخيل ورمان وزيتون وغيرها ، مما يستدعي بحق إدراك عظمة الخالق جلّ وعلا ، وتوحيده وعبادته وحده [4] .

أما قراءة الكلمة بالياء فهي على تحقيق مبدأ الاتساق مع السياق قبلها ، إذ هو دائر على الغياب المتمثل في كلمات (هو ، الذي ، أنزل) ، فاتسق ذلك مع السياق قبله ، فجاء الفعل بالغياب : يُنبِتُ[5] .

ويرى الألوسي أنّ إيثار القراءة بالياء إنّما هو " إيثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدّد ، وأنّ الإنبات سنته سبحانه الجارية على مرّ الدهور . أو لاستحضار الصورة لما فيها من الغرابة " [6] .

---

١ - الزمخشري ، الكشاف ، ٤/ ٦٦٢ . وينظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ٥/ ٣٠٢ .
٢ - قرأ أبو بكر وشعبة بالنون ، وقرأ الباقون بالياء . ينظر : ابن الفحام ، التجريد ، ٢٥١ . - القباقبي يضاح الرموز ، ٤٨٢ . - ابن خلف ، العنوان ، ١١٧ .
- سورة النحل : الآيتان رقم (١٠ ، ١١) .
٤ - ينظر : أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ٥/ ١٠١ . - أبو حيان ، البحر ، ٥/ ٤٧٧ .
٥ - ينظر : أبو زرعة ، حجة القراءات ، ٣٨٦ .
٦ - الألوسي ، روح المعاني ، ٥/ ٢٥٠ .

أما القراءة بنون العظمة المسندة إلى الذات العلية ، فهي على الالتفات من الغيبة إلى التكلم ، إذ إنّ إسناد الفعل إلى الذات العلية إيذان بالإخبار من الله ﷻ عن نفسه بهذا الفعل [1] . وقيمة هذا الالتفات في هذا السياق يُناط بها تفخيم المعنى ، واستحضار صورة هذا الفعل الإلهي ، دلالة على عظمة الخالق ﷻ .

تلك هي بعض ألوان العدول الضمائري (الالتفات) في القراءات القرآنية ، وما أحدثته من تثويرات دلالية انتظمت في السياق القرآني بما يحمله من تراكيب بلاغية ونصية .

٤- تلوينات الحذف :

يتعاضد سياق الحذف في الأداء التعبيري مع مقتضى الأغراض ، وسياق الحال والمقام ، وذلك قصداً لما يُعْرَف بالتعمد في الأداء ، ذلك لأن هذه القصدية شرط لوجود أي إبداع حقيقي في سياق اللغة [2] . وبنية الحذف يتم توظيفها دلالياً في سياق القراءات القرآنية قصداً إلى إبراز دلالات محددة في هذه السياقات ، وذلك إنما يتم في تعاضد كلي مع هذه السياقات .

وتتعدد بنية الحذف في سياق القراءات القرآنية ما بين حذف لأحد حروف الكلمة ، أو للكلمة بكل مواقعها الإعرابية كالمسند والمسند إليه والمفعول والمضاف والصفة وغير ذلك ، تعالقًا مع هذه السياقات ، وأداءً لأغراض ومقاصد دلالية وبلاغية فيها .

* فمن ذلك ما نلمسه في قراءة كلمة (مالك) [3] في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ [4] .

وحذف الكاف من كلمة (مالك) على الترخيم في النداء . يقول ابن جني : " هذا المذهب المألوف في الترخيم ، إلا أن في هذا الموضع سراً جديداً ، وذلك أنهم لعظم ما هم عليه ، ضعفت قواهم ، وذلّت أنفسهم ، وصغُر كلامهم ، فكانَ هذا من مواضع الاختصار ضرورة عليه ، ووقوفاً دون تجاوزه إلى ما يستعمله المالك لقوله ، القادر على التصرّف في منطقه " [5] . فهذا الحذف الترخيمي جاء مراعاة لحال أهل النار لما هم فيه من عذاب ، فعجزوا عن إتمام الكلام .

---

١ - ينظر : مكي ، الكشف ، ٢ / ٢٤ .
٢ - ينظر : د. محمد مفتاح ، دينامية النص ، ٣٩ .
٣ - قرأها الجمهور بإثبات الكاف ، وروي حذف الكاف عن علي بن أبي طالب ، وابن مسعود . ينظر : ابن خالويه ، مختصر الشواذ ، ١٣٦ . – ابن جني ، المحتسب ، ٢ / ٢٥٧ . – أبو حيان ، البحر ، ٨ / ٢٨ .
٤ - سورة الزخرف : آية رقم (٧٧) .
٥ - ابن جني ، المحتسب ، ٢ / ٢٥٧ .

ويرى ابن عباس – فيما نُقِلَ عنه – إنكار هذه القراءة بقوله : ما أشغل أهل النار عن الترخيم[1] ، إذ في الترخيم سياق تدليلي ترويحي لا يجده أهل النار. لكن يمكن القول إنّ الكلام المرخَم هنا يُحتَمَل أداؤه في هذا الإطار إمعاناً في شدة عذابهم ، وتصويراً لما يعاينوه من أهوال .

* ومن ذلك قراءة كلمة (يصدر) [2] في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾[3] ، في التدليل على حذف المفعول به .

فقراءة الفعل (يَصْدُر) على معنى اكتفاء الفعل بفاعله دون تعديه لمفعول به ، وتمام المعنى قبل ذكر هذا المفعول . يقول أبو زرعة : " المراد من ذلك حتى ينصرف الرعاء من الماء ، ولو كان (يُصْدِرَ) كان الوجه أن يُذْكَرَ المفعول فيقول : (حتى يُصْدِرَ الرعاءُ ماشيَتَهم) ، فلما لم يذكر مع الفعل المفعول ، عُلِمَ أنه غير واقع ، وأنه (يَصدُر الرعاء) بمعنى ينصرفون عن الماء "[4] .

أما قراءة الكلمة على الوجه (يُصْدِرَ) فعلى حذف المفعول به ، أي : (يُصْدِرَ الرعاءُ ماشيَتَهم) ، وما لهذا الحذف من بلاغة تتسق في سياق تراكب المعاني في هذه الآية[5]. فحذف المفعول هنا على دلالة الاهتمام بالمذكور لا المحذوف ، أي الاهتمام بالفعل دون التطرق إلى من وقع عليه هذا الفعل .

* ومن ذلك قراءة كلمة (أحلّ) [6] في قوله تعالى : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ

---

١ – ينظر : ابن خالويه ، مختصر الشواذ ، ١٣٦ . – الزمخشري ، الكشاف ، ٤ / ٢٦٤ .
٢ – قرأ أبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر وشيبة و الحسن وقتادة بفتح الياء وضم الدال (يَصْدُر) . وقرأ بقية السبعة والأعرج وطلحة والأعمش وابن أبي إسحاق بضم الياء وكسر الدال (يُصْدِر) . ينظر : ابن مجاهد ، السبعة ، ٤٩٢ .
٣ – سورة القصص : آية رقم (٢٣) .
٤ – أبو زرعة ، حجة القراءات ، ٥٤٣ .
٥ – ينظر : الفراء ، معاني القرآن ، ٤ / ١٣٩ . – النحاس ، إعراب القرآن ، ٣ / ٢٣٤ . – مكي ، الكشف ، ٢ / ١٧٢ .
٦ – قرأ حفص والأخوان وخلف وأبو جعفر (أُحِلَّ) بالبناء للمجهول ، وقرأ الباقون (أَحَلَّ) بالبناء للمعلوم . ينظر : ابن مجاهد ، السبعة ، ٢٣٠ . – ابن الفحام ، التجريد ، ٢١٠ . – ابن الجزري ، النشر ، ٢ / ٢٤٩ .

مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ [1] .

فقراءة الفعل بالبناء للمجهول على اعتبار المسند إليه (الدال على لفظ الجلالة) محذوفاً . وهذا الحذف تمّ هنا للاتساق والانسجام التعبيري مع بناء الفعل (حُرِّمَت) للمجهول في صدر الآية السابقة ، وبذلك يتحقق التناسب المعنوي ، والتشاكل التعبيري في الآية [2] .

ويرى أبو حيان أن العطف وسيلة للسبك بين هاتين الآيتين " لأنهما متعاقبتان ، إذ أحدهما للتحريم ، والأخرى للتحليل ، فناسب أن يعطف هذه على هذه " [3] . وهذا العطف هو الذي سوّغ أن يكون الفعل على صورة المبني للمجهول رعاية للفعل الذي قبله . فالحذف هنا دليل على أن الفاعل هو المولى ﷻ لأنه وحده بيده التحريم والتحليل ، وغرض حَذْف المسند إليه هو تعظيم شأن المحذوف .

أما قراءة الفعل بالبناء للمعلوم بإضمار الفاعل ، وعودته على أقرب مذكور له ، وهو المستفاد من السياق الدال على الذات العلية . فهو كما يرى ابن عاشور بقوله : " أسند التحليل إلى الله تعالى إظهاراً للمنة ، ولذلك خالف طريقة إسناد التحريم إلى المجهول في قوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ [4] ، لأن التحريم مشقة ، فليس المقام فيه مقام منة " [5] . فسياق الحال هو الذي استدعى مثل هذا البناء للمعلوم أو المجهول للفعل في القراءتين .

* ومن ذلك قراءة كلمة (السارق) [6] بالرفع والنصب في قوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [7] .

---

١ - سورة النساء : آية رقم (٢٤) .
٢ - ينظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ٢ / ٢٩ . - أبو السعود ، إرشاد ذوي العقل السليم ، ٢ / ١٨ .
٣ - أبو حيان ، البحر ، ٣ / ٤٠١ .
٤ - سورة النساء : آية رقم (٢٣) .
٥ - ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ٤ / ٢٤ .
٦ - قرأ بالنصب عيسى بن عمر وابن أبي عبلة ، وقرأ الجمهور بالرفع . ينظر : ابن خالويه ، مختصر الشواذ ، ٣٢ . - أبو حيان ، البحر ، ٣ / ٤٧٦ .
٧ - سورة المائدة : آية رقم (٣٨) .

فقراءة النصب على أنّ الكلمة مفعول بـه مقدّم . يقـول الفـراء : " النصب فيهـا جائـز ، كمـا يجوز : أزيدٌ ضربته ، وأزيداً ضربته " [1] . وعلى هذا يكون المعنى على نسق الاهتمـام بمـن وقـع عليه الأمر الإلهي بقطع اليد ، ذلك لأن مناط الحكم ليس القطـع ، وإنمـا (المقطـوع لـه) ، لأنـه مناط الاهتمام في هذا التشريع الذي يحفظ للإنسان كرامته وآدميته .

أما قراءة الرفع فهي على حذف المسند (الخبر) ، ويُترك إدراك جمالية هذا الحذف للمتلقـي . يقول الفراء : " إنما تختـار العرب الرفـع في (السـارق والسـارقة) لأنهمـا غـير مـوقّتَين فوُجِّها توجيه الجزاء ، كقولك : (من سرق فاقطعوا يده) ، فمن لا يكون إلا رفعاً . ولو أردت سارقاً بعينـه ، أو سارقة بعينها ، كان النصب وجه الكلام " [2] . فالرفع للكلمة في هذه القراءة على دلالـة عـدم التعيين والتحديد لأشخاص بعينهم ، بل الحكم على الإبهام ليشمل في ذاته كـل سـارق وسـارقة ، بخلاف قراءة النصب التي تنحو نحو تحديد سارق بعينه بدليل عمل الفعل فيه بالنصب .

كما أن الفراء يرى أن الرفع هنا أيضاً أولى من النصب لتضمن الآيـة معنـى الشـرط ، إذ القـول على دلالة (من يسرق فاقطعوا يده) ، فتم رفع كلمة (السارق) على الابتداء هنا لتضمنها معنى الجزاء (الشرط) ، وحُذِفَ الخبر للعلم به .

ويرى العكبري أن إعـراب (السـارق) علـى الابتـداء لا خلاف فيـه ، لكـن " في الخـبر وجهـان : أحدهما : هو محذوف تقديره عنـد سـيبويه : (وفيمـا يتلـى عليكـم) . ولا يجوز أن يكـون عنـده (فاقطعوا) هو الخبر من أجل الفاء ، وإنما يجوز ذلك فيما إذا كان المبتـدأ الـذي وصلته بالفعـل أو الظرف ، لأنه يشبه الشرط ، والسارق ليس كذلك . والثاني : أن الخبر (فاقطعوا أيـديهما) ، لأن الألف واللام في (السارق) بمعنى الذي ، إذ لا يُرَاد به سارق بعينه " [3] .

فالخبر محذوف علـى الـرأي الأول لدلالـة العلـم بـه ، لأن الحكـم تـالٍ لـه في الآيـة . يقـول الألوسي في تعقيبه على رأي السـابقين : " الرفـع علـى وجهـين : أحـدهما ضـعيف وهـو الابتـداء ، وبناء الكلام على الفعل . والآخر قوي بالغ كوجه النصب ، وهو رفعه علـى خـبر ابتـداء محـذوف دلّ

---

١ - الفراء ، معاني القرآن ، ١ / ٣٠٦ .

٢ - نفسه .

٣ - العكبري ، إملاء ما منّ به الرحمن ، ١ / ٢١٥ . وينظر : سيبويه ، الكتاب ، ١ / ١٤٣ – ١٤٤ .

عليه السياق . وإذا تعارض لنا وجهان في الرفع أحدهما قوي و الآخر ضعيف ، تعيّن حمل القراءة على القوي "[1] . وعلى هذا فالأقرب للبلاغة التشريعية هو قراءة الرفع لدلالتها على عموم الحكم وشموله ، دون تعيين لمن وُجِّه إليهم مثل هذا التشريع ، واعتماد حذف المسند (الخبر) لدلالة السياق عليه .

• ومن ذلك قراءة كلمة (أفحكم)[2] بالنصب والرفع في قوله تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[3] . فقراءة النصب لا إشكال فيها ، إذ هي على عدّ الكلمة مفعولاً به مقدّم على فعله . وهذا التقديم على دلالة التهكم من هؤلاء الكافرين المصدّقين لفعل الكهّان الذين يحكمون للناس حسب أهوائهم[4] .

أما قراءة الرفع بالابتداء ، فالإشكال فيها في تحديد خبر المبتدأ . وفي هذا رأيان :

أولهما : أن جملة (يبغون) هي الخبر ، والعائد على المبتدأ محذوف ، أي يبغونه[5] . وهذا رأي ضعيف لاعتماده على التقدير في العائد ، ثم حذفه لثقل وجوده في الجملة .

والثاني : رأي ابن جني حيث يقول : " إن شئت لم تجعل قوله (يبغون) خبراً ، بل تجعله صفة خبر موصوف محذوف ، فكأنه قال : (أفحكم الجاهلية حكم يبغونه) ، ثم حذف الموصوف الذي هو (حكم) وأقام الجملة التي هي صفته مقامه ، أعني يبغون ، كما قال الله سبحانه : ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾[6] ، أي : (قوم يحرفون) ، فحذف الموصوف ، وأقام الصفة مقامه "[7] . فالحذف الذي تمّ هنا كان للخبر الموصوف . يقول ابن عطية : " تتجه القراءة على أن يكون التقدير : (أفحكم الجاهلية حكم يبغون) ، فلا تجعل (يبغون) خبراً ، بل تجعله صفة خبر موصوف محذوف "[8] .

---

١ - الألوسي ، روح المعاني ، ٢ / ٤٠٢ .
٢ - قرأ الجمهور بالنصب ، وقرأ السلمي وابن وثاب والأعرج وأبو رجاء بالرفع . ينظر : أبو حيان ، البحر ، ٣ / ٥٠٥ .
٣ - سورة المائدة : آية رقم (٥٠) .
٤ - ينظر : الألوسي ، روح المعاني ، ٢ / ٤١٨ .
٥ - ينظر : العكبري ، إملاء ما منّ به الرحمن ، ١ / ٢١٨ .
٦ - سورة النساء : آية رقم (٤٦) .
٧ - ابن جني ، المحتسب ، ١ / ٢١٢ .
٨ - ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ٢ / ١٧٢ .

الأولى : إثبات التغاير بين المتعاطفات ، وذلك ببيان أن الرسل قد جاء بعضهم بالبينات وهي المعجزات ، وبعضهم بالزبر ، وبعضهم بالكتاب ، على إرادة التفصيل الجامع لفنون الرسالات ، ومغايرة هذه الكتب ، وعدم اشتراكها في ذواتها .

والثانية : تاكيد هذا التغاير .

ويرى د. أحمد سعد أنّ " اعتبار التاكيد غرضاً لهذا التكرار هو المناسب لنسق الآية الذي ورد في مقام مواساة النبي ﷺ بذكر أحوال الرسل قبله ، إذ جاءوا لأقوامهم بشتى الوسائل منذرين ومبشرين ، ومع ذلك قوبلوا بالجحود والتكذيب "[1] .

وهذا القصر لغرض للزيادة في الآية على دلالة التاكيد فيه بعض الإجحاف ، إذ إن التاكيد المستفاد هنا إنما تنعقد مقصديته على تعاضده مع دلالة التغاير الواضح بين المتعاطفات ، فلا تاكيد إلا بإثبات التغاير المستفاد من توظيف واو العطف أولاً ، ثم بإعادة الجارّ على قراءة الزيادة .

* ومن ذلك قراءة قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾[2] ، بإثبات الضمير (هو) وحذفه[3] .

وقراءة الجمهور بإثبات الضمير على اعتماده مبتدأ به . يقول ابن عطية : " هو في القراءة التي ثبت فيها يحسن أن يكون ابتداء ، لأنّ حذف الابتداء غير سائغ "[4] . وهذا التفسير الدلالي يعتمد بالمقام الأول على فنيات المعطى النحوي الذي يجعل من الضمير (هو) مبتدأ خبره كلمة (الغني) ، والجملة من المبتدأ والخبر في محل رفع خبر إنّ : خبر جملة اسمية . ويستفاد من إثبات الضمير هنا الدلالة على قصر صفة الغنى الحقيقي لله ﷻ على جهة التحقيق كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إلى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾[5] .

---

١ - د. أحمد سعد ، التوجيه البلاغي ، ٣٢١ .
٢ - سورة الحديد : آية رقم (٢٤) .
٣ - قرأ الجمهور بإثبات الضمير ، وهي كذلك في مصاحف أهل مكة والعراق . وقرأ نافع وابن عامر بحذف الضمير ، وهي كذلك في مصاحف أهل المدينة والشام . ينظر : ابن مجاهد ، السبعة ، ٦٢٧ . — الداني ، المقنع ، ١١٢ .
٤ - ابن عطية ، المحرر الوجيز ، ٥ / ١٩٨ .
٥ - سورة فاطر : آية رقم (١٥) .

أما القراءة بحذف الضمير (هو) فتخرّج على عدّ هذا الضمير فصلاً يجوز لنا حذفه ، وما ذكره هنا إلا لتاكيد الخبر ، وتخصيصه بهذا الأمر للمخبَر به .

ويرى الفارسي في إثبات الضمير (هو) كضمير فصل لمحة جمالية تتكئ على ضرورة التاكيد على هذا الإثبات مما يمكننا فيما بعد من حذفه إن شئنا بلا صعوبة . يقول : " ينبغي أن يكون (هو) في هذه الآية فصلاً لا مبتدأ ، لأنّ الفصل حذفه أسهل ، ألا ترى أنه لا موضع للفصل من الإعراب ، وقد يُحذَف فلا يخلّ بالمعنى " [1] .

ولنحاول تأمل سياق الآية بدون الضمير (ومن يتول فإن الله الغني الحميد) . ألا نلمح هنا انتظاراً للمعنى المكمّل فنسأل : نعم إن الله الغني الحميد ماذا ؟! أهو أغنى الأغنياء ؟! أم ماذا ؟ هناك انتظار دلالي لمعنى يتخلّق في الذهن ولم يكتمل ، وهو ما يعبّر عنه في نظريات التلقي الحديثة بافق التوقّعات . فإذا ما أرجعنا الضمير إلى نسق الآية على قراءة الجمهور فإن الدلالة تتسق مع معطيات السياق القبلي والبعدي ، وتتعاضد لإفادة معنى القصر ، أي أنّ الله ﷻ هو وحده الغني الحميد .

ويحلل الأزهري هذا الإشكال بقوله : " من قرأ (فإن الله هو) ، فـ(هو) عماد ، ويسميه البصريون فصلاً ، ومعناه : أنّ الله هو الغني دون الخلائق ، لأن كلّ غني إنما يغنيه الله ، وكلّ غني من الخلق فقير إلى رحمة الله . ومن قرأ (فإن الله الغني الحميد) فمعناه : أن الله الذي لا يفتقر إلى أحد " [2] . وهذا التحليل يدور في فلك واحد ، ويتسق مع إثبات صفة الغنى لله بإثبات الضمير أو حذفه .

أما مكي فيذهب إلى أن " إثبات (هو) أبْين في التاكيد ، وأعظم في الأجر ، وهو الاختيار لذلك ، لأنّ الأكثر عليه " [3] . وذلك لأنّ الزيادة دوماً ما يُراد منها تحقيق غرض ما ، ولذا حشدت قراءة الجمهور بزيادة (هو) كل ما تستطيعه لتقوية معنى الغنى لله وحده ، وقصره عليه بالضمير .

---

١ - الفارسي ، الحجة ، ٦ / ٢٧٦ .
٢ - الأزهري ، معاني القراءات ، ٣ / ٥٧ .
٣ - مكي ، الكشف ، ٢ / ٣١٢ .

ويجمل ابن عاشور هذه المجادلة بقول يوفق بين القراءتين بالجمع بينهما في تادية غرض واحد هو إفادة دلالة القصر لهذه الصفة لله ﷻ . إذ " الجملة مفيدة للقصر بدون ضمير فصل ، لأن تعريف المسند إليه والمسند من طرق القصر . فالقراءة بضمير الفصل تفيد تاكيد القصر "[1] . فالقراءة بالضمير لتاكيد القصر المستفاد من تعريف المسند إليه والمسند . وبدون الضمير لإفادة معنى القصر فقط . وهذا تحليل يتسق مع معطى السياق في الآية الكريمة .

* ومن ذلك قراءة جملة (انشق القمر) بزيادة (قد)[2] في قوله تعالى : ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾[3] . فقراءة الزيادة على إفادة معنى التوكيد لحدوث هذا الأمر ، والتماس سبيل هذا التاكيد بكل الطرق لأنه قد تحقق وقوعه . يقول ابن جني : " هذا يجري مجرى الموافقة على إسقاط العذر ، ورفع التشاك ، أي : قد كان انشقاق القمر متوقعاً دلالة على قرب الساعة . فإذا كان قد انشق ، وانشقاقه من أشراطها ، وأحد أدلة قربها ، فقد توكد الأمر في قرب وقوعها ، وذلك أن (قد) إنما هي جواب وقوع أمر كان متوقعاً . يقول القائل : انظر أقام زيدٌ ؟ وهل قام زيدٌ ؟ وأرجو ألا يتاخر زيدٌ . فيقول المجيب : قد قام ، أي : قد وقع ما كان متوقعاً "[4] . فهذه الزيادة على إفادة دلالة التوكيد ، ورفع الشك من نفس السامع لهذا الخبر إذ لم يكن معايناً له ، وهو الاكثر ، لأن أهل العربية ممن أسلموا لم يعاينوا معجزة شق القمر على عهد المصطفى ﷺ ، فيكون التاكيد سبيلاً للتيقن من حدوث هذا الأمر[5] .

* ومن ذلك قراءة (تحتها الأنهار) بزيادة (من) أو حذفها[6] في قوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[7] .

---

١ - ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ١٨ / ٩٨ .
٢ - قرأ بزيادة (قد) الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان . وقرأ الجمهور بدونها . ينظر : ابن خالويه ، مختصر الشواذ ، ١٤٧ . – ابن جني ، المحتسب ، ٢ / ٢٩٧ .
٣ - سورة القمر : آية رقم (١) .
٤ - ابن جني ، المحتسب ، ٢ / ٢٩٧ .
٥ - ينظر : أبو حيان ، البحر ، ٨ / ١٧٣ . – ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ٤ / ٢٦٥ .
٦ - قرأ الجمهور بدون (من) ، وقرأ ابن كثير وأهل مكة بزيادة (من) وكسر التاء الثانية من كلمة (تحتها) ، وهي كذلك في مصاحف أهل مكة . ينظر : ابن مجاهد ، السبعة ، ٣١٧ . – مكي ، التبصرة ، ٢١٦ . – الداني ، المقنع ، ١١٠ .
٧ - سورة التوبة : آية رقم (١٠٠) .

فقراءة الزيادة على تحديد الجهة المكانية لجريان هذه الأنهار ، وذلك بتقييد جهة التحتية دون إطلاقها وذلك بحرف الجر (من) ، أي تحديد مصدر هذه التحتية . فالزيادة هنا على جذب الاهتمام للتفكير في حال هذه الجنات ، وبيان ما أعدّه الله لعباده المؤمنين من نعيم ، دون الوقوف عند شكل محدد من أشكال هذا النعيم . فكان من معطيات هذا النعيم التفكير في كيفية صياغته ووجوده ، فهذه جنات تجري من تحتها الأنهار ، تستحق أن تتأمل في كيفية جريان هذه الأنهار من تحت هذه الجنات . يقول ابن عاشور : " قوله (من تحتها) يظهر أنه يفيد كاشف قصَدَ منه زيادة اختصار حالة جري الأنهار ، إذ الأنهار لا تكون في بعض الأحوال تجري من فوق . فهذا الوصف جيء به لتصوير الحالة للسامع لقصد الترقب " [1] .

فالزيادة هنا على الحثّ بإعمال التفكير في تخيّل محاسن هذا الجنات . ويفنّد أبو حيان القول في رأي من يرى زيادة (من) بقوله : " من قال إنّ (من) زائدة ، والتقدير : تجري تحتها ، أو بمعنى في ، أي في تحتها ، فغير جار على مألوف المحققين من أهل العربية ، بل هي متعلقة بتجري ، وهي لابتداء الغاية " [2] . فهو هنا يقول بأصلية (من) في الآية ، وأهميتها في السياق لتعلّقها بالفعل (تجري) ، إذ يُناط بها تحديد جهة الجريان لهذه الأنهار في هذه الجنّات .

إذن قراءة الزيادة على إطلاق العنان للخيال في محاول تخيّل هينة هذا النعيم ، مما يستدعي تشوّف السامع وتشوّقه لمثل هذا النعيم . وينقل أبو حيان عن مسروق قوله : (أنها الجنة تجري في غير أخاديد ، وأنها تجري على سطح أرض الجنة منبسطة) [3] . وهذا أدعى للخيال الإيماني أن يتمنى دخول هذا النعيم ويلحقه .

وهكذا يطرد نسق التلوين بالزيادة أو عدمها في سياق القراءات القرآنية على ضرورة مراعاة السياق القبلي والبعدي للآية ، ورعاية هيكل العلاقات داخل الآية مع نظائرها في السورة القرآنية ، وانعقادها على تحقيق وحدة دلالية كلية تتسق والإطار العام لمعطيات السورة .

---

١ - ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ٢ / ٣٢ .
٢ - أبو حيان ، البحر ، ١ / ١١٣ .
٣ - نفسه .

فاصلة القول :

البحث في القراءات القرآنية لا تكفيه صفحات ، بل يتسع المقام به وفيه لقول الكثير ، لكن ما أردناه هنا هو محاول تلمّس بعض أضرب التلوينات الصوتية في هذه القراءات طلباً لبيان الأثر القريب لهذه التلوينات في سياق الدلالة القرآنية .كما أنّ تنوع هذه التلوينات ما بين عدول بأنواعه وذكر وحذف و تعريف وتنكير ، وتغاير صيغ تصريفية ، وزيادة وإطناب ، إنما تنعقد مقصديتها على لمح فنية الإثراء الجمالي المتولد عن معانقتها لسياق القراءات القرآنية . وقد اتضح من خلال التحليل بعض جوانب هذا الإثراء ، وتحقّقت بعض الكشوفات الجمالية لمرادات التلوين الصوتي بما يخدم هذه السياقات القرآنية ، وقد كان هذا المراد لذاته .

المَصَادِرُ وَالمَرَاجِعُ

القرآن الكريم .
• د. إبراهيم أنيس :
- الأصوات اللغوية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط٤ ، ١٩٦٥ .
- دلالة الألفاظ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٧٦ .
• د . إبراهيم جنداري :
- الإيقاع في القصة القرآنية ، مجلة الموقف الأدبي ، دمشق ، ع ٣٧٩ ، تشرين الثاني ٢٠٠٢ .
• د. إبراهيم داود :
- أسرار الالتفات في الذكر الحكيم ، مطبعة الأمانة ، القاهرة ، ١٩٨٧ .
• د. إبراهيم السامرائي :
- من وحي القرآن ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٩ .
• إبراهيم بن هرْمة الفهري (ت ١٥٠هـ) :
- الديوان ، تحقيق : محمد نفاع وحسين عطوان ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٩٦٩ .
• ابن الأثير : مبارك بن محمد (ت ٦٠٦ هـ) :
- النهاية في غريب الحديث والأثر ، تحقيق : د. محمود الطناحي ، الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
• ابن الأثير : ضياء الدين نصر بن محمد (ت ٦٣٦ هـ) :
- الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور ، تحقيق : جواد سعيد ، دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨٥ .
- المثل السائر ، تحقيق : محمد محيي الدين ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٩٥ .
• د. أحمد بدوي :
- من بلاغة القرآن ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٨٨ .
• أحمد البنا الدمياطي ت (١١١٧ هـ) :
- إتحاف فضلاء البشر ، تحقيق : شعبان إسماعيل ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٧.
• الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ) :
- المسند ، تحقيق : الشيخ أحمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٣٦٨ هـ .
• د . أحمد درويش :
- دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث ، مكتبة الزهراء ، القاهرة ، ١٩٨٦ .
•د. أحمد أبو زيد :
- التناسب البياني في القرآن ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ١٩٩٢ .
• د. أحمد سعد :
- التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط٢ ، ٢٠٠٠ .

• د. أحمد عفيفي :
- ظاهرة التخفيف في النحو العربي ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ١٩٩٨ .
• د . أحمد مختار عمر :
- أسماء الله الحسنى ، دراسة في البنية والدلالة ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٧ .
• د . أحمد مطلوب :
- بحوث بلاغية ، دار الفكر ، عمان ، ١٩٨٧ .
•د . أحمد هريدي :
- حذف تاء تتفعّل وتتفاعل في القرآن الكريم ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٩٨ .
•الأخفش الأوسط : أبو الحسن سعيد بن مسعدة (ت ٢١٥ هـ) :
- معاني القرآن ، تحقيق : د. هدى قراعة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٩٠ .
• د . الأزهر الزناد :
- نسيج النص : بحث فيما يكون الملفوظ به نصاً ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ١٩٩٣ .
• الأزهري : أبو منصور محمد بن أحمد (ت ٣٧٠ هـ) :
- تهذيب اللغة ، تحقيق : عبد السلام هارون ، الدار المصرية للتأليف ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
- معاني القراءات ، تحقيق : د. عيد درويش وعوض القوزي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٣ .
• د. أسامة البحيري :
- تحولات البنية في البلاغة العربية ، دار الحضارة للطباعة ، طنطا ، ٢٠٠٠ .
•أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ) :
- البديع في نقد الشعر ، تحقيق : د. أحمد بدوي ، البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
•إسرائيل ولفنسون :
- تاريخ اللغات السامية ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٨٠ .
•الإسكافي : محمد بن عبد الله (ت ٤٢٠ هـ) :
- درة التنزيل وغرة التأويل ، تحقيق : محمد آيدين ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ٢٠٠٢ .
•الأشموني : أحمد بن عبد الكريم (ت ٩٠٥ هـ) :
- منار الهدى في الوقف والابتدا ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٧٣ .
•ابن أبي الإصبع المصري (٦٥٤ هـ) :
- بديع القرآن ، تحقيق : د. حفني شرف ، نهضة مصر ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٦٦ .
- تحرير التحبير ، تحقيق : حفني شرف ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٩٦ .

• الأعشى : ميمون بن قيس (ت ٧ هـ) :
- الديوان ، تحقيق : د. محمد حسين ، مكتبة الآداب ، بيروت ، ١٩٦٨ .
•الألوسي : شهاب الدين (ت ١٢٧٠ هـ) :
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٨٨ .
• د. إلياس ديب :
- أساليب التاكيد في اللغة العربية ، المؤسسة الجامعية للدراسات ، بيروت ،١٩٩٩ .
•امرؤ القيس بن حجر الكندي (ت ٨٠ قبل الهجرة) :
- الديوان ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٨٤ .
•الأنباري : أبو البركات (ت ٥٧٧ هـ) :
- الإنصاف في مسائل الخلاف ، تحقيق : محمد محيي الدين ، دار الفكر ، دمشق ، ط٢، ١٩٨٧.
• ابن الأنباري : أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار (ت ٣٢٨ هـ) :
- إيضاح الوقف والابتداء ، تحقيق : د. محيي الدين رمضان ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٩٧١ .
•الأنصاري : زكريا بن محمد بن أحمد (ت ٩٠٦ هـ) :
- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، تحقيق : بهاء محمد ، دار الكتاب الجامعي ، القاهرة ،١٩٨٧.
•أنور المرتجي :
- سيميائية النص الأدبي ، دار إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، ١٩٨٧ .
•الباقلاني : محمد بن الطيب (ت ٤٠٣ هـ) :
- إعجاز القرآن ، تحقيق : السيد صقر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٥ ، ١٩٩٥ .
•البحراني : كمال الدين بن ميثم (ت ٦٧٩ هـ)
- مقدمة شرح نهج البلاغة ، تحقيق : د. عبد القادر حسين ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٧ .
•البخاري : محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦ هـ) :
- الجامع الصحيح ، دار الريان للتراث ، القاهرة ، ١٩٨٩ .
• د. بسيوني عبد الفتاح فيود :
- علم المعاني ، مؤسسة المختار للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٨ .
• البغوي : الحسن بن مسعود الفراء الشافعي (ت ٥١٦ هـ) :

- معالم التنزيل ، تحقيق : خالد العك ومروان سوار ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٨٦ .
•البيضاوي : ناصر الدين عبد الله بن عمر (ت ٦٨٥ هـ)
- أنوار التنزيل ، تحقيق : د. حمزة النشرتي وآخرين ، دار الأشراف، القاهرة، ١٤١٨.
• د. تامر سلوم :
- نظرية اللغة والجمال ، دار النفائس ، بيروت ، ١٩٨٨ .
•أبو تمام : حبيب بن أوس الطائي (ت ٢٥١ هـ) :
- الديوان بشرح التبريزي ، تحقيق : محمد عبده عزام ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٥ .
• د . تمام حسان :
- البيان في روائع القرآن ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٠ .
• التنوخي : زين الدين محمد بن محمد بن عمرو (ت ٧٩٥ هـ) :
- الأقصى القريب في علم البيان ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٢٧ هـ .
• الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ) :
- البيان والتبيين ، تحقيق : عبد السلام هارون ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٣ .
• الجرجاني : علي بن عبد العزيز (ت ٣٦٦ هـ) :
- الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق : محمد أبو الفضل ، المكتبة العصرية، بيروت ، ١٩٩٥.
• الجرجاني : محمد بن علي (ت ٧٢٩ هـ) :
- الإشارات والتنبيهات ، تحقيق : د. عبد القادر حسين ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ٢٠٠١ .
• جرير بن عطية الخطفي (ت ١١٠ هـ) :
- الديوان ، تحقيق : د. نعمان طه ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٧٨ .
• ابن الجزري : أبو الخير محمد بن محمد (ت ٨٣٣ هـ) :
- النشر في القراءات العشر ، تصحيح : محمد الضباع ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة، ١٩٨٨ .
•ابن جزي : محمد بن أحمد (ت ٧٤١ هـ) :
- التسهيل لعلوم التنزيل ، تحقيق : محمد اليوسفي ، أم القرى للطباعة ، القاهرة ، ١٩٨٨ .
•د. جميل عبد المجيد :
- البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٨ .
•ابن جني : أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢ هـ) :
- الخصائص ، تحقيق : محمد علي النجار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٩.
- سر صناعة الإعراب ، تحقيق : مصطفى السقا ، دار القلم ، دمشق ، ١٩٨٥ .

• د. صفية مطهري :
- الدلالات الإيحائية في الصيغ الإفرادية ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠٣ .
• د. صلاح الدين الخالدي :
- إعجاز القرآن البياني ، دار عمار ، الأردن ، ٢٠٠٠ .
• د. صلاح فضل :
- بلاغة الخطاب وعلم النص ، عالم المعرفة ، الكويت ، ع ١٦٤ ، أغسطس ١٩٩٢ .
• د. طاهر سليمان حمودة :
- ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي ، الدار المصرية للنشر ، الإسكندرية ، ١٩٩٧ .
•ابن طباطبا العلوي : أبو القاسم أحمد بن محمد (ت ٣٤٥ هـ) :
- عيار الشعر ، تحقيق : د. محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨٤ .
•الطبرسي : الفضل بن الحسن (ت ٥٥٢ هـ) :
- مجمع البيان في تفسير القرآن ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٣ .
•الطوسي : أبو جعفر محمد بن محمد (ت ٤٦٠ هـ) :
- التبيان في تفسير القرآن ، تحقيق : أحمد حبيب العاملي ، مكتبة الأمين ، بغداد ، ١٩٨٧ .
•الطوفي : سليمان بن عبد القوي (ت ٧١٦ هـ) :
- الإكسير في علم التفسير ، تحقيق : د. عبد القادر حسين ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ٢٠٠٢ .
•الطيبي : الحسن بن محمد (ت ٧٤٣ هـ) :
- التبيان في المعاني والبديع والبيان ، تحقيق : عبد الستار زموط ، دار الفكر ، دمشق ، ٢٠٠١ .
• د. عائشة عبد الرحمن :
- التفسير البياني للقرآن ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٧ ، ١٩٩٠ .
•العباسي : عبد الرحيم بن أحمد (ت ٩٦٣ هـ) :
- معاهد التنصيص ، تحقيق : محمد محيي الدين ، البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
• د. عبد الحكيم راضي :
- نظرية اللغة في النقد العربي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٩٧ .
• د. عبد الحليم شادي :
- بلاغة المعاني من خلال النظم القرآني ، مطبعة الكرنك ، القاهرة ، ١٩٩٦ .

• ابن عبد ربّه : أبو عمر أحمد بن محمد (ت ٣٢٧ هـ) :
- العقد الفريد ، تحقيق : أحمد أمين وآخرين ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٢ .
• د. عبد العزيز مطر :
- لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٧ .
• عبد العظيم الزرقاني :
- مناهل العرفان في علوم القرآن ، دار الحديث ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٩٥ .
• د . عبد العظيم المطعني :
- التعبير القرآني ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٩٢ .
• عبد الفتاح القاضي :
- القراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٨٢ .
• د. عبد الفتّاح لاشين :
- من أسرار التعبير في القرآن : حروف القرآن ، دار عكاظ للنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٩٨٣ .
• عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ هـ) :
- أسرار البلاغة ، تحقيق : الشيخ محمود شاكر ، دار المدني ، القاهرة ، ١٩٩١ .
- دلائل الإعجاز ، تحقيق : محمود شاكر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٢ .
• عبد الكريم الخطيب :
- إعجاز القرآن في دراسات السابقين ، دار المعرفة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٧ .
- القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ، دار المعرفة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٨ .
• عبد المتعال الصعيدي :
- البلاغة العالية (علم البيان) ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ٢٠٠٠ .
• د. عبد المجيد الزنداني :
- العلم وآيات القرآن ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٩ .
• د. عبد الملك مرتاض :
- نظام الخطاب القرآني ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ٢٠٠٤ .
• د. عبد الواحد الشيخ :
- التنافر الصوتي والظواهر السياقية ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٩٩ .

•أبو عبيدة : معمر بن المثنى (ت ٢٠٨ هـ) :
- مجاز القرآن ، تحقيق : محمد فؤاد سزكين ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٨ .
• د. عز الدين السيد :
- التكرير بين المثير والتأثير ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٧٨ .
•العسكري أبو هلال : الحسن بن عبد الله (٣٩٥ هـ) :
- كتاب الصناعتين ، تحقيق : محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٨ .
•ابن عصفور : أبو الحسن علي بن مؤمن (ت ٦٦٣ هـ) :
- الممتع في التصريف ، تحقيق : فخر الدين قباوة ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٨ .
•ابن عطية : عبد الحق بن غالب (ت ٥٤٢ هـ) :
- المحرر الوجيز ، تحقيق : محمد الشافعي وآخرين ، دار القلم ، دمشق ، ١٩٨٧ .
•ابن عقيل : عبد الله بن عبد الرحمن (ت ٧٦٩ هـ) :
- شرح الألفية ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٩٩٥ .
•العكبري : عبد الله بن الحسين (ت ٦١٦ هـ) :
- إعراب القراءات الشواذ ، تحقيق : محمد السيد عزوز ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٩٦ .
- التبيان في شرح ديوان المتنبي ، تحقيق : مصطفى السقا ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ٢٠٠١ .
•العلوي : يحيى بن حمزة (ت ٧٤٩ هـ) :
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة ، تحقيق : محمد شاهين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٥ .
• د. عليان الحازمي :
- التنغيم في التراث العربي ، مجلة جامعة أم القرى ، مكة المكرّمة ، مج ١٢ ، ١٩٩٥ .
• د. عودة الله القيسي :
- سر الإعجاز البياني في القرآن ، دار البشير ، الأردن ، ١٩٩٦ .
• د. عيسى شحاتة :
- العربية والنص القرآني ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ٢٠٠٠ .
• د. غانم قدوري الحمد :
الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ، دار عمار ، الأردن ، ٢٠٠٣ .
•ابن فارس : أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥ هـ) :
- مقاييس اللغة ، تحقيق : عبد السلام هارون ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ط٤ ، ٢٠٠٣ .

•الفارسي : أبو علي الحسن بن علي (ت ٣٧٧ هـ) :
- الحجة في القراءات السبع ، تحقيق : علي النجدي وآخرين ، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ١٩٩٤ .
• د. فاضل صالح السامرائي :
- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ، دار عمار ، الأردن ، ١٩٩٨ .
- التعبير القرآني ، دار عمار ، الأردن ، ١٩٩٨ .
•ابن الفحام الصقلي : عبد الرحمن بن عتيق (ت ٥١٦ هـ) :
- التجريد لبغية المريد في القراءات السبع ، تحقيق : د. ضاري الدوري ، دار عمار ، الأردن ، ٢٠٠٢ .
•الفراء : أبو زكريا يحيى بن زياد (ت ٢٠٧ هـ) :
- معاني القرآن ، تحقيق : محمد يوسف نجاتي ، دار السرور ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٥ .
• د. فضل حسن عباس :
- البلاغة : فنونها وأفنانها (علم المعاني) ، دار الفرقان ، الأردن ، ١٩٨٩ .
- تأملات في القصص القرآني ، دار الفكر ، دمشق ، ٢٠٠١ .
•الفيروزأبادي : محمد بن يعقوب (ت ٨١٧ هـ) :
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، تحقيق : محمد النجار ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٩٦ .
- القاموس المحيط ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٦٣ .
•القباقبي : محمد بن خليل (ت ٨٤٩ هـ) :
- إيضاح الرموز ومفتاح الكنوز في القراءات الأربعة عشر ، تحقيق : د. أحمد شكري ، دار عمار ، الأردن، ٢٠٠٣ .
•ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت٢٧٦ هـ) :
- تأويل مشكل القرآن ، تحقيق : السيد صقر ، مكتبة التراث ، القاهرة ، ١٩٨٩ .
- الشعر والشعراء ، تحقيق : أحمد شاكر ، دار الحديث ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٩٨ .
- غريب القرآن ، تحقيق : السيد صقر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٨ .
•قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) :
- نقد الشعر ، تحقيق : كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٧٨ .

•القرطبي : محمد بن أحمد (ت ٦٧١ هـ) :
الجامع لأحكام القرآن ، تصحيح : أحمد البردوني ، دار الفرقان ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٩ .
•القزويني : محمد بن عبد الرحمن (ت ٧٣٩ هـ) :
- الإيضاح ، تحقيق : د. عبد الحميد هنداوي ، مؤسسة المختار ، القاهرة ، ١٩٩٨ .
•القسطلاني : أحمد بن محمد (ت ٩٢٣ هـ) :
- لطائف الإشارات لفنون القراءات ، تحقيق : عامر عثمان وعبد الصبور شاهين ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
•ابن قيم الجوزية : محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١ هـ) :
- بدائع الفوائد ، تحقيق : هاني الحاج ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، ٢٠٠٢ .
•ابن كثير : إسماعيل بن كثير (ت ٧٧٤ هـ) :
- تفسير القرآن العظيم ، المكتب الثقافي ، القاهرة ، ٢٠٠٠ .
•الكرماني : محمود بن حمزة بن نصر (ت بعد ٥٠٠ هـ) :
- البرهان في متشابه القرآن ، تحقيق : أحمد خلف الله ، دار الوفاء ، المنصورة ، ط٢ ، ١٩٩٨ .
• د. ليلي الشربيني وسيد البحراوي :
- إنتروبيا الإيقاع في العربية ، مجلة فصول ، القاهرة ، مج ١٥ ، ع ٤ ، شتاء ١٩٩٧ .
• مؤلف مجهول كانه الإمام عبد القاهر الجرجاني :
- شرح رسالة الرماني ، تحقيق : د. زكريا سعيد ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٩٦ .
• د. مازن الوعر :
- نظرية تحليل الخطاب ونحو الجملة ، مجلة الموقف الأدبي ، دمشق ،ع ٣٨٥ ، أيار ٢٠٠٣ .
•ابن مالك : محمد بن عبد الله (ت ٦٧٢ هـ) :
- تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، ابن مالك، تحقيق محمّد بركات ، دار المعرفة ، بيروت، ١٩٩٥ .
- شرح التسهيل ، تحقيق : د. عبد الرحمن السيد ، دار هجر للطباعة ، القاهرة ،١٩٩٠ .
• مالك بن نبي :
- الظاهرة القرآنية ، ترجمة : د. عبد الصبور شاهين ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٣ .
•الماوردي : علي بن حبيب (ت ٤٥٠ هـ) :
- النكت والعيون في تفسير القرآن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٣ .

•المبرّد : أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥ هـ) :
- المقتضب ، تحقيق : محمد عضيمة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٩٤.
•ابن مجاهد : أحمد بن موسى (ت ٣٢٤ هـ) :
- السبعة في القراءات ، تحقيق : د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط٢ ، ١٩٨٨ .
• د . مجدي حسين :
- الوقف في القراءات القرآنية ، دار ابن خلدون ، الإسكندرية ، ٢٠٠٢ .
• د . مجيد عبد المجيد ناجي :
- الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٨ .
• د . محمد الأمين الخضري :
- الإعجاز البياني في صيغ الإفراد والجمع ، مطبعة الحسين ، القاهرة ، ١٩٩٣ .
• د . محمد بكر إسماعيل :
- دراسات في علوم القرآن ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٩٥ .
• د. محمد بناني الصغير :
- النظريات اللسانية والبلاغية عند العرب ، دار الحداثة ، بيروت ، ١٩٨٦ .
• د . محمد بنيس :
- ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب ، دار إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، ٢٠٠٢ .
• د . محمد الحارثي :
- قراءة جديدة لمفهوم السبك ، مجلة جذور ، مج٤ ، ع ٧ ، النادي الأدبي الثقافي ، جدة ، ديسمبر ٢٠٠١ .
• د . محمد الحسناوي :
- الفاصلة في القرآن ، دار عمار ، الأردن ، ط٢ ، ٢٠٠٠ .
• د . محمد حسين الصغير :
- الصوت اللغوي في القرآن ، دار المؤرخ ، بيروت ، ٢٠٠٢ .
- الصورة الفنية في المثل القرآني ، دار المؤرخ ، بيروت ، ١٩٩٦ .
• د. محمد حماسة عبد اللطيف :
- ظاهرة الإعلال والإبدال بين القدماء والمحدثين ، مجلة مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، ج ٤٦، ١٩٨٠ .

• د. محمد خطابي :
- لسانيات النص ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ١٩٩١ .
•محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) :
- تفسير التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٨٤ .
• د. محمد العبد :
- المفارقة القرآنية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٩٤ .
•الشيخ محمد عبده (ت ١٩٠٥ م) :
تفسير جزء عم ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٧ .
• د . محمد عبد المطلب :
- البلاغة العربية قراءة أخرى ، دار لونجمان للطباعة ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٩٠ .
- البلاغة والأسلوبية ، دار لونجمان للطباعة ، القاهرة ، ١٩٩٤ .
• د . محمد العدواني :
- الظاهرة الإيقاعية بين الشعر والموسيقى ، مجلة الموقف الأدبي ، دمشق ، ع ٣٦٠ ، نيسان ٢٠٠١.
• د. محمد رزق الخفاجي :
- علم الفصاحة العربية ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٩٢ .
• د. محمد بو عمامة :
- الصوت والدلالة ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، ع ٨٥ ، يناير ١٩٨٥ .
•محمد فؤاد عبد الباقي :
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٩٩٦ .
•د. محمد مفتاح :
- تحليل الخطاب الشعري : استراتيجية التناص ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٨٦ .
• د. محمد أبو موسى :
- خصائص التراكيب ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ٢٠٠٢ .
• د. محمد النويهي :
- الشعر الجاهلي : منهج في دراسته وتقويمه ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ١٩٦٦ .
• د. محمود سليمان ياقوت :
- علم الجمال اللغوي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٥ .
- فقه اللغة وعلم اللغة ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٥ .

• مديحة السايح :
- المنهج الأسلوبي ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٣ .
•المرتضى : علي بن الحسين (ت ٤٣٦ هـ) :
- غرر الفوائد ودرر القلائد ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٨ .
•المرزباني : محمد بن عمران بن موسى (٣٨٤ هـ) :
- معجم الشعراء ، تحقيق : عبد الستار فراج ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٣ .
•المرعشي : محمد بن أبي بكر (ت ١١٥٠ هـ) :
- جهد المقل ، تحقيق : د . أبو السعود الفخراني ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٩٨ .
•مسلم بن الوليد(ت ٢٠٨ هـ) :
- الديوان ، تحقيق : تحقيق : سامي الدهّان ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٧٦ .
•مصطفى صادق الرافعي :
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مكتبة فياض ، المنصورة ، ٢٠٠٠ .
• د. مصطفى ناصف :
- اللغة والتفسير والتواصل ، عالم المعرفة ، الكويت ، ع١٩٣ ، يناير ١٩٩٥ .
•ابن المعتز: عبد الله (٢٩٦ هـ) :
- البديع ، تحقيق : إغناطيوس كراتشكوفسكي ، دار المسيرة ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨٢ .
•ابن معطي : أبو الحسن يحيى بن عبد المعطي (ت ٦٢٨ هـ) :
- الفصول الخمسون ، تحقيق : د. محمود الطناحي ، مطبعة عيسى البابي ، القاهرة ، ١٩٧٧ .
•مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧ هـ) :
- التبصرة في القراءات ، تحقيق : د.محي الدين رمضان ، معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، ١٩٨٥.
• د. منذر عياشي :
- مقالات في الأسلوبية ، معهد الإنماء العربي ، حلب ، ١٩٩٦ .
•ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ) :
- لسان العرب ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٨ .
• د. منير سلطان :
- بلاغة الكلمة والجملة والجمل ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٩٣ .

• د . مهدي المخزومي :
- في النحو العربي ، قواعد وتطبيق ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٧٩ .
•المهلبي : مهذب الدين مهلب بن حسن (ت ٥٨٣ هـ) :
- نظم الفرائد وحصر الشرائد ، تحقيق : عبد الرحمن العثيمين ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٨٦ .
•ابن الناظم : محمد بن مالك (٦٨٦ هـ) :
- المصباح ، تحقيق : د. حسني عبد الجليل ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٩٨٩.
• د. نبيلة إبراهيم :
- القارئ في النص ، مجلة فصول ، القاهرة ، مج ٥ ، ع ١ ، ديسمبر ١٩٨٤.
•النحاس : أحمد بن محمد (ت ٣٣٨ هـ) :
- إعراب القرآن ، تحقيق : د. زهير غازي زاهد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٤ .
- القطع والائتناف ، تحقيق : أحمد خطاب العمر ، دار الفكر ، دمشق ، ط٢ ، ١٩٨٦ .
• نديم دانيال الوزة :
- مدخل إلى مفهوم الإيقاع الداخلي للشعر ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، ع ١٧ ، تشرين الأول ١٩٨٤ .
•النسفي : أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود (ت ٧١٠ هـ) :
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٨٥ .
• نصر حامد أبو زيد و سيزا قاسم :
- مدخل إلى أنظمة العلامات ، دار إلياس ، القاهرة ، ١٩٨٨ .
• د. نعيم اليافي :
- ثلاث قضايا حول الموسيقى في القرآن ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، ع ١٧ ، تشرين الأول ١٩٨٤.
- قواعد تشكيل النغم في موسيقى القرآن ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، ع ١٥ ، نيسان ١٩٨٤ .
•ابن النقيب : محمد بن سليمان البلخي (ت ٦٩٨ هـ) :
- مقدمة تفسير ابن النقيب ، تحقيق : د. زكريا سعيد ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٩٥ .
•النويري : شهاب الدين محمد بن محمد (ت ٨٩٧ هـ) :
- نهاية الأرب في فنون الأدب ، تصحيح : أحمد الزين ، وزارة الثقافة ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

•ابن الهائم : أحمد بن محمد (ت ٨١٥ هـ) :
- التبيان في تفسير غريب القرآن ، تحقيق : د. فتحي الدانوبي ، دار الصحابة ، طنطا ، ١٩٩٢ .
•ابن هشام : عبد الله بن يوسف بن أحمد (ت٧٦١ هـ) :
- الإعراب عن قواعد الإعراب ، تحقيق : رشيد العبيدي ، دار النفائس ، بيروت ، ٢٠٠١ .
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، تحقيق مازن المبارك ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٨ .
•الوطواط : رشيد الدين محمد العمري (ت ٥٧٣ هـ) :
- حدائق السحر ودقائق الشعر ، ترجمة : إبراهيم أمين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٤٥ .
•ابن وهب : إسحاق بن إبراهيم (ت ٢٧٢ هـ) :
- البرهان في وجوه البيان ، تحقيق :د. حفني شرف ، دار نهضة مصر ، القاهرة ،١٩٧٨ .
•ابن يعيش : موفق الدين يعيش بن علي (ت ٦٤٣ هـ) :
- شرح المفصل ، مكتبة المتنبي ، القاهرة ، د . ت .
- الملوكي في التصريف ، تحقيق : د. فخر الدين قباوة ، دار القلم ، دمشق ، ١٩٨٨ .
• د. يوسف عبد الله الجوارنة :
- التنغيم ودلالته ، مجلة الموقف الأدبي ، دمشق ،ع ٣٦٩ ، كانون الثاني ٢٠٠٢ .

المراجع المترجمة :

• أرثر إيزابرجر :
- النقد الثقافي ، ترجمة : وفاء رمضان ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٣ .
•أوستن وارن ورينيه ويلك :
- نظرية الأدب ، ترجمة : محيي الدين صبحي ، دار القلم ، دمشق ، ١٩٨٨ .
•إيفانز ريتشاردز :
- مبادئ النقد الأدبي ، ترجمة : د. مصطفى بدوي ، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
• برتيل مالبرج :
- الصوتيات ،ترجمة : د . محمد هليل ، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية ، القاهرة ، ١٩٩٤ .
• بيير جيرو :
- السيمياء ، ترجمة : أنطون أبي زيد ، عويدات ، بيروت ، ١٩٨٤.
- علم الدلالة ، ترجمة : د. منذر عياشي ، معهد الإنماء العربي ، حلب ، ١٩٩٤.

• جاك دريدا :
الكتابة والاختلاف ، ترجمة : كاظم جهاد ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، ١٩٨٨ .
• جان سيرفوتي :
- الملفوظية ، ترجمة : د. قاسم المقداد ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٩٨ .
• جان كانتينو :
دروس في علم أصوات العربية ، ترجمة : د. صالح القرمادي ، الجامعة التونسية ، تونس ، ١٩٨٧ .
• جزيل فالانسي :
- النقد النصي ، ترجمة : د. رضوان ظاظا ، عالم المعرفة ، الكويت ، ع ٢٢١ ، ١٩٩٧ .
•جورج مونان :
- مفاتيح الألسنية ، ترجمة : الطيب البكوش ، الدار العربية للكتاب ،تونس ،١٩٨١ .
•جوليا كريستيفا :
- علم النص ، ترجمة : فريد الزاهي ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، ط٢ ، ١٩٩٧ .
• جون كوهين :
- بناء لغة الشعر ، ترجمة : د.أحمد درويش ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٩٣ .
• جون لاينز :
- علم الدلالة ، ترجمة : مجيد الماشطة وآخرين ، دار القلم ، دمشق ، ١٩٨٨ .
- اللغة والمعنى والسياق ، ترجمة : د. عباس صادق ، دار الشئون الثقافية ، بغداد ، ١٩٨٧ .
• جيرار جينيت :
- مدخل إلى النص الجامع ، ترجمة : عبد العزيز شبيل ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٢ .
• دو بيازي :
- نظرية التناصية ، ترجمة : الرجوني عبد الرحيم ، علامات، النادي الأدبي الثقافي ، جدة ، مج ٤ع ٢١ ، ١٩٩٩.
• ديفيد أبرو كرومبي :
-مبادئ علم الأصوات العام ، ترجمة : د . محمد فتيح ، مطبعة المدينة ، القاهرة ، ١٩٨٨ .
• رامان سلدن :
- النظرية الأدبية المعاصرة ، ترجمة : د. جابر عصفور ، دار قباء ، القاهرة ، ١٩٩٨ .
• روبرت دي بوجراند :
- النص والخطاب والإجراء ترجمة : د . تمام حسان ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٨ .
•روبرت شولز :
- البنيوية في الأدب ، ترجمة : سعيد الغانمي ، المؤسسة الجامعية للدراسات ، بيروت ، ١٩٩٤ .

•رومان ياكبسون :
- قضايا الشعرية ، ترجمة : محمد الولي ومبارك حنون ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، ١٩٨٨.
•رولان بارت :
- لذة النص ، ترجمة : فؤاد صفا ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، ١٩٨٨ .
•روبرت سي هول :
- نظرية الاستقبال ، ترجمة : د . رعد عبد الجليل ، دار الحوار ، دمشق ، ١٩٩٢.
• ستيفن أولمان :
- دور الكلمة في اللغة ، ترجمة : د. كمال بشر ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ١٩٨٨ .
• غوتهلف برجشتراسر :
- التطور النحوي ، ترجمة : د. رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٤ ، ٢٠٠٣ .
•فان دايك :
- علم النص ، ترجمة : د. سعيد بحيري ، عالم الكتب ، القاهرة ، ٢٠٠١ .
•فرديناند دي سوسير :
- دروس في الألسنية العامة ، ترجمة : صالح القرمادي ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ١٩٨٢.
•فندريس. ج :
- اللغة ، ترجمة : عبد الحميد الدواخلي و محمد القصاص ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٦٧ .
•كارل بروكلمان :
- فقه اللغات السامية ، ترجمة : د. رمضان عبد التواب ، دار الرفاعي ، الرياض ، ١٩٧٧.
•مارك إنجينو :
- مفهوم التناص في الخطاب النقدي ، ترجمة : أحمد المديني ، معهد الإنماء العربي ، حلب ، ١٩٩٣ .
•ماريو باي :
- أسس علم اللغة ، ترجمة : د . أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط٥ ، ١٩٩٨ .
•ميشال ريفاتير :
- معايير تحليل الأسلوب ، ترجمة : حميد لحمداني ، دار إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، ١٩٩٣.
•نعوم تشومسكي :
- اللغة ومشكلات المعرفة ، ترجمة : د. حمزة المزيني ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، ١٩٩٠ .

المراجع الأجنبية :

* Barths Roland : Le Plaisir du Texte , editions du seuil , Paris , ١٩٧٢.
* Culler . Jonathan : On Deconstruction . Ithaca , Cornell University press , ١٩٨٢.
* Henry Roger : The·Sound of Language ,An Introduction to Phonetics,New Yourk, ٢٠٠٠.
* J.C.Coquet : Essis de Semiotique Poetique in Peotique et Linguistique , Larousse , Prais , ١٩٧٢.
* Jean Marie Goulemot : De La Lecture Comme Production des Sens , Inpratique de la Lecture sous la Direction de Roger Chartier , editions Rivages , paris , ١٩٩٨ .
* Joseph Courtes : Semiotique Narreative et Discursitive , Hachette Universite , paris , ١٩٩٧.
* Michel Wortton & Judith Still : Intertextuality Theories and Practices , Manchester press , ١٩٩٠.
* Tannen Dyepora : Analyzing Discourse : Text and Talk , Gorge town University press , Washington , ١٩٨٢.
* Tomokins Jane : Reader – Response Criticsm . Baltimore : The Johns Hopkins University , ١٩٨٠ .

فهرس الموضوعات :

هذه السلسلة :

تحاول أن تستنطق الجمال البلاغي والنصي في القرآن الكريم ، تحاور منظوماته ، وتحاول النظر مرة بعد أخرى في هذا النص الكريم رغبة في تثوير بنياته الجمالية المتراكبة ، آملة في أن تظفر بشذرات الجمال عند القيام بفعل المقاربة . وهي في هذا الفعل تحتاط لنفسها بقول الله تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) سورة محمد : آية رقم (٢٤) ، وبقول الحبيب صلى الله عليه وسلم : من اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر .

وهذا الكتاب :

يحاور البنى الصوتية من خلال أساليب توظيفها في النص القرآني ، محاولاً الوقوف على العتبات الجمالية لهذه التلوينات الصوتية وأثرها الجمالي في الدلالة القرآنية . وهذه الوقفات تتخذ لنفسها منهجاً نصياً يقوم على إبراز الأثر الجمالي ككل تلوين مفرد مثل التلوين بالتكرار والتلوين بالتقديم والتأخير والتلوين بالحذف ، والتلوين بالفن البديعي على مستوى الكلمة والجملة القرآنية .

